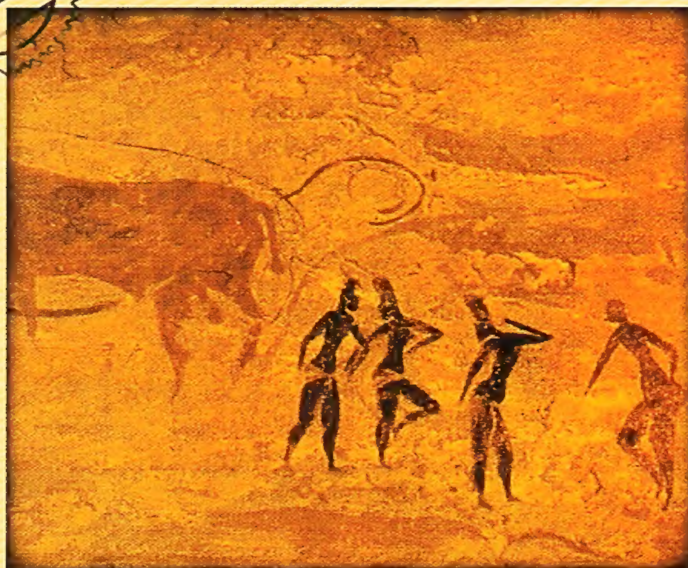
IBRAHIM AL-KONI

رواية
NOVEL

إبراهيم الكوني

نداء ما كان بعيداً





الرواية الحائزة على جائزة الشيخ زايد للأدب ، عام 2008



نداء ما كان بعيداً

نداء ما كان بعيدًا / رواية عربيّة
إبراهيم الكوني / مؤلّف من ليبيا
الطبعة الثانية ، 2009



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
سعيد سيف ®

لوحة الغلاف : **لفنّاني ما قبل التاريخ / ليبيا**
الصفّ الضوئيّ : **رشاد برس**
التنفيذ الطباعيّ : **رشاد برس / بيروت ، لبنان**

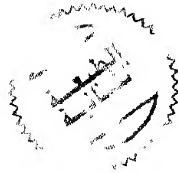
(ردمك) ISBN 978-9953-36-276-9



إبراهيم الكوني

نداء ما كان بعيداً

الرواية الحائزة على جائزة الشيخ زايد للأدب، عام ٢٠٠٨





اعتمدت هذه الرواية الحقائق التاريخية التي أوردها شارل فيرو

في «الحوليات اللّيبيّة» في (ترجمة الوافي)

إلى مريد التاريخ، وملبّي نداء الواجب:

صديقي محمد طاهر الجراري.

«بعيدٌ ما كان بعيداً، والعميق العميق من يجده».

(سفر الجامعة)

الجزء الأوّل

القسم الأوّل

1

وجد نفسه يدسّ يده في جيبه ويخرج من ثناياه جِرْماً لزجاً، رجراجاً، مثيراً للاشمئزاز، فإذا به حيّةً تتلوّى! نفضها بعيداً في اللحظة التي قفز فيها عالياً وطفق يجري عبر الخلاء. ركض بقدمين حافيتين في أرض مفروشة بحزيز الحجارة مستشعراً طوال الطريق إحساساً غامضاً بمطاردة هذه الحيّة الكريهة كأنها القدر. همّ بأن يلتفت ليستطلع فاكتشف أنها تسعى تحت قدميه العاريتين برأس شرس متوّج بفكّين منفرجين يتوسطهما ناب شره. فزّ ليتخطّاها فوجد أن حجارة الحزيز لم تكن حجارةً، ولكنها كلّها حيّات تكشكش بأذنابها القبيحة وتفتح أفواهها النهمة لتصمّ أذنيه بالفحيح.

استولى عليه اليأس فخارت قواه في الحال. تعثّر فوقع في الحقل المفروش بالأفاعي. أحسّ بإعياء شديد. لم يكن إعياء ولكنه عجز. أدركته الأفاعي. أحاطت به من كل صوب. ولا يدري لماذا خامرته الشكوك بشأن الأفاعي. خامرته الشكوك بشأن حقيقة الأفاعي. بشأن سلالة الأفاعي، لأن الخبيثة الأولى التي أخرجها من جيبه هي التي فرّكت يديها فوق رأسه وقالت بصوت سمعه بوضوح: «ما يهمّني هو عقبك! لقد خُلقتَ لكي تسحق رأسي بعقبك، وخُلقتُ لكي ألدغ عقبك!». لا يعرف كيف استعارت الجنيّة لسان الإنس، ولكن الحدس قال له إن الحيّات لم تكن يوماً حيّات، ولكنها أجرام تتنكّر

في جلودها شتّى المخلوقات! كشّرت بعدها عن أنيابها لتنال عقبه فلم يجد حيلة يدافع بها عن قدمه إلاّ طلب النجدة.

أطلق صرخة! صرخة طويلة، يائسة، حمّلها كل عجزه. صرخة ضحيّة وقعت بعد مطاردة عنيفة بين يدي جلاّد.

ولكن الصرخة الموجعة أنقذته. لأنه تحرّر من الكابوس ليهبّ على قدميه واقفاً!

2

لم يصدّق الفوز بالنجاة.

لم يصدّق إلى حدّ أنه أبى إلاّ أن يمكث في الأرض. تسكّع هنا وهناك وهو يفرّك عينيه، يتفحّص الحضيض بإمعانٍ شديد كأنه لا يصدّق خلوّ الترباء من جيوش الحيّات. سار خطوات شرقاً، ثم عاد على عقبيه ومشى خطوات أخرى غرباً. ساعتها شاهد قرص الشمس الممهور بالدّم وهو يلثم حافة الأفق ويدفع إلى العراء بمسوح من غيهب مساء مبكّر، فأدرك خطيئته. أدرك أن السرّ إنما تخفّى في الوقت الذي اختاره لغفوته؛ لأن الأمّ لم تكف عن ترديد السيرة التي تقول إن الغسق أرذل الأوقات، ولا يخلد فيه للنوم إلاّ مستهتر أو غافل أو أبله؛ لأن السويعة التي تسبق الغروب هي الأوان الذي تنطلق فيه مردة الجنّ من معاقلها، وتسرح فيه أرواح الأشرار لتبحث عن أناسٍ تلحق بهم الأذى، وتُفتح فيها بوابات الظلمات ليخرج منها صاحبُ الظلمات لينشر في الأرض لعناته السخية التي لا تصيب مخلوقاً إلاّ وناله هلاك.

هذا هو الوقت الذي اختاره لرقدة السّوء. والحقّ أنّه لم يختر هو الوقت، ولكن الوقت هو الذي اختاره. اختاره الوقت لأن عراقيل لم تخطر له على بال اعترضته في رحلته، فهدّه الإعياء قبل أن يدرك من السبيل نهايته، فاستوقف الدّابّة في ظل شجرة البرّ وقرّر أن يلتقط أنفاساً. توسّد يده وقرّر أن يغمض عينيه المثقلتين بالتعب والغبار والنعاس. توسّد يده بدل أن يحرّر الجواد من أعبائه ويتوسّد السرج كما اعتاد أن يفعل في أسفاره دوماً بدل أن يتوسّد اليدين. تقاعس لأن إعياء هذه المرّة أقعده عن تجريد الجواد من المتاع حيث تندس مجموعة من التمائم الطاردة لمختلف ملل الأرواح، فاستحقّ القصاص!

3

مضى يدبّ في الخلوة ذهاباً وإيّاباً كأنّ العقب هو الذي يرفض أن يستقرّ به المقام خوفاً من شبح الناب، فاستجاب له البدن. هرع لنجدته البدن بالمسعى في الأرض لأن البدن بالهجعة ما هو إلاّ عجز، بل جثّة تصلح طعاماً لجوارح الطير وقوتاً لناب الحيّة. مسح عرقاً غمر جبينه ورقبته أثناء العراك مع سليلة التراب وتطلّع إلى الفراغ الفسيح ليهوّن من الإحساس بالكآبة.

في الفراغ تبيّن أشباحاً مجهولة، مضت تصارع غياهب الغروب، وتنهض من وراء المرتفع لتستوي رويداً رويداً في أجرام أنامٍ وربما أنعامٍ تتنازع وتتناطح بأبدانها بفعل سرابٍ يرفض أن يستسلم حتى بعد حلول المساء.

عائد في قلبه المسّ، ولكنه لم يفلح في ترويض الجسد على السكون إلاّ بجهد بطولي.

توقّف عن هرجته أخيراً، ولكن أنفاسه ظلّت تتلاحق كأنه قطع الصحراء جرياً. عاد يرقب الأفق فتبدّى الجحفل الملفّق من أجرام الأنام وأجسام الأنعام قافلة حقيقية ظلّت تتحرّر من فلول السراب كلّما اقتربت بها المسافة.

يمّم شطر الغرب فرأى كيف اكتملت آخر فصول المغيب. تصاعد من الأفق البعيد سحاب بلون النار، في حين امتدّ السهل الشاسع إلى كل الأنحاء تتناثر في أحضانه شجيرات بريّة شاحبة في هجعته نحو الغرب. أمّا في جهة الشمال فتتراءى ظلال الحقول الممتدة على طول الساحل، في حين ارتفعت جبال نفوسة في البعد المستلقي جنوباً بلونها الترابي وقاماتها المكابرة الملفوفة بالغموض والموحية بالسير الأسطورية عن مكانٍ خالدٍ صار منذ الأزل ملتقى تلتحم فيه شطآن البحور الشمالية الغنية بالمياه بصحراءٍ تعلو هامة الجبال وتسرح جنوباً في مسافات مستوية، عارية، ظامئة، لا نهائية.

والسهل الذي يطلق عليه الأسلاف «وادي الموت»، ويسمّيه الأخلاف «سهل الجفارة» هو الوسيط الذي يربط بين هذين العالمين اللذين لا يدخل المهاجرون أو العابرون أو أصحاب القوافل التجارية أحدهما إلاّ ليغترب عن ثانيهما، ولا يغترب عن ثانيهما إلاّ ليولد في أوّلهما. لأن أوّلهما إذا كان لبعض أهل الأسفار بمثابة فردوس، فإن ثانيهما للبعض الآخر نار موقدة. وإذا كان ثانيهما لملل بعض المهاجرين بعثاً، فإن أوّلهما للبعض الآخر هلاك. لأن ما يراه

الصحراويون جحيماً، يراه أهل الشطآن الشمالية نعيماً. وما يبدو لسكّان المدن المعتصمة بتلابيب البحور الشمالية جحيماً، يراه أهل الصحراء نعيماً.

هذا ما كان منذ الأزل، وما زال كائناً إلى اليوم، وربما سيكون إلى الأبد ما ظلّ في دنيا الخليقة عُبّاد استقرار، وما دبّ في أرض الأنام عشّاق ترحال.

هذا ما كان منذ الأزل يوم خُلق في الدنيا الغمر الذي يحيي في المخلوق البدن، ولكنه يميت بالسكون في الإنسان الروح. وخُلق في الدنيا الخلاء الذي يميت في المخلوق بغياب الغمر البدن، ولكنه يحيي بالترحال في الإنسان الروح.

4

كلّما جرّته الأقدار جنوباً، ووجد نفسه في أحضان الصحراء، استولت عليه الدهشة، واستيقظ فيه حنين مجهول. لم يكن إحساسه الخفيّ حنيناً، ولكنه وسواس أقوى من الحنين. إنه نداء!

نداء عميق، يستعسر على التفسير، برغم أنه حميم مثله مثل لحن لذيذ لم يسبق له أن سمعه بأذن، برغم أن القلب أدركه منذ زمن بعيد، بعيد، لم يعشه في ميلاده هذا، ولا في الميلاد الذي سبقه، ولهذا السبب يستجيب له بوجيبٍ غامض كابتهال. وجيب غامض كالصلاة.

كان يهرع إلى الأمّ في كل مرّة يتطلّع فيها إلى حملات الصحراء على السواحل، ويرى بعينيه نيّتها التي لا تَخفى في التهام الأرض،

والزحف على الدنيا، فيستولي عليه الفزع حيناً، ويولول في قلبه الشجن الخفيّ حيناً آخر. يهرع إلى الأمّ كأنه يستنجد بها من خطر. كأنه يحتمي بها من عدوّ. عدوّ من ذلك الجنس الذي نخشاه عادةً برغم يقيننا بأنه يحمل لنا خلاصاً. إنه الصديق الذي يتنكّر في ثياب العدو مثله مثل الفقيه الذي أقبل على شقيقته بالشفاء عندما سكنها الجنّ، فانتفخ بطنها، واحترق بدنها بالحمّى، فاستجارت الأم بحكيم القوم الذي أوتي علماً بحيل أشرار الخفاء، فأقبل يوماً مسلّحاً بالتعاويذ ليقرأها على رأس الشقية. فما كان منها إلاّ أن استصرخت الدنيا في ذلك اليوم، ولكن روح الشرّ التي سكنتها هي التي استصرخت الدنيا كما قالت الأم. استصرخت الدنيا بصوت منكر لم يكن صوتها؛ لأنه صوت المخلوق الذي سكنها ولم يكن صوتها. وظلّ الصوت يزداد وحشيّة كلما اقترب الحكيم العجوز بخطواته الوئيدة حاملاً في لسانه تعاويذه السحرية، فسمع أمّه تردّد في أذن الأخت: «الويل لك ذكراً كنتَ أم أنثى! لقد حان أوان قصاصك ذكراً كنتَ أم أنثى! فقد أقبل العدوّ بوصيّة الصديق! وأقبل الصديق بوصيّة العدوّ!».

لم يفهم يومها اللغز. ولكنه لم ينسَ التميمة أيضاً. انتظر حتى تماثلت الأخت للشفاء فانتهز الفرصة ليسائل الأم عن السرّ. قالت الأم إن الحكيم يومها كان الصديق الذي أقبل حاملاً الخلاص لروح الأخت برغم أن الأخت المسكونة رأته عدوّاً. رأت فيه العدوّ لأن الجنّ الذي سكنها هو الذي تكلّم نيابةً عنها، واستصرخ الدنيا طلباً للنجدة من خطر يتهدّده هو ولا يراه أحد سواه. ثم انتهت إلى القول

بأننا كلّنا أمّة مسكونة لأننا لا نفرّق العدوّ من الصديق. لأننا كثيراً ما نستحسن العدوّ الذي يتنكّر في جلد الصديق، ونستنكر الصديق الذي يتهيّأ لنا في بدن العدوّ.

الصحراء أيضاً صديق يقبل على الناس في ثياب العدوّ. في الصحراء أيضاً خلاص لا يدريه إلاّ ذوو الألباب. الصحراء أيضاً وصية لأنها رسول الصحراء. وصية الوصايا لأنها الرسول الأنبل من كل الرسل، لأنّها.. لأنها تحمل في عبّها عنقاء اسمها: الحرية!

هكذا خاطبه النداء.

هكذا فسّر الطلسم.

أحسن الظنّ بالخلاء دوماً برغم أن أحداً من أهل السواحل لم يشاركه يوماً ظنّاً من ظنونه هذه. لم يشاركوه ظنونه لأنهم لم يروا فيها الصديق الذي يتنكّر في ثياب العدو، ولكنهم رأوا فيها العدوّ الذي يتنكّر في ثياب الصديق. لأنهم لم يروا في الصحراء روحها الحاملة لوصية الحرية، ولكنهم رأوا فيها صرامة الجسد الحامل للسياط النارية. رأوها بعيون أهل الاستقرار التي تعشش فيها جراثيم العبودية، ولم يروها بعيون أصحاب الترحال الذين تحيا في قلوبهم شموس الحرية.

ولكنه لم يقنع بنبوّة القلب فذهب في طلب وصيّة الدّم. احتكم إلى صدر الأمّ مرّة فحدّثته بسيرة الدّم. قالت له إن جدتها امرأة تجري في عروقها دماء الحرية، دماء الصحراء. كانت سليلة أحد أكابر أهل الصحراء، خرجت إلى برّ الحجاز لإداء فريضة الحجّ في قافلة مهيبة. ولكن قطّاع الطرق استغفلوهم في الطريق فنحروا

العسس ونهبوا القافلة وأخذوها أسيرةً. ذهبوا بها إلى الشمال وباعوها لأحد أصحاب التجارة الأثرياء الذي تزوّجها لأنه أحبّها كثيراً إلى حدّ أنه خصّها في وصيته بثروته كلّها بعد وفاته. أنجبت من رجلها ذريّة هلكت كلّها بوباء الطاعون، ولم يبق على قيد الحياة سوى ابن وحيد ورث عن أبيه حرفة التجارة وتزوّج حسناء من بنات تاجوراء انحدرت منها السلالة كلّها. لم تنحدر منها سلالة الدّم وحدها، ولكنه استعار منها سلالة الروح. سلالة الدم الحاملة لبذرة الحرية. هذه الحرية التي رآها في شبح الصحراء، وكان عليه أن يحيا طويلاً، ويعاند أهوال الدنيا كثيراً، كي يكتشف أنها حقّاً وِزْر. أنها حقّاً شبح مخيف! شبح مخيف لا يختلف عن شبح البحر الذي أحبّه أيضاً حبّاً جمّاً (ربما أحبّ فيه سيماء الصحراء، سيماء الحرية التي عشقها فيه كما عشقها في الصحراء، وخشيها فيه كما خشيها في الصحراء).

ولكن البحر لم يكن في قلبه طلسماً كما كانت الصحراء. كان مدى مجهولاً كالصحراء حقّاً، ولكن صورته التي رافقته منذ الطفولة ساعدت على إرواء ظمئه إلى مجهوله برغم أنها لم تشبع فضوله حتى النهاية. وكان عليه أن يحيا من عمره أيّاماً أُخر حتّى يعلم علم اليقين أن البحر مثله مثل الصحراء، بل مثله مثل الربوبية التي كُتب علينا ألاّ نرتوي من سلسبيلها أبداً، لأننا لا ندرك حقيقتها أبداً. لا ندرك حقيقتها لأنها من جنس السعادة التي لا نستطيع أن نجرؤ على القول بأننا فزْنا بها ما لم نرتحل عن دنيانا لنلتحق بركابها.

5

في ذلك المساء، عندما أدركته القافلة، استطاع أن يميّز ملامح صاحب القافلة الحاج المكني كبير التجّار، الذي هرع إليه واستبشر بلقائه قائلاً إنه فأل حسن لأن الأنباء التي بلغته عن حال الإيّالة لا تبعث على التفاؤل. أمر الأعوان أن يزيحوا الأحمال عن الجمال ويعدّوا العدّة لقضاء الليلة في رحاب السهل. تعالى رغاء الدواب وانشغل خدم بتجريد الدواب من أحمالها، في حين انهمك البعض الآخر في جلب الحطب وإشعال النار استعداداً لتحضير طعام العشاء.

حول أرة النار أمطره بوابل الأسئلة حول الأحداث الأخيرة، ولكنه قبل أن يسمع جواباً فزّ جانباً وعاد يجرجر رجلاً طويل القامة، نبيل الطلعة، ملفوفاً بلثام أزرق، على منكبيه ثوب أزرق أيضاً، قدّمه له قائلاً إنه رفيق سفر وصاحب كرامات. وعندما استفهم عن حقيقة الكرامات أوضح أن اسمه «آهر»، وهو ما يعني بلغة أهل الصحراء «الصيد»، وهو وليّ من سلالة المرابطين. حدّق فيه الوليّ المزعوم بحدقتي صقر، ولكنه لم يمدّ له يداً، ولم ينبس لتحيّته بحرف. انتصب قبالته كالشبح محدّقاً فيه بعينين جريئتين، ولكنهما عميقتان أيضاً ظلّتا تومضان في ضوء النار بألقٍ غامض، دون أن يحرّك ساكناً، فسأل صاحب القافلة عمّا إذا كان وليّه هذا من أهل اللثام، فأجاب صاحب القافلة وهو يطرح فراشاً حول أرة النار ويدعوهما إلى الجلوس:

ـ هو من أهل اللثام حقّاً، ولكن اللثام، يا صديقي البك، لم يحجب عنه الغيب.

حدّق فيه بفضول قبل أن يقول:

ـ هل هو عرّاف؟

ـ في الصحراء لا يفرّق الناس بين الوليّ والعرّاف!

وفي اللحظة التي اندفع فيها الحاج المكنّي يروي سيرة رحلته إلى بلاد الأدغال، سرح في تفاصيل الحلم المريب فاستولت عليه القشعريرة مرّة أخرى.

كلا، كلاّ. لم تكن مجرّد قشعريرة، ولكنها اشمئزاز، بل غثيان. غاب بعيداً جدّاً، ولم يعد إلى السهل إلا بعد أن تدخّل المكّني بالقوّة. هزّه من معصمه وحدّق في وجهه معيداً سؤاله اللجوج عن حقيقة الأحداث التي تعصف بالإيّالة، فاضطرّ أن يجيبه على مضض:

ـ أبو مويس خنق ابن الجنّ غيلةً. ولكن الأكابر يرفضون الاعتراف بسلطانه برغم فوزه بتأييد أولئك الذين لا يعجبهم العجب. الخلاصة: الإيالة تغلي!

علّق كبير التجّار بحديث طويل، ولكنه لم يسمعه لأنه لم ينصت. عاد إلى أحلام يقظته وغرق في تفاصيل رؤيا منامه. ثم.. ثم تساءل فجأة:

ـ هل يقرأ الوليّ أحلاماً؟

ساد صمت. لم يجب عن السؤال أحد، فأضاف:

ـ خرجت من المنشية بعيد الظهر في طريقي إلى الجبل. ولكن الإعياء غلبني لأني لم أنم منذ ليلتين أو أكثر بسبب النكبة التي أنزلها

على رؤوسنا المتعطّشون إلى الحكم. غفوت تحت هذه الشجرة فداهمتني رؤيا لم يسبق لي أن رأيت لها مثيلاً.

سكت فاستفهم المكّني:

ـ ماذا رأيت؟

ـ رأيت. . رأيت أفعى! رأيت لأول مرّة في حياتي حيّات تسعى. في البداية مددتُ يدي في جيبي فإذا بها تخرج من الجيب أفعى. حاولت أن أتحرّر من شرّها فقفزت. قفزتُ ولكنني اكتشفت أن الأرض التي أمشي عليها كلها تكشّ بأبشع الأفاعي!

ساد صمت لم يزعزعه سوى صوت النار وهي تلتهم أعواد الحطب، وجلبة الخدم وهم ينهمكون في إعداد طعام العشاء.

تكلّم صاحب التجارة:

ـ حلم لا تُحسد عليه!

ولكن صاحب الولاية لم ينبس. ظل ساكناً، ملفوفاً بالزرقة والعتمة والغموض فتهيّأ له أنه لن يتكلم أبداً. ولكن ذلك الشبح المكوّم إلى جوارهما كأنه صنم صحراوي قديم تساءل فجأة:

ـ لا تُخرج أيدينا من جيوبنا إلا ما تدخله أيادينا إلى جيوبنا!

ساد الصمت مرّة أخرى. تأمّل القول فتخيّله نبوءة من نبوءات كهنة الأدغال وعبدة الأوثان. وكان بإمكان العبارة أن تبقى قولاً مجرّداً من المعنى. لغواً في لغو. ولكن سرّها تستّر في نغمتها. سحرها تخفّى في لحنها. فقد قالها الصوت بعمق مَنْ يغنّي شعراً لا تعبيراً. صوت الشبح لم يكن صوتاً، ولكنه وصيّة. وحتّى في

اللحظة التالية التي تساءل فيها صاحب التجارة مستفسراً عن معنى العبارة، لم يفلح الاستفهام عن محو نبرة الصوت من القلب. ولهذا السبب تحوّل بدنه كلّه إلى كتلة مزمومة عندما أضاف ذلك الشبح للعبارة عبارته التالية:

ـ جسم الإنسان خابية لا تعطينا إلا ما نهبها، ولا نُخرج منها إلا ما نستودعها!

سكت لحظة ثم أضاف كالمستدرك:

ـ ما يُقال عن جرم الإنسان يُقال عن قلب الإنسان أيضاً بالطبع!

بعدها ساد صمت أطول. ساد صمت أطول كأنّ صاحب الكهانة فرغ من أمر الرؤيا إلى الأبد برغم أن التأويل لم يزد صاحب الرؤيا إلاّ فضولاً. لم يزده إلاّ رغبةً في الفوز بالمزيد. استمرّ السكون إلى أن خرقه صاحب التجارة بقوله:

ـ هذا تفسير للأحجية بأحجية أخرى!

تبادل مع صاحب الشأن نظرة. ولكن صاحب الرؤيا سرح بعيداً. ابتسم فظنّ المكّني أن صاحب الفرسان إنما يبتسم له. ساعتها تخلّى العرّاف عن استكباره وتنازل عن لغة الإشارة ليتحدّث بلسان العبارة:

ـ لا يلدغنا إلاّ مال كنزناه، أو نيّة سوء أخفيناها، أو وصيّة استهنّا بها!

ثم سكت. لم يضف بعدها حرفاً واحداً. ويبدو أنه لم يعد في حاجة لأن يضيف أي حرف. لأن اللغز تجلّى في قلب صاحب الرؤيا إلى حدّ استشعر فيه الرغبة لمعانقة صنم الصحراء ذاك وتقبيل رأسه الملفوف بقطعة القماش الأزرق.

وبدل أن يبادر للقيام بهذا الفعل النبيل عرفاناً بالإحسان صبّ على نفسه لعنة. لعنة حقيقية. لعنة قبيحة. نطق بها في سرّه أوّلاً. ثم وجد نفسه يردّدها جهاراً وسط ذهول المخلوقين المتحلقين معه حول موقد النار. بعدها لم يأبه لوجودهما. بل نسي وجودهما. غاب في دنياه التي أقبل منها. غاب في دنيا الحراب والكراهة والدسائس. غاب في دنيا النفاق، والبسمات المفتعلة، والصداقات الكاذبة، والطعنات في الظهر بالخناجر المسمومة.

وها هو يغفل ليتلقّى الطعنة في الظهر بالخنجر المسموم. فكيف استغفله الخسيس بهذا اليسر وهو الذي ضرب الغرباء قبل الأقرباء بذكائه المثل؟ كيف انطلت عليه المكيدة وهو أعلم الناس بأن أبا ميس لا يمكن أن يكون إلاّ عدوّه الألدّ في عداوته من كل عدوّ لأسباب لن يجهلها إلاّ أبله بليد؟ كيف وثق في رجل اغتال بالأمس حميّه الذي زوّجه كريمته وارتضى بأن يكون رسوله إلى زعيم قبائل الجبل؟ كيف صدّق بأن أبا مويس يمكن أن يحسن به الظنّ يوماً وهو الرجل الذي ذاع صيته في الأركان، ونال محبّة الغرباء قبل الأقرباء، وفرضه القرناء على الدايات ليكون على رأس فرسان الإيّالة كلّها؟ أم أن الرجل الذكي هو الذي يرتكب الخطيئة المميتة دائماً لأنه كالحكيم الذي يستطيع أن ينفع بوصاياه الأغيار، ولكنه لا يفلح عندما يقرّر أن ينفع بالوصايا نفسه؟ أم أن السرّ إنما يكمن في طبيعة الذكاء الذي لم يكن يوماً سوى تلك الفطرة التي لا تختلف عن سجيّة الطفل الذي تدفعه براءته أن يؤذي نفسه إذا لم يجد ما يفعله بنفسه؟ بلى. هو طفل. بلى، بلى. هو طفل! ولكنّه الطفل الذي عليه أن يدبّر الانتقام إذا شاء أن يبرهن لنفسه على أنه جدير بلقب طفل!

دسّ يده في جيبه وأخرج مظروفاً مختوماً بالصمغ الأحمر. أخرج من المظروف الرسالة. أخرج الوصيّة. استخرج الثعبان الذي دسّه أبو مويس في جيبه ليلدغه عندما يحين الأوان. يلدغه عندما لن يتوقّع اللدغة. عندما سيبلغ الرسالة لزعيم الجبل ليتلقّى منه الطعنة كما يليق بكل رسول بليد. كما يليق بكل رسول كُتب عليه أن ينال القصاص جزاء حسن نواياه. لأن الرسالة لم تكن يوماً وصيّة. الرسالة لم تكن يوماً رسالة. الرسالة لم تكن في كفّ الرسول سوى حيّة. الرسالة في جيب الرسول دوماً وأبداً قصاص. فهل له أن يستهجن ما سيقرأه الآن في متن الرسالة؟

6

«من محمود أبو مويس داي طرابلس المحروسة إلى شيخ المحاميد، جبل غريان، أنعم المولى عليه بالعافية، وبعد. فإذا أقبل عليكم رسولنا هذا فعليكم أن تقتلوه شرّ قتلة. واعلموا أن الأجر سوف ينالكم منّا على فعلتكم هذه! والسلام. حُرّر في ديوان الإيالة، في اليوم الثاني من جمادي الثانية 1123 للهجرة».

ابن الزانية! يريد أن يقتله هو شرّ قتلة، ثم يعده بالجزاء! كيف له ألاّ يتوقّع هذا من ابن الزانية! كان عليه أن ينتظر هذا من سليل كيد اغتال ابن الجنّ غدراً. كان عليه أن يقرأ فيه النوايا قبل أن يقرأ وصيّته المزبورة في قرطاس الرسالة. كان عليه أن يحدس ما ليس في حاجة إلى حدس. لأنّه.. لأنه لو كان هو محمود أبو مويس، وليس أحمد بك القرمانلي، لشاء أن يفعل بأبي مويس، ما أراد أبو مويس أن يفعله به. لأنه حتى لو لم يكن خصماً لهذا الوغد بوصفه

قائداً لسلاح الفرسان، فإن زواجه من كريمة المغدور ابن الجنّ أمر كفيل بأن يلبسه جبّة الغريم الذي يبيّت النية في الانتقام ويتأهب للوثوب على عرش السلطة في أوّل فرصة.

في تلك الليلة لم ينم. استعار من صاحب التجارة دواةً وقرطاساً قبل أن يهجع. ثم نهض ما إن عمّ المكان سكون الهزيع الأخير من الليل واطمأن إلى خلود أهل القافلة إلى النوم. كانت ألسنة النار ما زالت تتلامح في الموقد. تناول قبضة حطب وألقى بها في الأتون. بدأت العيدان تقعقع. بعد قليل ارتفع اللّهب فغمر الضياء المكان. اقترب من الحفرة. تناول الدواة والقرطاس. كتب بالمداد رسالة أخرى. رسالته هو لا رسالة أبي مويس اللئيم. حرّر الرسالة التي ستردّ الكيد إلى نحر صاحب الكيد، وتحفر الحفرة التي سيقع فيها حافر الحفرة:

«من داي طرابلس المحروسة محمود أبو مويس إلى رأس العصاة، وزعيم عصبة الجبل، شيخ قبيلة المحاميد.

أمّا بعد:

فقد بلغني، يا سلالة النفاق والكفر والغدر والشقاق، ما بيّتم العزم عليه من نيّة في التمرّد ظنّاً منكم، يا شراذم قطاع الطرق، أن ما حلّ بالمحروسة من حوادث أسيفة كفيل بأن يلهينا عن ردّكم إلى الصواب، أو سيعجزنا عن إجباركم على دفع ما استوجب عليكم من مكوس. واعلموا منذ اليوم أن عهد المواثيق معكم قد ولّى، ولا حيلة لردعكم إلاّ بشروط تبعثونّ لنا بموجبها بأشقياء رجالكم من أمثال الوغد خليفة الداموس، أو نظيره سعد الحيّان، أو صانع الفتن

جبر المعداوي، ليكون هؤلاء في أيدينا بمثابة رهائن! كما نلزمكم بإرسال عددٍ من صباياكم الأبكار من بنات الأكابر والأعيان، على ألاّ يقل عددهن عن سبعٍ، وذلك تيمناً منّا بهذا الرقم المسحور. وإذا سوّلت لكم نفوسكم الكريهة عدم الاستجابة لهذا الفرمان، فإني أعدكم بأن تعضّوا بنان الندم، في وقتٍ لن ينفعكم فيه الندم، لأن جيشاً لا قبل لكم به، ذيله في المنشيّة، ورأسه في الجبل، سوف يذيقكم طعم عذاب لم تسمع به أذن، ولم تره عين، ولم يخطر بقلب بشر!

تحريراً في ديوان المحروسة للثاني من جمادى الثانية لسنة 1123 للهجرة».

فرّك يديه. قرأ المخطوط مرتين. فرّك يديه مرة أخرى قبل أن يدسّه بعناية في جوف المغلّف.

هجع. راقب سماء الصحراء المرصّعة بالنجوم. تفكّر في ما فعل. أطلق ضحكة مكتومة، ماكرة!

7

على مشارف جبل غريان لاحَ فارسان يمتطيان جوادين أصيلين رافقاه؛ أحدهما على الميمنة وثانيهما على الميسرة. اخترق حقولاً شاحبة تناثرت على الأرض الجبلية التي تتخللها المرتفعات. تبعثرت في الحقول أشجار زيتون هرمة جدّاً، ونباتات شحيحة، وزروع بائسة امتصّت شموس التخوم الصحراوية نضارتها فتبدّت في لونها يبيساً لا نبوتاً.

على امتداد الأرض الحمراء المكسوّة بالحجارة المسطّحة حيناً، والمدبّبة حيناً آخر، انتشرت بيوت واطئة، ذات حيطان ملفّقة من حجارة مثبّتة بكتل الطين الأحمر المستعار من تربة مكانٍ لم ينل اسم «الحمادة الحمراء» إلاّ من لون تربته الأحمر، القاني في حمرته، كأنّ شموس ملايين السنين لم تختلس من الأرض مياهها وحسب، ولكنها طعنتها بضروب القيظ فحقنتها بالدّم.

على أسطح البيوت تراءت أعواد القش. فوق سقوف القشّ استلقت كتل طينية مثبّتة في أعاليها بألواح حجرية مستطيلة لتحصينها من غزوات الرياح في مواسم العجاج.

في أبواب البيوت تجمع الصغار للفرجة، وفي الحقول تسكعت نساء هنا وهناك يحملن حزم البرسيم على رؤوسهن، أو يدسسن وجوههنّ في الأحاضيض كأنهن ينهمكن في صلوات تستجدي الأرض كنوزاً أخرى، أبعد منالاً، من كنوز الزروع البئيسة التي لا تسمن ولا تغني حتى من جوع، فكيف تكفي لدفع مكوسٍ ينتظر منها دايات السواحل امتلاء الخزائن بالأموال التي ستجلب لهم الخلاص من جشع سلاطين الأستانة، الذين لن يشبع بطونهم سوى تراب القبر؟ بلى. من هذه الخلوات الجرداء التي لا تجود تربتها الحجرية القاسية بغير النبوت البريّة في مواسم الأمطار (إذا رقّ قلب السماء وجادت بالأمطار) ينتظر سادة السواحل، وسادة السادة في ما وراء السواحل، الفوز بالثروات الخرافية الطائلة التي لن يقنعهم سخاؤها حتّى لو حدثت معجزةٌ وأمطرت سماء هذه الربوع ياقوتاً، وتحوّلت ذرّات ترابها تبراً.

عَبَر به الفارسان مرتفعاً مبقوراً بالأحافير التي يتخذها سكان الجبل بيوتاً ورثوها عن أسلافهم الأوائل، ولكن المرتفع ما لبث أن أدّى إلى مرتفع أعلى تبدّت فيه فوهات الدواميس على نحوٍ أكثر كثافة. فوهات تبدو في خاصرة المرتفع بقعاً كئيبة اللون، خرافية الحجم، تتسكّع بجوارها بضعة رؤوس من الماعز.

تلوّى الطريق صاعداً إلى أعلى كالثعبان، فارتفعت على جانبيه في المسافات التالية أبنية طينية مغمورة الأسطح بالتبن والقش يقف في أبوابها أطفال بأجسادٍ عارية معفّرة بالغبار.

بعدها تسامحت الأرض من جديد. أدّى العراء السمح إلى أخبية منسوجة من أوبار الإبل، وبعضها الآخر من شعور المعز، تناثرت هنا وهناك. بين مضارب المنتجع دبّ الرجال المتمنطقون بالسيوف، المدثرون بالجرود، برؤوسهم المعصوبة بالعمائم. بدأوا يتجمعون في مدخل أحد الأخبية التي تنتصب بعيداً عن بقية المضارب. بعضهم أقبل راجلاً، وبعضهم الآخر أقبل على ظهور الخيل. وعندما اقتربوا من الخباء مسافة أخرى رأى كيف تحلّق الرجال في المدخل في طابور طويل. يتوسطهم شيخ جليل. يلتفّ في عباءة ناصعة، وتتوّج رأسه عمامة مهيبة مثبّتة فوق طربوش أحمر اللون. يتدلّى من حزامه سيف مدسوس في غمدٍ جلديّ منمنمٍ بالزينة. لحيته الطويلة الناصعة تتدلّى أيضاً من ذقنه.

ترجل الرجلان عن جواديهما. تقدّم من جواده أحدهما. أمسك بلجام الجواد وانتظر أن يترجّل. ساعتها لوّح الرجال بسواعدهم في الهواء وردّدوا هتافاً بعبارة جماعية مبهمة.

8

رأى الفضول في عيونهم، ولكنه لم ينبس.

لم تنطق عيونهم بالفضول وحسب، ولكنها نطقت باللهفة. ولكن لا هم تنازلوا عن كبريائهم لينطقوا بالسؤال، ولا هو فقد السيطرة على عضلة لسانه المتعطشة للخوض في أمر الخبر اليقين. كان ذلك ضرباً من العراك لضبط النفس. كان ذلك جنس كرّ وفرّ. ولكن الناموس في النهاية غلب. الكلمة الأخيرة كانت لناموس الوقار. وقد راهن على هذا الناموس لما خبره في مسلك أشياخهم في زياراتهم للقلعة في مراسم تجديد فروض الولاء، أو في زيارات الوفاء بالعهد. راهن على الناموس الذي يرى في العجلة نوعاً من مسّ، ويعتبر الفضول صَبْيَنةً لا تليق بعقلاء المجالس، بل واستخفافاً لا يُلحق الإهانة بأهل المجالس وحسب، ولكن بصاحب الفضول نفسه. ولهذا السبب انتظر. انتظر حتّى نُحرت الذبائح. انتظر حتّى قُدّمت أطعمة الوليمة. ولم يأذن لهم بالسؤال إلاّ بعد أن تحوّل الظمأ إلى السؤال في عيونهم إلى ألم، واللهفة قلبتْ أبدانهم أوتاراً مزمومة. ساعتها تبادل مع الزعيم نظرة ذات معنى قرأ فيها الشيخ الإيماء. ويبدو أنهم لحظوا الإشارة فسكتوا. سكتوا فعمّ صمت. الصمت دام طويلاً. كأن الزعيم نفسه أراد أن يعذّبهم على خطيئتهم. على فضولهم. على ظمئهم المهين إلى القول. كأنه أراد أن يخبرهم بخيبة أمله فيهم، كأنه أراد أن يعلن لهم أنهم من طينة النساء اللائي يفضلن أن يقلن ويسمعن عليّ أن ينلْنَ. كأنه أراد أن ينتهرهم ويذكّرهم بأنهم سلالة فرسان وليسوا ملّة نساء. وعندما تململ

أحدهم وتكلّم قائلاً: «هل للضيف المبجّل أن. .» استوقفه الزعيم بإيماءة صارمة فسكت قبل أن يكمل عبارته، فتذكّر ما يقال عن عادات بعض القبائل الصحراوية التي تحرّم استنطاق الضيف ما لم ينصرم اليوم الثالث من زيارته. فهل عليه أن ينتظر أيّاماً ثلاثة حتى يتفضّل المجلس بالاستفسار عن حال الإيّالة؟

ألن يكون ذلك كافياً لتمكين اللئيم أبي مويس من القبض على زمام الأمر فتضيع الإيّالة ويضيع هو مع ضياع الإيالة؟ كلاّ، كلاّ. لا مفرّ من كسر التحريم. لا مفرّ من المبادرة. أليس هو الرسول؟ أليس هو حامل البلاغ والمكلّف بوضع الأمانة بين أيدي أصحاب الأمانة؟ ألن يكون ذلك كفيلاً بأن يقي نفسه ويقي القوم شرّ القتال؟

اعتدل في جلسته وخاطب الزعيم قائلاً:

ـ هل يتفضّل حضرة الشيخ، بعد أن أطعم ضيفه من جوع وآمنه من خوف، أن يأذن لصاحب البلاغ بأن يتحرّر من وزر البلاغ؟

تنفّس القوم الصعداء. رأى آي الارتياح في عيونهم، وفي ملامحهم. ولكن الشيخ لم يرفع بصره كأنه يمعن في معاقبتهم على خطيئتهم. كأنّه يمعن في التشفّي، حتى إن أحدهم فقد صبره وحاول أن ينتشل كبير القوم من غيبته بعبارة:

ـ لا يليق أن نجعل الضيف ينتظر يا شيخنا!

ولكن الشيخ لم يجبه، ولم يعره حتّى التفاتة. مضى في لامبالاته زمناً قبل أن يتبادل مع الضيف نظرة قرأ فيها الإشارة فانطلق الضيف:

ـ لا شك في أن أنباء النكبة التي نزلت على رأس الإيّالة قد بلغتكم كما بلغت غيركم من قبائل الدواخل!

أطلق أكثر من صدر همهمة مبهمة علامة الموافقة على القول ولهفةً لسماع المزيد.

تطلّع إلى الشيخ فوجده ساكناً وملامح وجهه لامبالية، أو ربّما تتصنّع اللامبالاة. أضاف:

ـ لا أخفي عليكم: الوضع أسوأ ممّا تتصوّرون، وحال البلاد ترقص على كفّ عفريت!

تمتم المجلس ببلبلة جماعية فانتهز الفرصة ليضيف قبل أن تفتر الحماسة:

ـ هل تعلمون من هو هذا العفريت؟

انتظر أن تهتف الحناجر بالسؤال، ولكن القوم تسمّعوا بأفواه شلّتها الدهشة:

ـ إنه المدعو أبو مويس! محمود أبو مويس!

ضجّ المكان ببلبلة مكتومة. استمرّ الهرج زمناً. أضاف:

ـ خنق الداي الذي ارتضته كل الأطراف وحكم بين الناس بالشرع. قتله غدراً بعونٍ من تلك الفئة التي صارت في السنوات الأخيرة داء البلاد ومصدر قلاقلها!

تساءل أكثر من صوت عن أي داء تحدّث فانتظر حتى هدأت الهرجة ليوضح:

ـ الانكشارية! الداء هو شراذم الإنكشارية الذين سمّموا البلاد بالفتن، وقطعوا دابر الاستقرار بالدسائس، لأنهم ملّة خسيسة لا تخلد لنومة قبل أن تشرب من دمٍ، أو تنهب أرضاً، أو تغتصب عرضاً!

علت صيحات لم يدرِ عمّا إذا كانت هتاف استحسان لما يقول، أم صيحات استنكار لأفعال الانكشارية. أضاف:

ـ بمكيدة هذه العصابة اغتيل ابن الجنّ، وبمساعدة سواعد هذه الشرذمة نُصّب المدعو «أبو ميس» حاكماً!

ثمّ.. ثم هيمن سكون. هيمن السكون فجأة. ويبدو أن عقلاء المجلس لاحظوا نيّة الزعيم في الكلام فلاذوا بالصمت. تكلّم الشيخ بلهجة سكينة ملقياً في سمع الضيف بسؤال:

ـ ولكن أين سلاح الفرسان؟ أليس البك هو رأس الفرسان؟

توقّع الضيف بلبلة أخرى، ولكن الجمع لم ينبس. أجاب:

ـ يعلم حضرة الشيخ أن سلاح الفرسان لم يشارك يوماً لا في تنصيب الدايات ولا في عزلهم.

حاججه الزعيم:

ـ ما نفع الفرسان إذن؟

ـ حراب الفرسان خلقت للحروب، ولم توجّه لصدور أهل الفرسان يوماً. ثم.. ثم إن الفرسان لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً حتى لو شاؤوا أن يفعلوا، لأن مكان وجودهم في المنشيّة وليس داخل القلعة.

ـ هل المنشية منفى؟

ـ أجل. تستطيع أن تقول إن المنشية منفى سلاح الفرسان. منفى صغير بالمقارنة مع منافي الصحراء طبعاً! أعني أن الفرسان لن يستطيعوا أن يتدخّلوا من دون أن يهاجموا أسوار القلعة من الخارج، ولن يهاجموا أسوار القلعة من دون أن تفنيهم مدافع القلعة عن بكرة أبيهم!

تبادل مع الأكابر النظرات فلاحظ أن عيونهم لم تعد تتقد بأي الفضول وحسب، ولكنّها اشتعلت بتوتّرٍ مريبٍ أيضاً. سمع الشيخ يتساءل:

ـ وماذا تنوي أن تفعل؟

أجاب ببرود:

ـ اللّجوء!

استنكر الزعيم:

ـ اللجوء؟

ـ بلى. اللجوء!

ـ إلى أين؟

ـ إلى شرق البلاد أو إلى غربها، سيان!

ـ هل طلب الداي الجديد رأسك؟

ـ لم يفعل بعد، ولكنه سوف يفعل في القريب.

ـ هل جاهرت له بالعداوة؟

ـ لديه من الأسباب ما يكفي، ولولا انشغاله بخصوم أقوى شوكةً مني لسارع بقطع رأسي، ولما جلست بينكم الآن، ولكن. .

تمهّل لحظة. سدّد إلى عين الزعيم نظرة قبل أن يضيف:

ـ ولكن خبثه لم يمنعه من أن يبعثني إليكم رسولاً لذرّ الرماد في العيون ظانّاً أن حيلته ستنطلي عليّ!

ـ هل جئتنا منه بمكتوب؟

مدّ يده إلى جيبه. أخرج من الجيب المغلّف. أخرج من الجيب الرسالة التي شاء لها ابن الزانية أن تكون في جيبه حيّة تلدغه في الوقت المناسب، وشاء لها هو أن تكون سحراً سوف ينقلب على الساحر:

- هذا هو المكتوب!

أومأ الزعيم لأحدهم فتقدّم الرجل واستلم منه المظروف.

جرّد الرسالة من المغلّف وقدّمها للزعيم، ولكن الزعيم استبقاها بين يدي الرجل وأمر قائلاً:

- إقرأ!

كان رجلاً نحيلاً طويلاً ببشرة نحاسية. يرتدي ثوباً باهتاً فضفاضاً ملفوف البدن بجردٍ بائد. اقترب بعينيه من القرطاس حتى لامسه بأنفه كأنه يريد أن يلتهمه لا أن يقرأه. بدأ يتهجّى المكتوب بلسانٍ ألثغ وسط صمتٍ مطبق. قرأ حتّى إذا بلغ العبارة التي تصف زعيم قبيلة المحاميد بـ«رأس العصاة وزعيم عصبة الجبل..» تلعثم المسكين وتصبّب من جبينه العرق وسط ذهول القوم واستنكارهم.

مسح العرق بكمّ جلبابه وسكت. انتهزت بعض الأصوات فرصة الصمت فعبّرت عن سخطها بأعلى صوت. ولكن الزعيم أسكتها بإشارة من يده وأومأ للرجل أن يمضي في تلاوة المكتوب. عاد المسكين يلجلج بلكنته اللثغاء، ولكنه لم يفلح في تهجّي كلمتين أخريين حتى انفجر في لسانه لغم جديد أسوأ مفعولاً من اللغم الذي سلف. فقد بلع ريقه مرّتين، وتوقّف طويلاً قبل أن ينطق بالشتيمة الشنيعة التي تلت عبارة: «فقد بلغني..».

حدج الزعيم بتردّد، ولكن الأخير شجّعه ببسالة فأكمل. لفظ الجملة التي تنعت القوم بالكفر والنفاق والغدر وما إلى ذلك من نعوت لم يحدث أن تجاسر مخلوق ورماها في أسماعهم من قبل. ضجّ المكان من جديد. ويبدو أن الاستفزاز تجاوز في نظرهم كل حدّ فضجّوا وسبّوا وتصايحوا غير آبهين بالزعيم، ناسين تقاليد الوقار، ضاربين الناموس بعرض الحائط. بعضهم فزّ من مكانه واقفاً، والبعض الآخر بلغ به الانفعال حداً جعله يستلّ سيفه ويلوّح به في وجه قارىء الخطاب. كأنّ الأمر اختلط عليهم فظنّوا هذا البائس الذي تطوّع لقراءة المكتوب هو عينه الممسوس أو مويس الذي أرسل الخطاب. ولم يفلح الشيخ في وضع حدٍّ لهيجانهم إلاّ بعد أن هبّ بدوره واقفاً ملوّحاً بكلتا يديه في الفراغ علامة السكون. هتف بلهجة تنذر بنفاد الصبر:

ـ هل نحن في مجلس عقلاء، أم في ساحة غوغاء؟

ويبدو أن العبارة أعادت القوم إلى صوابهم، لأنّ مَنْ هَبَّ منهم واقفاً جلس، ومَنْ وقف منهم يتوعّد بسيفه المسلول خجل وأعاده إلى الغمد، ومَن لوّث لسانه بلفظة سوء استغفر ولعن الشيطان؛ في الوقت الذي مضى فيه الضيف يراقب المشهد من ركنه ويبتسم بغموض. استعاد المجلس هدوءه. ولكن صاحب الخطاب لم يستعد رباطة جأشه ليواصل القراءة إلا بعد زمن طويل. نطح القرطاس بأنفه مرّةً أخرى قبل أن يكمل سلسلة الشتائم المثيرة للغثيان التي حفل بها متن المكتوب. ولم يتوقّف هذه المرّة إلاّ بعد أن بلغ الشرط الذي وضعه الوغد لقبول الهدنة. فزّت حبّات العرق على جبينه من جديد ما إن قرأ الفقرة التي يقول نصّها: «. . ولا حيلة لردعكم إلاّ بشروط

تبعثون لنا بموجبها بأشقياء رجالكم من أمثال..». جحظت مقلتاه من فرط الدهشة، واختلس نظرة مرعبة إلى رجلٍ كان يقتعد القرفصاء إلى جوار الزعيم، يرتدي فرملة زرقاء على ثوب ناصع، متوجّ الرأس بطربوش مهيب، ملفوف في الأعلى بعمامة بيضاء، بأنفه المعقوف، وبشفتيه المتوّجتين بشاربين كثّين طويلين. أمّا نظرته فكانت نظرة ثاقبة من مقلة حادّة كأنها عين صقر.

سكت طويلاً حتّى ظنّ القوم أنه لن يتكلم أبداً. انتقل ببصره من الرجل المجاور للزعيم إلى الزعيم الذي شجعه بإيماءة. وعندما أعيته الإيماءة عن تحقيق الهدف تساءل بنفاد صبر:

ـ أمثال مَنْ؟ أكمل..

ساعتها تشجّع الشقيّ وألقى في آذان الجمع بالعبارة كأنه يلفظ قذيفة:

ـ أمثال.. الوغد خليفه الدّاموس..

فزّ صاحب عين الصقر ممسكاً بمقبض سيفه، ولكن الزعيم تشبّث بمعصمه فجلس وشرع ينتفض كوحش في قفص. في زاوية الخباء ارتفع صوت:

ـ على شيخنا أن يطلق أيدينا ويدعنا نمضي لنكسر رأس هذا السفيه في عقر داره بدل أن يجبرنا على البقاء في هذا الخباء لسماع سفساف السفهاء!

حَدس البك بأن الغضبة قد تنقلب على رأسه برغم التدابير فقرّر أن يتدخّل قبل أن يفلت الزمام ويبادر أحدهم بقطع رأسه. اعتدل في جلسته ليقول:

ـ ألم أقل لكم؟ ها أنتم ترون أنفسكم أن وقاحة هذا المجرم تفوق كل حدّ. كلاّ، كلاّ. أرجو من حضرة الشيخ أن يمدّني ببعض رجاله لأعبر إلى تونس أو حتى إلى مصر، لأن حياتي في خطر!

مسّد الزعيم لحيته بيده، وتكلّم محتقن الوجنتين لأوّل مرّة:

ـ نحن قوم لا نتخلى عن مخلوق استجار بديارنا حتى لو كان طيراً، واعلم أن اليد التي ستحاول أن تمسّ في ضيفنا شعرة سوف تُقطع!

هلّلت أصوات استحساناً، وكبّرت أخرى تأييداً، ولكن الداموس القابع إلى جوار الزعيم مضى يغلي غضباً، وانتهز الفرصة لينفّس عن ثورته بعبارة:

ـ ليس على البك أن يدع البلاد لمغامرٍ يعيث فيها فساداً، ولكن عليه أن يمضي إلى وجار الضبع ليكتم أنفاسه بأيدينا هذه!

علت صيحات الاستحسان مرة أخرى. ولكن الشيخ قاطع الأصوات:

ـ تحلّوا يا جماعة بالصبر ودعونا نسمع فحوى المكتوب إلى النهاية.

صاح رجل كان يقتعد القرفصاء بجوار المدخل متشبّثاً بتلابيب الصمت طوال الوقت:

ـ ليس بنا حاجة يا سيدنا لسماع الإهانات وعلينا أن نعدّ ما استطعنا من قوّة ومن رباط الخيل!

ردّد أكثر من صوت «صدق الّحقّ» تيمّناً بالآية القرآنية التي تعمَّد صاحب الصوت أن يختم بها العبارة.

لحظتها لاحظ الجميع كيف احتقن وجه الزعيم بحمرة الانفعال حتى إن يده ارتجّت برعدة مفاجئة، ولكن سلطان الكبرياء غلب فحاول الشيخ أن يداري الرعدة برفع يده في الهواء في إشارة للرجل بمواصلة قراءة الخطاب.

9

اكتمل نصاب الرهان وعلى الأقدار أن تتولّى حساب البشارة أو الخسارة! والبطولة (كما أخبره زعيم القبيلة) ليست في اختيار ما يستهوينا، ولكن في اختيار ما ننكره، برغم أننا لا نصير في كلتا الحالين سعداء، لأننا بالبطولة نحن شهداء سواء أفلحنا في عملنا هذا أم أخفقنا.

قال له ذلك في تلك الليلة التي أعقبت مجلس النهار العاصف. زاره بعد تناول طعام العشاء وخروج الجمع من الخباء. خرج بصحبة لفيف العقلاء، ولكنه لم يلبث أن عاد في الوقت الذي تهيّأ فيه هو للهجعة. جالسه في المدخل، تحت ضوء القمر، قائلاً إن الحرب إمّا أن تكون خدعة وإمّا أن تكون عدّة. وعندما يلجأ العدوّ للاستفزاز ويوجّه للخصم الإهانة فقد كسب بهذا الجولة الأولى لأنّ الخصم في هذه الحالة قد خسر الخدعة ولم يبق له سوى العدّة.

وعدّة القبيلة لا تكمن في سواعد فرسان القبيلة وحدهم، ولكن في أحلاف القبيلة. ولهذا السبب فقد أرسل الرسل للتوّ (بعد التشاور مع عقلاء القوم) إلى القبائل الحليفة بالدواخل ويأمل أن يتلقّى الردود من زعماء تلك القبائل خلال أيام. وعليه هو أن يستنفر فرسانه في المنشية، ويبعث بالرسل إلى شيوخ الساحل وتاجوراء ورجالات

المدينة الذين يستطيع أن يثق بهم ليجسّ نبضهم قبل الزحف. واختتم قوله بوصيّة: «يجب أن نحسن الإعداد أيضاً إلى جانب العدّة». ثم أضاف أنه لم يكن ليعرّض قبيلته لخطر الإبادة لمجرّد غسل إهانة يرتاب في أمرها ولا يجد لتوجيهها مبرّراً، ولكن ليقينه بضرورة إنقاذ الوطن من فئة الضلال التي أصبحت أفعالها وصمة عار في جبين كل رجل يدّعي الرجولة في هذه البلاد. ولم يفته أن يذكّره بسالة أبيه في منازلة قوى النصارى عندما كان على رأس فرسان الإيّالة، وقال إنه استضافه مراراً في زياراته إلى الساحل، وعليه أن يثبت اليوم أنه خير خلف لأحسن سلف.

خامره ذلك الإحساس الخفي الذي يستولي على الإنسان عندما يقدّر له أن يحيا تجربة الانفصال الموجع عن حياة أَلِفَها ولكنها صارت بسبب الحلم الذي يوشك أن يتحقق من نصيب الماضي. وبرغم أنه لم يعِ يوماً أنه هدهد في سويداء القلب أي حلم، إلا أنه لا يستطيع أن ينكر أن وسواساً تململ في صدره يوم فوجىء بترقيته إلى مرتبة «باش آغا» خلفاً للوالد ليجد نفسه على رأس جيش من خيّالة الساحل وكذلك المنشية. هذه الترقية هي التي أجّجت نهمه لنيْل المزيد بدل أن تروي ظمأه من منصب لم يخطر له على بال.

ولو خطر ببال الدايات، بل وببال أسياد هذه الدنيا، أن تقليد الفرسان أوسمةً، أو تعيين الجند قادةً، ليس مكافأةً لهم على مآثر، أو إكباراً لهم جزاء بطولة، ولكنه إيقاظ للنفس الأمّارة بالسوء لا لتستزيد وحسب، ولكن لتطمع في الفوز بعرش السلطان نفسه، بل وللاستيلاء على عروش الأرض بأكملها. لو علموا بذلك لفضّلوا

التنصّل من الأمر في المهد، ولسدّدوا لصاحب الشأن طعنة في الظهر بدل أن يكبروه بجائزة أو يجودوا عليه بمنصب.

يعترف الآن أنه لم يطمع بالمزيد إلاّ في ذلك اليوم الذي نال فيه مقاليد سلطان لم ينتظره، ولم يحلم به، ولم يخطر له على بال. الأقران الذين هتفوا لصاحب الأمر باسمه بهدف تعيينه ردّدوا أنه الأجدر من الجميع لا لكفاءته وحدها، ولكن لشجاعته أيضاً. فأي شجاعة هذه يا ترى تلك الشجاعة التي ننال عليها مكافأة؟ هل نستطيع أن نطلق اسم البطولة على البطولة التي نفوز بسببها بالجزاء؟ أليس إهانة للبطل، أو لصاحب الشجاعة، أن نقدّم له جزاء عمله البطولي هذا هبةً؟ أليست البطولة، أو الشجاعة، عملاً لا يقارن إلاّ بالصّلاة التي لا يمكن أن ننتظر منها جزاءً أو شكوراً دون أن تتحوّل صفقةً؟

ألا يعلم ذوو السلطان في هذه الدنيا أنّهم لا يوجّهون الإهانة إلى الخلق بهذا التقليد ولكنهم يجدّفون بحق خالق الخلق؟

ويبدو أن خالق الخلق لا يقلب الآية ويستنزل بهؤلاء قصاصه إلا لهذا السبب. يستنزل عليهم قصاصه لأن صاحب البطولة لا يستكفي بما نال، ولكن الوسوسة توقظ فيه الأفعوان النائم، توقظ فيه إحساساً كان منسيّاً. توقظ فيه الإحساس بالتفوّق. والإحساس بالتفوّق لا يتوقف عند حدّ الاستيلاء على شيء، ولكنه لا بد أن ينال كل شيء. لأن شعار هذا الأفعوان هو: «إمّا كل شيء، أو لا شيء». ولهذا فإن الإنسان إذا ابتلي بهذا القدر فلن يتوقّف عند حدّ إلا في اليوم الذي ينال فيه نفسه إن لم يجد شيئاً بعدما يمكن أن يُنال. وقد ساءل نفسه

مرعوباً مراراً عما إذا كان قد انتمى دون أن يعلم إلى هذه الملّة. ولكن الجواب كان يأتي دائماً بالنفي. لأن لا بد أن يوجد فرق بين الإنسان الذي يريد أن يستولي على الدنيا لكي ينال سلطاناً على الدنيا، وبين الإنسان الذي لم يجئ إلى هذه الدنيا إلاّ ليرفع سيف الظلم المسلّط على رقاب أهل الدنيا، ويعيد إلى الأشياء حقيقتها المنسيّة! ألَمْ يتألّم لآلام السابلة الذين لم يعرفهم ولم تربطه بهم صلة قربى؟ ألم يهرع مراراً لنجدة بسطاء ينالون على يد الإنكشارية قصاصاً حتى لو لم يكونوا أبرياء؟ ألم يحرّر عبيداً سامهم السادة عذاباً؟ ألم يحرّم. . . ولكن. . ولكنه أدرك منذ زمن أن لا سبيل لتحقيق الخلاص بحسن النوايا أو الاكتفاء بعمل الإحسان. ولم يكن عسيراً أن يكتشف أن كل ما كان يفعله في سبيل المستضعفين ما هو إلاّ خداع للنفس وضرب من عمل الإحسان. وعليه أن يسلك سبيلاً اخر، سبيلاً أخطر يقيناً، إذا شاء أن يحقّق للبلاد خلاصاً من فصول المهزلة التي تتتابع على خشبة الوطن البائس منذ سنوات وسنوات.

لأن لا شيء يتغيّر إن لم نبادر بتغييره بأنفسنا. لا شيء يمكن أن يتغيّر إذا لم نغيّر ما بأنفسنا. وعليه هو أن يبدأ بتغيير ما بنفسه وألاّ ينتظر الأغيار، أو الأقران، أن يغيّروا ما بأنفسهم. لأنه لو انتظرهم، ولأنهم لو انتظروه، لما استطاع أن يبادر أحد بتعليق الجرس في رقبة القطّة. ولا بد أن يدفع أحد ما الثمن. لا بد أن يقدّم أحدٌ ما (ولماذا لا يكون هو؟) رقبته ليصير كبش الفداء؟ هل يتحقق القربان لو وقف الكلّ مكتوفي الأيدي وانتظروا أن يتنزّل عليهم الخلاص هبةً من سماء؟ وقد اعتبر هو الهبة التي نالها من يد صاحب الأمر إشارةً لا هبة. لأنه لو اعتبرها هبة لانحرف ولصار من أتباع الأفعوان الذي لا

يشبع حتى لو ابتلع الدنيا كلها. لقد أيقظت فيه الترقية إحساساً بالثقة في النفس لا بالتفوّق. والثقة بالنفس هي شرط لبطولةٍ لا الأمل في السلطة. لأنه إذا كانت غاية السلطة هي نيل الدنيا، فإن غاية البطولة هي نيل الحقيقة. لأن «كل شيء» الذي يطلبه الأفعوان هو في حقيقته اللاّشيء، لأن الأيام قد برهنت منذ الأزل أن ما يُنال اليوم لا بد أن يُفقد غداً، وكما الميلاد غايته الممات، كذلك فإن الحركة، كل حركة، نهايتها سكون. وكل طلب بهتان ما لم يكن طلباً لحريّة. لأن الحرية هي الأحجية الوحيدة التي تستطيع الحقيقة أن تبرهن بها على حضورها. ولهذا فإن طلب الحرية فقط بطولة.

10

في ذلك الفجر الغامض الذي ارتفع فيه غبار الطلع فوق هامة جبل نفوسه المكابر مبكّراً، دقّت حوافر الجياد المتوثّبة تراب الأرض كأنها تقرع طبول الحرب. والتأمت جحافل الفرسان التي جادت بها مختلف القبائل عبر الدروب المتعرّجة التي تحرث الخاصرة الجبلية المنيعة، لتكوّن في كل شعبة جديدة رافداً جديداً يزوّد الجيش بدعم جديد، ليتحوّل في الحضيض إلى سيل مارد يتدفّق إلى الأمام مهدّداً بأن يجرف في طريقه أي شيء.

في الأسافل تبدّى سهل الجفارة العاري مغموراً بفيض شروقٍ ذهبيّ، ملفوفاً في هجعته الخالدة بسكون مريب ينذر بنبوءةٍ لم تشهدها الأرض المحصورة بين بدن الجبل وغمر البحر منذ زمانٍ بعيد. وربّما لم يحدث أن شهدت لها مثيلاً منذ العصور الموغلة في القدم التي كانت فيها قبائل «الجرمنت» تغير على جيوش قرطاجة أو

الرومان، أو الأزمنة التالية التي كان فيها «يوغرتن» يصدّ غزوات الرومان ويبيد جيوشهم التي تتدفّق عبر الصحراء لإجبار الناس الذين لا يملكون حتى لقمة العشاء لدفع المكوس.

فما أشبه رومان الأمس بأتراك اليوم، وما أشبهه هو، أحمد بك القرمانلي، اليوم بزعيم «الجرمنت» الذي لا يضطرّ أبداً أن يجتاز حدود الصحراء ويبلغ تخوم البحر إلاّ لردع الغزاة دفاعاً عن النفس وعن حرم الصحراء. لأنه يعلم أن أهل السواحل إذا كانوا أشبه الخلق بأسماكهم التي لا تخرج من غمر البحر إلا لتختنق وتهلك خارج البحر، كذلك فإن أهل الصحراء لا يخرجون من صحرائهم إلاّ ليختنقوا. ولهذا السبب يطاردون الأعداء حتّى تخوم المياه. بعدها يولّون الأدبار كأنهم يفرّون من الوباء. لأن الشطآن التي يحيا الناس على مياهها في استقرارٍ، هي في يقينهم العدوّ الأكثر عداوةً من الغزاة. ولهذا السبب سن أهل البلاد لأنفسهم ناموساً منذ عهودٍ لا يذكرها أحد يقضي بهجران السواحل وتركها لأهل ما وراء البحار، الذين كانوا يقبلون ليؤسّسوا عليها المدن الساحلية من أرض اليونان، ثم من جيرانهم الرومان، وقبلهم من أرض الفينيقيين.

كانت رائحة الماء الفاسد (كما اعتادوا أن يسمّوا مياه البحور) تزكم أنوفهم وتصيبهم بالصداع والغثيان وحتى الحمّى، فيتركون العدوّ الذي أقبلوا للانتقام منه، ليفرّوا على أعقابهم لا يلوون على شيء. كانوا يهزمون أعداءهم دائماً، ولكن رائحة البحار الحاملة لوباء مميت اسمه الاستقرار (هذا الاستقرار الذي لا يعني في ناموسهم سوى العبودية) لا تلبث أن تهزمهم. يهزمهم الخوف من

السكون في قبرٍ يسميه هؤلاء بيتاً، فيفرّون إلى صحرائهم هرباً من الموت الذي ينتظرهم على الشطوط. يفرّون إلى صحرائهم ليرتحلوا. يفرّون إلى صحرائهم ليتحرّروا. يفرّون إلى صحرائهم ليتنفّسوا. يفرّون إلى صحرائهم ليحيوا. لأنهم كما يقولون ملّة معجونة من ضياء الشموس الصحراوية الخالدة. تلك الآلهة السماوية التي أبدعت لهم بدفئها يوماً يابسة كانت غمراً أيضاً بعد أن بدّدت بحرارتها فيها المياه فصارت لهم وطناً. صارت لهم أرجوحةً لا وطناً. أمّا سكّان السواحل الذين أقبلوا من الشمال فسلالة أخرى. سلالة معجونة من موج البحر، ومن ضوضاء البحر، ومن بلبلة البحر. لهذا السبب لا يستطيع هؤلاء أن يحيوا بدون هرج، عكس ملّة الصحراء التي لا تحيا بدون سكون. ففي روح الصحراويين يسري يقين بأن البحر لعنة الصحراء لأنه مطيّة للغزاة. لأن رسالته أن يأتي بالمخلوقات التي لا همّ لها إلاّ خنق الأنفاس بالجدران وقمع هاجس الترحال. قمع الحرية التي يحققها الترحال. لأن هذه المخلوقات لا تريد أبداً أن تكتفي بأن تأتي إلى أرضٍ مهجورة عنوةً، وسخية إلى أبعد حدود السخاء، لتحيا فيها بسلام.

كلاّ، كلاّ. إنها تأتي لتفسد فيها. لا تكتفي بالإفساد ولكنها ترفع يدها لتسفك الدماء. تلاحق أهل الأرض الذين تخلّوا لها عن الأرض طوعاً لتقتصّ منهم. تنهكهم بالمكوس، أو تنهبهم بقوّة السيوف، أو تحاربهم لمجرّد استعبادهم. ولكن ملّة الصحراء تستطيع أن تحتمل أي جور إلاّ الجور الذي يؤدي إلى العبودية. ساعتها تستيقظ فيها قوّة جنونية استطاعت دائماً أن تنزل الهزائم بأعدائها شذّاذ الآفاق الذين لا يقنعهم شيء، ولا يستكفون بشيء، ولا يقف جشعهم عند شيء.

ولكن رائحة البحر التي ينكرها أهل الصحراء توقظ فيه حنيناً غامضاً برغم انتمائه من ناحية الأم إلى ربوع الصحراء. ربّما كان ذلك دسّاً من عرق السلف الذي أقبل على هذه الديار محمولاً على ظهر الموج قادماً من «قرمان» المتشبّثة بتلابيب بلاد الأناضول. وقد عيّره صغار المنشية زمن الطفولة بهذا الانتماء وردّدوا أنه قرصان من قراصنة البحار فاشتكى للأب. لم يهرع الأب لتبيين سرّ القرصنة إلا بعد مضي بضع سنين صار فيها قادراً على تمييز الخير من الشرّ فجالسه ليلقي في أذنه بسؤال غريب: «كيف تراني؟». لم يفهم السؤال، وكان على الأب أن يعيده ثلاث مرات حتى فهم على نحوٍ مبهم أن المقصود ليس كيف يرى هو هيئة أبيه، ولكن كيف ينظر الناس إلى مكانة الأب، فأجابه: «فارس مهيب!». ويبدو أن الجواب لم يرضِ الأب تماماً لأنه ما لبث أن أكمل: «فارس مهيب ابن فارس مهيب!». انطلق بعدها يحدّثه عن السلف. عن الجدّ. عن القرصنة. قال إن البحر لا يختلف عن البرّ. قال إن البحر برّ من ماء، كما أن البحر برّ من خلاء. برّ من حجارة ومن رمال. وما يوجد في عرض البحر يوجد في عرض الصحراء. في البرّ يموت المسافر عطشاً بسبب غياب الماء، وفي البحر يموت الإنسان عطشاً بسبب غياب الماء. لأن مياه البحر ليست ماءً، ولكنها ظلّ مياه. مياه البحر كسراب البرّ لم تخلق لتروي الظمآن إلى مياه البدن، ولكنها خُلقت لتروي الظمآن إلى مياه الروح. هل تدري ما هي المياه التي تروي الظمآن بالروح؟ تساءل الأب، ثم أجاب: إنها الحرية! فكما أن البحر غمر خاوٍ من الماء. غمر خاوٍ من الغمر، لأن غمره ليس غمر بدن، كذلك الأمر بالنسبة لمياه البريّة التي تستحيل في وجه العابر

سراباً إذا طلبها لإرواء البدن، ولكنها تنقلب سلسبيلاً إذا طلبها لإرواء الروح. عندها تنقلب حريةً. لأن الروح لا ترتوي بغير الحرية. ولهذا فإن من يحترف ارتياد البحر كمن يحترف ارتياد البرّ. من يحترف ارتياد البحر إنسان ظامىء بالروح مثله مثل عابر البرّ. ظامىء إلى الحرية حتى لو أطلق عليه الناس لقب قرصان! هو عابد في حرم مثله مثل ناسك البرّ. هذا الناسك الذي سيظل ناسكاً وزاهداً ومريداً حتى لو أطلق عليه الناس لقب قاطع طريق! لأن من يجوب البحر فارس بحر حتى لو كان في نظر الناس قرصاناً. كما أن مَنْ يجوب البرّ قرصان برّ حتى لو كان في نظر الناس مجرد عابر؛ لأن الإنسان لا ينطلق ليعبر البحر أو البرّ من دون سبب. من دون طلب. الإنسان يذهب إلى البحر سعياً وراء طلب لا سعياً وراء مغامرة. سعياً وراء تهلكة. يذهب سعياً وراء كنز، ولكنه ليس الكنز الذي يراه الناس كنزاً. إنه كنز من طينة أخرى لا يختلف عن النبوءة التي يطلبها الناسك في البريّة. كنز ليس غنيمة يستولي عليها من تجار البحار، ولا لقية ينالها من قاع اليمّ، أو جوهراً يلتقطه من جوف الحوت، ولكنه لغز أبعد منالاً من كل هذا. لغز لأن ما نطلبه بعيداً لا قيمة له إن لم يكن لغزاً. ما نطلبه بعيداً لغز لأنه حقيقتنا الأقرب لنا عادةً من حبل الوريد، ولكننا لا ندركها إن لم نخرج في طلبها بعيداً. الخروج بعيداً هنا هو البطولة. وهو بطولة أكبر إذا كانت غاية الخروج الحرية. ولهذا فليس عليه أن يستشعر الخجل إذا نعته القوم بالقرصان، أو بسلالة القراصنة، لأن القراصنة الحقيقيين هم أهل الدنيا، هؤلاء أنفسهم الذين لا يبيح لهم جُبْنهم لا أن يركبوا بحراً ولا أن يطلبوا براً، لأنهم يبيدون أيامهم وهم نيام: نيام هم ما عاشوا

أيّامهم، ولا ينتبهون من نومتهم إلا إذا ماتوا. والإنسان عندما يهجر البحر لينزل البرّ، كما فعل الجدّ، يبقى مهاجراً وفياً للرحلة ولا يتخلّى عن الشراع مقابل الجواد إلا لالتقاط الأنفاس لمواصلة رحلة لم تتوقّف بوتد البستان الذي اشتراه في المنشية، ولا حتى بوتد الاقتران بسليلة الصحراء الأقوى من وتد البستان. بل ربّما تواصلت بهذا الرباط الذي زاوج بين القطبين: البرّ والبحر. ولولا هذا الزواج بين هذين القطبين لما جرى في دماء السلالة حبّ الفروسية. لأن لا معنى للفروسية إذا لم تكن عشقاً للحرية!

فطوبى لمن كانت له هذه العنقاء طريدةً! ولكن الويل لمن صارت له هذه العنقاء طريدةً أيضاً. طوبى له لأن الدنيا ما هي إلا ساحة نطارد فيها الطرائد. والأسعد من الجميع حظّاً هو من عرف أخيراً ما يطارد. من عرف ما يطارد عرف ما يريد. من عرف ما يريد عرف نفسه. من عرف نفسه عرف ربّه. من عرف ربّه هو الأسعد بين الخلق حظّاً. ولكن هذا العرفان لا يتحقق عادةً من دون فداء. لا يتحقق من دون قصاص. لأن الأقسى من أن نبحث هو أن نجد. الأقسى من أن نجهل هو أن نعرف. ونحن سعداء على نحوٍ أو آخر ما شغلنا أنفسنا بالبحث. فإن وجدنا انتهى بنا المطاف. لأن ليس هناك بعد جمع الحجارة إلاّ تشييد البيت. وليس هناك بعد تشييد البيت إلاّ الموت. لأن الجدران لم تخلق لنعبرها كما نعبر الخلوة، ولكنها خُلقت لنسكنها. خُلقت لنموت فيها. لأن لا فرق في الألسن بين أن نسكن وبين أن نفنى. ولهٰذا فإن صاحب العنقاء الملقّبة في ألسنة الأمم حريّةً هو الفارس الأهنأ؛ لأنه اهتدى إلى الطريدة الأنبل

بين كل الطرائد، برغم أنها الأكثر مناعة من بين كل الطرائد. بل هو الأهنأ لهذا السبب وليس لسبب آخر. هو الأهنأ لأن الحرية تلك العنقاء المنسوجة من الخيط نفسه الذي نُسجت منه أرواحنا. وهذا يجعلها أعسر نيلاً. هذا يجعل منها لغزاً مثلها مثل الروح التي نسجت من سجيّتها (من سجيّة الحريّة)، برغم أن طلبها يصبح لهذا السبب أيضاً أقوى حميمية من أي طريدة في دنيانا. ذلك أننا غالباً ما نكتشف أننا لا نطارد شيئاً عندما نطارد حريتنا سوى أنفسنا، سوى أنبل ما فينا، سوى حقيقتنا. هذا يجعل الطريدة أبعد منالاً من السماء برغم يقيننا بأنها أقرب لنا من حبل الوريد. هذا يجعل المطاردة شيّقة. يجعل المطاردة مسلية. وهذه التسلية في المطاردة هي التي تهبنا القوّة كي نطارد. كي نجدّ في الطلب. كي نحيا، حتّى إننا ننسى الزمان في هذه المغامرة. ونسيان الزمان في حدّ ذاته يقين. في حد ذاته سعادة. بل عدم الإحساس بالزمان هو بالضبط ما يسمّيه الناس سعادة. ومن يؤمن بوجود ما لا وجود له في نظر الأغيار هو الفارس. هو البطل بلغة الناس. هو الذي يوسوس هناك ليتخذ في البحر فُلْكاً يقوده في الرحلة المجهولة إلى حنينه هذا، كما فعل الجدّ. أو يتبلبل هنا ليتخذ من الفرس مطيّةً لمطاردة معشوقته العنقاء في فيافي البريّة كما يفعل هو، الأب. لأن المعشوقة بسبب المطاردة تصير كالعدوّ الذي لا بدّ أن نعد له ما استطعنا من قوّة ومن رباط الخيل كي نلحق به الهزيمة. ما نحبّ أيضاً لا بدّ أن نعدّ له ما استطعنا من قوّة ومن رباط الخيل كي ندركه. كي نناله. كي نهزمه، برغم أن حياتنا رهينة بنيله. برغم علمنا بأننا سوف ننال أنفسنا يوم نناله. نفقد أنفسنا ساعة نستحوذ عليه. لأن المطاردة تجعل منّا

قرينين حميمين. قرينين متماهيين. بل تجعل منّا مخلوقاً واحداً إذا أدركناه فقد أدركنا أنفسنا. إذا قبضناه فقد قبضنا روحنا. لأنه ببسيط العبارة ما هو (هذه الطريدة) إلا نحن!

فطوبى لمن اهتدى في دنياه إلى طريدته! وويل أيضاً لمن اهتدى في دنياه إلى طريدته! لأن كليهما في هذه الدنيا نهايته هلاك!

لم يدرك حقيقة الأب قبل ذلك اليوم. لقد ظنّه إنساناً ككل الناس، وأباً ككل الآباء، وفارساً ككل الفرسان. يؤدّي عمله لأنه واجب، لا لأنه رسالة، لا لأنه طريدة (كما عبّر له في وصيّته)، ولكن لأنه علّة معيشته. علّة القوت الذي يطعم به عياله. لقد لقّنه الأب يومها درساً لم ينسه أبداً. لقد علّمه أن الأشياء ليست حقيقتها كما تبدو لنا، ولكن سرّها في ما استخفى عنّا. علّمه أن الناس ليسوا أناساً بأجرامهم وسعيهم ونشاطهم في هذه الدنيا، ولكن الناس أناس بألسنتهم. لأن في هذه العضلة الجسيمة تتخفى هاوية بلا قاع. تتخفّى حدود هيهات أن تُدْرك. وبرغم أننا نستشعر القداسة إزاء إنسان يرفض أن يتكلم، إلاّ أننا لا نعرف حقيقة الإنسان إلاّ إذا تكلّم.

11

في صباح ذلك اليوم الذي كانت فيه سنابك جحافل الخيل القادمة من جبل نفوسه تدكّ حقول الشريط الأخضر الذي يطوّق الساحل من جهة الجنوب ويلامس حدود المنشيّة، لتثير بحوافرها في الهواء عواصف الغبار، وكانت جحافل أخرى من الفرسان قد انطلقت باكراً من أسوار تاجوراء لتنضمّ إليها جيوش خيل الإيّالة المرابطة في حدود المنشية، ليكوّن لقاء هذه السيول فيضاً مهيباً لم

تشهد له أجيال السواحل مثيلاً منذ قرون بعيدة جدّاً. يتلاطم في زحامٍ غريب ليقرع بوابات الحصن الأخير الذي يطوّق المعقل الأخير لذلكَ المقامر الأبله الذي راهن على الحظّ يوماً فكتم أنفاس وليّ نعمته طمعاً في أن ينال كل شيء. ولكن سلطان الحظوظ ما لبث أن خذله قبل أن يتمكّن من الاستمتاع بتلك المعشوقة المكابرة التي تأبى أن تترك عشاقها إلا أمواتاً. أدرك الأبله أنه راهن على الجواد الخاسر، ولم يبق له إلا أن يتحلى ببقيّة من تلك الشجاعة التي ميّزت أترابه من المغامرين دائماً ساعة يخسرون كل شيء، فلا يملكون إلا أن يسدّدوا أسلحتهم إلى صدورهم وهم يردّدون الأمثولة القاسية التي توارثتها الأجيال حتى صارت لأمثالهم وصيّةً، بل نبوّةً: «بيدي لا بيد عمرو»!

ذلك أن الشعار المميت؛ «كل شيء، أو لا شيء» الذي اعتاد عشّاق هذه السعلاة (الملقبة في لغة الأمم باسم السلطة) أن يتحلّوا به لا يترك لهم فرصة الخيار، لأنه الامتحان الذي يميت في الحال إذا أخفق صاحبه في قراءة الأحجية مرّة واحدة لا مرّتين.

لأن المغامرين الذين يعتنقون هذا الشعار يعلمون أنهم لا يراهنون على هذا الناموس إلا يأساً، لأنهم سوف يخسرون الرهان هنا حتى لو كسبوا، لأن نيل الدنيا رهين بخسارة النفس. أمّا بخسارة الرهان فإنهم على العكس يكسبون الخلاص بخروجهم من لعبة الغشّ.

ولهذا فإن المقامر «أبو مويس» الذي لم يفزعه هلاك كان خصمه في البحور دائماً عندما كان قرصاناً، واحتقر الجبناء دوماً لأنه لم يقم للحياة وزناً منذ اليوم الذي نزل فيه البحر واحترف القرصنة. هذا

المقامر ما لبث أن أطلق ضحكة شيطانية ما إن تلقّى مكتوب «آغا الخيل» المبتسر في كلمتين:

«جاء اليوم الذي سأفعل بك فيه ما أردت أنت أن تفعله بي في يوم آخر!». أطلق ضحكة مجلجلة سمعها العسس والجند وحتى الحريم في نهاية القصر، ثمّ.. ثمّ عمّ سكون. سكون عميق ارتاب في أمره العسس. ولكن وقتاً غير قليل تبدّد قبل أن يستأذنوه بالدخول، وعندما لم يفتح لهم اضطرّواأن يقتحموا عليه خلوته.

في تلك الخلوة التي سبقت دخول هؤلاء البلهاء، كان المغامر المدعو في حوليات التاريخ «محمود أبو مويس» يقف أمام المرآة ليمسّد لحيته بهدوء ويحدّق في وجهه.

استعاد الموقف كلّه في لحظة: استعاد تمرّد رئيس البحرية، ثم خيانة أعضاء الديوان الواحد تلو الآخر. ثم تخلّي ضباط القلعة عن موقفهم ومجاهرتهم علناً بعدم نيّتهم في قصف جموع الأهالي الذين استجابوا لنداء خصمه اللدود، وخرجوا ليتجمهروا في الساحة. بعدها أنبأه أحد العسس بفرار حسناء الأعلاج التي قاسمته المخدع لليلتين متتاليتين. تسلّلت من القصر ولاذت بالفرار خلسةً. لحظتها أدرك بما لا يدع مجالاً للشك أن السفينة بدأت تغرق. لأنه تعلم من سنوات القرصنة أن الجرذان هي أوّل من يهجر المركب إذا هدّده الغرق. وفرار تلك العلجية نذير شؤم لأنها فأرة المركب. فأرة القلعة. وعليه أن يفتّش هو أيضاً الآن، كربّان المركب، عن طريقة للنجاة.

أدرك أن خطيئته لم تبتدىء ساعة أطبق بيديه على عنق مولاه الذي أحسن إليه وقرّبه منه بتعيينه أميناً على أمواله، ولكن خطيئته

ابتدأت يوم رأى دايات تجري في دمائهم سلالات الأغراب يتبادلون تولي أمر البلاد البائسة الواحد تلو الآخر كل بضعة أيام أو بضعة أشهر، فوسوس له الوسواس بسؤال: «ألستُ أنا الأوْلَى من كل هؤلاء؟ ألستُ أنا سليل هذا الوطن المعجون من طينة هذا التراب، أوْلى أن أتولّى أمر هذا التراب بدل السماح لأوباش الآفاق أن يقفوا في طابور كلّ ينتظر دوره في نَيْلها، كأنها مومس في مأخور وليست وطناً نبيلاً لم ينل هذا المصير إلاّ بسبب رحمته بالغرباء ومغالاته في العطاء؟ ألم تحن الفرصة لأن يثأر لكرامة هذه الأم الجريحة التي استبيحت من قبل الأوغاد على مدى المئات من السنين الطويلة؟». وجد السؤال حكيماً، ونسي أن الحكمة يتيمة الدهر ولم تكن يوماً ابنة هذه الدنيا، لأن الأقدار كثيراً ما تخذلها فتحقّق أمراً لا يقبله العقل ولا يخطر للأخيار على بال. ولهذا يقال إن الحكماء أكثر الناس في هذه الدنيا عرضةً للخطأ، لا لأنهم لا يستطيعون أن يوصوا أنفسهم فحسب، ولكن لأنهم يتكلمون لغة أخرى لا تفهمها نواميس دنيانا.

وها هو الدليل مِلك يديه اليوم بعد أن راهن على الحكمة فكان أن خذلته الحكمة وخسر الرهان أبشع خسارة. ولم يبق له الآن إلا أن يتشجّع ليدفع الثمن. يدفع الثمن لأنه وضع بيضه كلّه في سلّة واحدة كما يليق بكل مغامر، أو كما يليق بكل رسول كما كان يفكّر قبل أن ينفضّ حوله الغرباء والأقرباء. وهو إذا كان عليه أن يدفع ثمناً فهو ثمن دماء ابن الجن الذي أحسن إليه وأمّنه على مال الإيّالة؛ فانقضّ عليه ساعة النوم وخنقه بيديه. وإذا كان يستطيع أن ينسى كلّ

ملمّات حياته فليس من حقّه أن ينسى نظرة ولي نعمته هذا عندما أطبق على رقبته بيديه هاتين، ورأى في مقلتيه الجاحظتين تلك النظرة التي لا تنسى، والتي لا يدري الآن عما إذا كانت استنكاراً أم رعباً أم تسليماً من رجلٍ قام بالأمس بدوره بإغراق رفاق الأمس من الأتراك في البحر، وبشنق الأتراب على الأعواد، وبطلب سلفه الموهوب عثمان القهواجي في بني وليد، وقطع رأسه أمام الملأ. نظرة غريبة نفذت في قلبه نفاذ النصل. نظرة حيّره أمرها، وحاول تأويل مغزاها طويلاً، ولكنه كان يجني المرارة وعذاب الضمير في كل محاولاته لفهم معناها. وها هو اليوم يفهم هذا المعنى.

ها هو المغزى ينبثق اليوم كنبوءة مجهولة: «كما تدين تدان». هكذا قالت النبوءة. بهذه النبوءة تكلمت مقلة ذلك الشقي في ذلك اليوم. ولهذا فإن الاستنكار لم يكن سرّ النظرة، لأن الخطاب في النظرة لم يكن موجّهاً له هو وحده، ولكنه موجّه إلى صاحب الخطاب، إلى صاحب النظرة، إلى السماء، إلى القدر نفسه.

وهذا هو سرّ الفجيعة الذي عبّرت عنه النظرة. لأنه ليس على القاتل أن يستنكر أن يَقتل ساعة تحين الساعة. ولكن النظرة كانت نبوءة أيضاً. نبوءة موجّهة له هو أيضاً لأن الخطاب يقول إن دوره أيضاً سوف يجيء. وها هو الدور قد جاء. وقد استشعر خوفاً مجهولاً بمجرّد أن خرج لعصابة القلعة، ملوّحاً بالسيف الملوّث بالدّم (لأنه طعن الضحية بالسيف بعد أن انتهى من كتم أنفاسها)، معلناً حتف الطاغية، فما كان من الجمع إلاّ أن هلّل وكبّر وردّد كما ردّد، في كل مرّة تشهد فيها القلعة انقلاباً جديداً: «لقد خلّصتنا من

جور هذا الطاغية!». كأن كل مريد سلطان لا بدّ أن يكون طاغية. كأن البلهاء ينتظرون أن يتنزّل من رحاب السماء ملاك ليحكمهم، ناسين أن الناس لا بدّ أن يحكموا بمثيلهم. فإن كانوا طغاةً بسجيّتهم حكمهم طغاة، وإن كانوا أخياراً حكمهم أخيار. ولكنهم عادةً ينسون سجاياهم الشريرة ويطلبون في حكّامهم السجايا التي تنقصهم. ولا يدرون أن حدوث هذا أعجوبة لأنه مخالفة صريحة للوصية الإلهية التي يقول نصّها: «كما تكونوا يولَّ عليكم!».

والآن!

الآن جاء دور السفلة مرّة أخرى ليشمتوا. جاء دور السفلة ليصرخوا بأعلى صوت في وجه ولي أمرهم الجديد: «لقد خلصتنا من جور هذا الطاغية!». وويل له إن وقع في أيديهم. سوف يفعلون به آنذاك ما فعله بعض سلفه بأسلافهم. سوف يجدعون أنفه، ثم يسملون عينيه. وسيقطعون أذنيه، ثم يجتثّون لسانه، ثم يقطعون يديه، ثم رجليه، ثم يسلخون جلده. ثم يقطعون رأسه ليعلقوه على باب القلعة. أمّا جثمانه فسوف يرمونه لكلاب الضاحية. وبرغم أنه يعلم أن الشاة لا يهمّها سلخها بعد ذبحها، إلا أنه لا يستطيع أن ينكر أن الإحساس بالعذاب أسوأ من الموت. الإحساس بالعذاب مصير أسوأ من الموت. لأن ما نخافه من الموت ليس الموت، ولكنه الألم الذي يسبق الموت. والإنسان بلا شك سلطان قَدره إذا استطاع أن يضع حدّاً لألمه الذي يخيفه من الموت. ولهذا فإن الشجاعة ليس أن تختار الموت. ليس أن تموت، ولكن أن تحتمل العذاب الذي يسبق الموت. الشجاعة أن تواجه سكرات الموت. أن تحتقر آلام الموت.

وهو يخشى أن تخذله شجاعته أمام الملأ فيموت مرّتين: مرّة بسبب العار، والمرّة الثانية بسبب السيف.

ولهذا فإن شعار: «بيدي لا بيد عمرو» هو أنبل ما ابتدعت البشرية في مسيرتها الدموية. وتنفيذه لا يحتاج إلى الشجاعة بقدر ما يحتاج إلى روح المغامرة التي لم تنقصه يوماً.

و. . فجأة استولت عليه نشوة. أحسّها تغزوه من رأسه وتفيض بوشوشة شبيهة بهسيس الريح في فروة أحراش صيفية لتكتسح صدره فتغمر قلبه. أحسّ نفسه بفعل النشوة خفيفاً كقشّة حتى أيقن أنه يستطيع أن يطير في الهواء بهبّة ريح. وقد استمرّ هذا الإحساس بفقدان الوزن حتى عندما خطا خطوة، خطوتين، ثلاثاً، ليضع رأسه في المشنقة.

القسم الثاني

1

يوم تزاحم في الديوان أكابر الإيّالة وأعيان المدينة وأشياخ الضواحي، وزعماء القبائل لمبايعته وتقبيل يديه، تعبيراً عن فروض الولاء، لم يفتقد في تلك القيامة سوى مخلوق واحد. ظلّ طوال تلك المراسم يختلس النظر إلى الوجوه منتظراً في كل لحظة أن يقع بصره على صاحب النبوءة، ولكن المهاجر لم يظهر. انتظر طويلاً. بدأت الجموع تتفرّق، والزحام ينفضّ، فاختلى بكبير التجّار في ناحية ليستفسر عن صاحب اللثام. ولكن المكني بدل أن يجيبه على السؤال، انهمك في إلقاء خطبة قال فيها إنه استطاع أن يقنع سليل المرابطين بالبقاء في ربوع الإيالة، والتراجع عن نيّته في الهجرة إلى بلاد الحجاز أو تأجيلها إلى وقت أنسب. وأضاف أنه استأجر له بيتاً في ضواحي المنشية تعبيراً عن امتنانه له، جزاء الأفضال التي منَّ بها عليه، سواء في البلدان المتاخمة للأدغال أم أثناء عبوره صحاري أهل اللثام. ولكن صاحب السلطان اضطرّ لمقاطعته بسؤال صغير ولكنه في فم أهل السلطان بدا خطيراً:

ـ ولكنه لم يأتِ. .

حدّق في عيني صاحب التجارة بنظرة ذات معنى. نظرة ارتجّ لها قلب المكّني، لأنه خبر أهل السلطان وعرف كبرياءهم وسطوتهم وغرابة أطوارهم، فلجلج قائلاً:

ـ ربما ألمّت به وعكة يا مولانا لأني لم أره منذ يومين!

ابتسم الداي بغموض، ربّما ليهدّىء من روع صديقه القديم عندما لمح في نظرته إيماءً يشتمّ منه اللوم أو الوعيد. ولكن البك لم يكن من الغباء بحيث لم يفهم الرسالة التي بعثها له صاحب اللثام بغيابه. بلى. غيابه يقيناً رسالة. تغيّبه رسالة تقول فحواها إن عليه أن يخرج هو أحمد بك القرمانلي سلطان إيّالة طرابلس إلى صاحب النبوءة، بوصفه صاحب الفضل عليه في تولي زمام السلطنة لأنه كان على شفا الهاوية التي سيصير فيها قرباناً بدل نيل السلطان لو لم يهُبّ هو لنجدته بفكّ طلسم النبوءة التي رآها في المنام. هذه هي الوصيّة التي أرسلها له الداهية بغيابه. وهو ليس في حاجة لأن يصير عرّافاً مثله كي يفكّ رموز المكتوب. وكان بالإمكان أن يغفر للداهية جسارته، أو شجاعته، ولكن ما لم يستطع أن يغفره له هو الأحجية نفسها. هو الامتحان. هو رهانه على فراسته. فبدل أن يكتفي بتلقينه درساً في الأخلاق، سمح لنفسه بأن يلقنه درساً في الذكاء. والتشكيك في الذكاء هو التهمة التي لا يغتفرها الرجل للرجل، بل لا يغتفرها الرجل حتى لامرأة، بل حتى لطفل، فكيف إذا جاءت من رجل، وفوق ذلك ليس رجلاً ككل الرجال، ولكنه رجل حكيم؟ التشكيك في دهاء الرجال حتى لو كان تلميحاً هو حطّ من قَدْر الرجل، بل واستهانة مميتة بحقيقة الرجل، فكيف إذا كانت الإهانة موجهة لا إلى رجل، ولكن إلى إنسانٍ اختارته الأقدار ليكون سلطاناً على الرجال؟ عليه الآن أن يقطع الشك باليقين ويمحو الإهانة في مهدها، لأن خطورتها جاءت من يد داهية يعني ما يفعل ويدرك ما يقول، ولم تكن حسن نيّة من غافل. عليه الآن أن يذهب لسداد الدّين أوّلاً لينقل بدوره إلى صاحب الرسالة رسالةً تقول إنه جاء

لزيارته لسداد الدّيْن، وليذكّره بأنه اليوم ليس كالأمس. اليوم هو سلطان، وصاحب الإحسان رعيّة. رعية حتى لو كان صاحب إحسان، لأن الرعية دائماً عبد لصاحب السلطان في كل الأعراف، والعبد لا يستطيع أن يحسن لسيّده حتى لو فداه بأنفاسه ووهبه حياة. لأن لا حياة لعبدٍ بغياب حياة مولاه.

ولهذا فإن العبد الذي يتجاسر بتذكير مولاه بفضل له عليه يرتكب جريمة عقابها الموت. ولكنه. . ولكنه سوف يغفر له هذه القحة. سيغفر له هذا الجرم لا تسامحاً، ولكن استكباراً. سيتجاهل هذا المتن في الرسالة. ولكن هل يستطيع أن يتجاهل الشقّ الثاني من الرسالة الذي يشكّك في قواه العقلية؟

في ذلك اليوم، كما تقول المصادر التاريخية، هبّ أحمد بك القرمانلي خارجاً. هبّ يزيح في طريقه الجموع، ويدفع بمنكبيه الخلق الذي تجمّع لتهنئته. أزاح حتّى الرعاع بالأيدي معرّضاً حياته للخطر. هرع إليه العسس، وأحاط به الجند يدفعون عنه الناس من كل جانب لئلاّ يعاجله أحد الحاقدين بطعنة في يوم عرسه ذاك.

شقّ طريقه دون أن ينتظر عوناً من أحد، ودون أن يبوح بنيّته لأحد وسط استغراب الأهالي واستنكار الأكابر، وفزع قادة الانكشارية وكبار الضباط. وعندما ألحّ أعضاء الديوان في السؤال عن حقيقة الأفعى التي لذغته لم يزد على القول بلهجة لامبالاة:

ـ لا شيء! كل ما هنالك أني نسيت أن أفي بنذر عاهدت الله عليه!

2

لم يجد صاحب الرباط في البيت الذي قال المكّني إنه استأجره له في ضاحية المنشية، ولكنه وجده في خلوة فوق رابية تطلّ على غابات نخيلٍ تمتدّ في مسافاتٍ تنتهي بمرأى بحرٍ أزرقٍ ساكن، مثل بحيرة أو مستنقع هائل في ذلك اليوم الصيفي العاري من السحب.

ترجّل عن جواده واستبقى الحاشية قائلاً إنه يريد أن يختلي بالرجل الذي يعتلي الرابية. صعد المرتفع وحيداً وسط دهشة الجميع حتّى وقف فوق رأس المرابط. صمت لحظة قبل أن يخاطبه وهو يتظاهر بمشاهدة الأفق البعيد حيث يستلقي البحر مثل صحراء زرقاء:

ـ النصارى يقولون: «إذا لم يذهب محمد إلى الجبل فإن الجبل يذهب إلى محمد»، فهل يرى أهل اللثام في هذا القول مديحاً في حقّ رسولنا الكريم أم استخفافاً؟

أجاب الرجل دون أن يلتفت:

ـ ليس على أهل اللثام أن يروا في هذا القول لا ذمّاً ولا استخفافاً برغم أني على يقين من أنهم لن يستحوا من التعبير عن سعادتهم فيما لو رأوا جبلاً حقيقياً يهرع لملاقاة كلّ صاحب نبوءة!

هتف القرمانلي بأعلى صوت:

ـ أحسنت! أحسنت! هذا جواب يليق بصاحب نبوءة! هذا جواب يليق بكاهن!

ثم أضاف وهو يتقدّم ويقتعد إلى جواره القرفصاء ويراقب الخلاء الأزرق:

ـ ماذا يروق للناس في الصحراء أن يسمّوك: كاهن، أم مرابط، أم عرّاف، أم ماذا؟

أجاب صاحب اللثام دون تردّد:

ـ في الصحراء لا يطلقون عليّ أي اسم من هذه الأسماء؛ لأن الناس هناك لا يرون فرقاً بين هؤلاء، لأن المهم ليس الاسم ولكن النبوءة.

سكت ولكنه استدرك بسرعة ليضيف:

ـ أعني الصدق في النبوءة.

ولكن القرمانلي تجاهل الاستدراك وعقّب على الشقّ الأوّل من الجواب:

ـ ولكنّنا هنا نرى فرقاً شاسعاً؛ لأننا كثيراً ما نأمر بقطع رؤوس الكهنة أو العرافين لأننا لا نجد فرقاً بينهم وبين السحرة الذين لعنهم القرآن.

استنكر الرجل دون أن يحرّك ساكناً أو يلتفت إلى جليسه:

ـ هل تأمرون بقطع رؤوسهم حتى لو أنقذتكم نبوآتهم؟

ـ كذب المنجمون ولو صدقوا! هل نسيت الحديث الشريف؟

ـ هذا في ناموسنا يسمى نكران إحسان!

هتف القرمانلي بحماسة مفاجئة:

ـ مرحى! مرحى! لم يأتِ الجبل لملاقاة محمد على هذه الرابية إلاّ ليبحث معه أمر الإحسان.

ـ وهل يفتي فقهاؤكم بقولين حتى في أمر الإحسان؟

ـ في أمر الإحسان يفتي فقهاؤنا لا بقولين فقط، ولكن بألف قول!

حدج جليسه بنظرة خفية قبل أن يتساءل:

ـ هل يدري ضيف إيّالتنا المبجّل لماذا؟

أجاب المرابط ببرود:

ـ لماذا؟

ـ لأن ثمن الإحسان دائماً انتقام!

ـ انتقام؟

ـ بلى.

ـ هل ينتقم عابر السبيل الذي سقيته الماء من يديك بعد أن أشرف على الهلاك بسبب الظمأ منك، بعد أن يستعيد حياة وهبتها له بجرعة الماء؟

أجاب السلطان بلا تردّد:

ـ بالطبع ينتقم. بل إنه لن يفكّر بشيء بعد أن يستعيد الحياة التي وهبتها له بجرعة الماء بغير الانتقام منك شرّ انتقام!

ـ فهمت!

سكت القرمانلي. اختلس إلى جليسه نظرة خفية. تساءل بغموض:

ـ هل فهمتَ حقّاً؟

ـ فهمت كما يجب أن أفهم. أرجو ألاّ تنسى أن الإشارة هي لغتنا نحن معشر الكهنة والعرافين.

ابتسم السلطان. أشاح ببصره. رنا إلى الخلاء الأزرق دون أن يراه. قال:

ـ ولكنّي لم آتِ لأنتقم، بل كي أقدّم لضيفي امتناني جزاء الإحسان.

ـ ليس عليك أن تتقدّم لي بامتنانٍ جزاء الإحسان أبداً.

ـ لماذا؟

ـ لأن النبوءة ليست إحساناً.

ـ ماذا؟

ـ لم تكن النبوءة يوماً إحساناً لأن رسالة النبيّ أن يبوح بالنبوءة لا أن يحجب النبوءة، وليس عليه في سبيل ذلك أن يطلب الجزاء، لأن ذلك سينقلب في العرف تجارةً.

ـ ألا ينال بعض أصحاب النبوءة في بلادكم كراءً جزاء أتعابهم؟

ـ هؤلاء رسل الزور وأنبياء الكذب ولم يكونوا أصحاب نبوءة في يوم من الأيام.

سكت ثم أضاف بيقين:

ـ النبوءة واجبي الذي يجب أن أقوله حتى لو كنت أعرف أني سأنقذ بقوله عدوّاً سوف يتسبّب إنقاذي له في هلاكي!

ـ هذه بطولة!

ـ بل هو الواجب.

ـ ولكن ماذا يقول ناموسكم في أولي الأمر؟

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ ألم يحثّنا الكتاب الكريم على أن نطيع أولي الأمر منّا؟

ـ هذا يقين.

سكت السلطان زمناً. ترنّحت أشجار النخيل إثر هبّة نسيم مفاجئة. غنت بلحن مجهول. في البُعد استجاب الغمر الأزرق بموجٍ وشّى سكونه بالبياض. قال السلطان:

ـ لقد انتظرتك اليوم.

التفت نحوه الجليس لأوّل مرّة، ولكنه لم يقل شيئاً فأضاف البك بلهجة غريبة:

ـ هل تصدقني إذا قلت لك إني لم أنتظر أحداً كما انتظرتك؟

صمت الجليس طويلاً. مدّ يداً نحيلة، لوّحتها شموس الصحراء، إلى لثامه. رفع طرفه الأسفل وغطّى به أنفه فلم يعد يبدو منه سوى العينين. قال:

ـ أمثالك من الرجال ليسوا في حاجة لمثل هذا أبداً.

ـ هل تسمح لي بإيضاح؟

ـ الأمر ليس في حاجة إلى إيضاح. وأنت أعلم الناس بذلك. هل تدري لماذا؟

لم ينتظر جواب الجليس فأضاف:

ـ لأن أمثالك يعرفون ماذا يريدون. والذين يعرفون ماذا يريدون فإن مراسم الاحتفاء تضيرهم أكثر مما تنفعهم. أردت أن أقول إنها تحزنهم أكثر مما تدخل الفرح إلى قلوبهم.

ـ هل لي أن أعرف لماذا؟

ـ لأنها إهانة وليست يوماً مجداً. لأن من عرف ماذا يريد فقد عرف حقيقة مّا. ومن عرف حقيقة مّا سوف يرى المراسم مهزلةً وليست احتفاءً!

تابعه السلطان بفضول. تابعه بما يشبه الدهشة. ولكن صاحب النبوءة أضاف:

ـ هذا سبب أوّل.

أفاق البك من شروده بعد أمدٍ. تساءل:

ـ والسبب الثاني؟

ـ الحزن!

قالها الرجل ببرود، كأنّ الحزن صديق يشاركهما الجلسة وليس عدوّاً اعتاد أن يفتك بأولئك الأبطال الذين أعجزوا حتى مردة الجنّ.

ردّد البك غائباً:

ـ هل قلت الحزن؟

ـ لم أشأ أن أتنكّر فآتيك بحزني وأنا أعلم الناس بحزنك اليوم لا بفرحك.

ـ ولماذا عليك أن تظنّ بأني اليوم حزين؟

ـ أليس النصر بداية هزيمة؟

ـ هزيمة؟

ـ يوم الولادة مأتم لأن الموت سوف يأتي ليضع لها خاتمة يوماً. وفي ساعة الفرح بنيل السلطان حزن، لأن السلطان وزر في رقبة السلطان وليس مكافأة على صنيع.

تابعه البك بنظرة خفيّة تفضح غموضاً، وتأمّلاً، واغتراباً.

أدهش القرمانلي الجميع يوم أمر بإقامة خباء صغير في بهو السراي ليكون له بمثابة زاوية يأوي إليها في سويعات الفراغ بقصد التفكّر. لقد اعتادت الحاشية (التي توارثها دايات الإيّالة) غرابة أطوار المخلوقات التي توالت على حكمها. وكانت ترى في تصرفات الداي الجديد فنّاً جديداً من فنون الغرابة تفوّق على كل الذين سبقوه. وكان أعضاء هذه العصابة يقولون، كلٌّ في سرّه في بداية الأمر، أن هذا داي لن يدوم له المقام في السراي أمداً طويلاً. ثم بدأوا يتخلّون عن الوسوسة ليتهامسوا بظنونهم فيما بينهم. ثم تمادوا كلّما شهدوا موقفاً جديداً من مواقف هذا الفتى ليتغنّوا بنبوءاتهم جهاراً ناسين أن الأقدار كانت قد خذلتهم مراراً عندما تنبّأوا لأسيادٍ تبوّأوا سدّة الحكم بالخلود في العروش، فلم يلبث هؤلاء سوى أيام معدودة. وفي حالات أخرى بضع ساعات، لأنهم برغم تجاربهم ومواهبهم في حبك الدسائس، إلاّ أنهم كانوا يُخدعون بمظاهر هؤلاء الدايات، أو بما ملكت أيديهم، أو بسلالاتهم، لينسوا في كلّ مرة أن حسابات الأقدار تختلف عن حسابات السلالة البشرية، لأنها لم تقم يوماً وزناً لعمرٍ أو لجاهٍ أو لمال أو حتى لبطولة. ناموس الأقدار لغز مستغلق على الخليقة، لأنه سرّ مستعار من طبيعة الأقدار نفسها.

والأقدار هي التي شاءت أن تخذل الحاشية هذه المرّة أيضاً، وتسخر من حكمتها يوم كذّبت نبوآتها بشأن مستقبل «الفتى» كما كانت تسمّيه سرّاً من باب الاستخفاف، لتجعل منه الأقدار قدر البلاد الذي قلب الإيالة رأساً على عقب، وحكمها أكثر من ثلث قرن،

وانتصر على الخصوم، وأفشل كل الدسائس، وقمع كل ثورات القبائل، واستهان بسلاطين الآستانة الذين ترتعد فرائص حتى ملوك أوربّا لمجرّد ذكرهم، وأخضع البحر كلّه لسلطانه، وأسّس أسرةً قُدّر لها أن تحكم الوطن قرناً كاملاً وربع القرن، حتّى إن المؤرخين وأصحاب الحوليات ورواة السير لم يجدوا بدّاً من أن يطلقوا على هذا «الفتى» (الذي يبدو طفلاً بالفعل) أفخم الألقاب مثل: «أحمد الأكبر» تيمّناً باسم الإسكندر الأكبر على ما يبدو، بل وحتى لقب مقدّس مثل: «أمير المؤمنين» الذي لم يفز به حتى سليمان القانوني أو سليم الأوّل، أو من كان في وزن هؤلاء من مؤسسي الإمبراطورية العثمانية. فمن يدري عما إذا لم يكن ذلك الخباء البائس الملفّق من قطع الجلد (الذي أمر أحمد بك إقامته في بهو السراي في أحد الأيام الأولى لتولّيه) هو واحة النّبوءة التي جلبت للبلاد الخلاص؛ لأن المخلوق الذي تجري في عروقه دماء الصحراء لا يفلح في تحقيق حلم من أحلامه، ما لم يخلُ إلى نفسه لأنه يجد الفرق بين الخلاء والخَلوة، كما يجد فرقاً بين الوسوسة والتفكّر، أو بين النبأ والنبوّة؟

قد قضى طفولته كلّها في الضاحية التي لم تنقطع صلتها لا بواحات الدواخل ولا بالصحراء. كما كانت الوسيط الذي يربط بين هذه الأنحاء وبين الساحل بمدنه وشطآنه ومرافئه، كأنّ الأقدار شاءت لهذه الرقعة أن تلعب دور الأعراف التي تفصل بين الجنة والنار (جنّة الصحراء ونار العمران كما يرى البعض، ونار الصحراء وجنّة العمران كما رأى البعض الآخر).

ذلك أن أهل الدواخل (سواء كانوا سكان واحات، أو أبناء

صحراء)، كانوا ينزلون هذا العراء منذ القدم على ما يُروى. ينزلون أرضه بعد أن تضطرّهم المجاعات إلى نزوله فيجيئون لتبادل بضائعهم مع أهل السواحل بحذر شديد، لأن التجربة علمتهم أن أسلافهم كثيراً ما حملوا في أمتعتهم أوبئة ما لبثت أن قضت على قبائلهم، دون أن يفلحوا في أن يجدوا لها ترياقاً. ولمّا كانوا لا يستطيعون أن يستغنوا عن بضائع الشمال دون أن يعرّضوا أنفسهم للفناء أيضاً، فإنهم آثروا أن يتبادلوا البضائع عن بُعْد في الأزمنة الأولى. كانوا يتركون أكياس الذهب في العراء ويقفون لمراقبتها عن بُعْد، فيقبل تجار السواحل ليضعوا إلى جوارها ما يرون أن مقابلها يستحقّه من مؤن وسلع، ثم يتراجعون مسافة مناسبة ليتيحوا الفرصة لأهل الدواخل لفحص المبادلة، فإن نالت استحسانهم تمّت الصفقة، وإن استهانوا بحجم السلع، عادوا على أعقابهم لينتظروا في البُعْد حتى يضطرّ أهل الساحل لدفع المزيد.

ولكن الأيام برهنت للقوم أن الشمال لا يعاني من الأوبئة على مدار العام، ولكن الأوبئة نكبة ككلّ النكبات تأتي فجأة وتذهب فجأة، دون أن يدري أحد لا سرّ مجيئها ولا سرّ ذهابها، فاطمأنوا وبدأوا يقتربون. بدأوا يضيّقون المسافة بينهم وبين شركائهم التجّار في البدايات، ثمّ صاروا يحيّونهم عن بُعْد، ثم تنازلوا لمحاورتهم عبر مسافات أقرب، ولكنهم لم يجتمعوا إليهم إلاّ في مراحل أخيرة.

ويقال إن ضاحية المنشية كانت هي نقطة اللقاء التي صارت في مراحل تاريخية تالية سوقاً لتبادل البضائع بين هذين الفريقين. ثم تحوّلت مع مرور الزمن معبراً بين الشرق والغرب يؤمّها المهاجرون

القادمون من مراكش أو سيجلماسة أو حتى الأندلس، القاصدون زيارة الأراضي المقدسة أو مصر أو غيرها من بلاد الشرق. وكان برفقة تلك القوافل أناس من مختلف الملل والنحل: مغامرون وطلاب كنوز ودراويش وزهّاد وقتلة وملائكة، يتنكّرون في أسمال الشحاذين، ومردة جان يتنكّرون في مسوح القدّيسين.

وبسبب هذه التناقضات شهدت الضاحية في تاريخها معجزات لا يصدّقها العقل، كما شهدت جرائم ترتعد لها الفرائص. شهدت أيضاً كل ما يمكن أن يشهده المكان على كوكب هذه الأرض إذا اجتمع فيه الملائكة والشياطين، الأفاضل والأراذل، القتلة والدراويش. وكانت الفئة الأخيرة أكثر الفئات التي استثارت فضول الناس، برغم أنها أكثر الفئات تجنباً للناس وحبّاً للعزلة. كان الدراويش يرافقون هذه القوافل دون أن يعلم أصحاب القوافل أنفسهم من أين جاؤوا، حتى إذا بلغوا الواحة تخلّوا عن القافلة واستقرّوا. يقيمون في أحراش النخيل، أو بين الصخور، أو حتى في العراء، ليمارسوا عملاً غامضاً يسمّونه في لغتهم «الانقطاع». ولكنهم، برغم جنوحهم للسلم، لا يفلحون في كسب ثقة الأهالي إلا بعد أن يذيع صيتهم في تقديم الكرامات ويثبتوا أنهم أولياء. ساعتها يقيم لهم الناس المأوى، ويتولّون إطعامهم، ويصيرون جزءاً من حياتهم، بل وعلامة للمكان يقصدها الناس من أبعد مكان. ويوم ترعرع كانت المنشية تعجّ بمثل هؤلاء الأولياء، بعضهم أحياء يواصلون مسيرة العزلة والمنفى في اضرحة الأحياء. وبعضهم الآخر أموات ما زالوا يحيون أيضاً في اضرحة الأموات. بعضهم أقبل من أعماق الصحراء، وبعضهم الآخر

أقبل من الشرق أو الغرب، وبعضهم الثالث تنزّل على الواحة من رحاب السماء.

كان الناس يحيطونهم بهالة من القداسة، ومن الغموض. هذه القداسة، وهذا الغموض كانا السبب الذي استزرع، ربما في نفوس النشء المسكين، بذور الخوف من هؤلاء؛ لأنهم رأوا أهلهم لا يعاملونهم (أحياءً أم أمواتاً) إلاّ كما يعاملون الأشباح وأشرار الموتى، الذين يفزعون النساء الحوامل في الليل فيعرّضوهنّ لإسقاط الأجنّة من بطونهنّ. وهو لا يستطيع أن ينسى كيف خرج له أحد هؤلاء المرابطين الأحياء المشهورين بكراماتهم ومعجزاتهم من دغل الحقل في إحدى الليالي، ووضع في يده قطعة تمر رطب تقطر عسلاً في فصل الشتاء الذي لا وجود فيه للرطب. ثم ابتسم له ابتسامة مشجّعة فوضعها في فمه وبدأ يمضغ. يعترف الآن أنها كانت ألذّ قطعة تمر ذاقها في حياته كلّها برغم ما حدث بعد ذلك. ذلك أنه فوجىء ببسمة الوليّ المزعوم تتسع لتكشف عن لسانٍ شره كلسان حية خرافية بدأ يطول ويطول ويطول حتى أدركه والتفّ حول عنقه. بدأ يختنق فلفظ التمرة الشقية من فمه في اللحظة التي سمع فيها ضحكة غريبة كالحشرجة تنطلق من فم الوغد. أغمي عليه يومها، وعندما أفاق وجد نفسه في فراشه فظنّ أنه كان يعاني كابوساً في حلم، لولا الحمّى. سهر الأب ليلتها فوق رأسه وقرأ على رأسه مزامير سمعها لأوّل مرّة. قال له أن ليس عليه أن يخشى الأولياء لأنهم مجرّد أشباح، ولا الأشباح لأنهم أولياء لا يؤذون إلاّ من يخافهم. قال له إن الرجل لا يجب أن يخاف أي شيء في هذه الدنيا إذا شاء أن

يخافه كل شيء. قال له أيضاً إن الأخيار إذا اعتزلوا الناس يستطيعون أن ينقلبوا أولياء، بل حتى ملائكةً، كما إن الأشرار يستطيعون بالعزلة أن ينقلبوا مردةً وحتى شياطين. السرّ كلّه في العزلة. ثم انتهى إلى القول بأن كل إنسان في هذه الدنيا يستطيع أن يحقّق كل شيء إذا أتته الشجاعة في أن يعتزل. قال أيضاً إن العزلة ليست انقطاعاً أو اغتراباً كما يظنّ البلهاء ولكنها معجزة. بل هي المعجزة الوحيدة التي جعلتها الأقدار في متناول الجميع، ولكن هيهات أن يحتمل وزرها الجميع. الأب قال له في تلك الليلة ما لم يُكتب له أن ينساه إلى الأبد. قال إن العزلة معجزة لأنها ليست خلوة، ولكنها معجزة لأنها صلاة. بل هي المعجزة الوحيدة التي تستطيع أن تصنع من الإنسان أسطورةً، لأنها ليست صلاة وحسب ولكنها حرية!

وقد صار له هذا المزمور هاجساً تغلغل فيه ممزوجاً بالرؤى وهواجس الحمّى. وان عليه أن يحيا طويلاً ويجرّب كثيراً حتى يعلم أن مثل هذه المزامير إذا تمازجت مع الهواجس هي التي تعجن طبيعتنا وتضع حجر الأساس لمسيرتنا الروحية والدنيوية.

فقد صار الاعتزال ديانته منذ ذلك اليوم. اعتزال من جنس آخر يختلف عن اعتزال الزهّاد والعُبّاد ودراويش العبور أو كهّان الخلوات. اعتزال إنسانٍ يحيا بين الناس ولكنه يعتزل الناس. اعتزال إنسان أجبرته أسباب الدنيا أن يحيا بين الناس ولكنه يعتزل الناس لأنه لا يفعل ما يفعله الناس، ولا يفكّر كما يفكّر الناس، ولا يأمل كما يأمل الناس. وقد بدأت هذه البذرة الخفية تنمو في قلبه مع تتابع الأيام دون أن يدري، وكانت سبب تفوقه في الفروسية في مرحلة

تالية دون أن يدري أيضاً. وهي التي ألهمته الخلاص ساعة أراد له العدوّ هلاكه، وكانت السبب الذي قلب السحر على الساحر لتأتي له بزمام أمرٍ لم يطلبه يوماً ولم يخطر له على بال، ربما لأن زمام الأمور لا تذهب إلى من يطلبها إلاّ من باب الاستثناء. أما ناموسها فيستدعي أن تذهب إلى من زهد فيها لا إلى من عاند في طلبها. وليس عليه اليوم إلاّ أن يقيم للعزلة حرماً يليق بجلالتها لا لحاجتها إلى القربان، ولكن لحاجته هو إلى زاوية لممارسة العبادة التي آمنته من خوف. والخباء الذي يراه أهل الحضر سخريةً من عمرانهم هو المأوى الأصلح، لأنه رمز الخلاء الذي كان دوماً وطن النبوءة.

ويُروى أن من جوف ذلك الخباء (الذي لم يجد حتى الخدم حرجاً في أن يصفوه بـ«الوضيع» سرّاً) استوحى وليّ الأمر عقب تولّيه فصول تلك الخطّة الرهيبة، التي لم تكن لتقلب نظام المملكة رأساً على عقب وترسي على أنقاضه كيان نظامٍ جديد لو لم تكن بمثابة الشرّ الذي لا بد منه (كما يرى المؤرخون)، والذي لولاه لما تحول أحمد القرمانلي من مجرّد «باش آغا» يافع ملقّب باسم «الفتى» إلى داهية أسطوري زعزع في زمن قصير أركان السياسة الدولية بعد أن انتهى من زلزلة أركان السياسة في بلده.

4

أمر بنصب الخباء في البهو حتى قبل أن ينتقل من سكنه بالمنشية إلى رحاب السراي. أمر بنصب كيان الخلوة في اليوم الذي أعقب تنصيبه هو دون أن يدرك يقيناً لماذا فعل ذلك. لم يتخيّل أن تكون وصية الوالد حيّة في الوجدان إلى هذا الحدّ. لم يتصور أنه ظلّ

يهدهد في القلب بذرة العزلة القادرة على تحقيق الخلاص طوال هذه الأعوام. لم يصدّق أنّها ظلت طوال هذا الزمان تتفتّح فيه وتترعرع معه حتى صارت سرّ فلاحه في كل شأن من شؤون دنياه برغم أنه نسيها طوال هذه السنوات أو، بالأصح، تناساها. وها هي تستيقظ فجأة فيسارع ليقيم لها الحرم الأقدس. أعلنت عن نفسها في يوم نصره الكبير فهل يعقل أن يكون الحدث هو الذي استفزّها؟ كلا، ثم كلاّ. هو يخادع نفسه ويتظاهر طوال الوقت بالجهل. هو يتجاهل ولكنه لا يجهل. لأن لا أحد يفلح في أمر دنياه دون أن يعرف نفسه. ومن عرف نفسه لا يفعل شيئاً دون أن يعرف لماذا يفعل. السرّ يكمن في الشبح. السرّ في داهية الصحراء الذي حمل له من صحرائه تلك الوصيّة. حمل له وصيّة لا بعلمه فحسب ولكن بمسلكه أيضاً. الوصيّة ليست ناموساً مزبوراً في لوح أو مخطوطاً في قرطاس دائماً، ولكنها مسلك أيضاً. هي خُلُق أيضاً. بل هي مسلك ذو طبيعة أخلاقية. بلى، بلى. الوصيّة الحقيقية هي المسلك مضافاً إليه نصيب من خُلُق. الوصيّة لا تكون وصيّة إلهيّةً ما لم تكن زواجاً بين قطبين: مسلك زائد أخلاق. والكاهن الرهيب هو البرهان على هذا. لقد وجده يصلّي. لقد ضبطه متلبّساً بصلاة يسمّيها أئمّة الفقه «وثنية». يصلي أنبل صلاة في أنبل حرم. يختلي بنفسه على رابية ويسرح في ملكوت الربّ. يسرح في ملكوت الربّ في يوم تنصيب مليكٍ كان له الفضل في تنصيبه. يسرح في ملكوت الربّ حتى إنه لم يلتفت لمليكه هذا حتى في الساعة التي أقبل فيها عليه ليقدّم له هو فروض الولاء، بدل أن يقوم هو بتقديم فروض الولاء لصاحب

الملك. فأي مخلوق في هذه الدنيا يجرؤ على عمل كهذا لو لم يكن هذا المخلوق حاملاً لوصيّة؟

لم يكتفِ بهذا وحسب ولكنه حاججه بمنطقٍ لم يسمع بمثيل له من قبل. منطق قد يبدو دغلاً من أحاجٍ. وعلى المرء أن يعتصر قلبه لا عقله كي يدرك الإيماء. كي يفكّ طَلسم الأحاجي. وهو لا يريد الآن أن يستنجد بالعقل بحثاً عن تفسير، ولكن عليه أن يكتفي بيقينه العميق بأن ما لم يقله ذلك المخلوق أبعد منالاً ممّا قال، وما لم يدركه هو في هذا القاع أكبر شأناً بكثير مما أدرك، برغم أنه يكابر ولا يريد أن يعترف له بالفضل في إنقاذه يوم تأويل الحلم مردّداً الحديث الشريف: «كذب المنجمون ولو صدقوا» كأنه تميمة.

5

في اليوم المشهود الذي سبق الوليمة الدمويّة، خرج القرمانلي من مكمنه في الخباء قبيل حلول القيلولة بقليل. صرف العسس وخرج وحيداً. امتطى صهوة جواده الأبلق ومضى. عبر ساحة السوق بخيلاء. ثم اجتاز السور ومضى حتى غيّبته الحقول التي تتناثر في أرضها أشجار النخيل المؤدية إلى ضاحية المنشية.

ويُرْوَى أن صاحب السلطان قضى ليلته تلك بين جدران بيته القديم الذي توارثته العائلة أباً عن جد. لم يقضه في صلاة من صلوات خلواته في الخباء، ولكنه قضاه في صلاة من جنس مريب هذه المرّة كما تجمع الروايات. ذلك أنه سهر الليل كلّه مع رفاقه القدماء في سلاح الفرسان.

كان القصر مستطيلاً في بنيانه، مشيّداً على رابية تطل على ضريح سيدي الهاني من جهة، وعلى شطّ البحر من جهة ثانية. كما تشرف على الطريق التي تربط بين المدينة وتاجوراء. وكان الفرسان يتركون جيادهم في حقول النخيل ويتسلّقون الرابية مشياً على الأقدام وتحت جنح الظلمة خوفاً من استثارة الشبهات كما تبيّن فيما بعد. ويبدو أنهم اجتنبوا الإقبال على القصر في جموع للسبب نفسه. وقد ذكر شهود العيان بعد مرور الوقت أن الأضواء داخل القصر ظلّت تنبعث من النوافذ حتى كتمها قبس الفجر.

ولم يجرؤ أحد على التشكيك في أمر هذه الخلوة، أو تناول سيرتها، لأن دهاء الداي لم يتح للألسن لا الفرصة ولا الوقت، مستثمراً بذلك تجربته في سلاح الفروسية التي لا تعتنق ديناً كما تعتنق المباغتة. فقد فوجئت الإيالة في الصباح الذي تلا تلك الليلة بالاستعدادات التي بدأت تجري على قدم وساق تحضيراً للمأدبة الفخيمة التي عزم القرمانلي على إقامتها لضبّاط الانكشارية احتفاء بانتصاره على أعدائه، وتكريماً لهؤلاء بمناسبة تنصيبه داياً على الإيّالة. ويقال إن القرمانلي قضى ليلته هناك ونهاره أيضاً ليشرف من داخل القصر على فصول الأحداث الجسيمة التي شهدها المكان، في حين نفت أقوال أخرى هذه الرواية قائلة إن الداي تسلّل من قصره ذاك متستّراً بغيهب الفجر ليشرف على المسرحية الدامية لا من داخل الخشبة، ولكن من خارج خشبة المسرح كما يليق بأيّ مخرج فذّ.

وفي المساء، بعيد مغيب قاتن أغرق فيه قرص الشمس القاني حقول الجنوب بالشفق الدامي، كما تلألأ سطح البحر الهادىء

بوميضٍ ذهبي كنثرات هباء التّبر، بدأ أشقياء الإنكشارية يتوافدون على التلّة المتوّجة بالقصر المستطيل المرشوش بنصيبٍ من فيوض ذلك الغسق الدموي النادر، كأنه ينذر بتحويل الواحة ساحة حرب. ولكن الانكشارية لم يروا في آية الغروب سحراً، أو سرّاً، لأنهم لم يكونوا يوماً شعراء. كما لم يقرأوا في الشفق النبوءة لأنهم لم يكونوا يوماً كهنة أو عرافين أو أصحاب نبوءة. لأنهم لو كانوا يوماً كذلك لما صاروا أبداً أشقياء الإنكشارية الذين أقبلوا من بلاد الأناضول كأسرى حروب الإمبراطورية مع الإمبراطوريات المعادية، وتربّوا في قصور الأستانة على الدسائس، والقتل، والغدر، والغصب، وارتكاب أبشع الجرائم التي لا يستطيع أن يرتكبها حتّى أعتى أهل الإجرام. لأن للجريمة في عرف من احترف الجريمة أيضاً قوانينها بما أنّها لعبة لا تختلف عن أي لعبة دنيوية أخرى. ولم يكن لتلك، الشراذم التي عاثت في الإيالة فساداً وخراباً طوال المئات من السنين أن تعتمد في حياتها قانوناً أو عرفاً لأنها سلالة لقيطة بلا أصل أو أهل أو وطن. وقد استطاعت أن ترهق كاهل سلاطين الأستانة أنفسهم بالفتن والمؤامرات وأرذل الأفعال. فلم يجد هؤلاء سبيلاً للتخلص من شرّهم سوى تصديرهم إلى أبعد الولايات التابعة للإمبراطورية ولو اسماً كما هي الحال مع الإيالة الطرابلسية، التي عانت من تهوّرهم وجشعهم واستهتارهم الويل عبر قرون حتى صاروا سبباً في كل ما عانته من محن، وعلّة لكل النكسات والانقلابات والفوضى والتخلّف وضروب المآسي التي عاشها أهلها البسطاء، الذين أدركوا بعد فوات الأوان خطيئتهم التي لا تغتفر يوم تنادوا في المساجد وشكّلوا وفداً تطوّع للاستنجاد بسلاطين الأستانة

في أحد الأيام المشؤومة من أحد أيام القرن السابع عشر للتخلّص من حكم الأسبان الجائر، فجلبوا على رؤوسهم وعلى رؤوس أخلافهم هذه اللعنة التي استمرّوا يعانون من ويلاتها إلى أن جاء هذا اليوم.

في هذا اليوم بدأ الخلاص حقاً، لأن سادة الإنكشارية الذين كانوا يلجون القصر باستكبارهم المعهود، كانوا يتلقّون الطعنات المميتة في الحال من أيدٍ مدرّبة على استعمال السيوف. تلك الأيدي التي لم تكن في الحق سوى أيادي رفقاء أحمد القرمانلي في سلاح الفرسان، التي لا تعرف غير ركوب الخيل وطعن الأعادي بأنصال السيوف.

كان الداي الداهية قد احتاط عند عودته لرموز تلك العصابة بحيث يقبلون في ساعات مختلفة، مبرّراً ذلك بتجنّب الزحام في قصرٍ متواضع لن يتسع للجميع فيما لو اقتحموه في وقت واحد وفي جمع واحد. ولم يخطر ببال أحد أن تكون تلك الحيلة جزءاً من تلك الخطّة التاريخية، التي لولاها لما صار أحمد القرمانلي أحمد الأكبر، ولما وضعت حدّاً لمهزلة الحكم في ربوع هذه المدينة العريقة، التي شهدت في تاريخها الأقدم أمجاداً لم تحلم بها الأستانة، ولا سلفتها بيزنطة، وتوالت في أرضها النبيلة حضارات في وقتٍ لم توجد فيه لا الأستانة، ولا بيزنطة، ولا بلاد الأناضول.

ويروى أن جدران ذلك القصر ارتوت يومها من دماء الإنكشارية حتى سالت على البلاط. وقد دفع بها البلاط إلى البستان المحاط بالقصر فشربتها الأرض لتسقي بها جذور أشجار الزيتون والبرتقال والنخيل. هذه الأشجار التي أطعمت الأقرباء والغرباء من ثمارها

فحرقت على أيدي هؤلاء الإنكشارية مراراً انتقاماً من أهلها. وها هو يأتي اليوم الذي انتقم لها أحد هؤلاء الأبناء فأبى إلا أن يسقيها من دم هؤلاء الشياطين الذين شربوا من دمها. لأن ساعة القصاص لا بد أن تأتي يوماً، والسنّ لا بدّ أن تكسر مقابل السّنّ، والعين لا بد أن تفقأ مقابل العين، لأن البادىء بفعل الشرّ دائماً أظلم.

6

ففي الساعة التي أقبل فيها كبيرهم ممتطياً صهوة فرسه الشهباء (التي كان الأهالي يضربون بها المثل في ضمورها، وبهائها، وألفتها، وسرعتها) وترجّل ليتخلّى عن لجامها لسائس الخيل الأحدب الذي هرع لملاقاته في الفناء المقابل للقصر ليتولّى أمرها. كان أحد الخدم ينحني في الباب إكباراً لمقام كبير الضبّاط ويهرع بدوره ليساعده في خلع سيفه المهيب المرصّع بالجوهر الملوّن، بمقبضه الذهبي البارز من غمدٍ منمنم بالأحافير، والمرشوش بماء الذهب، الذي تقول الأقاويل، إنه سلبه من أحد أصحاب إحدى القوافل العابرة إلى برّ الحجاز بعد أن هاجم قافلته في إحدى الليالي، مستعيناً بفريقٍ من جنده الأشقياء ليستولي لا على ثروته وحسب، ولكن على قرينته الحسناء التي كانت برفقته أيضاً.

في الردهة تلقّفه أحد رفقاء القرمانلي في سلاح الفرسان المتنكّرين في لباس الخدم، وقاده عبر ممرّ بدا في امتداده كأنه سرداب بلا نهاية، تتخلّله من الجانبين أقواس تخفي أبواباً ظلماء كأنها أفواه أسطورية لتنانين. في نهاية هذا النفق المريب تبدّى بصيص ضوء الشيطان وحده يعلم عمّا إذا كان ضياء لشموع، أم

لأشعة الشمس الغاربة، أم قبساً للسانٍ من ألسنة الجحيم. لقد بدا الممرّ موحشاً، بل مزعجاً، ومريباً، ومثيراً للقشعريرة إلى حدّ أن كبير الضبّاط تساءل بسخرية عن السرّ الذي يجعل الناس يتسابقون في التطاول نحو السماء، حتى إذا أدركوا منها نصيباً وأتاحت لهم الأقدار فرصة امتلاك صهوة قمّة من القمم مثل هذه الرابية، ابتنوا على ظهرها دهليزاً يليق بالأحاضيض، كأنّ إحساسهم الباطن بمآلهم المكتوب إلى الهاوية هو الذي يقودهم فيبنون على هامات الأعالي القبور بدل أن يعانقوا النور.

في الفناء الموحش المؤدّي إلى البستان تركه الفارس اللئيم المتنكّر في لباس الخدم واختفى دون أن ينبس بكلمة. كان الصمت عميقاً إلى حدّ تساءل فيه الشقيّ عما إذا كان الداي قد دعاهم للمشاركة في فرح بمناسبة تنصيبه سلطاناً، أم استدرجهم للمشاركة في مأتم. هل البيت بيت فرح أم في حقيقته هو بيت نوح؟

في أعراف النخلات العالية ومضت ألسنة شمس تشرف على الغروب. ولكن شجيرات البرتقال والزيتون والتين ركنت إلى سكون مريب أكثر ريبة من كلّ سكون.

مرأى هذه الشجيرات أيقظ فيه إحساساً مزعجاً. استشعر انقباضاً مفاجئاً وتشبّثت بحلقه غصّة غثيان. خطا نحو البستان خطوة، خطوتين، ولكنه توقّف. أحسّ بوجود مخلوق خفيّ يراقبه سرّاً. حدّق وراءه فتراءت له أبواب الممرّ بأفواهها الفاغرة طابوراً من مردة الجنّ. حاول أن يستنجد بالحاجب، ولكن لم يعرف لماذا خانه صوته.

أيقن أنه تعرّض لمكيدة سحر من أحد الخصوم فترنّح. عاد إلى الوراء. تقهقر بجهد عظيم. ولكن هسيساً مشبوهاً استوقفه. التفت فوجد نفسه يواجه شبحاً لم يعرف من أين ولا كيف خرج. تقهقر إلى الوراء خطوتين فاقتحم أرض البستان المغمورة بالماء والعشب والوحل. غاصت قدمه في الطين فتعثّر وكاد يسقط. كان الشبح يطارده طوال الوقت. ولم يفلح في تحديد ملامح الشبح إلاّ لحظة بلغ دائرة الضياء عند حدود البستان. هتف بصوت كالحشرجة: «أنت؟!».

ولكن الشبح لم يجبه. ظلّ يحدّق في عينيه ويطارده بالخطو. حاول أن يتساءل عن معنى هذه الدعابة، ولكن الصوت خانه، ربّما بسبب خيبته من تجاهل سؤاله الذي لا يعلم إلاّ الخفاء مدى الجهد الذي بذله حتّى استنزله. بعدها أحسّ بالخوف. أحسّ بخوف مجهول. ليس خوفاً ولكنه خطر. في تلك اللحظة كشف له الشبح عن وجهه، ثم عن سيفه. في الوجه رأى الإنسان الذي لم يتوقّع أن يراه. بل رأى الإنسان الذي يجب أن يراه. أما في اليد فقد رأى سيفه. سيفه هو لا سيف الداي الذي أماط اللثام ليكشف له عن وجهٍ آخر لم يعرفه فيه. بلع ريقه بعسر قبل أن يتساءل بذهول:

ـ ما معنى هذا يا سيدنا البك؟

ولكن النظرة التي رآها في عين البك هي التي دفعته لأن يصيح:

ـ السيف! إذا كنت تريد أن تقاتلني فردّ لي سيفي!

لحظتها نطق الشبح لأوّل مرّة:

ـ القاتل يُقتل ولا يُقاتل!

تراجع إلى الوراء فتشبّث وحل الطين بقدميه كأنّ الأرض نفسها تريد أن تعترض طريقه وتقتصّ منه.

جمجم الشقيّ في وجه قدره:

ـ ليس نبلاً منك يا سيدنا أن تقتل إنساناً أعزلَ.

ولكن صوت القَدَر تكلّم بصوت كأنه نبوءة الأقدار تتنزّل من رحاب السماء:

ـ وهل نبل أن تخنق إنساناً ليس أعزلَ وحسب، ولكنه نائم؟!

استلّ البك السيف المنمنم بتعاويذ المجهول، المحفّر برموز الجان، المرصّع بكنوز الأجيال، المرشوش بتبرٍ ليس تبراً، ولكنه دماء الأبطال الذين دفعوا أنفاسهم قرباناً لنيل هذا السيف الذي لم يكن يوماً سيفاً ولكنه صولجان.

قال القدر المتنكّر في جرم رآه كبير ضباط الانكشارية جرم البك أحمد القرمانلي:

ـ لا تنظر إلى وجهي، ولكن إلى قلبي إذا كنت تريد أن تعرف أنني لست سوى ذلك الملاك الذي نزل في ديارك، متنكّراً في أسمال تاجر الأغراب، حاملاً في يدي قلبي المتنكر في صورة تلك الحسناء التي انتهكت عرضها بعد أنْ كتمت أنفاسي بيديك، ناسياً أن الملائكة يمكن أن تتنكّر في مسوح الغرباء، جاهلاً أن القلب يمكن أن يتستّر في جلد فتاة، غافلاً عن الحقيقة التي تقول إن الملاك يختفي ولكنه لا يموت، والقلب الذي أقبل عليك ليهبك عشقاً متخفيّاً في جسد الحسناء، ثمّ انتهكته أنت، هو قلب لا بد أن يتبدّد لأنه لا يطيق الدنس، ولكنه لا يبيد بنصل السيف. لقد فعلتَ ما فعلته بالعابر المسكين لجهلٍ بحقيقة الغرباء الذين لا يغتربون أبداً من دون سرّ. وسرّهم جسيم لأنّهم يكفّون عن كونهم بشراً ساعة يغتربون. إنهم

وصايا الله عندما يغتربون. إنهم ينقلبون ملائكةً تتنكّر في أبدان الخلْق في الساعة التي يأخذون فيها عصاة الترحال وينطلقون. إنهم حجيج حتى لو لم ييمّموا صوب بيت الله الحرام. ونفوسهم تصهرها أنفاس المنفى إلى حدّ أنهم يبكون بدموع تبدو للجهلة بلا سبب. والحنين دوماً قُوْتهم الذي لا يتخلّى عنهم حتى يصيروا كلهم شعراء. ولهذا اعتادت القبائل أن تتقاتل بالسيوف في سبيل الفوز بشرف استضافتهم. تستضيفهم بمحبّتها قبل أن تطعمهم من خبزها. أمّا من سوّلت له نفسه أن يسيء لهذه الملّة حتى في المنام فسوف تنكره الأرض قبل أن تقتصّ منه السماء. فماذا فعلت أنت بقبيلة الله التي لا حول لها إلا من حوله، ولا قوّة لها إلا من قُوّته؟

صرخ الشقيّ:

ـ هراء! هذا هراء!

ولكن الصوت رتّل نبوءته القاسية كأنَّ هتاف صاحب الشقوة هو الهراء وليس صوت القدر الذي يرتّل النبوءة:

ـ لقد فعلتَ ما فعلتَ ظنّاً منك أن للغرباء لا حول ولا قوّة، ونسيت أن الملائكة هم عسس الغرباء لأنهم لم يكونوا يوماً غرباء إذ اغتربوا، ولكنهم ملائكة الربّ ارتحلوا.

لوّح الرجل بيده في الهواء كأنه يريد أن يتقي ضربة من نصلٍ يهوي من رحاب السماء فلم يخطىء هذه المرّة. لأن يد المجهول استلّت سيف الأساطير من غمده فلمع نصله الشره في ضياء الغسق قبل أن يطير في الهواء ليغيب في صدر الانكشاري الشقيّ في ومضة خاطفة كأنها البرق.

اخترق النصل الصدر المكابر بيسر شديد كأنه غاص في قالب من زبد وليس في صدرٍ مدجّج بقفصٍ من ضلوع. أطلق الرجل أنيناً غامضاً، ثم رفّ على شفتيه ظل ابتسامة مجهولة قبل أن يفزّ الدّم الحارّ من الصدر ليغمر الثياب الاحتفالية الحمر، ويلوّث في مسيره إلى الأسفل، الأوسمة الأنيقة والنياشين الذهبية التي تزيّن الصدر المكابر، ويمضي في خيوط سخيّة بدأت تنهمر على أرض البستان فتمتزج بالأوحال الرجراجة التي تغذي جذور أشجار الزيتون والبرتقال والتين، قبل أن يترنّح البدن المارد ويسقط أرضاً، فيما كانت الشمس تلفظ في الأفق أنفاسها الأخيرة معلنةً بذلك نهاية يومٍ من أيّام صيف عام 1711 للميلاد، 1123 للهجرة.

7

في ذلك الوقت كان فرسان الإنكشارية يستمرّون في التوافد على القصر المكابر، المرشوش بالجير، فيبدو فوق الرابية مثل ضريحٍ مهيبٍ من أضرحة المرابطين والأولياء. ولم يكن يخطر ببال هؤلاء الأشقياء أن ذلك البنيان قد تحوّل منذ تلك الليلة (بفضل إقبالهم عليه) ضريحاً حقّاً، بل جبّانةً تؤوِي في جوفها جثث الأشقياء بدل رفات المرابطين أو الأولياء. ففي الوقت الذي كان فيه بعضهم يترجّلون عن جيادهم في الباحة الخارجية، كانت سواعد الفرسان تطعن بالخناجر وأنصال السيوف صدور أولئك الذين بلغوا في مسيرهم أبواب الديار الظلماء كأفواه التنانين عبر الممر الطويل، مثل خندق حقيقي في جبهة قتال. وكانوا أيضاً يكتمون أفواههم ويجرجرون أجسادهم ليلقوا بها في أفواه تلك الحجرات المظلمة، ثم يعودون إلى الممرّ لينتظروا ضحاياهم الجدد في الفوج الجديد.

وقد استمرّت فصول هذا الكابوس حتى بدأت الحجرات من الجانبين تفيض بجثث القتلى، وبدأت أنهار الدم تتدفق من الداخل لتغمر بلاط الممرّ. فكان الفرسان ينزلقون بفعل لزوجة الدم ويقعون أرضاً، ولكنهم ينهضون بهمّة تليق بلقب الفرسان. ينهضون بأثوابٍ ملوّثة، بالإضافة إلى أيديهم الملوّثة، ليواصلوا عملهم الفظيع الذي لم يتوقّف حتى قضوا على ما يزيد على الثلاثمائة شقي من جند الانكشارية داخل حدود القصر وحده. أمّا في المدينة فقد شهدت الدور أنهار دم أكثر غزارة في تلك الليلة نفسها. فقد قضت الخطّة باستدراجهم إلى المواخير، والحانات، وبيوت العربدة، ليسهل اقتناصهم هناك. وقد ارتوت سيوف فرسان القرمانلي بدمائهم في تلك الأنحاء، كما ارتوت سيوف رفقائه بدمائهم في بيته بالمنشيّة. ولو لم يخامر أحد أشقيائهم الشكّ في ساحة القصر عندما لاحظ أضيافاً يدخلون جموعاً إلى بيت الضيافة، ولكنهم لا يخرجون منه أبداً فقفز على جواده وطار به إلى الساحل ليحذّر البقية الباقية. ولكن القدر شاء ألاّ يبقى من هذه البقية الباقية إلاّ نفر قليل جدّاً تسلّلوا إلى الميناء واختطفوا مركباً لتاجر من تجار البندقية فرّ بهم إلى الأستانة ليرووا هناك النكبة التي قطعت دابرهم في ربوع الإيالة، فما كان من القرمانلي إلاّ أن أمر بمصادرة أموال هذه الملّة وبيعها في المزاد العلني ليشتري بقيمتها هدايا نفيسة بعث بها إلى الباب العالي في الأستانة لإسكاته.

ويُروى أن أحمد القرمانلي قال لأحد خلصائه يوم بعث برسوله إلى الأستانة محمّلاً بهداياه: «بأموالهم اشترينا دماءهم كما اشترينا خلاصنا بهلاكهم!» ثم ابتسم بغموض وهو يضيف:

«لماذا لا نشتري ذمم سلاطينهم إذا كان هؤلاء السلاطين هم الذين يعرضون ذممهم للبيع بأنفسهم؟!».

8

ـ لماذا لا ندفع الأموال لشراء ذمم سلاطينهم إذا كان هؤلاء السلاطين لا يستحون في أن يعرضوا للبيع ذممهم؟

هذا ما أعاده البك على أعوانه وأفراد حاشيته يوم بلغه خبر وصول رسول الباب العالي حاملاً رسالة ممهورةً بتوقيع السلطان، تقضي بتعيين خليل باشا الأرناؤوطي والياً على إيّالة طرابلس. أعاد العبارة التي سبق أن سمعها من فمه الأعوان لأوّل مرّة، يوم بعث بهداياه النفيسة إلى الأستانة، لإسكات السلطان عن تفاصيل مذبحة المنشية التي رواها هناك أفراد الانكشارية الذين أفلحوا في الفرار.

ويبدو أن الأعوان فهموا الإشارة لأنهم ما لبثوا أن هبّوا ليعلنوا استعدادهم لعمل ما يجب عمله في سبيل الحيلولة دون عودة خليل باشا إلى عرش الإيّالة، حتى لو اضطر الأمر لحرق المدينة كلها والانسحاب إلى الدواخل. وقد أجّج القرمانلي حماستهم هذه بعبارة حاسمة تقول: «طرابلس منذ اليوم للطرابلسيين، ولن أسمح بأن يعود ليتولّى أمرها تركي أو أجنبيّ، ما ظللتُ على قيد الحياة!»، فما كان من الأعوان (الذين لم يكن أغلبهم سوى رفاقه القدامى في سلاح الفرسان) إلاّ أن مزّقوا حناجرهم بهتاف عالٍ تردّد صداه في كل أنحاء المدينة، حتى بلغ آذان القناصل الأجانب وأسماع الأسرى الأعلاج في الأقبية، بل وسقط في آذان بحارة السفن التجارية الراسية في الميناء حيث اختبأ المدعو إبراهيم الملاّ مصحوباً بأمين سرّه، منتظراً

أن يسمع طلقات المدافع إكباراً لشخصه وعلامةً على الإذن له بالنزول لتسليم القرمانلي فرمان السلطان بتنصيب خليل باشا الأرناؤوطي والياً للمرّة الثانية على إيّالة طرابلس. وكان بالطبع من حقّه أن يشعر بالدهشة، بل ومن حقّه أن تنتابه بعض الشكوك، بسبب سماع تلك الحناجر الممسوسة التي تهتف بحياة أحمد بك القرمانلي، وتنادي به والياً على البلاد، بدل أن يسمع الهتاف بحياة الصدر الأعظم وليّ نعمة هؤلاء الأوباش!

ولكن القرمانلي أبى إلاّ أن يستوقف هؤلاء بإشارة من يده معلناً أنه رأى في لحظة صفاء أن يأمر بتعيين يوسف دولتي (التركي الأصل والنسل واللسان) قائداً للجيش في هذه اللحظات العصيبة من تاريخ الوطن وسط ذهول الجميع. وعندما التفت فوجد كبير التجّار على المكّني يحدّق فيه بعينين دهشتين ابتسم ليضيف بلهجة مستدرك: «وسوف يتولّى يوسف المكّني رئاسة البحرية!». بعدها غرق الداهية في تفكير عميق كان قد بدأه في خبائه منذ ليلتين متتاليتين، لأنه كان أبعد ما يكون عن الاستسلام للأوهام التي ترى في نيل السلطة نهاية مطاف. بل كان أدرى الناس بأن المعركة الحقيقية على الإيّالة لم تبدأ بعد لا لأن الأعداء الظامئين إلى الحكم أكثر عدداً وحِيَلاً وعدّةً، ولكن بسبب ذلك السيف المسلّط على الرقاب المسمّى سلطان الأستانة الذي لن يعترف بسلطة محلية قام بها أهل البلاد إلاّ إذا حدثت أعجوبة. لأن هذا البعبع يعلم يقيناً أن سابقة كهذه لن تكون بداية النهاية لسلطان الإمبراطورية على طرابلس وحسب، ولكنها سوف تكون مثالاً يُحتذى من قبل بقيّة المحميات المنضوية تحت لواء الأتراك لا في شمال

إفريقيا وحدها، ولكن في العالم كلّه. وإذا لم يتسلّح بالدهاء فهيهات أن يحقّق أيسر نذر من حلم الحرية (الذي لن يأتي من دون الاستقلال عن الأستانة) الذي يراود هؤلاء البلهاء الذين يتجمعون حوله الآن، ويملأون الدنيا زعيقاً وهم يهتفون باسمه، ولا يدرون أن ما يحسبونه حقيقة واقعة هو في الواقع ما يزال أملاً بعيد المنال.

وهو اليوم في أشدّ الحاجة ليوسف دولتي لذرّ الرماد في عيون الجالية التركية أوّلاً، ولكسب الجولة في حربه مع وفد الأستانة ثانياً. وهو أيضاً في أشدّ الحاجة لتولية يوسف المكني أمر البحرية لكسب ثقة الأهالي أوّلاً، ولاستمالة شقيقه علي المكّني بجيوبه المتخمة بالأموال ثانياً.

هذا برغم يقينه بأن عملاً من هذا القبيل هو مغامرة لا تخلو من خطورة. لأن الناس الذين نحسن إليهم ونقرّبهم منّا عادةً سرعان ما يغترّون، ظنّاً منهم أننا لم نخترهم إلاّ لمواهب خفية يجهلونها في نفوسهم هم أنفسهم؛ فيكابرون إلى حدّ يستهينون فيه بأولياء نعمتهم. ويذهبون في استهانتهم شوطاً أبعد كثيراً فيتجاسرون عليهم ليستولوا على ما في أيديهم. الناس في النهاية ليسوا سوى جنس أطفال بما في ذلك العقلاء منهم. وهم لا يحتاجون إلى الإحسان أكثر من حاجتهم إلى التربية والصرامة في المعاملة!

من السرادق الذي أقامه القرمانلي على الشطّ ليدير منه المعركة، خرج يوسف دولتي رسولاً مخوّلاً للتفاوض مع مندوب الأستانة الذي بات ليلتين كاملتين في السفين منتظراً الإذن بالنزول. هناك اكتشف الرسول أن الملاّ لم يكن سوى قبطان السفين، أمّا المندوب

السامي فلم يكن سوى رجل جسيم، طويل القامة، أحمر البشرة، جاحظ العينين، أفطس الأنف، قال له الملاّ إن اسم معاليه هو جانم خوجه. وجده مصحوباً لا بأعوانه أو جنده أو حاشيته وحسب، ولكن بغانياته أيضاً. ويبدو أنه قضى ليلته في العربدة لأنه خرج لاستقباله بمجرّد أن سمع بمقدمه.

لم يخرج إليه ليحييه، ولكن ليطعنه بخنجرٍ فظيع كان يلوّح به في يده. ولو لم يهرع بعض أفراد الحاشية لنجدته لما نجا من طعنة كانت ستضع حدّاً لفرحته بمنصبه كقائد للجيش قبل أن تضع حدّاً لحياته.

تكأكأ عقلاء الحاشية لتهدئة روع ذلك الوحش المخمور. ولكنهم لم يفلحوا في وساطتهم إلاّ بعد جدالٍ استمرّ طويلاً. قدّم له أحدهم كرسياً قبالة الوحش الذي مضى يلفظ الزبد ويسفح العرق ويتوعّده بعينيه الحمراوين الجاحظتين بسبب السّهر والخمر والعربدة طوال الليل. زمجر في وجهه بصرخة:

ـ هل أسمع هتافاً ينادي بحياة ذلك اللقيط بدل أن أسمع المدافع تحيّةً لرسول وليّ نعمتكم؟

ثم أضاف وهو يضرب كفّاً في حجم المجرفة بكفّ أخرى لا تقل عن قرينتها سمنةً وعرضاً وقبحاً:

ـ آمان، آمان! هذه ولايات آخر زمان!

عرف دولتي أن الخوض في مفاوضات مع رجل ما تزال الخمرة تلعب برأسه أمر ليس من قبيل المخاطرة فحسب، ولكن لا فائدة منه أيضاً. وبرغم ذلك غيّر الخطّة وآثر أن يأخذه باللين قائلاً:

ـ فليسمح لي صاحب السعادة أن أؤكّد له أن ما حدث لم يكن استهانة برسول صاحب الحضرة، ولكن سوء فهم غير مقصود. . .

همّ المارد بأن يهبّ من جلسته فتأهّب دولتي للفرار من وجهه، ولكن أحد العقلاء تعلّق بمنكبيه الهائلين بكلتا يديه فأجبره على الجلوس. أومأ لرسول القرمانلي أن يكمل فأوضح الأخير:

ـ لقد أُخبرنا بوجود السيد الملاّ على ظهر السفينة وليس جنابكم يا حضرة المندوب السامي.

ـ هراء! لو كنتم تجهلون وجودي على ظهر السفينة فلماذا حشد صاحبكم الرعاع ليستفزّوني بالهتافات البلهاء بدل أن يحيوني بطلقات المدافع؟

ـ فعلوا ذلك يا صاحب الفخامة لأمرٍ في نفوس الناس ضدّ خليل باشا وليس ضدّكم أو ضدّ مشيئة مولانا السلطان!

زفر الوحش أنفاساً كأنها العاصفة فطار في الهواء كاغد كان أحد الأعوان يمسك به في وقفته بالجوار. تساءل الثور بوعيدٍ يُنذر بنوبة جنون جديدة:

ـ ماذا؟ هل قلت إن في نفوسهم أمراً ضد خليل باشا؟ ألا يدري هؤلاء الغوغاء أن إرادة خليل باشا منذ اليوم هي إرادة الباب العالي؟

لم يجد رسول الإيالة ما يجيب به غير برطمة تعمّد أن تكون غامضة لا في عبارتها فحسب ولكن في لهجتها أيضاً:

ـ صدق صاحب الفخامة. أعتقد أن العناية الإلهية قد وفّقت جنابكم في استخدام التعبير الصحيح. إنهم غوغاء! والغوغاء لا يدرون أن إرادة خليل باشا منذ اليوم هي إرادة حضرة السلطان!

ـ وماذا تنتظرون أنتم لتعلّموهم؟

ـ ننتظر استلام فرمان الباب العالي يا صاحب الفخامة!

ـ إذا كنتم تنتظرون استلام الفرمان فلماذا لا تقومون بالمراسم الواجبة لاستلامه؟

ـ ننتظر هدوء الزوبعة التي أثارها نبأ عودة خليل باشا يا صاحب الفخامة!

ـ هل تسخر منّي؟

ـ وهل يجرؤ خادم الباب العالي أن يسخر من رسول الباب العالي؟

ـ لماذا يثير نبأ عودة الأرناؤوطي إلى حكم البلاد زوبعة بين الناس إذا كان قد أطعم هؤلاء من جوع وآمنهم من خوف يوماً؟

ـ أخشى أنهم يرون العكس تماماً يا صاحب الفخامة!

ـ ماذا يرون؟

تلكّأ دولتي في الإجابة، ولكنه لم يجد بدّاً من القول:

ـ إنهم يرون أنهم هم الذين أطعموا خليل باشا من قوتهم، وآمنوه من خوف بسواعدهم، ولكنه خذلهم!

ـ خذلهم؟!

ـ هذا ما يردّدونه يا صاحب المعالي!

ـ وهل تشاركونهم الرأي؟

ـ قد لا أستطيع القول إني أشاركهم الرأي، ولكن في السرادق المنصوب على الشاطىء يوجد من يشاركهم هذا الرأي!

حدّق فيه التنّين بعينين دمويتين. قال بهدوء ينذر بعاصفة:

ـ هل تريد أن تقول إن القرمانلي يشاطرهم الرأي؟

ـ أخشى أن يكون الأمر كذلك يا صاحب المعالي!

ـ ولماذا لا تدقّ عنق هذا الخائن وقد رأيتَ ما رأيت من نيّته في الاستهانة بمشيئة أولياء نعمته؟

ـ أخشى أني لا أستطيع!

ـ لماذا؟

ـ لأنه تفضّل ومنَّ عليّ بلقب قائد الجيش يا صاحب المعالي!

أغمض التنّين عينيه ثم فتحهما. بدا حائراً عمّا إذا كان الإنهاك هو الذي خذله أم أن ما يسمعه هو الأمر الذي لا يُصدّق. استعان على الجليس بالصبر:

ـ وهل كنتَ ستفعل لو لم يمنّ عليك بمنصب قيادة الجيش؟

ـ ربّما!

ـ أليس الأنسب أن تفعل وفي يدك الجيش من أن تفعل بيدين خاويتين؟

ـ السرّ ليس في قوّة ما في اليد يا صاحب الفخامة!

ـ أين السرّ إذاً؟

ـ في الوفاء!

ـ ماذا؟

ـ أردتُ أن أقول إن الخيانة ليست من طبعي!

ـ ألا تدري أن الوفاء لخائن الباب العالي هو خيانة للباب العالي؟

ـ إذا ثبتت خيانة صاحب الإيّالة فالقصاص في هذه الحال من نصيب صاحب الخيانة ولا ذنب لعبده المأمور.

حدّق فيه بعينين مثقلتين بالنعاس. تساءل:

ـ إذا أمرك هذا المعتوه بأن تقصف سفينة مندوب الباب العالي بدل أن تحييها بمدافعك، فهل تفعل؟

أجاب قائد الجيش ببرود وبلا تردّد:

ـ فليسمح لي صاحب المعالي أن أجيب بأنني إذا تلقيتُ أمراً كهذا فسوف أفعل!

اتسعت حدقتا الوحش حتى كادتا تفزّان من محجريهما. هتف باستنكار:

ـ هل تجرؤ على قصف سفينة مندوب الباب العالي؟

لم يجب رسول صاحب الإيالة على سؤال المندوب السامي.

اكتفى بأن حدجه بنظرة قرأ فيها الخصم آي التحدّي. ساعتها أراد المندوب وضع حدّ لهذه السفسطة فقال بلهجة تخفي تهديداً:

ـ أتحرّق شوقاً لما ستفعل بعد يومين عندما ستصل أساطيل الأستانة لتدكّ بالمدافع حصون القلعة!

أجاب رسول الإيالة ببرود:

ـ سوف أفعل ما يجب أن أفعل: سوف أعدّ لمواجهتها ما استطعت من قوّة!

جسارة ذلك الجواب كانت السبب في هجمة مندوب الأستانة

على يوسف دولتي للمرّة الثانية في نيّة لطعنه بخنجره. وهي الحادثة التي تحدّث عنها المؤرخون كثيراً، لأنها لعبت دوراً بارزاً في صبّ الزيت على نارٍ كانت تشتعل خفيةً بين الفريقين. أمّا التظاهر بالتفاوض فلم يكن سوى مناورة على ما يؤكّد هؤلاء المؤرخون.

9

تخلّى عن السرادق ورجع ليختلي بنفسه في الخباء داخل السراي. هناك استسلم للخلوة. استسلم للذّة. استسلم لذلك النوع من اللذّات التي لن يعرف حلاوتها إلاّ من حمل العصا وارتحل مصمّماً أن يمضي في هجرته إلى الأبد. ولكن.. أليس مريباً أن يجمع في عشقه بين الخلوة وبين غريمتها الخالدة: السلطة؟ أم أنه لا يعشق سلطاناً في السلطة، وإنما رسالة السلطة؟ رسالة الدنيا التي تأبى سليقتها إلا أن تصنع لنا من المجهول طريدةً تحتم علينا مطاردتها حتى لو كنا نعلم يقيناً أنها ليست سوى ذيول السراب المنسوجة من أوهام السراب؟ ألم يجتنب السلطة كما يجتنب الصغار السعلاة، ولكنها أبت إلاّ أن تلقي بنفسها في أحضانه كما تستظهر السعلاة للصغار الذين يخشونها؟ أليس هذا دليلاً على أن السلطة مثل الحسناء التي تفرّ منا عندما نطاردها، ولكنها تطاردنا عندما نفرّ منها؟ فليكنْ.. ولكن ما سرّ الإصرار على رفض الأرناؤوطي؟ يعرف يقيناً أن السبب ليس التشبّث بالسلطة التي يدرك حقيقتها. ما السبب إذاً؟ مهلاً، مهلاً! يُخيّل له أنه أفلح في اقتناص إيماءً. ألم يكن الأرناؤوطي صاحب الفضل في تعيين أبيه رئيساً لخيالة الإيّالة؟ ألم يكن له الفضل في تعيينه هو أيضاً «باش آغا» خلفاً لأبيه؟ ألا يعدّ هذا

خرقاً للناموس الأقدم عهداً من كلّ ناموس، والذي تقول وصيّته الأولى إن الإنسان قد يغفر الإساءة، ولكن هيهات أن يغفر الإحسان؟

أمّا إذا كان هذا الإنسان وليّاً على أمر الناس فإن القصاص لا بدّ أن يبلغ حدّاً لا يقل عن الضعفين. لأن الإحسان لذوي السلطان إهانة عقوبتها الموت في عرف الإنسان. فهل تدحرجت هذه الضغينة إلى أبعد باطن لتعلن عن نفسها في الوقت المناسب؟ هل انقشع الآن قناع النفاق المدسوس في قيعان النسيان، وجاء أوان تجريد السيوف استعداداً للكشف عن صوت النداء الذي يريد أهل السلطان أن يخنقوه في صدر صاحب الإحسان؛ لأنّه يذكّرهم بأن السلطان مجرّد إنسان سليل إنسان؟

تطلّع إلى سماءٍ زرقاء عميقة. همس لنفسه كأنه يقرأ في عمقها الأزرق نبوءة: «خليل باشا لا يدري أن الإنسان في خطر إذا امتلك مالاً. وهو في خطر أيضاً إذا امتلك على الناس سلطاناً. وهو في خطر أشدّ إذا امتلك إحساناً. وهو في خطر أيضاً وأيضاً إذا لم يمتلك شيئاً! أليست هذه سخرية أقدار؟!».

ثم أغمض عينيه ومكث متفكّراً برهة قبل أن يضيف همساً: «خليل باشا لا يدري أيضاً أن الإنسان في خطر أكبر إذا امتلك في بيته حسناء! أجل، أجل. زوجة خليل باشا ليست حسناء فحسب، ولكنها أحسن من حسناء! ها ـ ها ـ ها. . !».

10

تزاحم المرفأ بأسطول الأستانة بعد يومين. انضمّت إلى مائدة المفاوضات عناصر جديدة من كلا الفريقين. تنازل صاحب الإيالة فأطلق بعض القذائف من مدافع القلعة لا تحيّةً لخليل باشا ولكن إكباراً لعلم الإمبراطورية المرفرف على صواري سفنها الحربية. وكان من نتيجة ذلك أن تنازل التنّين الأهوج عن كبريائه فقبل الانتقال إلى بيت الضيافة داخل أسوار المدينة لمواصلة التفاوض مصحوباً بكل حاشيته ومحظياته وغلمانه. هناك حظي بزيارة القرمانلي والأعيان وقناصل الدول الأجنبية، وبدت مراسم هذه الحفاوة كدليل على حسن النوايا، حتى إن صاحب المعالي قرأ فيها العلامة التي تشير إلى أن كل شيء يسير على ما يرام.

ويُقال إن كل شيء لم يسر على ما يرام إلاّ بعد تدخّل الشقيقين يوسف وعلي المكني. الأوّل بصفته رئيساً لسلاح البحرية والثاني بصفته كبير التجّار. ويؤكّد مدمنو كتابة الحوليات أن للأخير بالذّات يرجع الفضل في شراء حريّة الإيالة الطرابلسية بأمواله، وجنّبها ويلات الصدام المباشر مع وحدات الأسطول التركي المرابط على طول الساحل فيما إذا انتهت المفاوضات إلى الإخفاق.

ذلك أن الرسول الفظيع ما لبث أن أمر أعوانه بالخروج من أسوار المدينة تحت جنح الظلمات، محمّلاً بالثمن الذي ناله مقابل صفقة يتخلّى بموجب أهم بنودها عن نيّته في تنصيب الأرناؤوطي.

وهي صفقة لم تكن لتتم لولا الأدلّة التي وضعها الطرف الطرابلسي بقيادة علي المكّني هذه المرّة بين يدي رسول السلطان،

التي تثبت بما لا يدع مجالاً للشكّ إقدام الأرناؤوطي على تزوير تلك الرسائل التي قدّمها للباب العالي على أنّها مطالب من الأهالي تلتمس إعادة تنصيبه والياً على البلاد. وهي الرسائل التي اعتمد عليها السلطان في استصدار الفرمان القاضي بإعادة تولية هذا اللئيم أمر الإيّالة.

وقد تردّد على الألسن لغو كثير حول سرّ انسحاب الرسول المفاجىء والمشبوه. وساءل بعضهم البعض بحقيقة الموقف الذي ظلّ غامضاً ومزموماً بسبب جهل القوم بحقيقة ما يجري، برغم اختفاء سفينة رسول السلطان من رصيف الميناء. هذا الاختفاء الذي رأى فيه بعض العقلاء فألاً حسناً في كل الأحوال، لأنهم تعلّموا بالتجربة أن وجود سفن الأستانة في المرفأ دائماً نذير سوء، لأن رسالتها ليست أن تأتي إلى الأوطان بالبشارة، ولكن أن تحمل لهم الشرور مدسوسةً مرّةً في أمر بالنهب يسمّى جني الخراج، ومرّةً في أمر بفرض طاغية يسمّى فرمان تنصيب الولاة، ومرّة في استنزال جورٍ على الأبرياء يسمّى اعتقال عصاة، ومرّة في أمرٍ باستعباد أناسٍ ولدتهم أمهاتهم أحراراً يسمّى أخذ الرهائن.

هذه المرّة أيضاً لم يخطىء حدس الأهالي الذين تعوّدوا مؤامرات الولاة، وألفوا مناورات سلاطين الأستانة في تنصيب هؤلاء الولاة أو خلعهم على حدّ سواء. فقد اكتشفوا أن اختفاء سفين المندوب السامي من الميناء أعقبه انسحاب قطع الأسطول السلطاني أيضاً، فتنفّس الناس الصعداء. ولكن فرحتهم بانفراج المحنة لم تدم طويلاً، لأن الأنباء ما لبثت أن جاءت بخبر يقول إن الأسطول الذي هجر

موانىء طرابلس ما لبث أن رسا على شطوط صبراته ثم زواره في نيّة لإنزال العسكر هناك، انتظاراً لانضمام قبائل الدواخل للزحف على المدينة من جهة باب زناته.

وقد أيقن الأهالي بصحة الخبر عندما شهدوا في اليوم التالي حشود الجند وقوافل الفرسان التي تتدفّق من تاجوراء والمنشية في طريقها إلى صبراته. وما إن أيقن الناس باحتضار السلم حتى هرعوا إلى الأسواق للتزوّد بالأرزاق وشراء السلع قبل أن يبدّدها شبح الحرب. ولكن المرابين ودهاة التجّار كانوا قد أخفوا البضائع في تلك الليلة نفسها، على أمل أن يقوموا ببيعها بأسعار مضاعفة عندما تُسمع في الأنحاء أوّل طلقة بارود. واختفاء السلع في مثل هذه الأحوال هو دائماً الشرارة الأولى في إشعال نار البلبلة.

كانت شواطىء تلك المدينة العريقة التي تقبّل أعتابها أمواج أنبل البحار الملقّبة باسم «طرابلس القديمة» تستقبل في هذا الوقت أسطولاً حربياً مزوّداً بأحدث المدافع، حاملاً على متنه جيشاً يربو في تعداده على الألف جندي. أمّا المدينة نفسها فقد تمزّقت منذ زمن بعيد إلى شطرين: شطر جديد انتشر في أحضان الحقول ملفّق من بيوت الطين وأكواخ الجريد يقطنه الأهالي. وشطر آخر، أقدم عهداً، يستلقي بأبنيته المكابرة، ومسارحه المهيبة المتوّجة بأبراجٍ عالية مغسولةٍ بكبرياء الأزمنة الغابرة، ومستثيرةٍ في نفوس كل الذين وقفوا في حرمها لغز الخلود الذي لا تُرى سيماؤه إلاّ في مثل هذه الأنصاب الحميمة الصلة بالمعابد.

ففي حين رابط الأسطول على السواحل، كان خليل باشا ينزل

من إحدى سفن هذا الأسطول ليتوجّه مطوّقاً بالجند إلى برج بونيقي عتيد يتوسّط الحصن الروماني الأحدث عهداً، تنتهي قمّته ببنيان مثلّث الأضلاع شيّده البونيقيون تيمّناً بربة الصحراء «تانيت» التي استعار الوافدون الجدد عبادتها من السكّان المحليين، واعتاد الآثمون والفارّون من وجه العدالة في الزمان القديم أن يستجيروا بمعبدها طلباً للنجاة من الموت. ولم يكن الأرناؤوطي بالطبع يعلم إنه يقوم بمثل هذا الدور في لجوئه إلى هذا المعبد وهو الحاكم المخلوع عن العرش، والهارب من قصاص أمّةٍ ظنّ أنه أحسن لها كما لم يفلح حاكم في الإحسان لرعيّة. وبرغم ذلك وجد منها من الجحود ما لم يجده فأر من حيّة.

لقد استعاد رحلته الدموية في رحاب هذه البلاد السخيّة وهو يقبع في زاوية المعبد البونيقي المقدّس لينتظر ما ستكشفه الأقدار من خفايا لم تقل عنها عرّافة الأستانة الغجرية سوى ما قالته سلفتها الطرابلسية من أنه صاحب عزّ، سيحيا في عزّ، ويموت كما وُلد في عزّ. وبرغم أنه لم يؤمن يوماً بقراءة الحظوظ لا من العرافات المحترفات، ولا من الغجريات المتشرّدات، إلاّ أنه لا يستطيع أن ينكر أن رجفةً خفية انتابته ساعة حدّقت تلك المرأة الشعثاء في عينيه وهي تَتْلو له النبوءة. قالت له أيضاً إن ميلاده كان يوم جمعة، وتسلّمه زمام المجد كان يوم جمعة، وخلاصه من الأسر سيكون يوم جمعة. فهل صدقتْ؟ ما أدهشه أنها صَدَقتْ. صدقت في يوم الميلاد، وفي تسلّم مقاليد الحكم التي أطلقت عليها بلسان العرافة «زمام المجد»، ويوم فكّه من الأسر في بلاد النصارى كان

يوم جمعة أيضاً. فربّما كان ذلك هو السبب الذي استثاره في نبوءتها فرأى أن يستدرجها لقول المزيد فسألها ساخراً: «أفهم أن يولد الإنسان في عزّ، وأفهم أن يحيا في أحضان عزّ، ولكني لا أستطيع أن أفهم كيف يموت الإنسان في عزّ!». فحدّقت فيه بعينيها الغريبتين لتقول بلهجة لا تقل غرابة: «هل الأعزّ أن يولد الإنسان أم أن يموت؟». فأجاب بلا تردّد: «أن يولد أعزّ من أن يموت بالطبع!»، فهتفت كأنها تلقي في وجهه بصقة: «أخطأت!». اغتصب ضحكة ليداري حرجاً مجهولاً أيقظته اللعينة بيقينها في ما تقول. انتظرها أن تجيب، ولكنها مضت تلتهمه بعينيها المريبتين إلى أن تساءل ببلاهة: «ماذا!». قالت بيقين كأنها تتحدث عن حقيقة يعلمها حتى الأطفال: «أن يموت الإنسان أعزّ من أن يولد، لأن يوم القصاص أسوأ من يوم الخلاص!».

تأمّل في أحجيتها زمناً قبل أن يستفهم: «وهل ترين في الموت خلاصاً، أم قصاصاً؟». ولكنها بدل أن تجيب على السؤال رمقته بنظرة تحدٍّ قبل أن تقول: «المهم ما تراه أنت لا ما أراه أنا!». تضاحك مرّة أخرى. قال: «سمعتُ درويشاً يقول إن الموت خلاص لأنه نهاية لشقوة، والميلاد قصاص لأنه بداية الشقوة. فهل هذا ما أردتِ أن تقوليه؟». هتفت: «صدق الدرويش!». تساءل: «هل أفهم من هذا أن يوم موتي هو يوم عزّ لأنه يوم خلاصي؟». أومأت علامة الإيجاب ولكنها لم تنبس. شعر بقشعريرة عندما انصرف لينام. بل لم ينم ليلتها لأنه فكّر في نبوءة العرافة الليل كلّه. فقد أحسّ كمن أُخذ على حين غرّة. ربما لأن الموت كان

آخر ما يمكن أن يخطر له على بال. لقد قطع شوطاً بعيداً حتى ذلك الوقت في تحقيق أحلامه كما يليق بكل مخلوق تباهى دوماً بأنه لم يولد ليعيش عيش البهيمة، ولكنه وُلد ليحيا كبطل: حقّق الفلاح في الجيش لأنه لم يَخَف الموت الذي لم يخطر له على بال فقاتل الأعداء ببسالة الأبطال. والموت لا بدّ أن يكافىء أولئك الشجعان الذين لا يخافونه فتدرّج حتى فاز بأرفع الرتب، ونال من السلطان أنبل الألقاب. فبعد لقب البك الذي خلعه عليه صاحب الجلالة بعد حسن البلاء في حربه ضدّ بحريّة بطرس الأكبر، أنعم عليه بلقب باشا بعد زمن وجيز جزاء نجاحه في صدّ غزوات الفرنجة عن شطوط الإيالة الطرابلسية. وقد أفشل مكائد المتآمرين على خلع بيعة محمد باشا الإمام فكافأه الأخير بأن عقد له على حسناء الزمان كريمته زينوبة، التي أنجبها من بطن زوجته الحسناء الطرابلسية التي ورثت عنها زينوبة حسنها، الذي لم يشهد له أحد نظيراً لا في نساء الفرس، ولا في نساء النصارى.

بلى. لقد حقّق لا أحلامه فحسب، ولكنه حقّق حتى الأحلام التي لم يحلم بها يوماً حتى إنه خشي المنقلب. ذلك أن الدراويش يحذّرون من المغالاة في أي فلاح. لأن الأقدار في ظنّهم لا تغفر النجاح إن لم يصطحبه إخفاق كما يصطحب المخلوق ظلّه. ونهاية سِيَر أصحاب الفلاح الذين لم يعرفوا في حياتهم مرارة الإخفاق دوماً فظيعة. وهو لم يعرف في حياته إخفاقاً إلاّ مرة واحدة: يوم خذله الجند فوقع أسيراً في يد النصارى. وقع أسيراً في يد الفرنسيس الذين جاء هو مليكهم بالأمس رسولاً من صاحب الإيالة. وكانت هذه

السابقة هي التي لعبت في نكبته بسمة الحظّ التي أنقذته من هلاك محقّق أو عبودية أبدية أسوأ من الهلاك. لأن ليس من حقّه أن يتوقّع من النصارى أن يعاملوه بغير ما عاملوا هم أسرى النصارى الذين وقعوا في أيديهم، طالما أن شريعة العين بالعين والسنّ بالسنّ هي السائدة بين الفريقين منذ بدأت الحروب بينهما.

ولقد فكّوا أسره يوم جمعة أيضاً تماماً كما تنبّأت الجنيّة الغجرية التي طلعت له كشبح في ظلمة زقاق من أزقّة الأستانة. وهي في نبوءتها لم تصدق في ما قالته فحسب، ولكنها صدقت حتى في ما لم تقله. فهو وُلد أيضاً يوم جمعة، وتولّى أمر الجند في خلافة محمد الإمام يوم جمعة، وتولّى زمام الإيالة يوم جمعة، ودخل قبلها على زينوبة يوم جمعة، فماذا يخبئه له يوم الغد في يوم الجمعة هذا يا ترى؟ لقد قالت له بنظرتها في ذلك اليوم ما لم تقله له بلسانها. قالت له إنه سوف يتحرّر من الأسر يوم جمعة. وهذه كانت كلمتها الأخيرة في النبوءة. وهو قد تحرّر يوماً من الأسر يوم جمعة بالفعل. فماذا يمكن أن تخفي هذه الكاهنة الوثنية في رسالتها التي لم تقلها؟ ماذا يمكن أن تخفي في نظرتها المثيرة للقشعريرة؟ ألا يقال إن هذه الملّة لا تقول في نبوآتها لتفصح ولكن لتخفي؟ ألا يقال إن هذه الملّة هواة أحاج كما الحواة هواة خداع؟

وفي كل الأحوال فإن من أمهلته دنياه ليجرّب كل شيء ليس عليه أن يتندّم في دنياه على شيء. وهو لم يعد اليوم إلى الإيالة ليستزيد من نعمة بقدر ما عاد لمحو غصّة. غصّة سبّبتها غلبة. بل تلك كانت مكيدة وليست غلبة. طعنة في الظهر وليست غلبة. والحرّ يقبل

المنيّة ولكنه لا يقبل الهزيمة التي حيكت بيد الدسيسة. وهو لم يهزم في حياته إلاّ مرّة واحدة. يوم تآمر من أحسن لهم وراء ظهره ليتحالفوا مع أعدائه، فخرج من البلاد إلى مصر هارباً على ظهر قافلة تجّار. ذلك كان عاره الذي لا ينسى. وعلى سلطان الحظوظ أن يدوّن في قرطاسه المريع هذه الواقعة، علّها تشفع له في تنقّلاته الطويلــة في أحضان أوهــام يراها الناس أمجاداً تجود على أصحابها بصنوف السعادة. وهو إذا كان عليه أن يتحسّر على شيء فليس له أن يتحسّر إلا على شيء واحد: أحضان حسنائه الطرابلسية! فمن أحضان زينوبة فقط لم يسعفه الحظ ليرتوي. لقد ظنّ نفسه خالداً كما يظن كل بلهاء هذه الدنيا بسبب النجاح. بسبب المُلك. بسبب السلطان الذي لا يخدع شيء في الدنيا كما يخدع هذا اللغز. لقد أرجأ الاستمتاع بأحضان امرأته إلى حين ينال فراغاً، ونسي أن صاحب الدنيا هيهات أن ينال فراغاً ما لم يقف على القبر. أرجأ الحبّ في سبيل المجد. باع الحقيقة الوحيدة في هذه الدنيا مقابل الوهم الوحيد في هذه الدنيا. الحياة الدنيا امرأة، ومن تنازل عنها مقابل الفوز بسلطان الدنيا فقد خسر الصفقة وأضاع نفسه.

وهو من السلالة التي خسرت نفسها لأنه استهان بما ملكت يداه. استهان بالهبة التي نالها من كفّ الأقدار وأجّل طوال الوقت الاختلاء بها. أجّل الكنز الوحيد الذي لا يقبل التأجيل: العشق!

وها هو هذا الكنز يقع اليوم في يد أعدائه. وها هو يقف على أبواب قلاعهم يستجدي الدخول كأي متسوّل. يستجدي الدخول لاستعادة الكنز الذي لا يُستعاد، ولا يُستعار، ولا يُعطى على سبيل

الإحسان. لقد وقعت زينوبة في يد القرمانلي رهينة فأوقف على أبوابها العسس منذ أوّل يوم بدعوى الحرص على مصيرها. بدعوى التعبير عن الإكبار الذي يكنّه لبعلها. ولكن هيهات أن يصدّق. فلا يقف حارساً على باب الكنز سوى طامع في الكنز. لا يوقف عسساً على الكنز إلاّ من قرّر الاستيلاء على الكنز. والنساء دائماً مِلْك من مَلَكْ. النساء زينة المُلك. النساء حقيقة المُلك. إذا ذهب المُلك عن مالك الملك ذهبن لأحضان صاحب المُلك الذي فاز بالمُلك. المُلك هو الذي يأتي بالنساء، ولكن النساء لا يأتين بالمُلك. النساء يهبن الحبّ فقط لمن أحسن ترويضهنّ، لمن أحسن استغلال عطاياهن. ولكنّهن يخذلن من أساء فلا ينال على أيديهن سوى الخراب. ولهذا السبب يقال إن النساء آفة الرجال الذين استسلموا لهنّ. ولكنهنّ سلاح الرجال الذين أحسنوا استخدامهن.

المرأة، بالشهوة، استنزاف.

المرأة، بالحبّ، قوّة.

11

قطع الأسطول أقلعت فجأة.

خليل باشا لم يصدّق النبأ فبعث برسول استطلاع ثانٍ. عاد الرسول الجديد بنبأ أسوأ. قال إن سفينة مندوب السلطان أقلعت أيضاً من الميناء، ولم يبق في الدنيا سوى جحافل القرمانلي تسدّ الأفق وتحاصر البرج البونيقي من كل الأركان. ويُروى أن الشقيّ لم يستيقظ من غفلته إلا في تلك اللحظة لأنه طوّق رأسه بكلتا يديه وخاطب نفسه:

«يا ربّي! هل هذه طعنة أخرى؟». ثم التفت إلى أحد مريديه وسأل بفزع: «أرجو ألاّ يكون اليوم هو يوم جمعة؟!». فجاء جواب المريد بالإيجاب. ساعتها أدرك خليل باشا أن كل شيء انتهى. لم يدرك ذلك وحسب، ولكنه فكّ آخر رمز في طلسم النبوءة. أدرك إيحاء الكاهنة في عبارة الخلاص من الأسر الذي سيكون جمعة. هكذا قالت.

الخلاص من الأسر! العبارة لم تكن عبارة ولكنها إشارة. العبارة كانت تورية، استعارة لا تعني الأسر من حبوس النصارى ولكن من حبوس الدنيا.

بلى، بلى! هذا هو ما أومأت إليه الجنيّة الغجرية في تلك الليلة المشؤومة. وخلاصه من أسر الدنيا سيكون يوم جمعة أيضاً لأن هذا اليوم المقدّس في ناموس المسلمين هو قدَره. قدره منذ ميلاده حتّى مماته. حتى هلاكه. فيا للسخرية!

لحظتها أقبل من القرمانلي الرسول الذي قرأ على مسمعه رسالة شفوية تقول إن الاتفاق تمّ بين الطرفين بإتمام مراسم التنصيب وعليه أن يغادر البرج ويمتطي الجواد المسرج بانتظاره.

ابتسم بمرارة وهو يستمع إلى هذه النكتة السمجة قبل أن يخاطب الرسول قائلاً:

ـ لا تتعبوا أنفسكم في اختراع الأكاذيب، لأني أعرف المراسم التي سيقودني إليها الجواد الذي ينتظرني خارج البرج!

لم يجب الرسول بكلمة. ولكن الأرناؤوطي أضاف وهو يستعد للخروج:

ـ في ديانة آلاف السنين كان هذا البرج ملاذاً للمغدورين وحتى للمجرمين من دخله فهو آمن. أمّا اليوم فينتزع من حماه مخلوق كل جرمه أنه طالب بتجديد بيعة خلعه منها الأوباش ظلماً في ظلّ ديانة المسلمين!

هنا تكلّم ذلك الرسول لأول مرة بعد تلاوة رسالته الشفوية:

ـ الحظ يا حضرة الباشا يبتسم مرّة واحدة. ونحن نخطىء في حقّ أنفسنا عندما نظنّ أننا نستطيع أن نجبره كي يبتسم لنا مرّتين!

ابتسم الباشا ربما حسرة، وربما سخريةً، من بسمة الحظ التي ولّت.

خرج من معقله بخطوات واسعة كأنه يريد أن ينهي الفصل الأخير من المسرحية في أسرع وقت ممكن.

في الخارج كان جنود القرمانلي بانتظاره. حيّوه بوجوه عابسة، لكن أحدهم هرع إليه ليساعده على امتطاء الجواد. التفت إليه الباشا باستعلاء دون أن يقول شيئاً. ثم اقترب من الجواد الأبلق وداعب رقبته بحنان. وقد سمعه الجميع يهمس في أذن هذا الحيوان عبارة تقول: «وداعاً يا إمام الوفاء! فقد كنت الصديق الوحيد الذي لم يخنّي!».

التفت بعدها إلى الجند وعبّر لهم عن رغبته في أن يذهب راجلاً، لأنه لا يريد أن يتطاول الرعاع على هذا المخلوق البريء عندما سيهجمون لتمزيق جسده.

ويروي المؤرخون أن حدس خليل باشا الأرناؤوطي لم يخطىء في ذلك اليوم من أيام سعوده الكثيرة، التي لا تتحقّق عادةً إلا في

يوم الجمعة. لأن القرمانلي أباح للغوغاء جسده لسرّ ظلّ مجهولاً إلى اليوم. وقد طعنوا هذا البدن ألف طعنة قبل أن يقطعوا أذنيه، وينتزعوا شفتيه ولسانه، ويسملوا عينيه، ويجدعوا أنفه. لم يكتفوا بهذا الانتقام البشع، ولكنهم حزّوا رأسه عن جسده. ثم سلخوا جلده كما تسلخ الشاة بعد نحرها. وقطعوا لحمه كما يقطع لحم الشاة أيضاً قبل أن يشووه على النار ويقتاتوه كما يقتاتون لحم الشاة أيضاً.

أمّا الرأس فقد طار به الفرسان إلى طرابلس. دخلوا به من باب زناته مرفوعاً على حربة. ثم ثبّتوه بالمسامير على باب القلعة بعد أن ألصقوا على جبينه فرمان السلطان الذي يقضي بتعيينه والياً على طرابلس، والذي اشتراه القرمانلي من مندوب السلطان بأموال المكنّي.

القسم الثالث

1

الدنيا قِدْر ينتصب على ثلاث أثافٍ: سلطان، ومال، وامرأة. قد يتيسّر نيل السلطان، ولكن هيهات أن يتيسّر الاحتفاظ بالسلطان. أمّا المال فمارد يستعسر نيله. يستعسر نيله حتى لو سقط على رأس مريده هبةً من السماء، لأن قربانه جسيم حتّى في مثل هذه الأحوال. المال عسر في عسر بسبب القربان. نيل المال عسر والاحتفاظ بالمال عسر. ولكن الركن الثالث في حجر الحكمة هذا فهو المرأة التي كفّت عن أن تكون مخلوقاً من لحم ودم. فحقّ أن تعامل كسرّ مثلها في ذلك مثل كل الأسرار. مثلها في ذلك مثل الزمان. مثلها في ذلك مثل الإيمان. فلغز المرأة ليس في نيلها ولكن في التحرّر منها. نيل المرأة أيضاً عسر مثلها مثل شريكها المال، وشريكها الآخر السلطان؛ ولكن التخلص منها أعسر من الاستيلاء عليها عكس المال وعكس السلطان. صاحب المال يستطيع أن يشتري ضمير السلطان وضمير المرأة أيضاً مما يعني أن المال عنقاء تجمع في عبّها السلطان والمرأة معاً. ولهذا السبب فالمال أخطر أركان الثالوث. أمّا السلطان فيستطيع أن ينال المال وقرينة المال المرأة ولكن بالسلطان لا بالصفقة. بمشيئة العنف لا بحرية الاختيار. إنه لا ينال ولكنه يغتصب. وشتان بين الغصب والصفقة. المرأة أيضاً تستطيع أن تستولي على المال وتنال إلى جانب المال السلطان. لأن سلاح المرأة الإغواء حيناً والدهاء حيناً آخر. ولهذا فإن المرأة باستخدام العقل طرف أقوى في اللعبة برغم أنها تبدو الطرف الأضعف.

واليقين أن الأثافي الثلاث ليست صرحاً لسعادة بقدر ما كانت دوماً سبباً لشقاوة. والعميق العميق ليس من نالها، ولكن من سخّرها. من لفّق من ثالوثها المهيب وسيلة لإنجاز وصيّة. لتحقيق ذلك البُعد البعيد الذي نستشعره ولكننا لا ندركه. نجهله برغم أننا لا نحيا إلا من أجله. قد نضلّ الطريق فنحسب أن المال كنز مستعار من السليقة ذاتها المعجونة من طينة ذلك النداء. كما نخطىء فنظنّ أن السلطان نسيج مبدع من السلالة ذاتها التي انتمى إلى رحابها النداء. والمرأة معبود سرّه في بدنه لا في ظلّه. ولا نكتشف أن حدسنا قد خذلنا في هذا اللهاث إلاّ بعد فوات الأوان. لأن ناموس اليقظة يدعونا لأن نتأبّط الأثافي تأبط المتاع ونتزود بها في رحلتنا لنيل النداء.

فالضائقة التي فوجىء بها منذ أيام أمر لم يخطر له على بال. مثُل الخازندار بين يديه ليحدّثه بخواء الخزينة. نسي في أوج المناورات أن المال كان وقوده في إدارة المعارك وحبك الدسائس طوال الوقت. نسي أنه دفع ثروات طائلة لإسكات سلطان الأستانة على فعلته الانكشارية، ثم دفع ثروة أخرى لشراء فرمان السلطان بتولية الأرناؤوطي، بل واشترى بما تبقّى رقبة الأرناؤوطي نفسه. نسي أنه استعان بأموال آل المكني في حملته الأخيرة، ولم يحسب ساعة واحدة أن هذا المارد الذي أنجز كل هذه الأعاجيب يمكن أن يتخلّى عنه ويتبدّد. يتبدّد ليتركه وحيداً، أعزل، وعاجزاً أيضاً. أدرك أنه مهدّد بأن يفقد كل ما حققه بضربة واحدة إذا تخلّى عنه مارد المال. يفقد الأخلاّء والأعوان والحاشية إذا تخلّى عنه المال. أدرك أنه

سيفقد السلطان نفسه إذا فرّ من بين يديه المال. فكيف السبيل لاستدراج المال؟ لقد استدان من آل المكني في محن الأيام الأولى وما تلا ذلك من أحداث. ولكنه لا يستطيع أن يمضي في استدانة الأموال من خزائن الأفراد حتى لو ملكوا كنوز قارون. يستطيع أن يستدين من دولة ولكن الاستدانة من رجل أو رجال عار لن يغفره لنفسه. عار لن يغفره لا لنفسه ولا لآل المكنّي. لأن الناموس يقول إن الويل ثم الويل لإنسانٍ أحسن لصاحب الإحسان. أحسن لصاحب السلطان. فما العمل؟

الخازندار قال إن العمل في مثل هذه الأحوال هو الاستنجاد بالأهالي. هو اللجوء إلى المكوس. ولكن الأهالي غسلوا ذمّتهم ودفعوا ما استوجب عليهم دفعهُ من خراج ومن مكوس. اللئيم قال أن ثمّة الابتزاز. الابتزاز؟ ما معنى الابتزاز؟ الابتزاز يعني الخروج في حملات إلى الدواخل للاستيلاء على أحمال القوافل. الابتزاز يعني اختلاق الحجج لفرض مكوس جديدة أو لانتهاب غنائم مثيلة. الوغد قال أيضاً إن ولي الأمر لا يستدين مالاً من الأهالي دون أن يرهن مع المال المستدان رقبته. صاحب الأمر ليس عليه أن ينسى أن الأهالي رعيّته، والحكيم لا يمدّ يده ليأخذ مالاً من عبده دون أن يستثير سخرية العبد، بل واستهانته أيضاً. من اختارته الأقدار ليكون خليفة الله في الأرض لا يجب أن ينال ولكن عليه أن ينتزع. ليس عليه أن يستدين، ولكن عليه أن يستولي. لأن كل ما ملكت أيدي الناس هو ملك يمينه. ليس عليه أن يستنكر، لأنه لو فعل فقد غلّب وسوسة الإشفاق على سلطان العقل. لأن الأهالي أيضاً سوف

يهلكون لو هلك المُلك. ولكن.. ولكنّه لن يفعل ذلك من دون حجّة. من دون مبرّر. هنا تدخّل الوغد مرّة أخرى. قال إن المبرّر في مثل هذه الأحوال في متناول اليد دوماً. فبالأمس نهب غوغاء الدواخل قافلة قادمة من «كانو». وقبلها جاهر همج مسلاّته بالعصيان ورفعوا على حربةٍ راية أحد المرابطين ونادوا بخلع البيعة. وصباح هذا اليوم بلغت الإيالة أنباء عن تمرّد بعض أهل الجحود من شراذم تاجوراء ونهبوا بساتين المنشية.

فهل هذا يكفي أم أنه في حاجة إلى مزيد؟ حسناً. لقد قام الأوباش بنواحي غريان بقطع الطريق على موكب مراكشي في طريقه إلى مكّة لتأدية فريضة الحجّ ونهبوا ممتلكاته. ماذا؟ أهل غريان أيضاً؟ أيعقل أن يلجأ الحلفاء لاستفزازه في زمن عصيب يضيّق فيه أعداء الداخل والخارج الخناق ويعاني فيه أيضاً من خواء بيت المال؟ أم أن الأوباش مجرّد عصابة خارجة عن قانون القبيلة خروجها عن قانون الإيالة؟ هل يأخذ حلفاء الأمس الذين تقلّد بفضلهم مقاليد الحكم بجريرة حفنة أوباش لمجرّد أنه يبحث عن ذريعة لفرض مكوس جديدة لاستجلاب المال؟

استمع إلى هذا الداهية الضئيل الحجم كجرادة الذي يفزّ مكر الثعلبان من عينيه. سمعه باهتمام لا يخلو من فضول. سمع وتعجّب كيف تُداس نواميس الأخلاق بالأقدام عندما تستوجب المنافع التنكّر للعرف. ولكنه لم يعبّر بكلمة لا عن استنكارٍ، ولا عن استحسانٍ، ولا عن عجب. خرج الخازندار فركن إلى المحراب. ركن إلى المحراب ليستعين على المال بالخلوة. ولكنه لا يعرف لماذا وجد

نفسه يفكّر في المرأة بدل المال. فكّر في زينوبة أرملة خليل باشا الأرناؤوطي!

2

بعد عودته من تأديب العصاة ونهبه للأموال التي سلبوها من غاراتهم على القوافل أو العابرين أو نجوع القوم، أمر بعقد مجلس الديوان داخل حصن القلعة. وما إن التأموا حتى خاطبهم بضرورة تأمين الطرق البرية والبحرية على السواء وبأي ثمن، لأن الإيالة لن تستعيد أزمنة الرخاء التي عاشتها يوماً، عندما كان الأهالي يسحقون الياقوت ليذرّوا هباءه على المأكولات بدل البهارات إلاّ إذا عادت الإيالة همزة الوصل التي تربط قوافلها وسفنها شمال الدنيا بجنوبها، شرقها بغربها. وهو ما لن يتحقق من دون وضع حدّ لمغامرات المغامرين، والضرب بيد من حديد على كل من سوّلت له نفسه منذ اليوم أن يقطع الطريق على قافلة أو يغزو نجعاً، أو ينهب بستاناً، أو يستولي على بضاعة، سواء في فيافي البراري أو في عرض البحور ما لم يتلقَّ أمراً مكتوباً على قرطاس وممهوراً بتوقيعه هو، صاحب الإيالة، لا غيره.

في تلك اللحظة لاحظ يوسف المكني يتطلّع إليه باكتئاب. وعندما انفضّ المجلس تقدّم منه وأخذه جانباً ليختلي به على انفراد. باغته بقولٍ كشف له جهله بأحوال الإيّالة وبسرّ أسرارها الذي كان له الفضل في تثبيت أقدام أمجادها: القرصنة البحرية!

قال له أيضاً إنه تسرّع في استنكار التعرّض للسفن، لأن الاستيلاء على غنائم البحر هو رأس مال الإيالة الطرابلسية منذ أقدم العصور.

وعندما حاججه قائلاً إن أعمال النهب في عرض البحر ربّت في نفوس النصارى أحقاداً ضد الإيالة وزعزعت مركزها مراراً، ابتسم رئيس البحرية بحزن قبل أن يكشف عن حقيقة أحرجه التعبير عنها في وجه رجلٍ يمتلك زمام أمرٍ يجهل حقيقته، كأنه سقط من السماء ولم يعش في ربوع بلادٍ لا تحيا إلاّ بفضل ما تكسبه من غزوات البحر. ولكنه قرّر أن يتخلّى عن الحذر ويواجه صاحب الشأن بالأعظم الذي خفي. قال وهو ينظر في عينيه أن الإفلاس لن يستمر فحسب فيما لو أقدم على حظر استجلاب الغنائم البحرية، ولكنه سوف يكون قدر الإيالة. صحيح أن مهاجمة السفن الأجنبية جلبت وتجلب على البلاد عداوات الدول، ولكن هذا العمل هو أهون الشرّين. أضاف في مرافعته قائلاً إن الدنيا لا تسير بناموس الاستقامة الذي أقرّته لنفسها يوماً، ولكنها تحيا بالمناورة. والإيالة أيضاً عاشت مجداً لأنها عرفت كيف تناور. تماطل حيناً وترضخ حيناً. تهجم حيناً وتهادن حيناً. توقّع المعاهدات يوماً وتنقض هذه المعاهدات أياماً ليقينها بأن توقيع المعاهدات تكبيل لليد، أما خرقها فتحرّر. والتحرّر أنبل حتى لو كان خرقاً لاتفاق. وعلى الإيالة أن تفعل ما فعل الأسلاف الذين لم يتخلّوا عن نصيبهم من ثروات البحر، برغم المواثيق ورغم أنف العهود التي قطعوها على أنفسهم. وثروات البحر في عقيدتهم هي كل ما حواه البحر سواء أكان لآلىء ترقد في جوفه أم بضائع تطفو على سطحه!

يومها تطلّع إلى المدى البحري الأزرق الممتدّ عبر كوّة في الحصن المشرف على اليمّ العظيم قبل أن يجيب رئيس بحريته

بقراره: سوف نكتفي منذ اليوم بالعوائد التي سنجنيها من فرض الإتاوات على السفن!».

ويبدو أن حجّته لم تقنع رئيس بحريّته، لأنه رمقه بنظرة شكّ قبل أن يتخلّى عن حديث البحرية، وينبري للدفاع عن قرار البك بضرورة تأمين الطرق البرية وحماية القوافل من غارات قطاع الطرق؛ فيما سرح القرمانلي ليسائل نفسه عن سرّ تغيّب القنصل الفرنسي عن حفل الاستقبال الذي نظمه أعيان الساحل والمنشية، احتفاءً بعودته من رحلته التأديبية ضد أوباش الدواخل وحضره كل القناصل الأجانب باستثناء قنصل فرنسا!

3

ذهب لزيارة القنصل في منزله، مصحوباً بأعوانه وقادة جيشه وحاشيته، حتى إن أحدهم همس في أذن صاحبه قائلاً: «هل يذهب مولانا لزيارة قنصل فرنسا لإكباره أم يا ترى لإرهابه؟». وما إن تراءى شبح هذا الهيلمان حتّى هرع القنصل لاستقباله شاحباً، أشعث الشعر، تبدو على وجهه آي البلبلة. كان رجلاً أشقر الشعر، معتدل القامة، أمْيَل إلى النحول، مستقيم الأنف، متوّج الشفتين بشاربٍ أشقر هزيل.

حيّا البك بانحناءة قبل أن يرطن بعبارات الترحيب. ولكن القرمانلي ترجّل عن الجواد وقفز إلى لبّ الموضوع رأساً، مؤكّداً على عادته في احتقار المراسم:

ـ بلغني خبر الوعكة التي ألمّت بك، وقد رأيت أن أذهب

لأطمئن على صحّتك بنفسي إكباراً لصلات الودّ التي تربط بلادنا ببلادك فرنسا!

تمتم القنصل وهو يدعوه لعبور البستان الصغير المحاط بالبنيان:

ـ شرف لبلادي فرنسا ولمليك فرنسا أن يتنازل بك طرابلس لزيارة قنصلها في عقر داره برغم مشاغله الكثيرة.

ـ صدقت. مشاغلي كثيرة. بل ربما أكثر مما قد تتصوّر بقليل. ولكن الواجب فوق كل اعتبار...

ثم توقّف في منتصف الطريق وسأله كأنه تذكّر شيئاً للتوّ:

ـ ألم تتقدّم لي بالتماس منذ شهور بالإفراج عن مئة بحّار إيطالي الذين أسرهم رجالي بعد أن رمت بهم الأمواج إلى شواطئنا؟

ـ لم أتقدّم يا حضرة البك بالتماس واحد، ولكني تقدمت بالتماسين، يحدوني في ذلك نبل شخصكم الذي تجري سيرته على كل لسان.

تطلّع البك إلى قمم أشجار النخيل المنتصبة في البستان كأنه يقرأ في أعرافها نبوءة. ولكن من أوتي علماً ولو قليلاً بمسلك البك يدري أنه لم يكن ينظر إلى شعاف النخيل، ولا إلى السماء الزرقاء العارية من السحب، ولم يكن يبحث عن نبوءة في أي مكان، لأن هذا الداهية تعلّم في زمن قصير أن الإلهام لا يتنزّل هبةً من السماوات، ولكن قبساً يقدحه زند مستتر في القلب.

ظنّ القنصل أن سكوت الأمير دليل على نيّة مبيّتة. فقد خامر المسكين شكّ بأن البك لم يقبل لزيارته إكباراً لفرنسا أو لملك

فرنسا، ولكن للخروج من محنة خواء خزانته التي بدّدها يمنةً ويسرةً في سبيل تثبيت أركان مُلكه. أقبل في طلب الفدية مقابل فكّ أسر هؤلاء الأشقياء ليفرّج كربته. استنفر قواه وتأهّب للخوض في متاهة تسمّى في معجم الدبلوماسية باسم التفاوض:

ـ ليس على حضرة البك أن يقلق بشأن الفدية، ولم يبق لنا إلا أن نتفق على المبلغ!

ظل بصر البك معلّقاً في الأعالي. ابتسم بغموض كعادته عندما يفلح في استنزال الوحي. قال وهو يهمّ بالانطلاق:

ـ سأدفع بهم ليدك من دون فدية تعبيراً عن إكباري لفرنسا!

علا في صفوف الحاشية هرج. غمغم القنصل بعبارة مجهولة. ويبدو أن الفجاءة أربكته فتعثّر لسانه بعبارات الامتنان تعثّراً. أفلح في أن يقول أخيراً:

ـ فرنسا لن تنسى لمعالي البك هذه الهدية!

انصرف البك. ولكنه قال بعد أن اعتلى صهوة جواده:

ـ هل يذكر سعادة القنصل ما حدث لبحّارة مالطا الذين قذفت بهم الأمواج على سواحل درنة؟

قال القنصل وهو ينحني تعبيراً عن مزيد الامتنان:

ـ بلى يا صاحب المعالي. لقد بيعوا لحجيج من مراكش.

تساءل البك:

ـ هل يدري سعادة القنصل ما فعله بهم حجيج مراكش؟

سكت القنصل فأجاب البك نيابةً عنه:

ـ لقد نحروهم على ضريح سيدي السندوسي عن بكرة أبيهم وفاءً لنذر!

انحنى القنصل دون أن ينبس.

في طريق العودة قال له يوسف المكني إنه تنازل عن غنيمة سمينة بلا مقابل، في وقتٍ كانت فيه خزانة الإيّالة أحوج ما تكون لذرّة المال. ولكن البك أجابه ببروده المعهود قائلاً: «سترى أننا كسبنا بهذه الصفقة أضعاف ما خسرنا!».

4

لم يعد إلى السراي عقب قيامه بزيارة القنصل، ولكنه انطلق لزيارة إلى المدينة. عَبَر الأزقّة واجتاز الأسواق في جيشٍ عرمرم من الجند والأعوان وأفراد الحاشية. ترجّل عن جواده عند باب بيتٍ أنيقٍ مطوّق بسور سميك متوّج الأركان بعلامة منسيّة من علامات ربّة الربّات «تانيت»، مجسّمةً في شكل هرم اعتادت أجيال الأسلاف أن تتخذها تميمةً تحمي الأنفس من الشرور، برغم أنها لم تفلح في تحصين صاحب هذا البيت بالذّات من أبشع مصير يمكن أن يكون من نصيب إنسان!

داخل السور تحصّن البنيان بتميمة أخرى محبوكة بيد الطبيعة الأم هذه المرّة لا بيد الأرباب تمثّلت في طوابير كثيفة من أشجار النخيل العالية تتخلّل مسيرتها المستديرة شجيرات البرتقال والمشمش والتين.

تعمّد البك أن يجوس في البستان بدل الدخول إلى البيت هذه

المرة أيضاً بعد أن أومأ لجيشه الجرّار بالبقاء خارج السور. هرع لاستقباله الخدم، ولكنه أومأ لهم بإخطار ربّة البيت فانقلبوا على أعقابهم.

تسكّع بين الأشجار محاولاً أن يغسل مقلتيه برؤية سماء حجبتها عنه أعراف الأشجار. كان يحاول أن يروي روحاً ظلّت تنوح طوال الشهور الماضية؛ لأن بلبال الدنيا وبلبلتها حرمها الالتحام الحميم بطبيعة رأت فيها دائماً فردوساً. رأت فيها دائماً وطناً. لقد غاب القرمانلي في ذلك اليوم. غاب عن المعيّة، وعن السلطان، وعن العلاقات بالدول الأجنبية، وعن البستان، وعن نفسه أيضاً.

غاب كأن سِنَة نوم اختلسته. غاب لأنه ذهب إلى رحاب ما كان بعيداً عندما كانت له حقول المنشية أرجوحةً، ورياضها مهداً، وزهور شجيرات الرتم التي تحاصرها من كل جانب عطراً لم يصبه بالدوار وحسب، ولكنه تغلغل فيه. تغلغل ليجري في دمه. تغلغل ليسري في روحه. تغلغل ليصير روحه. ولكن الخيل ما لبثت أن سرقته من مملكته. استبدل الالتحام بالأرض وبكنوز الأرض التي يختبىء في ترابها سرّه وتطاول. تطاول وركب الخيل.

والأرض كما يقول المرابطون في المنشية لا تغفر للإنسان رذيلة الاستعلاء. لا تغفر الاستعلاء لأنها تدري أن من رفع رأسه مرّة فقد تنكّر لها إلى الأبد. وتنكّره خطيئة لأن الأرض لم تكن يوماً أرضاً ولكنها أمّ. بل أمّ الأمّهات. وهي تحذّر من ركوب الخيل لأنها تدري أن الابن الذي ركب الجواد يوماً اغترب. فقد ضلّ إلى الأبد. لأن ركوب الخيل ليس تطاولاً نحو السماء وحسب، ولكنه فرار.

سباق مع ساحر اسمه الزمان. والدخول في سباق مع الزمان تيه. ضياع. إنسان خرج لملاحقة الزمان، أو لمسابقة الزمان، مخلوق مفقود. وهو اليوم أحد هؤلاء. ولكن...

ولكن العزاء أن الحُسْن يقف بالمرصاد. الحُسْن وحده يستطيع أن يستعيد الابن الضال من ضلاله، ويعيده إلى أمّه الأرض من سباق التيه فيولد من جديد. يُبعث من جديد. بلى. الجمال هو اللغز الوحيد الذي يستطيع أن يعيد المهاجر الأبدي إلى صوابه. الجمال هو السرّ الوحيد الذي يستطيع أن يردّ عاشق الأحلام إلى صوابه. وها هو الحُسن أخيراً يستظهر. ها هو يقف على عتبة الباب ويتطلّع إليه مدجّجاً بكامل أسلحته. ها هو يقف باستكباره متوّج الرأس بأقوى حججه، فلم يجد بدّاً من القول ليداري حرجه أمام ربّة اللغز:

ـ لم أتمنّ شيئاً في دنياي كما تمنّيت ألاّ أدخل هذا البيت لأعبّر لربّة هذا البيت عن حزني لمصابها الأليم.

ولكن الربّة لم تنبس فأضاف:

ـ فلتعلم ربّة هذا البيت أن فجيعتي في ربّ هذا البيت لن تقل بأي حال عن فجيعتها، لا لأنه كان حكيماً في تسيير الإيالة ولكن لأنه صاحب أفضال عليّ شخصيّاً وعلى والدي أيضاً.

ولكن الربّة لم تنبس. داخلته الوساوس فلم يجد ما يستنجد به غير القول، ثم القول، ثم القول. ألا يقال إن الرجل في حضرة المرأة لا بدّ أن يقول حتّى لا ينقلب صنماً أصمّ؟ ألا يقال إن المرأة وحدها تستطيع أن تصمت لأن الجمال يتكلّم نيابةً عنها، أمّا الرجل

فإنه يزداد بشاعةً عندما يصمت؟ ولهذا لا منقذ للرجل غير القول، ثمّ القول، ثمّ القول.

ـ فلتسمح لي أرملة وليّ نعمتي المبجّلة أن أقول لها إن اغتيال رجل في وزن بعلها بتلك الطريقة القبيحة كان عملاً لا يغتفر من أعمال الغوغاء الذين لا تقف تجاوزاتهم عند حدّ، في أزمان القلاقل التي تسود فيها الفوضى ويُطمر رادع العقل. ولكن الأمم لا بد أن تدفع في مثل هذه الأحوال أفدح الأثمان في سبيل استعادة نعمة لا يدرك الإنسان قيمتها إلاّ عندما يفقدها ألا وهي السلم.

سكت. ولكن الربّة لم تنبس، فاستنجد بالقول من جديد:

ـ الحكمة تقول إنّنا يجب أن نستسلم لمشيئة الأقدار. كتابنا الكريم يقول ذلك أيضاً إن لم تخذلني الذاكرة. وتجاذب أطراف السلطان ضرب من ضروب القمار كما تعلم ربّة البيت المبجّلة. والطامّة كان بالإمكان أن تكون من نصيبي أنا وليست من نصيبه هو. بل كاد الأمر يكون كذلك بالفعل مراراً لا مرّة واحدة، ولكن الأقدار اختارته هو في نهاية المطاف فاشترى دمي بهلاكه.

سكت، ولكن الربّة لم تنبس فمضى:

ـ لا أخجل من أن أعلن بأني مدين له بحياتي. أمّا ما قام به الغوغاء من تمثيل بجثمانه الطاهر فقد زعزعني، برغم يقيني بأن الشاة لا يهمها سلخها بعد ذبحها كما يقول العوام. وقد أمرتُ بدفن رأس الفقيد بما يستحق من مراسم في مقبرة سيدي حمّودة بمجرّد أن بلغني النبأ.

ولكن.. ولكن الربّة لم تنبس فخذل القول صاحب القول لأوّل

مرة منذ وقف في حضرة ربّ اسمه الجمال، فرأى أن ينحني إكباراً للجمال لا للمخلوق الفاني الذي يتستّر وراء الجمال قبل أن يرتدّ إلى الوراء كأنه يلوذ بالفرار.

5

لقد طردته!

الحسناء لم تتردّد في طرده. الحسناء تتجاسر على طرد مولاها ووليّ نعمتها. الحسناء استجارت بالجمال وطردته شرّ طردة! الحسناء لم تكن لتجرؤ على فعل كهذا لو لم تعرف أنّ جمالها سوف يشفع لها. الحسناء لم تكن لتجرؤ على فعل ما فعلت لولا علمها بأنه يحق للحسان ما لا يحقّ لغيرهنّ. الحسناء عرفت كيف تتخذ من حسنها ترساً وتوجّه له من وراء هذا الترس إهانة! ولكن الخطأ ليس خطأها هي، ولكن هو مَنْ ارتكب الخطأ. ولهذا ليس عليه أن يلوم إلاّ نفسه. وهو لم يكن ليرتكب الخطأ لولا جهله بسليقة الناس الذين لا بدّ أن يستصغروا من أكبرهم ويكبروا مَنْ استصغرهم حتى لو انتسبوا لملل العقلاء، فكيف إذا لم يكونوا سوى امرأة عقلها أسير قلبها، هذا إن لم يقل إنه بين فخذيها؟ لو تريّث قليلاً لأدرك أن عليه أن يبعث لها برسول بدل أن يشرّف تلك الشقيّة بالإقبال عليها ممتطياً صهوة جواده الملكي محاطاً بأعوانه وحاشيته وقادة جيشه وفرسان مملكته. كان عليه أن يكتفي لا بإرسال رسول بل بإرسال قوّادة من قوادات المدينة التي تعرف كيف تنقل لها لا التعازي بفقدان فقيدها، ولكن برغبته في أن تنضمّ إلى حريمه، وسوف تأتيه وهي تزحف على ركبتين بدل المشي بخيلاء على قدمين. ولكنه أراد أن يكبرها

فأهانته. أراد أن يعلي شأنها فحطّت من شأنه. فعلت ما اعتاد الرعاع أن يفعلوه بمن شاء أن يكرمهم، لأنهم لم يكونوا يوماً سوى سلالة عبيد لم تعرف في حياتها الإكبار بقدر ما عرفت السياط. بلى. السياط هي اللغة التي لا يخطىء هؤلاء الأوباش في فهمها. السياط على جلودهم والبصاق في وجوههم!

اجتاز الموكب باب البحر في طريقه إلى السراي. من الميناء أقبل فارس يمتطي جواداً. ترجّل وتقدّم من قائد الجيش وعلى وجهه تتبدّى سيماء القلق. همس في أذن «دولتي» بكلامٍ لم يسمعه أحد. انتقلت سيماء القلق إلى وجه صاحب الجيش الذي لكز جواده حتى اقترب من صاحب الولاية. همس له بالنبأ بغمغمة مبهمة، فشدّ البك زمام جواده بعنف استفزّ المطيّة فأومأت بحركة استنكار وهي تمخر الهواء بساقيها الأماميتين كأنها تنوي أن تطير مطلقةً صهيلاً منكراً. استفهم القرمانلي منفعلاً فلم يجد قائد الجيش بدّاً من تلاوة النبأ بصوتٍ مسموع:

ـ رسول حضرة السلطان يا مولانا ينتظر في مركب بالميناء.

هتف البك بنفاذ صبر:

ـ رسول جديد؟

ـ يقول إن اسمه باكير يا مولاي، ويحمل فرماناً من الأستانة!

ـ هل قلت إنه يحمل فرماناً؟

ـ بلى يا مولاي. يحمل فرماناً بتنصيبه والياً على الإيالة!

لفظ البك من فمه سبّة كأنها بصقة قبل أن يقول وهو يحاول كبح جنون جواده:

ـ اطردوا الكلب شرّ طردة!

سرت في صفوف الموكب همهمة فلم يجد أحد من كل هذا الجيش العرمرم الشجاعة لإطفاء غضبة البك غير يوسف المكّني، الذي رأى أن يتدخل ليجنّب الإيالة شبح بليّة:

ـ يحسن بمولانا أن يتجنّب العجلة.

ولكن القرمانلي أصابه مسّ:

ـ أرسلوا مبعوثاً إلى هذا الخنزير وقولوا له إني سوف أقصف مركبه بالقنابل إذا لم يغادر ميناء الإيالة خلال ساعتين!

ـ مولانا!

هتف بهذا النداء أكثر من صوت. ولكن يبدو أن مسّ البك قد تحوّل جنوناً حقيقياً عندما أضاف:

ـ لقد ضقت ذرعاً بمؤامرات هؤلاء السفلة الذين لا يرون عاراً في أن يعرّوا مؤخراتهم لصاحب الأستانة في سبيل الفوز بعظْمة من عظام الغنيمة. فليعلم هؤلاء أن زمان توزيع الغنائم قد ولّى، وطرابلس منذ اليوم لن تسلّم زمام أمرها إلا لطرابلسي!

6

في اليوم التالي بعث لها برسالة تقول: «لن يمسسك سوء، ولن تعرفي في الدنيا ضائقة، ولن تتعرّضي لمظلمة ما دمت على قيد الحياة». ولكنها لم تتنازل عن استكبارها لتتكرّم بردّ.

اعتصم بخباء الخلوة حيث توصّل لقرار يقضي بتجاهلها. انشغل بقضاء حوائج الرعيّة، وتسيير شؤون الإيّالة، واستقبال قناصل الدول

الأجنبية. ودخل في جدل حامٍ مع الأخوين المكّني حول العواقب التي ستترتّب على طرد المندوب السلطاني. ولكن كل هذه الدوامة لم تطفىء في قلبه الجمرة، ولم تسهم في تخفيف همّه. ظلّ ينتفض كالملدوغ كلّما أفلحت الحسناء في تشتيت حصونه، وهاجمت في غاراتها جنده.

كان ينتفض ويرتجف وتستولي عليه حمّى حقيقية حاول أن يستعين عليها بترويض الجسد في حركة ذهاب وإياب استمرّت طوال انهماكه في فصول تلك الملهاة المضحكة، فقرّر أن يضع لها حدّاً برفع الجلسة.

انفضّ الجميع فوجد أن خلوته لم تعد خلوة. أومأ للحاجب وأصدر له أمراً. لم يدرك أنه ارتكب بذلك الأمر خطأ مميتاً إلاّ بعد أن تلقّى جوابها الغريب ردّاً عليه. فقد أمر في ذلك اليوم المشؤوم بأن تحمل لها أنفس الهدايا، مرفقةً بمكتوب يعبّر عن مشاعره نحوها. وكان بإمكان البليّة أن تكون أهون لو اكتفى في خطابه بهذا السفساف، ولكنه أضاف في المكتوب تفاهة أخرى. قال لها بالحرف إنه قرّر طلب يدها. وقد كُتب له أن يعمّر طويلاً لا لينسى هذه الحماقة، ولكن ليتذكّرها مشفوعة بالضحك ملء شدقيه في كل مرّة. وما دفعه إلى ارتكاب هذه الخطايا ليس العشق يقيناً ولكنه الكبرياء. فقد آلمه أن يتلقّى منها رفضاً بعد أن تلقّى قبلها من يدها صفعة عبّرت عنها بصمتها المنكر في زيارته الأولى. استنكر أن يُرفض من قبل امرأة وهو الذي تولّى أمر الناس ونسي أن المرأة التي لا ترفض ليست في الواقع امرأة ولكنها غانية. استنكر أن يُهان لأنه ظنّ أن

الانتصارات التي حقّقها بذلك اليسر إنّما كانت من صنع يده، ونسي أن اليسر الذي نالها به ليس برهاناً على دهائه، ولكنه دليل على تدخل القدر. والغنيمة التي ننالها بمشيئة الأقدار هي هبة منزّلة ولكنها ليست بطولة ولا مأثرة.

لقد ردّت إليه هداياه في اليوم التالي من ذلك اليوم، مصحوبةً برسالة في هيئة دميتين أنيقتين ملفّقتين من قطع كتّان متعدد الألوان وأعواد من شجر برّي أتقنت صنعهما إتقاناً استثار إعجابه برغم أنه استفزّه.

اختلى بوصيّتها في الخباء وتأمّل الدميتين طويلاً: كانت الأنثى فتاةً فاتنة ترتدي ثياب عروس، موسّمة بالحلي كما يليق بكل عروس في ليلة زفافها. ولكن جِرْمَها مطعون بالإبر! بلى، بلى. الإبر كانت مغروزة بوحشية في صدرها، وفي نحرها، وفي رأسها. وعندما تأمّل الدمية الثانية المتمثلة في الفتى اكتشف أن الإبر تخترق بدنه أيضاً.

استشعر قشعريرة ما لبثت أن تحوّلت انقباضاً ثمّ غضبةً إلى حدّ أنه رمى بالدميتين بعيداً وتشبّث بمقبض سيفه دون أن يدري. زفر أنفاساً سخية قبل أن يستعيد هدوءه رويداً رويداً. استعاد نصيباً من هدوء ولكنه فقد السكينة. بدأ يذرع الخباء جيئة وذهاباً عندما ومض في قلبه قبس. فزّ من الخباء وهو يصيح:

ـ إليّ بالجواد! أين موطني؟ أين مثواي؟

كان يروق له أن يطلق على جواده ألقاباً لا تخلو من طرافة ومن شِعْر مثل: «الوطن» أو «المثوى» أو «البيت المتنقّل». وكان لؤماء الحاشية يتندرون بهذه الألقاب خلسةً ويقولون إنها طفولية.

انطلق في ذلك اليوم إلى المنشية مصحوباً بعدد قليل من العسس. ولم يتوقف حتى أدرك بيت المرابط الصحراوي الذي نال بفضله لقب «الكاهن» دون أن يعرف أحد سرّ هذا اللقب.

في البيت تغيّب صاحب البيت، ولكنه ترجّل عن «بيته المتنقّل» وترك العسس هناك ليذهب عبر الحقول إلى الرابية المطلة على سهل سمح يؤدي إلى البحر. اجتاز حقل الزيتون، وداس في طريقه على النّبوت السخية التي تلبّست الأرض المرويّة كأنها تستجير من نار الأعالي ببدن الحضيض في الأسافل. كان يتأبّط دميتيه الشقيتين ويرنو إلى أرضٍ كان طينها له يوماً لباساً، بل بدناً، بل روحاً وبدناً، ولكن النداء انتزعه من صدرها. الحنين انتزعه من صدرها ورمى به في صراط الآمال التي لا يتحقّق منها جانب حتّى تنبت من لدنها جوانب، كأنها أفعوان الخرافات الذي لا ينقطع له رأس حتّى تتنبّت مكان الرأس رؤوس.

أدرك الرابية فتبدّى الكاهن بلباسه الكئيب ولثامه الأزرق مثل شبح ينتصب فوق قمة المرتفع. وقف فوق رأسه، ولكن الجنّي لم يلتفت، فخاطبه بالقول:

ـ الشمس تشرق، والشمس تغرب لتشرق الشمس من جديد، ولكن ما لي لا أرى صاحب الرؤيا يحرّك ساكناً؟

جثم صمت قبل أن يجيب صاحب الرؤيا:

ـ نحن نقول بلغتنا «أتكيّد أتقلَدْ ديغ يوهزن»!

ـ وما معنى هذا؟

ـ أينما ذهبت فالعود من مكانٍ قريب!

ـ ولكن الدنيا جهاد تتدافع فيه الناس بالمناكب.

ـ وما جدوى أن نتدافع بالمناكب إذا كان بئس المصير هو الذي ينتظرنا؟

ـ هل تسمّي الموت بئس مصير؟

ـ ربما بئس المصير، وربّما الخلاص من بئس المصير لا أدري.

ـ يروق لأهل الرؤيا أن يدسّوا النبوءة في ثوب يحمل تفسيرين لا تفسيراً واحداً، فما سرّ ذلك؟

ـ لا يفعل أهل الرؤيا ذلك لاتّقاء الخطأ في الرؤيا كما يظنّ بلهاء كثيرون، ولكن للتعبير عن حقيقة الدنيا التي لا يستقيم أمرها على حال: تؤكّد اليوم ما يروق لها أن تنفيه غداً، وتنفي اليوم ما يروق لها أن تؤكّده غداً.

ـ ألهذا السبب أرى صاحب الرؤيا يستبدل بيت الله الذي أقبل من الصحراء شوقاً إليه ببيت الدنيا الذي انتهى إليه؟

ـ كل بيت في الأرض بيت الله، وحرم المهاجر ليس المكان الذي جاء منه أو المكان الآخر الذي يذهب إليه.

سكت صاحب السلطان فخيّم صمت. سرح عبر السهل إلى أن انتهى إلى السهل الأكثر سهولة، والأدهى في سهولته من كل سهولة، كأنّه قرّر منذ الأزل أن يتولّى الأمر ليدلّل للخليقة أن الأشياء الأكثر سهولة هي الأشياء الأعظم شأناً: البحر!

تذكّر أنه وقف في هذا المكان مرّة، وجادل في مثل هذه الوقفة شبح الخلاء هذا كأنّ اليوم هو امتداد للأمس البعيد، وربما القريب،

لأن للأيام سلطاناً على الأبدان، ولكنها تفقد السلطان على اللغز النفيس الذي تخفيه الأبدان والذي تطلق عليه الألسن اسم الذاكرة!

تكلّم أخيراً:

ـ جئتك في مثل هذا اليوم من زمن مضى لأعبّر لك عن امتنان، وها أنا أمثل بين يديك اليوم لأستجدي منك وصيّة، فأي سلطان هذا الذي لا يكف عن الاستجداء؟

ـ كلنا نستجدي. ما الإنسان إلا رحلة استجداء تبدأ بالمهد ولا تنتهي إلا باللّحد.

تمتم وهو يضع بين يديه الدميتين:

ـ تلقيتُ هاتين الدميتين رسالة من مخلوق، فأعجزني الرمز في قراءتهما. وقد رأيت أن أحتكم إلى داهية الرموز ليفكّ لي طلسم الأحجية.

برقت من عين الداهية بسمة وهو يقلّب الدميتين بين يديه. قال:

ـ أراهن أن صاحبة هذه الرسالة امرأة!

ـ ما الذي حملك على هذا الظنّ؟

ـ بل من أبدع الرسالة امرأة، ومن بعث بالرسالة أيضاً امرأة. أنظر إلى الشِّعْر في ثناياها؟

ـ الشِّعْر؟

ـ أجل. الشعر. الرسالة مدوّنة بلسان الشّعْر، وأنت تعلم أن لا أحد في الدنيا يعبد الأشعار كما تعبدها النساء!

ـ عجباً!

مضى الداهية يتفحّص الأنثى ويقلّبها بين يديه. ثم يتركها في حضنه ليتولّى تفتيش الدمية الأخرى. كأنّ في هذين الصنمين الأخرسين يتستّر مارد آخر. كأن الدميتين قمقمان يخفيان في جوفهما جنّيين قادرين على قلب الدنيا رأساً على عقب فيما لو انطلقا من معقليهما.

في النهاية توقّف عن نبش الدميتين وانطلق ببصره عبر السهل الأخضر المؤدي إلى السهل الأزرق العميق، الذي يتعمّد أن يخفي حقيقته في سهولته. من اليمّ البعيد عاد الداهية بالنبوءة المخفية مترجمةً في عبارة:

ـ إذا أجبرتني على الاقتران بك فسوف أقتلك!

سكت. أضاف دون أن يعود من رحلته في البعْد البعيد:

ـ هذا ما تقوله الرسالة في الدمية الأولى.

سكت مرة أخرى. أضاف بلا مبالاة:

ـ وإذا أعجزني قتلك فلن تملك حيلة تمنعني من أن أقتل نفسي!

سكت من جديد. أضاف باللامبالاة نفسها:

ـ هذا ما تقوله الرسالة في شقّها الثاني!

سكت فهيمن سكون. صمتَ صوتُ النبوءة في عضلة اللسان كما صمتَ صوتُ الحقيقة في مملكة الطبيعة. ولكن الجمال هبّ ليتكلّم نيابةً عنهما في الاستعارة الشعرية التي أبدعتها الحسناء وتماهت الآن في الشعر المكتوب بزرقة البحر.

7

لم يستخدم في حقّها القوّة، ولم يحتكم إلى عون القوّادة. بل لجأ إلى سلاح آخر. سلاح كان عليه، أن يحيا طويلاً ليدرك في نهاية المطاف أنه لم يكن سوى سلاح العجزة لا الأقوياء، سلاح الأشرار لا الأخيار: الانتقام!

قرّر أن يتخلّى لا تخلّي الشجعان أمثال أهل الزهد، ولكن تخلّي الجبناء أمثال الذين لا يُدبرون إلاّ ليقبلوا، بل أمثال الذين لا يقبلون إلاّ ليدبروا. تخلّى عن الحسناء لا إكباراً لها ولكن ثأراً منها فخالف أوّل وصيّة في ناموس العشق. خالف أوّل وصيّة في كل النواميس. خالف الأمر الخالد: لا تفعل شيئاً أبداً على سبيل الانتقام!

اختار حسناء أخرى تختلط فيها دماء الأعلاج بدماء القوقاز، بدماء الأناضول، بدماء الألبان. اختارها وسكن إليها. أو ظنّ أنه يستطيع أن يسكن إليها. بل ظنّ أنها تستطيع أن تسكّن في قلبه الحريق. ولكن هيهات!

لم يمضِ على القران سوى أسابيع عندما اكتشف أن القِران بحسناء ما وراء البحار لم يزد في قلبه الحريق إلا اشتعالاً.

اشتدّ في قلبه الحريق إلى حدّ أيقن فيه أن قلبه قد احترق. لم يعد يطيق البليّة فداس على كبريائه وامتطى صهوة «وطنه المتجوّل» كما يسميه وانطلق. انطلق لزيارة كاهن الصحراء في حرمه. وجده لأوّل مرّة في بيته الذي اكتراه له صديقه المكّني. ولكنه لم يستقبله للمكوث في البيت، بل دعاه لجولة على الأقدام. عبَرا حقولاً مفروشة بالزروع، تتبعثر عبر جداولها أشجار النخيل والبرتقال والخوخ

والزيتون. سارا شمالاً حيث تنتصب في نهاية الحقول الروابي التي تقوم برزخاً يفصل شطوط اليمّ العظيم عن سهول المنشية.

تكلّم الكاهن بعد صمت طويل:

ـ يحزنني ألاّ تفلح في أن تنسى!

تلقّف البك العبارة كأنه كان ينتظرها بفارغ الصبر، ربّما لأن كل شأن من شؤون الدنيا تبدو في نظر العاشق هراءً في هراء باستثناء العشق. قال:

ـ وكيف أفلح في أن أنسى إذا كان الحبّ هو الدّاء الوحيد الذي لا تجدي فيه تمائم السحرة ولا ترياق العطارين؟

زفر أنفاساً قبل أن يضيف بلهجة مزاح:

ـ اللهم إلاّ إذا هديتني إلى حيلة من حيل سحرة صحرائكم التي اعتدنا أن يأتينا منها كل عجيب!

ـ في صحرائنا لكلّ داء دواء حقّاً، ولكنني أخشى أن أدويتنا ستكون أشدّ على العليل من الأدواء.

أيقظت العبارة أملاً في صدر العاشق الذي لا يكون عاشقاً حقيقياً إن لم يماثل الغرقى الذين يتشبّثون بقشّة فتساءل بفضول:

ـ هل اهتدى دهاؤكم إلى ترياق لمداواة العشق حقّاً؟

ـ بلى!

توقّف البك. تطلّع إلى رفيقه الذي توقّف أيضاً. تبادلا نظرة قرأ فيها صاحب الرؤيا استجداءً، فقال كأنه يستدرك:

ـ ولكنه الدواء الأقسى من الدّاء كما قلت.

ولكن إيماء التوسل لم يختفِ من مقلة البك. لم يكن ذاك إيماء

توسّل، ولكنه ألم. لم يكن ألماً ولكنه يأس. يأس كان سبباً في إيقاظ الإحساس بالشفقة التي تجنّبها الكاهن دائماً تجنّبه للطاعون ولبقية الأوبئة ليقينه المتوارث أباً عن جدّ بأن الشفقة حربة لا تميت من تصيب فحسب، ولكنها تقضي على من أطلقها أيضاً. أراد أن يتحرّر من وزر الشفقة فتعمّد أن يحتكم لساحة الحقيقة التي تقطع الشكّ باليقين:

ـ في نجوعنا يلجأ العشاق إلى اختطاف أرواح معشوقاتهم لمداواة داء العشق!

ـ هل قلت اختطاف الأرواح؟

ـ بلى.

فزّت من عيني العاشق لهفة. بل استولت عليه رجفة وهو يلتهم الكاهن بمقلتيه. ويبدو أن الدّاء أنساه السلطان واستكبار أصحاب السلطان، ووقف في حضرة صاحب الرؤيا يرتعد كطفل مذعور، فقال الكاهن في نفسه إن العشق فضيلة وليس داء ما دام يستطيع أن يعيد الجبابرة أطفالاً وأصحاب الاستكبار بشراً. تساءل العاشق بلعثمة:

ـ هل لك أن تحدثني كيف يفعلون ذلك؟

ـ لا يفعلون عجباً، لأن الموت أقرب من حبل الوريد دائماً.

ـ ماذا تقول؟

ـ يميتوهنْ!

ـ يميتوهنّ؟

ـ لنيْل روح المعشوقة لا بد من قتل المعشوقة!

ـ ماذا تقول؟

ـ ألم تتحدّث منذ قليل عن الدّاء وعن كيفية الخلاص من الداء؟

ـ ولكن. . ولكن هذا فظيع.

ـ العشق والموت، يا صاحب الولاية، قرينان!

ـ ولكني. . ولكني أريد أن أنعم بوصل من أعشق لا أن أُحرم منه.

ـ لا تُنال المعشوقة إلاّ في الموت.

ـ ماذا تقول؟

ـ المعشوقة تستطيع أن تنال معشوقها في المخدع لأنها امرأة، ولكن العاشق لا يستطيع أن ينال المعشوقة إلاّ في الموت لأنه رجل!

ـ وهل يرى العشق فرقاً بين رجلٍ وامرأة؟

حدّق الكاهن في الأفق كأنه ذهب في رحلة لاقتناص رؤيا. قال:

ـ المرأة سلطان الطبيعة على الدنيا، ولهذا فإن الحياة الدنيا فردوسها. والدليل على ذلك أنها تستمتع في عناق المخدع تسعة أضعاف الرجل، في حين لا يفوز الرجل في لحظة اللذّة هذه سوى بالعشر. هل تعرف لماذا؟

ولكن صاحب السلطان لم يجب لأنه فقد القدرة على الكلم. فقد القدرة على الكلم لأنه فقد الصولجان. فقد السلطان. فأجاب الكاهن على سؤاله:

ـ لأن الرجل في هذه اللعبة طيف. خيال. نفحة هواء. روح. بلى. هو في الصفقة روح. ولهذا يخسر الرهان دائماً عندما يتعلّق الأمر بالمخدع. أمّا إذا أراد أن ينال حقّاً فليس أمامه إلاّ أن يحتكم

لنصل السيف أو حدّ السكين ليأخذ معه من أحبَّ إلى مملكة الروح التي لا وجود لها في دنيانا، ولكنها تنتظر على الضفة الأخرى من الوادي.

ردّد البك ببلاهة:

ـ الضفّة الأخرى من الوادي؟

ـ أجل. الضفة الخالدة التي لا ننزلها إن لم نستخدم المدية أو أي نصل آخر لنسيّل الدّم لأنها لا تقبلنا من دون قربان. لأنها لا تستقبلنا في ديارها دون أن نصير قرباناً لأنفسنا!

ساد صمت. خطا الكاهن. واصل السبيل. ولكن صاحب الولاية لم يتزحزح. غاب بعيداً فاضطرّ صاحب الرؤيا أن ينتظره على الضفة الأخرى من الجدول. لحظتها تكلّم صاحب الولاية:

ـ روايتك ذكّرتني الآن بسيرة سلطان الأستانة الذي تعشّق إحدى نساء الحريم فأمر بقتلها بدل أن يستمتع بأحضانها، فهل تدري بماذا أجاب عندما سأله أحد المقرّبين عن السبب؟

لم يجب الكاهن فأكمل صاحب الولاية:

ـ قال إنه فعل ذلك حتى لا يفقد سكينة الروح!

ـ لو لم يفعل ذلك لنالت منه البلبلة قبل أن يقضي عليه البلبال.

أدركا سفح المرتفع. مالت شمس العشي نحو المغيب. احتقن قرص الشمس بدم الغروب. ولكنها لم تبخل بفيوضها الذهبية لا على حميمها اليمّ، ولا على قرينها السهل.

صعدا صامتين.. بلغا القمّة. تبدّى البحر في زرقته، وفي

امتداده، وفي سكونه، وفي بيانه، كنزاً عميقاً، غامضاً، بعيداً برغم حضوره في متناول اليد، كأنّه الحقيقة.

غاب البك في الأفق الذي يهبه البحر ويذهب في هجرة بلا نهاية لا ترتدّ أبداً قبل أن تمثل بين يدي المجهول في السماء لتهديه البلاغ.

قال:

ـ ولكنّي لا أنوي أن ألجأ إلى ترياقٍ كهذا ما لم أعدم كلّ حيلة!

سكت. أضاف:

ـ وأظن أن جعبة صاحب الرؤيا لن تخلو من مثل هذه الحيلة.

لم يجب العرّاف فأوضح البك:

ـ وقد جئتك منذ البداية طلباً لهذه الحيلة، فهل تبخل بها على صديق مثلي؟

ـ وماذا تريدني أن أفعل؟

التفت القرمانلي فالتقت مقلتاهما. في العينين قرأ كل منهما قلب صاحبه. تمتم البك:

ـ هل لك أن تتحدّث إليها؟

ـ ماذا تريدني أن أقول لها؟

ـ على لساني لا أريدك أن تقول لها شيئاً. تستطيع أن تقول لها ما تقوله الغيوب!

أشاح العرّاف ببصره. فرّ إلى صحراء مغمورة بسيل أزرق بلا بداية ولا نهاية. قال كأنّه يقرأ نبوءة في قرطاس المجهول:

ـ الغيوب لا تقول دائماً ما نريد لها أن تقول، فهل تقبل المجازفة؟

ـ المجازفة؟

ـ إذا قلتُ لها ما تقوله الغيوب فالقول قد يكون لك وقد يكون عليك. اللهم إلاّ إذا كنت تريدني أن أكذب!

ـ أعتقد أنّك تستطيع أن تجد حيلةً دون أن تضطرّ إلى الكذب.

ـ استنطاق الغيوب عمل لا يختلف عن القمار، أو فلنقل عن القرعة. علينا أن نقبل النتيجة سواء أكانت لنا أم علينا. فهل تقبل؟

سكت البك. فرّ ببصره إلى اليمّ البعيد. قال صاحب الرؤيا:

ـ إعلم أني لن أكذب حتّى لو أردتَ. لن ألفّق في سمعها كذباً إرضاء لك حتّى لو قطعتني إرباً إرباً، فهل تقبل ناموس القرعة؟

عاد القرمانلي من رحلة الآفاق. حدّق في عيني الداهية فلم يرَ فيهما شيئاً غير التحدّي. قال:

ـ من أعْيَتْه الحيلة ففقد الأمل لا يخسر بالرهان إلاّ يأسه!

ـ أحسنت!

بعدها تشبّثا بتلابيب الصمت حتّى افترقا.

8

يوم أقبل عليها ليمثل بين يديها بتزكية من الحاج علي المكنّى استقبلته بسؤال:

ـ هل أنت رسول آخر من رسل البك؟

حدجها بنظرة عابرة، ولكنها كانت كافية ليدرك سرّ العجب الذي أفقد صاحب الإيالة صوابه. كانت كافية للإلمام بتفاصيل اللغز الذي يسميه الشعراء حُسْناً، ويراه النّساك وبعض الأولياء رجساً. زعزعه الجمال فاستجار بالدّار. كانت محتوياتها كلها مكسوّة بلون أخضر لسبب مّا. حتى الببغاء القابع في القفص لونه أخضر، ولون القفص أيضاً أخضر. كانت ترتدي أيضاً ثوباً أخضر موشىً بخيوط سخية من الذهب. وعيناها؟ عيناها أيضاً لونهما أخضر. لم يسبق لبصره أن وقع على عين خضراء. كما لم يسبق له أن وقع على عين في حجم عين تلك الحسناء.

قال:

ـ كلاّ. لم آتِ رسولاً من رسل البك.

رمقته باستفهام فأدرك أنها تنتظر أن يكمل فأوضح:

ـ جئت رسولاً من المجهول.

ـ المجهول؟

كانت تبتسم بغموض. باستخفاف. وربّما.. بإغواء. لم تكن تبتسم بشفتيها ولا بملامح وجهها، وإنّما بمقلتيها الخضراوين الكبيرتين. قال:

ـ صاحب الرؤيا دائماً رسول مجهول!

ـ صاحب رؤيا؟

ـ بلى. أقبلتُ على سليلة الأكابر لكي أقرأ لها وصيّة بعث بها المجهول.

رقصت البسمة الخفية في عينيها فتزعزع وعصف به مسّ الوجد.

قالت:

ـ ومن هو هذا المجهول؟

ـ البعض يسمّيه في ديارنا خفاءً، والبعض الآخر يسمّيه أقداراً!

لوّحت أمام وجهها بمروحة من ريش نعام. المروحة بلون أخضر أيضاً:

ـ هل أنت عرّاف؟

ـ في بلادنا الكلّ عرّاف، كما أن الكلّ شعراء!

ـ حقّاً؟

ـ هؤلاء هم أهل الصحراء.

ـ وهل في جعبة رسول الصحراء بشارة أم خسارة؟

ـ هذا يعتمد على الطريقة التي ستستقبل بها سليلة الأكابر فحوى الرسالة.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول إن الخطر دائماً ليس في حرف الرؤيا، ولكنه في تأويل الرؤيا.

ـ وهل رؤياك عصيّة إلى هذا الحدّ؟

ـ كل الرؤى عسر، وكلّها يسر أيضاً.

ـ وكيف لي أن أفهم أحجية كهذه؟

ـ أردت أن أقول إن الحقيقة تتخبّأ في نقيضها!

ـ وماذا عليّ أن أفعل كي تتحوّل الرؤيا حقيقةً لا بهتاناً؟

ـ ليس عليك أن تفعلي شيئاً غير الإيمان بها.

ـ إذا آمنتُ فهل تتحقّق؟

ـ يقيناً!

اختفت البسمة الماكرة من فردوس مقلتها الأخضر. تطلعت إليه بإيماءٍ يتأرجح بين التحدّي والفضول. فرّت بمقلتيها الهائلتين إلى الشبّاك المطل على أشجار البستان. في ملامح وجهها تعبير تقول ترجمته: «عجّل بالنبوءة قبل أن يغزوني السأم ويأخذني بعيداً!».

قرّر أن ينتهز الفرصة قبل أن يختلسها من بين يديه الملل:

ـ بمقدورك أن تحكمي هذه البلاد لأجيالٍ وأجيال لو شئتِ!

عادت من رحلتها. حدّقت فيه بعينيها الآسرتين حتّى كاد يغمى عليه. ولكن الإيماء في حدقتيها اختفى فتبدّت المقلتان خاويتين كأنهما فنجانان من بلّور ملوّن. قالت في غيبتها:

ـ هل هذا ما تقوله الرؤيا؟

ـ بلى.

ـ وماذا عليّ أن أفعل كي أحقّق ذلك؟

ـ أن تصدّقيني قبل كل شيء.

ـ هبْني صدقت.

ـ ثم تستعينين بالعمل على الإيمان.

ـ العمل؟

ـ لا شيء يستقيم بلا عمل!

ـ وماذا عليّ أن أعمل؟

ـ ألاّ تترددي في الزواج من البك!

تبدّلت اللامبالاة في مقلتيها ليحلّ فيهما الاستخفاف. دامت المبارزة بينهما طويلاً. ولكنها قالت أخيراً:

ـ لقد قلتَ إنّك لم تأتِ رسولاً من رسل البك، وقد صدّقتك. .

تشبّثت عيناه بعينيها. لم يحتكم لدهاء الكهنة لأنه لم يكن بحاجة لذلك. اكتفى بأن حمّل مقلتيه رسالة الرؤيا. حمّل مقلتيه رسالة الحقيقة، لأنه عرف منذ القدم أن الحقيقة وحدها لا تحتاج لا إلى معين ولا إلى براهين. قال:

ـ لم أخن ثقتك أبداً لأنك صدّقتني.

ـ هل تقسم على المصحف؟

ـ إذا خامر سليلة الأكابر شكّ في المصحف الذي رأته في عيني فأنا على استعداد أن أقسم، برغم أني لا أنكر أنه طلب منّي أن أكون رسوله إليك.

ـ ها أنت تعترف بما تنوي أن تنكره بالقسم على المصحف.

ـ ولكني رفضتُ طلبه!

ـ رفضت؟

ـ أعربت له عن استعدادي أن أكون رسولاً، ولكن ليس رسوله.

ـ أي رسول إذن؟

ـ رسول الحقيقة!

ـ رسول الحقيقة؟

ـ رسول الرؤيا. قلت له إني سأقول لها ما ستقوله الغيوب لا ما شاء هو أن أقوله لك.

سكت. هدأ. اختلس نظرة نحو الببغاء الأخضر القابع في قفصه كأنه ملفّق من خشب ملوّن بالأخضر. قال:

ـ لم يكن أمامه من سبيل غير أن يقبل.

سرحت بعيداً فانطفأ السّحر في عينيها وتبدّت في نظرتها تلك كالحولاء. قالت:

ـ كانت تلك شجاعة منك!

ـ ربّما كانت مجازفة، ولكنّك تحسنين بي الظنّ كثيراً عندما تقولين شجاعةً.

هيمن صمت. في الخارج زفر البحر ريحاً شمالية فاستجابت لها الأعراف في أشجار النخيل عويلاً. تساءلت:

ـ أليست أمنيةً مستحيلةً أن يفلح الإنسان في أن يحكم بلاداً سيئة الحظ كهذه على مدى أجيال؟

ابتسم الكاهن. لم يخفِ ابتسامته أيضاً. تساءل:

ـ ألم يكن في الماضي القريب من المحال أيضاً أن يفوز بحكمه رجل في سنّ البك وفي وضع كوضع البك؟

ساد الصمت مرّة أخرى. ولكنه أدرك أنه أخطأ في فهم سؤالها فاستدرك:

ـ صاحب الحظّ يتولّى الأمر جيلاً، وذريّة صاحب الحظّ تتولى الأمر من بعده أجيالاً. هذا ما أرادت أن تقوله الرؤيا.

بعدها دام الصمت طويلاً.

9

مَثُل بين يديه الخازندار بهيئته التي لا يعرف لماذا تذكّره بجرم الجرادة. أومأ إليه أن يقرأ مزموره الخالد عن الحاجة التي لا تنتهي إلى المال. مزموره عن الظمأ الخالد الذي لا ترويه سيول.

احتكم من فوره إلى التهويل كعادته:

ـ الجند لم يتقاضوا معاشاً منذ شهرين، والمجاعة تهدّد الدواخل برفع رايات العصيان، والصقليّون يطالبوننا بالأموال التي استولى عليها بحّارتنا من سفينتهم منذ ثلاثة أسابيع بإلحاحٍ لا يمكن مقارنته إلا بإلحاح الفئران في طلب القوت في دهليز خزانة الإيالة الخاوية!

ابتسم البك وهو يسرح ببصره بعيداً:

ـ ألم يأتنا الفرج منذ شهور على يد صاحب جنوة الذي دفع بأربعة آلاف قطعة ذهبية إلى الخزانة؟

ـ تلك كانت هبة سقطت علينا من السماء لولاها لما استطعنا أن ندفع مهايا الموظفين، ولا قمنا بسداد الديون المستحقة على الإيالة من كبار التجّار. إننا على شفا هاوية يا سيدنا البك!

ـ وما سرّ هذه النكبة؟

ـ ماذا؟

ـ أردت أن أتساءل كيف كان الدايات الذين سبقوني يفلحون في تسيير دفّة هذا القارب اللعين!

ـ هؤلاء كانوا دهاة يا مولانا. أعني أنهم عاشوا في زمن آخر كانت فيه تجارة القوافل في قمّة ازدهارها، والغزوات البحرية تعيش عصرها الذهبي.

ـ هل تريد أن تقول إن حظر القرصنة هو السبب؟

ـ ليس السبب الوحيد يقيناً. فهناك تضعضع المحاصيل الزراعية بسبب الجفاف والفوضى. هذه الفوضى التي احترقنا بنارها في السنوات الأخيرة هي التي قضت على تجارة القوافل إلى جوف القارّة، لأنها أطلقت يد قطاع الطرق وحرّرت المغامرين من الخوف.

ـ وماذا عن الخراج؟ ماذا فعلتم بعوائد المكوس؟

ولكنه لم ينتظر جواباً على سؤاله. فزّ من جلسته واقفاً. قطع في الفناء خطوات. توقّف كمن تذكّر شيئاً. قال:

ـ أظنّ أن الأدميرال بترسون جاء لنا من ملك هولندا بثروات أخرى منذ مدّة غير بعيدة، عربوناً لتجديد المعاهدة الموقّعة بين بلدينا، فما مصيرهذه الثروات؟

طافت بسمة سخرية على شفتي الخازندار، ولكنها ما لبثت أن اختفت. قال:

ـ تلك لم تكن ثروات يا مولانا، ولكنها مجرّد مدافع ومائة قنطار من البارود. أمّا عوائد المكوس التي استفسر عنها مولاي منذ قليل فقد اشترينا بها الحبوب من جزر الأرخبيل الفرنسي منذ شهر تقريباً.

ـ مهلاً، مهلاً. دعك من حبوب الأرخبيل الفرنسي وأخبرني عن عطيّة الأدميرال بترسون. أذكر أن الجميع في هذه القلعة البائسة هلّل يومها لهذه الهديّة وكبّر، حتى ظننت أني فزت بكنوز قارون وأمّنتُ مملكتي من حاجتها الخالدة إلى المال إلى الأبد، فهل لك أن تفسّر لي هذا اللغز؟

ـ لقد هلّل الفرسان يا مولانا لأن خزينتنا لم تكن خاوية من المال يا سيدنا وحسب، ولكن من العتاد الحربي أيضاً. وجنابكم يعلم أن لا شيء في هذه الأيام يستقيم من دون بارود أو مدافع. . .

ولكن البك قاطعه بخشونة:

ـ وهل نستطيع أن نبيع هذا العتاد لنشتري بأثمانه ذهباً؟

تطلّع إليه الخازندار بدهشة. ولم ينتبه إلى أنه لم يجب على سؤال البك إلاّ بعد أن التفت إليه. قال:

ـ أخشى أننا لن نستطيع أن نفعل ذلك يا مولانا.

ـ لماذا؟

ـ لأن العتاد لا يباع ولا يُشترى.

ـ لماذا؟

ـ لأنه سلاح!

ـ أليس السلاح سلعة؟

ـ السلاح خُلق ليستخدم، يا مولانا البك، في رحاب البرّ، أو في عرض البحر!

ـ وهل تظنّ أن الهولنديين من الغباء بحيث يهدون لنا سلاحاً نحاربهم به؟

ـ لم يتكرّم ملك هولندا لإهداء مولانا عتاداً لكي يحاربه به، ولكن لكي يقمع به العصاة.

ـ ماذا تقول؟

ـ لكي ينتزع به الأموال من يد تلك القبائل التي قد تسوّل لها النفس الأمّارة بالسوء بعدم دفع المكوس.

ـ وما الذي يحمل ملك هولندا على الظنّ بأن قبائل الدواخل قد ترفع راية العصيان وتتنصّل من دفع الخراج؟

ـ لأنه ملك يا مولانا!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول إن في مملكة ملك هولندا أيضاً رعايا كثيراً ما يرفضون دفع المكوس مثلهم مثل كل الرعايا في كل الممالك.

توقّف البك عن مجيئه وإيابه. حدّق في عين هذا الداهية الذي عرف منذ الأيام الأولى أنه لا يقول القول عبثاً أبداً. سأله بصرامة:

ـ أفصح يا خبيث!

طأطأ الخازندار، قال:

ـ مولانا لم يقم بتأديب أهل تاجوراء الذين تجاسروا بمحاصرة شعبان بك في القلعة.

ـ وتريدني أن أستخدم ضدّهم مدافع الملك الهولندي بدل أن أبيعه في عرض البحار، أليس كذلك؟

ـ بلى، يا مولانا.

ـ ومَنْ من قبائل الدواخل تريدني أن أنهب بمدافع الملك الهولندي؟

ـ أهل الجبل!

ـ أهل الجبل؟

ـ بلى يا معالي البك!

ـ هل شقّ أهل غريان عصا الطاعة؟

ـ كلا يا سيدنا البك.

ـ هل نادوا بخلع البيعة؟

ـ كلا يا سيدنا.

ـ هل رفضوا دفع ما توجّب عليهم من مكوس؟

ـ كلا، كلاّ.

ـ لماذا تريدني أن أستخدم ضدّهم قنابل ملك هولندا إذن؟

سكت الخازندار فتساءل البك بحماسة:

ـ هل الحاجة إلى المال هي السبب الوحيد؟

تردّد الخازندار قبل أن يجيب:

ـ نعم ولا!

ـ ما معنى هذا؟

ـ هذا يعني أن الحاجة إلى المال دائماً هي السبب الأول والأخير يا مولانا لا في أمر الخروج لتأديب القبائل أو لنهب القرى في الساحل وفي الدواخل، ولكن في كل الحروب التي عرفتها الدنيا وفي كل العصور..

هبّ في وجهه البك:

ـ هل جئت تقرأ لي حكمةً أيها الوغد؟

ـ كلاّ، كلاّ، يا مولانا. بل جئت أعرض على مولاي مخرجاً؛ لأن حرفتي علّمتني ألاّ أدخل على صاحب الأمر والنهي دون أن أحمل له في جعبتي حلولاً إلى جانب أنباء السوء!

سكت البك. تساءل الخازندار:

ـ هل يأذن لي مولاي أن أكمل ما أردت أن أقول؟

ـ أجل ولكن باختصار.

ـ بخصوص أهل غريان في جعبتي حُجّة!

ـ حُجّة؟!

ـ بيّنة كافية لغسل الآثام التي ستلحقنا جرّاء إهدار دماء رجالهم!

ـ تبّاً لك!

ـ لقد كاتب خليل باشا الأرناؤوطي أثناء اعتصامه ببرج صبراته شيخهم طالباً منه النجدة!

ـ تكذب!

أخرج الخازندار من جيبه قرطاساً ملفوفاً في قطعة جلد قدّمه له قائلاً:

ـ هذه حجّة نلتها مقابل المال أيضاً يا مولاي لأبرهن لمعاليكم أن المال كمارد القمقم له فضائل لا تحصى.

ولكن البك كان ينهمك في قراءة القرطاس. وعندما انتهى غاب في وقفته طويلاً. قال دون أن يلتفت للشقي الذي مضى يحاصره بنظراته:

ـ وما الذي يثبت لي أن المكتوب ليس مزوّراً؟

أجاب الداهية بمكر:

ـ لا أظنّ أن زعيم غريان سوف ينكر إذا واجهته بالأمر لسببٍ لن يجهله مولاي.

استفهم البك بإيماءة فأوضح الخازندار:

ـ لأن نبله سوف يمنعه من أن يفعل.

قال البك غائباً:

ـ ونحن سنجعل منه ضحيةً ثمناً لهذا النبل!

ـ هذا ناموس الدنيا يا مولانا.

تمشّى البك مرّة أخرى. ولكنه بدا مهموماً، مطأطئاً كمن يعاند بلبالاً. قال فجأة:

ـ ولكن تلقي المكتوب من خائن ليس دليلاً على خيانة!

ابتسم الخازندار. قال بيقين من عرف سرّ المال وعرف سرّ الملوك إلى جانب سرّ المال:

ـ استلام رسالة من خائن ليس دليل خيانة حقّاً، ولكن السكوت على رسالة صاحب الخيانة هو يا مولانا الخيانة!

10

مَنْ يستحق القصاص ليس أهل غريان، ولكن أهل تاجوراء وحلفاؤهم من أهل ترهونة ومسلاّته، الذين لا يريدون أن يكفّوا عن ممارسة الشغب وإثارة القلاقل. ورأس هؤلاء الأشقياء دائماً أهل تاجوراء. أهل تاجوراء دائماً هواة فتن لمجرّد أنهم كولوغلية. لمجرّد أنهم ينتمون بالنسب إلى سلالات الأناضول. لمجرّد أنّهم أنكحوا بناتهم يوماً لقراصنة ما وراء البحار ليحسبوا أن ذلك امتيازٌ يعصمهم من العقاب. بالأمس القريب قرّروا أن يلقّنوه درساً. قرّروا أن يلقنوه هو وليّ نعمتهم وحامي حماهم درساً، من خلال هجمتهم على أخيه شعبان بك الذي ولاّه عليهم ليقوم على خدمتهم ويرعى شأنهم.

ولكنّهم غدروا به وحاصروه في القلعة في نيّة لقتله شرّ قتلة، انتقاماً لقيامه بقمع انتفاضتهم التي قاموا بها منذ شهور احتجاجاً على فرضه الغرامات على العصاة الذين عاثوا في بساتين المنشية فساداً واستولوا على قافلة حجيج عابرة. وهو على يقين من أنهم سوف يستمرّون في التكشير عن أنيابهم ما لم يلقنهم درساً قاسياً مقابل درسهم الأخير. درسهم المزعوم الأخير ليعلموا مرة واحدة وإلى الأبد أن العين بالعين والسن بالسنّ والبادئ أظلم. سوف يسلبهم ما خف وزنه وغلا ثمنه. سوف يسلبهم حتى حلي حريمهم ليملأ جوف خزانة الإيالة الخاوية دوماً. ليملأ جوف هذه الخزانة اللعينة التي أدرك منذ أنها لن يشبع بطنها إلا التراب، مثلها مثل بطن ابن آدم.

ولكن.. المعضلة ليست في أبناء زاوية تاجوراء الذين لا يكفون عن التباهي بلقب «كولوغلي» الأجوف، ولكن في أهل غريان الأبرياء. أهل غريان لا الأبرياء فحسب، بل الأبطال الذين جاءت له سواعدهم الشجاعة بالسلطان على طبق من ذهب. كيف يستطيع أن يذهب اليوم ليقصف قراهم البائسة بمدافع ملوك ما وراء البحور، وهم الذين أطعموه بالأمس من جوع وآمنوه من خوف؟ بأي وجه يستطيع أن يقف في وجه زعيم المحاميد ليقول له إنّه جاءه اليوم غازياً بعد أن اشترى هو بالأمس القريب حياته بدم رجاله؟ كيف يستطيع أن يفهمه أن النهب شريعة الحكم، ولا بدّ أن تُختلق الذريعة لتزيين وجه النهب القبيح؟ كيف يستطيع أن يقنعه بأن يدفع آخر لقمة في فم آخر طفل من أطفال غريان البؤساء، لأن رسل السلطان لا بدّ أن يُرتشوا واستقلال طرابلس لا بدّ أن يُشترى، والحرية لا بدّ أن

تُفتدى؟ كيف يفسّر لهم أن العهود لم تُخلق إلاّ لتُخرق حتى لو ختمتها نواميس الله المغسولة بالدّم؟

كان يومها يجلس في خباء الخلوة وحيداً، يحدّق في فراغ السماء الأزرق اللامبالي. فلم يدرِ رئيس العسس (الذي وقف يراقبه من بعيد) لماذا فزّت من عينه اليمنى دمعة كبيرة ناصعة كأنها قطعة من جوهر!

11

انتهى من أوباش الكولوغلية في تاجوراء وزحف بقوّاته نحو جبل نفوسة. بات ليلته عند قدم الجبل. وفي الصباح تأهّب لصعود الدروب الوعرة عندما أقبل عليه رسول زعيم المحاميد. قدّم إليه رقعة بفحوى من سطر واحد: «أجرناك لاجئاً، ونأبى أن تطأ أقدامك أرضنا غازياً!». وفهم على الفور أنه ارتكب خطأً. أخطأ لأنه تسرّع ولم يبادر بمراسلة القوم لاستقصاء الحقيقة، أو بالأصح، لذرّ الرماد في العيون، كما تقتضي الأعراف. وفهم أيضاً أنه لا يستطيع أن يتراجع حتى لا تبدو المغامرة مجرّد مهزلة في نظر جنوده. مهزلة من شأنها أن تنال من صيته البطولي كمحارب يسير النصر في ركابه حتى أنه لم يُقهر لأنه حبيب الأقدار.

كان فرسان الجبل قد استولوا على القلعة التي كانت حامية الإيالة تعتصم بها وأسروا جنودها. ثم بدأوا يهاجمون جيشه بسيولٍ جارفة من الحجارة التي كانوا يدحرجونها من القمم العليا فتهوي إلى الأسافل بسرعة جنونية لتسحقّ في طريقها كل شيء. وقد برعوا في استخدام هذا السلاح منذ أزمان بعيدة إلى حدّ صار فيه الجبل، كله

بمثابة حصن منيع يستحيل اختراق أسواره الطبيعية هذه. وقد أهلكت هذه الصخور المميتة عدداً من جنوده في الأيام الأولى، كما جرحت عدداً آخر. ولم يكن بوسع هذه التدابير الدفاعية أن تحسم حرباً بالطبع برغم أنها سرقت منه كنزاً أنفس من كل الكنوز الأرضية وهو الوقت. ولم يبق له إلاّ أن يستنجد بالدهاء لتدمير تدبيرهم فأرسل فرقتين إحداهما نحو الغرب للتسلل إلى الجبل من طريق نالوت، وثانيهما نحو الشرق باتجاه مرتفعات ترهونة حيث ينكسر استكبار جبل نفوسة في كلتا هاتين الناحيتين، ويهوي أرضاً مما يسهّل الالتفاف على الحصن.

وبالفعل أفلح في كسر شوكتهم بعد أن هوجموا من الخلف من الناحيتين الشرقية والغربية، فانسحب الزعيم بالقسم الأعظم من جيشه إلى الصحراء. وتحصّن بعض رجاله في القلاع للذود عن الحريم اللواتي لم يتمكنَّ من تهريبه معهن إلى أعماق الدواخل.

عَسْكَرَ بالجبل وبدأ يشنّ غاراته على تجمعاتهم في الأودية المجاورة وعلى المدن التي أخلوها، ولكنهم لم يطيقوا الاستغناء عنها تماماً. فكانوا يتسللون إليها كلّما وجدوا الفرصة إمّا للتزوّد بمؤن اعتادوا أن يخفوها في مطامير، أو لجلب أطعمة لعجزة حالت الشيخوخة دون رفقتهم، إمّا للاعتناء بمرضى يدرون أن العدوّ لن يؤذيهم لعدم نفعهم أو شفقةً على حالهم. وقد بلغت الجرأة بأحد فرسانهم أن أخفى عائلته كلّها في داموس رهيب منحوت في صدر الصخر، بعد أن سدّ فوهته ببنيان من حجارة. وكان يشنّ غارات جنونية على الجنود الذين يحومون بالجوار ويقضي عليهم كي يتمكّن

من زيارة أهله في تلك المغارة الظلماء ليأتي لهم بالقوت. وعندما رأى أن الجنود اكتشفوا المخبأ وأخذوا أسرته أسيرةً، هجم عليهم وقاتلهم بشراسة منقطعة النظير، لا لينتصر كما ظن الجند ولكن ليقتل أفراد عائلته حتى لا يقعوا في الأسر.

روى له هذه السيرة «دولتي» بنفسه فطرده من الخباء واختلى بنفسه. اختلى بنفسه ليسأل نفسه بصوت عالٍ أدهش العسس: «ماذا تفعل يا أحمد بك القرمانلي؟ ماذا تفعل؟».

ثم سكت صوت اللسان ليتكلم الصوت المميت. ليتكلّم صوت الله. ليتكلم صوت الضمير الذي قال أول ما قال إنه لا يصلح بعد اليوم أن يتولى أمر الناس ويبني كيان دولة وأيّ دولة. لأن الدول بنيان لا تشيّد أركانه النذالة، ولكن بالتسامح. لأن الإنسان إن لم يتسامح، إن لم يغفر، فلن يكون بوسعه أن يكسب صديقاً فكيف يكسب شعباً، بل ربما شعوباً؟

وهو؟ ماذا فعل هو؟ لم يرفض التسامح فحسب، ولكنه عضّ اليد التي أحسنت إليه. خان عهداً كان له الفضل لا في وصوله إلى عرش الحكم فحسب، ولكن في إنقاذه من هلاك محقّق. ولأي سبب؟ بسبب تهويلات خازنداره التي تبدو له الآن أشبه ما تكون بنميمة النساء، اللائي إذا لم يجدن من يغتبن فلا بد أن يبدأن في اغتياب أنفسهنّ.

هوس الخازندار وأمثال الخازندار بالمال هو سبب هذا العار، ظناً من هؤلاء بأن المال عَصَب الدولة وليس العدالة. أحسّ أنه فقد النقاء. أحسّ أنه من العسير أن يغسل العفن. لأنه ليس عفن الجلد

ولكنه عفن الروح. عفن حوّل فيه القرمانلي صاحب النداء إلى قرمانلي آخر مريض بالجشع، وظامىء إلى الدماء مثله مثل أي مغامر آخر من مغامري هذه الدنيا.

يومها خرج من الخباء وأمر بأن يذهبوا به إلى زعيم المحاميد أو يأتوا له بزعيم المحاميد بأي ثمن. هرج الأعوان وسرّجوا الخيول تمهيداً لإرسال الرسل. ولكن الزعيم حفظ له ماء الوجه هذه المرّة أيضاً لأن رسوله قد وصل قبل أن يبعث هو برسوله إليه.

الزعيم طلب في رسالته أن يلتقيه على انفراد دون أن يفوته تحديد الزمان والمكان.

ويقول أصحاب الحوليات إن اللقاء عقد في المرتفع الذي يطل على جندوبة. ففي حين أقبل البك محاطاً بكوكبة من فرسانه أقبل الزعيم وحيداً.

اضطرّ البك أن يصرف أعوانه وأقبل على الشيخ راجلاً. لم يتصافحا ولم يتكلّما إلاّ بعد مرور وقت طويل. سأل الزعيم أخيراً:

ـ بأي جريرةٍ تبيد قبيلتي؟

أحسّ البك أنه تلقى بهذا السؤال طعنة فاغتمّ قبل أن يتمتم:

ـ الخيانة!

ـ وهل تخلع تهمة كالخيانة على إنسان دون بيّنة؟

ـ الرسالة!

ـ أي رسالة؟

ـ رسالة خليل باشا الأرناؤوطي!

تقدّم الزعيم نحوه خطوة. ولكن البك أراد أن يوضح بسؤال:

ـ ألم تتلقّ منه هذا القرطاس؟

أخرج من جيبه القرطاس الملفوف في رقعة جلد. قدّمه له ولكن الزعيم لم يلتفت إليه:

ـ هذه رسالة بعث بها إليّ بالفعل ولكنها لم تقع في يدي.

ـ لم تقع في يدك؟

ـ لا أنفي علمي بفحواها لأن الرسول الذي حملها إليّ تحدّث بمضمونها إلى أحد أعواني في صبراته قبل أن يصرعه رجالك ويختطفوا من بين يديه الرسالة!

ـ هل قلت إنه صُرع بيد رجالي؟

ـ يقين.

ـ ألم تختفِ الرسالة بعد أن صارت ملك يديك؟

ـ أبداً.

ـ عجباً!

ساد صمت. تمشّى البك فوق الرابية الجرداء المزروعة بفراش من حجارة حمر. قال الزعيم:

ـ يحزنني أن تحتكم إلى السلاح قبل أن تعلم إنّي لن أهبّ لنجدة الأرناؤوطي في ورطته لا لأنّه حاربني يوماً وقتل رجالي وشرّد أهلي كما تفعل أنت اليوم، ولكن لسبب آخر هو أني لن أستبدل حاكماً وصل إلى العرش بسواعد فرسانّي بحاكمٍ آخر لا مزيّة له إلاّ فرمان الأستانة التي لم تنصبّ علينا داياً إلاّ صار على رؤوسنا داء لا داياً!

عاد الصمت يهيمن. في العراء البعيد تبدّت كوكبة من رجال الزعيم. أثارت زوبعة من الغبار واختفت مرة أخرى. حاول البك أن يعبّر عن أسفه ولكنه وجد أن فعلته الحمقاء أكبر من أن يُعبّر عنها باللغة، فابتلع أسفه ليتحوّل في حلقه غصّة حاول أن يستعين عليها بالحركة. ذرع الرابية ذهاباً وإياباً. قال:

ـ أمرتُ بأن تعاد لكم كل الغنائم التي نهبها الجنود.

ابتسم الشيخ بمرارة. قال:

ـ وهل تشترى دماء الضحايا بحطام الدنيا؟

كانت طعنة أخرى أقوى من الطعنة الأولى. حتّى إن البك أطلق أنيناً غريباً موجعاً. همّ بالانصراف، ولكن الزعيم استوقفه قائلاً:

ـ هل تذكر رسالة أبي مويس التي جئتنا بها رسولاً؟

استفهم البك فأضاف الزعيم:

ـ كنتُ الوحيد الذي عرف حقيقتها، ولكني أخفيتُ سرّها حتى على أقرب رجالي!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ابتسم الزعيم باستخفاف موجع. قال:

ـ كانت تلك رسالتك أنت لا رسالة أبي مويس!

هتف القرمانلي بلا إرادة:

ـ ماذا؟

ـ هل تدري ما هو الخطأ الذي ارتكبته في تحرير الرسالة؟

لم ينبس القرمانلي فواصل الزعيم:

ـ مطالبتك بالأبكار!

همد البك كأنه صنم. كأنّ خبر السرّ أصابه بضربة شلل. قال الزعيم:

ـ أبو مويس ليس غبيّاً إلى حدّ يطالب فيه زعيم أمّة مسلمة بدفع صبايا القبيلة الأبكار كرهائن، اللّهم إلاّ إذا كان يتعمّد أن يدفع الناس إلى الحرب لا لدفع الخراج!

سرح عبر امتداد الخلاء قبل أن يضيف:

ـ ولكن تلك خطيئة الشباب لا خطيئتك!

تقدّم بعدها إلى جواده. قفز إلى السرج بخفّة لا تتناسب مع شيخوخته، ومضى.

راقبه القرمانلي في ذلك اليوم طويلاً. راقبه حتى أخفاه الأفق المغمور بالغبار وذيول السراب.

عاد صاحب الإيالة في تلك الغزوة إلى المدينة مهزوماً من دون هزيمة. عاد لينفّس كربته في مرسوم استصدره في الحال يقضي بصلب الخازندار على باب زناته، وإقالة دولتي من رئاسة الجيش وتولية يوسف المكّني خلفاً له إلى جانب منصبه كرئيس للبحرية؛ ليصير بمقتضى هذا المرسوم سيّد البرّ وربّان البحر.

القسم الرابع

1

ظنّت أنه يجالسها، ولم تدرِ المسكينة أنه ينظر إلى وجهها دون أن يراها. كان يبتسم حقّاً، ولكن بسمته لم تكن استجابةً لأقاويلها كما تظنّ، بل احتيالٌ على أقاويلها، وهروب من ثرثرتها التي لا تنتهي. كأنّ الاقتران بامرأة ليس اقتراناً بإنسانة، ولكن بلسان الإنسان. أم أن الإنسان ليس سوى اللسان؟ لا يدري. ولكن ما يدريه هو أن الثرثرة حوّلتها من حسناء بعيدة المنال إلى إنسانة ككل النساء. الثرثرة استنزلتها من البعْد المفقود وهوت بها إلى اللحم والدّم.

بالجمال كانت مثالاً بلا اسم، لأن لقب الحسناء لم يكن يوماً اسماً، ولكنها بالقران استعارت لساناً خلع عليها اسماً أرضياً، لأن اسم زينوبة لم يكن ليطلق أبداً على الجمال الذي لا يُنال.

كانت تنهمك في زعزعة الأرجوحة التي ينام فيها الوليد كأنها بدوية تنشغل بمخض قربة حليب لاستخراج الزّبد، دون أن تتوقف عن سرد السير عن مكائد الساحرات اللائي سمَّمْنَ بأسحارهنّ بنات الأكابر فتنازلن عن كبريائهن ورضين بأبناء الأغراب أزواجاً. ثم تساءلت عن سرّ ولع الصبايا بالدخلاء: أهو الحنين إلى الأسفار وشدّ الرحال إلى أوطان المجهول، أم هو الفضول إلى الأسرار التي يقال أن الغرباء لا يكونون غرباء إن لم يخفوها في قلوبهم؟ وإلاّ ما الذي

يجعل حسناء مثل حلّومة بنت علي المكّني، التي لا ينقصها المال ولا الجمال، ترتمي في أحضان مهاجر مجهول النسب مثل «آهر» الملقّب بـ«سيدي الصيد»؟

انتفض كأنه استيقظ من كابوس. كان قد هاجر بعيداً بالفعل. استغرق في حمّى كابوس حقّاً. لأن الأنباء التي بلغته بالأمس عن الصنهاجي الذي خلع البيعة وادّعى النبوّة، حقّ لها أن تصير له كابوساً بالفعل. وقد تطيّر من ثورة هذا الدّعي لأنه اشترك مع المكنّي لا في الاسم فحسب، ولكن في اللقب أيضاً. وقد وثب لمقبض سيفه عندما وقف فوق رأسه حاجبه الأبله، وقال له بالحرف إن علي المكنّي خلع البيعة ورفع راية العصيان. ويبدو أن هذا الغبي استدرك بسبب آي الاستنكار التي أبصرها في وجهه فأوضح: «على المكني المرابط. علي المكني الصنهاجي يا مولاي!». وها هي زينوبة تنتشله من غيبوبته في تدبير حيلة لمواجهة هذا الدّعي، مردّدةً سيرة المكني من جديد، فما كان منه إلاّ أن التفت إليها سائلاً:

- هل قلتِ إن سيدي الصيد يريد أن يتزوّج حلومة بنت علي المكنّي؟

كانت قد قطعت شوطاً بعيداً في سرد تفاصيل أخرى، ولكن غيبته اختلستها منه فحدجته بنظرة اعتادت أن تترجم الاستنكار دلالاً قبل أن تقول:

- إن المدينة كلها تتهيّأ لعقد قران بنت كبير تجّارها، وأنت آخر من يعلم؟

فكّر أن الأمر لن يخلو من صفقة، ولكنه قال بلا مبالاة:

ـ ولماذا عليّ أن أعلم؟

أضاف وهو يسرح في المفازات وراء أتباع نبي الزور الجديد:

ـ لديّ من الهمّ ما يكفيني!

ـ ولكن عليك أن تفكّر في الهدية!

ـ الهديّة؟

ـ هل نسيت أن «آهر» هذا، أو «سيدي الصيد» كما يسمّيه الأهالي، كان السبب في رباطنا هذا، وفي وجود وريث عرشك هذا؟

ابتسم البك ابتسامة ذات معنى. ابتسم باستخفاف لم يحاول أن يخفيه. كان يلعن في سرّه الهوى الذي يستطيع أن يطيح بالجمال ويحوّل مناراته إلى هباء. يلعن الشهوة التي تدنّس المثال، تدنس المعبود، وترمي به إلى قيعان جهنّم ليتحوّل إلى رماد. وهي تريده الآن أن يكافىء من كان السبب دون أن تعلم أنه يريد أن ينزل القصاص بِمَنْ كان السبب. لم تكن تدري أن لسان قلبه يقول: «لن أغفر للوغد هذا العمل». وبدل أن يقول لها ذلك وجد نفسه يقول:

ـ حسناً فعلتِ لأنّك ذكّرتني. سآمر بإعداد هديّة تليق بمقام كليهما!

ثم عاد يسرح في البريّة، ممتطياً صهوة جواده الأبدي، مطارداً فلول الدّعي الصنهاجي!

2

عاد يسكن صهوة جواده يوم خرج لإخماد الفتنة. في الطريق تأمّل حال الدنيا التي لا تركن إلى حال. تأمّل كيف يطلب الأخيار

النبوّة بالإدبار عن الدنيا، وكيف يأبى الأشرار أن يطلبوها إلاّ بالإقبال على الدّنيا. أنبياء الكذب لا يكتفون بطلبها بالإقبال على الدنيا، ولكن باحتراف الحِيَل ونسج أشراك التضليل للإيقاع بالبلهاء الذين يصدّقون كل بدعة، وينفخون في المزامير احتفاء بكلّ دعيّ، ويرقصون في حلبة أيّ بهلوان، إرواءً لظمأ خالد إلى التغيير، وإشباعاً للشهوة الأبدية إلى المغامرة. واللؤماء يعرفون هذا الدّاء فلا يتردّدون في استخدامه أقبح استخدام. يستغلّون الدّاء ليحقّقوا حلماً آخر خالداً أيضاً هو المجد. والنبوّة أقصر الطرق لتحقيق هذا الحلم، لأنها سحر.

النبوّة في يقينهم ترياق وحيد لمداواة بهتانهم حتّى لو كانت كاذبة. بل هم في قرارة نفوسهم على يقين أنها كاذبة. فأي نبوّة يمكن أن تأتي في زمانٍ هجره الربّ يوم ختم النبوءات؟ وأيّ مهديّ مُنتظر يمكن أن يُنتظر في دنيا لم تعد تنجب سوى المردة ولا تستحقّ إلاّ الأشقياء لا الأنبياء؟ وبرغم هذا الضلال إلاّ أن الظمأ إلى النبوّة لا يرتوي، بل بالعكس يزداد جنوناً إلى حدّ صار فيه هذا الظمأ داء الزمان أكثر من أي زمان مضى. صار غياب النبوة داء الزمان بعد أن كان حضورها في أزمنة مضت هو الدّاء. والدليل في احتكام الأمم إلى المشانق ليصلبوا على أعوادها الأنبياء، أو المواقد ليلقوا بهم في الأتون، أو الحجارة ليرجموهم بها وهو أقل الإيمان. الخلاصة أن حضور النبوّة أيضاً كان لهذه الملّة الشقيّة بلاءً، وغياب النبوّة أيضاً بلاء، مما يبرهن على أن السلالة البشرية وُلدت وهي مغلولة بحكم خالد هو القصاص. وعبثاً يحاول الأبرياء أن يأتوا للسلالة بالخلاص

لأن الدهاة سرعان ما يتلقّفون الوصيّة ليعبثوا بها، ويسخّروها لمآربهم، فتهجر الحكمة بيتها، وتتزعزع أعمدتها السبعة، وتعود النبوة غريبة كما كانت دوماً.

فبالأمس استغلّ نبي الكذب الجديد البلبلة التي عاشتها الإيالة في السنوات الأخيرة وقرّر أن ينتهز الفرصة ليخلع البيعة وينادي ببيعته هو. وقد هبّ للسير في ركابه قطاع الطرق وهواة المغامرة والعاطلون الذين لا يجدون ما يفعلون بأنفسهم، وسار بهم إلى ربوع بقية القبائل لحشد المحاربين مردّداً أنه المهدي الذي انتظرته الأجيال أكثر من ألف عام، وعليهم أن يدخلوا في طاعته إذا شاؤوا أن ينالوا الخلاص المنتظر أخيراً. وعندما رفضت بعض القبائل السير في ركابه نزولاً عند حجج العقلاء أعمل فيهم السيف، وشتّت شملهم، ونهب قطعانهم، وسلخ جلود شجعانهم على مرأى ومسمع من ذويهم. ولم يتوقّف عند هذا الحدّ، ولكن الدّعي سبى نساءهم، واستباح أبكارهم بأن دخل على عدد منهنّ كما يدخل التيس العشير على الأغنام المحشورة في المربط. ثم لا يخجل من أن يدّعي أنه نبي القوم المنتظر! ويروى أن المجرم كان قبل هذه الأفعال قد أصدر فتوى تبيح له هو لا سواه بامتلاك ما ملكت إيمانه من النساء أسوةً بغيره من الأنبياء. وروّج لوصايا سفيهة تقول إن صاحبات الحظوظ اللائي يتنازل ليقاسمنه المخدع لن يلجن الفردوس من أوسع الأبواب وحسب، ولكن سيضمن لهن نيل السعادة في الدنيا أيضاً. ولمّا كانت ملّة النساء أقل خلق الله طمعاً في نيل الجنّة، فإن الشقّ الثاني

من الوصية كان له الأثر الأقوى في إغواء الحمقاوات للارتماء في أحضانه.

أمّا الأبكار اللائي كنّ يعوّلن على نيل كنوز خرافية مقابل بكاراتهن فقد كابرنَ كما كان متوقّعاً، فما كان منه إلا أن أمر بجلبهنّ إلى خبائه بالقوّة ليريهنّ أن أفخاذهن لا تساوي شروى نقير، وليس لهن أن ينلن من بكارتهن أي كنز غير اللذّة. في حين سيخسر هو في الصفقة خسارتين لا خسارة واحدة. مرّة بفقدان قواه الرجولية التي لم يفته أن يعبّر عنها بـ«ماء الحياة» مستخدماً لغة الاستعارة، ومرّة بفقدان النبوّة التي عبّر عنها بـ«روح الحياة» مستعيناً بالإشارة نفسها، مومئاً بذلك إلى أنه لا ينال منهنّ سوى الآثام، في حين ينلن منه البركة إلى جانب اللذّة.

ومخلوق كهذا أشرّ ألف مرّة في عصيانه من رسل الأستانة الظامئين إلى عرش الإيالة، لأنهم يقبلون بفرمانات حتّى وإن عزّزتها أحياناً فوهات المدافع. أمّا نبي الزور فهو شوكة في الظهر، وربّما أفعى في الكُمّ!

3

في الصحاري الوسطى المحروقة بشموس الدهور تنقّل على جوادٍ أبلق فارس قصير القامة، أمْيَل إلى البدانة، مجدور الوجه، معمّم بالسواد، تتبعه قوافل الفرسان، وتتقدم مسيرته جحافل فرسان أخرى. على ميمنته تزحف بعائر محملة بأثقال وتجرجر خلفها أثقالاً أخرى هي جذوع نخيل وأعواد طلح، دأب ذلك الرجل الغامض الملقّب باسم «المرابط» على استخدامها في إقامة سرادقه الذائع

الصيت، الذي اعتاد أن يقيم في جوفه صلواته المريبة التي لم تكن صلوات بل الدخول على صبايا القبائل، لأنه روّج منذ أن جاهر بالدعوة للفتوى القائلة بأن الصلاة ليست سوى استزراع الأجنّة في الأرحام في شقّها الدنيوي، كما أنّها ليست سوى غسل القلب بالدموع في شقّها الروحي. فكان لا يستحي أن يملأ الدنيا بولولة لا يمكن مقارنتها إلاّ بولولات نساء فُجعْن في أحبائهنّ ما إن ينتهي من أداء الشقّ الدنيوي لصلواته تلك. ويقال إن هذا الزنديق المدعو باسم «المرابط» كان يمارس أفعاله هذه حتى قبل أن يحلّ ضيفاً في أرض الإيالة. أي عندما كان درويشاً متجوّلاً في شوارع مدينة فاس اعتاد أن يعاشر النساء في الساحات أمام مرأى ومسمع من السابلة، بل وحتّى من أقرباء النساء، دون أن يعرف أحد سرّ السحر الذي كان هذا الداهية يستخدمه ليجعل هذه السلالة تستسلم له بذلك اليسر.

ويُروى أن هذا الماكر لم يكن في حقيقته الأولى سوى جنٍّ من الجان مُسخ مخلوقاً دنيوياً. وتقول رواية أخرى إنه يستعين في عمله بمرهم مستعار من جهنّم حصل عليه في صفقة مشبوهة ظلّت مجهولة في تفاصيلها عقدها مع ساحر صحراوي مجهول تطلق عليه القبائل اسم «وانتهيط» (أي ما تعني ترجمته من لغة أهل تلك القارة المنسيّة «صاحب الأتان») الذي يرتبط بصلاتٍ حميمةٍ مع ممالك الجنّ.

في تلك الليلة قرّر «المرابط» أن يبيت الليل في رحاب السهل العاري، فتسابق الخدم لينصبوا له سرادقه لأداء صلاته الدنيوية. كما سارع آخرون إلى الهودج المرافق لينتشلوا من جوفه الحسناء (التي

سلبها غنيمةً من آخر قبيلة نزل عليها في طريقه) وأدخلوها عليه ليختلي بها في خبائه الملكي المهيب. ولكن حسناء هذه المرّة لم تكن حسناء بل كانت مارداً متنكراً في بدن امرأة! فقد تلقّى منها لطمةً ما إن تسلّل بيده إلى صدرها تمهيداً لأداء الفريضة كما يروق له أن يعبّر. اللطمة زلزلته حتى كاد يُغمى عليه. ولكن تجربته الطويلة في معاندة هذه الملّة كانت له عوناً فلم يفقد صوابه. نزع عنها النقاب فتبدّت آية جمال لم ير لها مثيلاً حتّى في الخيال. تمسّح بثوبها ولكنها صدّته بخشونة لم يعهدها يوماً في امرأة ليقينه الممهور بالتجربة بأنهنّ لا يتمنّعن إلاّ رغبةً، ولا يتعففن إلاّ اشتهاءً. نهض ونزع عمامته الكئيبة فتبدّت ملامحه أكثر كآبة: أذنان طويلتان كأذني جحش، ووجه مستطيل كوجه جحش أيضاً. وبثور تفترس الخدّين بوحشية كأنها محروقة بألسنة نار. كان شبهه بدابّة الجنّ، أو بمطيّة الشيطان، (التي تطلق عليها القبائل اسم «تيهيط») حميماً إلى حدّ أن الحسناء أيقنت فيه أن هذا المسخ إنما ينتمي في الحقيقة إلى سلالة ذلك الحيوان المنكر لا إلى سلالة البشر. هذا أصابها بمسّ جعلها تحتكم إلى المدية هذه المرّة. أخرجت النصل من كمّها ووجّهت للمسخ طعنةً أصابته في رقبته فزمجر بصوت كنهيق الحمير. هرع لنجدته الخدم فأمرهم بأن يوثقوا قدميها ويديها، في حين انهمك آخرون لتضميد جراحه. لم يكتفِ بذلك ولكنه أصرّ أن يعملوا على مساعدته في نيْلها. كانت تتخبّط وتتوعّده بالقصاص عندما داهمها بإحليلٍ كغرمول حصان فأغمي عليها. وعندما فرغ منها اكتشف الأعوان أنها نزفت دماً كأنها نُحرت بنصل سكين قبل أن تلفظ أنفاسها.

لفظت الحسناء أنفاسها فبدأ المسخ الشقّ الثاني من صلاته المجوسية المنكرة. بدأ ينتحب. ثم تحوّل النحيب نواحاً. تحمّم بفيوض النّواح طويلاً. ولكن الظلمات لم تستجب في تلك المرّة لصلاته على ما يبدو، لأن فرساناً أشدّاء كأنهم عاصفة مسكونة بجند الخفاء أغاروا على معسكره بغتةً في تلك الليلة، فتحوّل نواح المسخ إلى نواح لم يختلف في طبيعته عن أي نواح دنيوي.

هلك في تلك الغزوة جنده، وتشتّت شمله، فاستنجد بتمائمه المجوسية التي كان يروق له أن يردّدها من حين لآخر فيظنّها المريدون البلهاء بأنها الأوراد.

انتهى من تلاوة آياته الوثنية فهبّت زوبعة. امتطى صهوة الزوبعة ولاذ بالفرار.

4

استعاد القرمانلي المكوس التي كان نبي الزور قد استولى عليها من القافلة القادمة من أوجلة، وعاد على عقبيه نحو الساحل. ولكن رسولاً أقبل عليه حاملاً نبأ تمرّد سلطان فزّان ورفضه دفع ما استوجب عليه دفعه من خراج، فلم يجد بدّاً من التوجّه جنوباً في نيّة لتأديبه. ولكنه تراجع سائلاً نفسه: «هل حُكِمَ عليه أن يسكن صهوة جواد إلى الأبد؟ هل حكم عليه أن يتنقّل لإطفاء الفتن إلى الأبد بدل أن يستقرّ في سرايه الحمراء ليرسم الخطط الكفيلة بانتشال البلاد من الفقر والفوضى والهوان؟ أليس عليه أن يخوض حرباً أخرى بدل تضييع الوقت في هذه السلسلة التي لا تنتهي من الحروب العبثية التي لا يحقّق النصر فيها أي مجد؟». قرّر أن يسند الحملة على فزّان إلى

أحد الأعوان ويعود إلى طرابلس، ولكن إلهاماً غامضاً استوقفه مرّة أخرى. فقد تذكّر الوصيّة الصحراوية التي تقول إننا يجب أن نذهب بأنفسنا لتأدية العمل الذي نريده أن يُنجز إذا شئنا له حقّاً أن يُنجز. أمّا إذا شئنا له ألا ينجز أبداً فما علينا إلا أن نبعث بمن ينجزه بالنيابة عنّا. صدق القوم! العمل الذي لا نذهب لإنجازه بأنفسنا لن يُكتب له الإنجاز أبداً. وعصيان صاحب فزان أسوأ من عصيان صاحب أي مكان آخر لأنه حارس كنوز. لأن خطورة عمله لا تكمن في الخراج التي يدفعها لخزانة الإيالة كل عام، ولكن خطورة شأنه تكمن في دوره كحارس لكنوز الأدغال التي تمرّ عبر منفذ وحيد لا يشاركه فيه أحد. وإذا فوّت الفرصة اليوم فسوف تنتفخ أوداج صاحب فزان بفضل تدفّق هباء التّبر إلى خزائنه فتذهب الممالك لخطب ودّه دون الرجوع إلى الإيالة وسيخسر بهذا مرّتين: مرّة بفقدان ذهب القوافل، ومرّة بفقدان هيبة الإيّالة بين الدول. كلاّ، كلاّ. لن يدع الهواة يدمّرون في أيام ما ابتناه في سنين. لا بدّ أن يتولّى الأمر ويذهب بنفسه ليلقّن صاحب فزّان درساً!

5

حسم أمره في مساء ذلك اليوم وخرج في رحلة طويلة وشاقّة نحو خلاء أبديّ يستلقي نحو جنوبٍ رأى المهاجرون في متاهته مجازفة دائماً، لأن الذاهبين إليه لا ينجون عادة من الزواحف إذا ابتسم لهم الحظّ ونجّاهم من قطاع الطرق. وإذا نجوا من سموم الزواحف فإنهم قلّما ينجون من الظمأ. وإذا نجوا من الظمأ فقلّما ينجون من التّيه. وإذا نجوا من التّيه فإنّهم كثيراً ما يهلكون بسبب

العزلة. لأن عزلة الصحراء لا تمت بصلة لعزلة المدن أو حتى الواحات. عزلة البلدان عزلة يطلبها المريدون. ولكن عزلة الصحراء هي التي تطلب المريدين. وشتان بين عزلة نطلبها وعزلة تطلبنا: عزلة نطلبها تصنع منّا نسّاكاً، وعزلة تطلبنا تصنع منّا ضحايا.

وخلال الأسابيع الكثيرة التي استغرقتها رحلة القرمانلي إلى واحات «تارجا» (كما كان يُطلق عليها في تلك الأزمان) اكتشف في نفسه إنساناً آخر لم يعرفه من قبل. أماتت عزلة الصحراء في قلبه إنساناً وأحيت إنساناً مجهولاً آخر. ربما لم تمت فيه الإنسان الذي كانه، ولكنها أيقظته من سبات. أعادته من رحلة اغتراب. وكان يمكن أن تلفّق منه ضحيّة أيضاً لو لم توقظ فيه إحساساً غامضاً بالانتماء. الانتماء إلى وطنٍ لا يتكلّم أبداً ولكنه يخاطب بالإلهام ما يعجز عن تفسيره اللسان. الانتماء إلى حضيضٍ أعزلَ، عارٍ، مهجور، يولول بلسان أمّ ثكلى تخلّى عنها الأبناء. والانتماء إلى سماء عارية أيضاً، مهجورة أيضاً، عزلاء أيضاً، برغم حميميّتها في علاقتها بالأرض، تولول أيضاً في سكوت حزناً على الأب الذي هجرها لا الابن. فهل مراسم هذا الاحتفاء الخفيّ هو السرّ الذي يصنع من الرعيان في الصحراء أنبياء؟ أم أنّ اللغز ما هو إلا ضرب من نداء. نداء الدّم الذي أصابه تتابع الأجيال بالإعياء فاغترب في ثنايا النسيان ليولد عند أوّل لقاء في النبوّة، لأن تميمة الزمان وحدها تستطيع أن تبدع الإعجاز الذي يحوّل نداء الدم إلى نداء روح؟

6

اغتربت واحات «تارجا» منذ أن استولت عليها سيوف أفّاق آخر

أقبل مطروداً من ربوع الأندلس يوماً، مصحوباً بحميمه اللئيم الملقّب باسم «لون اللعنة»، مدعوماً من جيوش المريدين الذين تستّروا بقناع مستعار ظاهره نشر لواء الحقيقة وباطنه الاستيلاء على مواقع المياه التي تردها القوافل المحمّلة بالذهب العائدة من رحلاتها إلى بلاد الأدغال. وقد أفلح حلف هذين الجنيّين في إقامة مملكتهما الشيطانية على شطآن المنابع بعد أن توصّلا لتحقيق هدنة مع قبائل الصحراء، برغم أن الخلاف ما لبث أن دبّ بين الحليفين (كما يليق بأمثالهما من اللصوص) بسبب الغنيمة، فقام اللئيم الملقّب باسم «لون اللعنة» وقتل الفاسي الملقّب باسم «الخنّاس» غيلةً.

وبرغم أن بعض الروايات تؤكد أن نسل الأخير انقطع لأنه هلك قبل أن يقترن بامرأة، إلا أن روايات أخرى تسفّه هذا الزعم وتقول إنه أنجب ذريّةً من نساء كثيرات كان يعاشرهن سرّاً كمحظيات سواء في بلاد ما وراء البحار التي أقبل منها، أو في الأوطان التي مرّ بها أثناء فراره من فرنجة الأندلس، أو في ربوع الواحات التي استولى عليها. ويقال إن هذه الزمرة من أبناء الزنا تنادت بعد مصرع الأب وعقدت اجتماعاً عاصفاً في إحدى الواحات تنابزت فيه بالألقاب وتقاتلت بالسكاكين تنافساً على الميراث الذي خلّفه الأب. هذا الميراث الذي لم يكن يوماً ميراثاً ككلّ ميراث، ولكنه نفوس البشر التي تغذّي بليّة اسمها الممالك المقامة على كنوز الذهب. ولكن لقاءهم الدموي انتهى أخيراً إلى اتفاق يتم بموجبه تقاسم الغنيمة بين هؤلاء الأدعياء بالتساوي، بحيث يتولّى كل ثلاثة أبناء أمر إحدى الواحات. وتوزع الثروات العائدة من عبور القوافل على هذه

الواحات بالقسطاس. ويُروى أن الملّة المنحدرة من سلالة صاحب النحوس الملقّب بـ«لون اللعنة» سرعان ما تسلّلت إلى قصور هؤلاء الأشقياء لتصير لهم بطانةً تسيّر شؤونهم برغم أنها تتستّر وراء ظهورهم مواصلةً بذلك التقليد القديم الموروث عن سلفيهما الغابرين.

ويتناقل الأهالي كيف شهدت الواحات في العهود التي تعاقب فيها هؤلاء على الحكم أزمنة رخاء يرجع الفضل فيه لسلطان السلم أكثر مما رجع الفضل فيه لسلطان الحكم؛ لأن عقلاء القوم جرّبوا أن الدهر يصنع بالسلم ما يعجز أن يصنعه بالمال. ولكن للسلم زماناً، كما للبلبلة زمان كما اتضح فيما بعد. ذلك أن الترف قرّر أن يتولى الأمر يوم أعلن عن نفسه في قيام أحد الولاة بشراء امرأة الأغراب من إحدى القوافل العابرة. وتقول الروايات إن المرأة كانت حسناء ذهبية من سلالات الأعلاج تطيّر منها الناس لأنهم رأوا فيها مخالفة للوصيّة، التي تقول إن امرأة الأغراب نذير نحس، لأنها لا تدخل حرماً إلاّ دنّسته، ولا ترتبط بقرينٍ إلا أهلكته. ولم يمرّ وقت طويل على معاندة صاحب الواحة لهذه المرأة في المخدع حتّى أيقن بعدم جدوى عمله هذا؛ لأنه لم يفلح في نيل الوريث من رحمها العقيم إلاّ يوم استعان بامرأة من ذلك الجنس، الذي ينجب صغاراً بعدد الجراء في البطن الواحد وبمعدّل كل سبعة أشهر لا تسعة. أهدت إليه قريبته دستة أولاد فاشتعلت الغيرة في قلب الضرّة ذات الأصول العلجية، فاستعانت بأحد الزبانية لتطرد زوجها بمكيدة فالتجأ إلى «مرزك» مرفقاً بامرأته الجديدة. هناك حشد بمعونة صاحبها جيشاً

وقاد حملة لاسترداد عرشه المفقود. استولى الفزع على سليلة الأعلاج فأشار عليها الداهية (الذي أشيع أنه لم يكن سوى عشيقها) بطلب النجدة من الأتراك، الذين كانوا قد استولوا وقتها على الساحل بعد طرد الغزاة الإسبان من حصونها، نزولاً عند رغبة أهلها الذين كانوا بدورهم قد ذهبوا يوماً للاستنجاد بسلطان الأستانة ليجيرهم من كابوس الفرنجة بعد أن ذاقوا على يد هؤلاء طعم الويل، ولكن الأشقياء ما لبثوا أن ندموا أشدّ الندم بعد أن اكتشفوا أن الويل الذي نالوه على أيدي الفرنجة أهون بما لا يقاس من الهول الذي أذاقه لهم الأتراك. ولم تدر العلجية يوم استجابت لوصيّة الداهية اللعين أنها إنما تكرّر الخطيئة المميتة نفسها التي اقترفها أهالي السواحل من قبل. فقد سال لعاب القرصان التركي الذي كان يتربّع على عرش طرابلس في ذلك الزمان، بسبب الأساطير المثيرة للشهية التي سمعها عن ثراء بلاد تقف في مفترق طرق قوافل تنوء دوابها بأثقال التّبر المستورد من أعماق القارّة، فما كان منه إلاّ أن أمر بحشد جيش ملفّق من القراصنة والمغامرين وقطاع الطرق وانطلق بهم عبر الصحراء. ولكن الخفاء سخر من الفرقاء الثلاثة يوم أمات الزوج الذي لم تستنجد العلجية بالأتراك إلاّ بسببه فأسقط في يدها، ولكن بعد فوات الأوان. ذلك أن رسالتها التي بعثت بها إلى الوالي التركي معبّرةً فيها عن أسفها لما سبّبته له من إزعاج، لم يعد واقع الحال يقتضيه، ما لبثت أن أثارت غضب الوالي الظامىء إلى المال، فقرّر أن يواصل المسير ليلقّن تلك «الغانية الوقحة» (كما عبّر) درساً لن تنساه مدى الحياة.

وبالفعل تمكّن هذا الطاغية من تنفيذ وعده بأبشع الطرق. فقد داهم قلاعها بقصف عنيف من مدافع البارود التي لم تخطر ببال العلجية. وبرغم استماتتها في الدفاع عن قصرها المطوّق بأسوار الطين، إلاّ أن قوالب الطين كان يمكن أن تصمد أمام حراب قبائل الصحراء لا أمام فوهات مدافع تقذف حمم البراكين.

سقطت القلعة واقتحم جيش اللقطاء قصر الأميرة. بدأت حملة السلب والنهب والبحث عن كنوز الذهب. سلب الجند ما خفّ وزنه وغلا ثمنه كما اعتادت الجند أن تفعل دائماً في مثل هذه الأحوال. لم تسلب فقط ولكنها اغتصبت أيضاً لا نساء القصر فحسب، ولكن نساء الواحة الشقية أيضاً. أمّا قائد الجند فقد اعتصم بإحدى الديار ليستبيح هناك «الغانية العلجية». وبعد أن انتهى منها بدأ معها استجواباً دقيقاً عن الكنوز، ولكن الأميرة رفضت البوح بأمر الكنوز وبكت عند قدميه، مدّعيةً أن خزائنها تعاني الإفلاس منذ اشتعل أوار الحرب بينها وبين زوجها الفقيد.

ولكن القرصان التركي الذي جاب البحار وعرف حيل المهزومين في إخفاء الثروات لم يصدّقها بالطبع، فجرّها من شعرها وألقى بها إلى جمع اللقطاء في فناء القصر، وأمرهم أن يستبيحوها إلى أن تعترف بالمكان الذي أخفت فيه الكنوز. ثم ذهب ليغفو قليلاً بعد أن نبّه عليهم أن يحترسوا من الإفراط في استعمال أحضانها لأنه يريدها حيّة. ولكن هيهات. فقد هلكتْ الشقية في أحضان الجند دون أن تفلح سواعدهم في انتزاع الاعتراف من بين شفتيها.

7

منذ ذلك اليوم الذي استولى فيه الأتراك على الواحات ونصّبوا سلالة «الخنّاس» أمراءَ يتبادلون السلطان عليها خلفاً عن سلف، تسلّل إلى بلاطهم أيضاً أخلاف صاحب النحوس الملقب بـ«لون اللّعنة» ليكونوا لهم بطانة، كما كان سلفهم بطاناً للسلف صاحب الخنوس منذ القدم يدبّر لنصرته المكائد وينسج خيوط الخطط الكفيلة بتمكين هذه العصابة من ثروات الصحراء. واليوم أيضاً الشبيه بالأمس شبه هذه الليلة بالليلة البارحة تسلّل إلى القصر رجل رمادي البشرة، أفطس الأنف، في وجهه سيماء من رأس الضفدعة، يتدثّر ببرنس كئيب اللون كآبة بشرته. مَثُل بين يدي الأمير الناصر ليسدي لحضرته نصحاً لم يبخل به على سيّده يوماً كما لم يبخل به أبوه على سلف الأمير، كما لم يبخل به جدّه على جدّ الأمير.

وقف في الركن باستكانة كلب ينتظر إعادة تشجيع من مولاه. ولكن الأمير كان منشغلاً بقراءة رقعة جلد تلقّاها للتّو من أحد تجّار القوافل الذي أقبل من «تينبكتو»، فلم يعر خادمه اللئيم اهتماماً. ولكن سليل اللعنة كان يدرك أن سيّده قرأ الرسالة ولكنه تعمّد أن يستمر في التظاهر بقراءة المكتوب إمعاناً في إذلاله. وقد تساءل مراراً عن السرّ الذي يجعل من السيّد سيّداً يتوارث السيادة ابناً عن أب وأباً عن جدّ إلى الأبد، في حين يتوارث العبيد العبودية ابناً عن أب وأباً عن جدّ حتى لو كانوا دهاةً أمثال سلالتهم التي لم تستطع أن تتمرّد على هذا الناموس الظالم، برغم مواهبها التي تفوق مواهب أسيادهم بما لا يقاس. وقد حاول سلفهم الأول أن يثور على هذا الناموس

يوم ألقي بسيّده في البئر حسبما تروي الأجيال. ولكنه ما لبث أن انتكس ليجد نفسه، بل وذريّته، في قبضة سفلة لقطاء تنادوا من كل الأنحاء ليرثوا سيادة ظنّ جدّهم الأول أنه قبرها في جوف البئر إلى الأبد مع جسد صاحب الخنوس.

اكتشف أن الأمير كان يرمقه خلسةً بنظرة ماكرة تقول في ترجمتها: «بأي مكيدة جديدة جئتني يا وجه النحس!». ابتسم ردّاً على نظرته فأومأ له الأمير أن يتقدّم. خطا خطوتين خاشعاً. خطا خطوة ثالثة ثم توقّف. قال:

ـ هل بلغَتْ مولاي أنباء الشمال؟

استفهم الأمير بإيماءة فأوضح اللئيم:

ـ الإيّالة تغلي، وطرابلس تمزّقها الفوضى، والثورات عمّت البلاد من أقصاها إلى أقصاها..

قاطعه الأمير:

ـ وما دخلنا نحن ببلايا ساحل أبعد عنا من تنبكتو ومن كانو؟

ـ ما ينال الساحل يا مولاي ينالنا في الصميم. هل نسي مولاي أننا رعايا الإيالة منذ وضع ذلك القرصان الكريه يده على كنوزنا، وفرض على رؤوسنا مكوساً أكثر جوراً من كل مكوس في الزمان البعيد؟

ـ ماذا تريد أن تقول أيها اللئيم؟

ـ أردت أن أقول إن أوان الخلاص قد جاء، وإذا أضعنا هذه الفرصة فسوف نبقى عبيداً إلى الأبد.

ـ هل تريدنا أن. . .

ابتلع ريقه بعسر فهبّ لنجدته سليل اللعنة:

ـ نتمرّد. لن نتمرّد في حقيقة الأمر ولكن نرفض دفع مكوس الجور كما فعل الكلّ!

استنكر الأمير:

ـ كما فعل الكلّ؟

ـ بلى. رفضتْ دفع المكوس قبائل جبل نفوسة، وترهونة، ومسلاّته، وسرت، بل وحتّى تاجوراء التي تقع على مرمى حجر من بيت القرمانلي. فهل نمضي في دفعها نحن الذين لا تربطنا بالشمال البعيد رابطة غير حماقة الغانية العلجية؟

ـ احترس! إيّاك أن تنعت العلجية بالغانية، هل نسيت أنها كانت قرينة أحد أسلافي؟

انحنى اللئيم بوضاعة، ولكن بسمة الخبث لم تفارق شفتيه المفلطحتين:

ـ فليغفر لي مولاي زلّة اللسان. ولكن الأمر لم يعد يحتمل الاستمرار في ضرب الأخماس في الأسداس!

تفكّر الأمير لحظات. ويبدو أن شكوكاً خامرته برغم أن اللئيم لم يخفَ عليه استمراءه للفكرة. قال بعد صمت:

ـ ولكن المجازفة ضرب من قمار. أعني ماذا سيحدث لو أخفقنا؟

أجاب صاحب اللعنة كأنه كان قد أعدّ الجواب سلفاً:

ـ سوف نفعل يا مولاي ما يفعله الجميع في مثل هذه الأحوال.

ـ وماذا يفعل الجميع في مثل هذه الأحوال؟

ـ يتوسّطون!

ـ ماذا؟

ـ يحتكمون إلى المرابطين ليطلبوا لهم الشفاعة!

ـ فهمت. ولكن مصائر الأمراء برغم ذلك سوف ترقص على كفّ عفريت!

ابتسم سليل اللعنات. كشف عن أسنانٍ ناصعة وهو يقول:

ـ رؤوس الأبرياء هي التي تطير عادةً في مثل هذه البلايا. أمّا رؤوس أوّلي الأمر فلا تكتفي بالبقاء على مناكبهم وحسب، ولكنها كثيراً ما تزداد ازدهاراً مثلها مثل رؤوس النساء عندما تحلّ الهزائم!

ـ أفصح!

ـ أردت أن أقول إن القرمانلي إذا انتصر فلن يجد بديلاً أكثر وفاءً من مولاي.

ـ ما الذي يحمّلك على ظنون كهذه؟

ـ لأن المهزوم لا يملي شروطاً بل تُملى عليه الشروط يا مولاي.

ـ وما الذي سنجنيه من هذه المخاطرة فيما إذا أفلحنا!

ـ حريتنا يا مولاي. هل في الدنيا غنيمة أنبل من الحرية؟

نهض الأمير. تمشّى في البهو جيئةً وذهاباً. تمتم:

ـ كثيراً ما آمنت بفضائل العبودية عندما أرى سكينة إنسان مثلك!

عضّ اللئيم على لسانه ولكنه لم ينبس، في حين توقّف الأمير فجأة عن تجواله ليلتفت نحوه باسماً.

8

في اليوم الذي تدفّقت فيه أشباح الجند على حصون «مرزك» وهي تسبح في ألسنة السراب التي تغمر أفق الظهيرة، كانت حسناء (غريبة في بهائها ولون بشرتها عن نساء تلك الأنحاء) تقف في أحد شبابيك القلعة المشيّدة على رابية تتوسط الواحة المطلّة على الحصون الشمالية الغربية، المهدّدة بنهم الصحراء الساعية دوماً للاستيلاء على المزيد ثم المزيد من الأراضي وتحويلها إلى خلاء. تلك كانت قلعة الناصر أمير واحات فزّان، وتلك الحسناء كانت إحدى محظياته الأجنبيات اللائي اشتراهن بهباء التّبر من تجّار قوافل الشمال.

وفي ذلك اليوم الذي أطلّت فيه من شباك القصر الشمالي لترنو إلى الأفق الصحراوي المميت، لم تقف هناك لتستطلع الآفاق التي لا تلد غير فيوض السراب، أو لتستكشف الأرض إرواءً لظمأ الفضول على عادة النساء، ولكن وقوفها هناك كان لتأدية صلاة مريبة اعتادت أن تمارسها كل يوم منذ التحقت بالقصر كأنّها ضرب من وفاء لنذرٍ أو أداء لدَيْن مجهول.

ويقال إن المرأة بنت أغراب جاء بها تجّار الشمال إلى الواحة استجابةً لوصيّة الأمير الذي أوحى له سلطان الترف أن يجرّب لذّات نساء النصارى بعد أن أصابه داء الملل من معاندة نساء المسلمين، تلبيةً لنصيحة فقيه داهية روّج في فتاويه لفروق مزعومة بين أحضان

النساء إذا اختلفن في انتمائهنّ الديني. وقد ذهب به الشطط إلى القول إن لذّة المرأة لا تختلف عن كنوز الذهب التي جرّبت القبائل أنها تفرّ من أوطان الهمج التي يرتفع فيها الأذان وتنتقل إلى أراضي الكفّار، كذلك تفرّ الشهوة من فروج النساء ما إن تردّد ألسنتهنّ آيات الفرقان وتنتقل هذه الهبة إلى نساء الكفّار. ويُرْوَى أن الأمير لم يصدّق هذه الخرافة إلاّ في اليوم الذي دخلت فيه هذه الحسناء بلاط قصره المتواضع، الذي شيّده أسلافه فوق رابية تتوسط الواحة العتيدة المطوّقة بأسوار مبنيّة بأخلاط غريبة من طين أحمر وجير ناصع وحجارة صوّان فاحمة، مستجلبة من جبال «السودا» النائية تجنّباً لتكرار تجربة الأميرة «خود» مع القرصان التركي في الزمان القديم، عندما تحصّنت وراء أسوار الطين المجرّد فخذلها عند أوّل طلقة من فوهة مدفع.

وتتحدّث الروايات كيف فوجىء أحمد بك القرمانلي في ذلك اليوم بسبب صمود أسوار الواحة أمام قذائف مدافعه، التي لم تجد في زعزعتها حتى فوهة مدفع ملك هولندا الذهبي، الذي اعتاد أن يستنجد به كلّما استعسر أمر قلعة منيعة أو استعصى عليه حصن من الحصون، إلى حدّ أنه طلب من أحد مساعديه أن يستكشف له سرّ السّحر الذي لفّق به هؤلاء المردة بنيان أسوارهم لا ليبطل مفعوله فحسب، ولكن ليستخدمه في تطعيم أسوار طرابلس المعرّضة دائماً لقصف مدافع النصارى من عرض البحر.

ففي الوقت الذي كان فيه صاحب العون يجوب فيه القرى المجاورة ليستفهم عن سر الطلسم السحري الذي استخدمه «الناصر»

اللعين في بنيان أسواره، وكان القرمانلي نفسه يطوف حول الواحة ممتطياً صهوة جواده الأبدي، فيما كانت حسناء النصارى تتطلّع إلى حشود الجيش من أحد شبابيك القصر، وتراقب من موقعها هناك حركة القرمانلي في بحثه المحموم عن ثغرة في البنيان تصلح منطلقاً للنفاذ إلى داخل السور.

كانت تراقب وتبتسم طوال الوقت.

تبتسم بغموض الأنثى التي لا يستطيع أحد أن يتنبّأ لا بحقيقة بسمتها ولا بحقيقة نواياها. ربما لأنها هي نفسها لا تملك السبيل لتفسير رؤاها، ولا السبيل لتفسير أفعالها. ولكن تلك المرأة كانت تدرك يقيناً واحداً في ذلك اليوم، هو أن هذا الفارس النبيل الذي سمعت عن بطولاته الأساطير قد امتلك سلطاناً على قلبها منذ اللحظة التي وقع عليه بصرها. وهو إحساس لم تعرفه منذ سلّمت يوماً قلعة أبيها ووضعت رقبته تحت رحمة معشوقها، قبل أن تختطفها سيوف القراصنة من أحضان هذا المعشوق وتذهب بها لتبيعها في المزاد في أسواق مدن الشمال الأفريقي. ذلك أن لغة القلب هي حرفة المرأة التي لا تخطىء مهما أخطأت في سبل أخرى، لأنها لغتها هي قبل أن تكون لغة أي مخلوق آخر في هذه الدنيا. بل لغة القلب ليست لغتها التي خلقت من أجلها، ولكنها حياتها التي قُدّر لها أن تعيشها إلى حدّ تفقد فيه بفقدها حجّة وجودها.

ولذلك قرّرت أن تحيا في الحال؛ لأنها رأت أن من واجبها أن تفعل من أجله شيئاً. من أجل أحمد القرمانلي الذي رأت أنه الأجدر بأن تهبه قلبها.

«إذا وعدتني بأن ترافقني إلى الشمال فسوف أمكّنك من دخول الواحة».

هذا ما قالته سليلة أمم الصقالبة في رسالتها التي اختطّتها في رقعة جلد ورمت بها إليه أثناء جولاته حول السور للاستطلاع. الماكرة لم تكتفِ بعرض هذه الصفقة، ولكنّها أضافت اقتراحاً آخر: «إذا راقك اقتراحي فجرّد سيفك من غمده ولوّح به تحت شمس الصباح عالياً ليكون لي علامة!». ابتسم القرمانلي بعد قراءة الرقعة لأنه تذكّر عبارة سمعها من أحد الدراويش مرّة تقول: «قد يحقّق الحبّ ما تعجز عن تحقيقه الحرب!». وهي وصيّة قيلت لمواجهة وصيّة مضادّة مفادها أن الحبّ إنّما يُنال بالحرب! فأيّ الوصيتين، يا ترى، أصدق؟ فكّر أن الجمع بينهما أجدى؛ لأن استخدام حجّتين حتى لو كانتا متضادّتين أكثر أماناً من استخدام حجّة واحدة. بل إنّ تناقضهما لهو الدليل على جدواهما، لأنّه جرّب كيف كانت الدنيا تكشف له عن وجهها الكريه الذي استخفى وراء قناع رآه خيراً، كما جرّب كيف كانت تكشف له عن وجهها النبيل الذي تستّر وراء قناع رآه دائماً قناع شرّ!

فكّر أن الحرب أيضاً ما هي إلاّ القناع الذي يخفي تسليةً لم تخطر له يوماً على بال، ما دامت لا تبخل عليه بالمخدع أيضاً إلى جانب اللّهو المفقود بجوار النّساء. بل النّساء تصبح في متناول يد الرجل بظروف الحروب أكثر منها في ظلال السلم. ولكن امتياز الحرب في قدرتها على إتاحة الفرصة للرجل كي يفرّ من المخدع في الوقت المناسب، واستبدال دمية مميتة بأخرى أهون مفعولاً. وبرغم

أنه استشعر استحياءً لأنه ينتزع نصراً بمكيدة من امرأة، إلاّ أنه وجد العزاء في قناعته باعتبار الأمر تدبيراً بارعاً من حليفه الحظ، الذي يقول عنه اللؤماء إنه تميمة دسّها كاهن الصحراء في حدوة حصانه!

عندما اقتحم القرمانلي حصون الأمير الملقّب بـ«ناصر فزّان» في ذلك اليوم، مستعيناً بكيد النساء استولى على ملكه، واستباح حريمه، وطوّق رقبة هذا النمرود بحبل من مسد، ثم أمر بشدّ الحبل إلى ذيل حصان جموح، وسلّم أمره لذلك العبد المعتوه الذي قفز إلى صهوة الجواد وانطلق يجرجر النمرود حول أسوار الواحة الأسطورية.

بعدها اختلى البك بحسناء الأعلاج في المخدع (كما روى الخدم)، دون أن يعلم أحد حقيقة الحوار الذي دار بينهما في تلك الخلوة. ولكن ما لم يختلف بشأنه الرواة هو أن أحمد القرمانلي أمر بإحضار الأسير للمثول بين يديه بعد غسل بدنه، وتبديل لباسه، وإطعام جوفه في وقتٍ كان فيه الجنود ما زالوا يعيثون في ربوع الواحة فساداً، مكافأةً لهم على تحمّلهم جحيم السفر الطويل وصبرهم في حصار الواحة المنيعة.

مَثُل المهزوم بين يدي صاحب الغلبة أخيراً فتكلّم القرمانلي بعد صمتٍ دام طويلاً:

ـ ما الذي يدفع الإنسان لشقّ عصا الطاعة على السلطان؟

كان الناصر بائساً برغم محاولات الأعوان في إلباسه مسوحاً تليق بأمير عبست في وجهه الأقدار، ولكن عبثاً، لأن البليّة عندما تحلّ فإنما تذهب لتستقرّ في القلب لا في البدن الفاني، الذي اجتهد الأعوان في تزيينه ليهوّنوا على صاحب البليّة نكبته. أمّا الإيماء الذي

يستقرّ في القلب فإن العين هي التي تتولى أمره. هي التي تتولّى ترجمته. هي التي تتولّى فضحه. وها هي مقلة العين تترجم للملأ محنة ذلك المخلوق الذي امتلك رقاب الناس يوماً، وجرّد الرؤوس من الرقاب دائماً، وأعماه السلطان (كما أعمى الكثيرين قبله، وسوف يعميهم بعده) فغيَّب عن بصيرته حقيقة الزمان الذي لا يهب إلاّ لينال، ولا ينصبّ إلا ليجرّد، ولا ينصر إلاّ ليهزم، ولا يحيي إلاّ ليميت.

وبرغم مرارة الهزيمة التي تجلّت في المقلة، إلاّ أن السلطان المخلوع تشجّع عملاً بالوصية القائلة إن الشاة لا يهمّها سلخها بعد نحرها عندما احتكم إلى الحجّة:

ـ لا يرفع الناس راية العصيان، يا مولاي، إلاّ إذا جاعوا، أو إذا شبعوا!

سكت القرمانلي الذي كان يتربّع على عرش الناصر المصنوع من الذهب المستقدم من مجاهل الأدغال. ذلك الذهب الذي كان سرّ رخاء الناصر. ذلك الذهب الذي صار سرّ نكبة الناصر.

تطلّع صاحب الغلبة إلى أسيره بفضول إنسانٍ أدرك أن الناس لا تذهب لترتكب الحماقة عن جهالة أو عن غفلة دائماً، ولكن تلبيةً لمشيئة القدر؛ هذا اللغز المجهول الذي يروقه أن يجرّد هؤلاء من العقل عندما يقرّر أن يسخر منهم، ويريهم أنهم ليسوا في الحقيقة سوى دُمَى بلهاء يستطيع أن يلهو بها ما شاء كما تلهو الرياح بالقش أو ريش الطير.

عاد البك يسأل:

ـ وإلى أيّ فريق من هاتين الفئتين تنتمي: إلى فئة أهل الجوع أم إلى فئة أهل الشبع؟

أجاب الأسير بلا تردّد:

ـ إلى فئة أهل الشّبع بالطبع!

حدّق القرمانلي في عينيه طويلاً. سكت طويلاً. قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ الاعتراف بالذنب ليس فضيلة وحسب، ولكنه بطولة أيضاً!

طأطأ الأسير فسأل القرمانلي:

ـ هل تدري ما الذي دفعني للذهاب ألوف الفراسخ في هذا الخلاء الذي لا أول له ولا آخر؛ لأغزو واحة بائسة لا وجود لها في عرف دنيا الله الواسعة؟

تردّد الأسير قبل أن يجيب:

ـ ما أعلمه أن الخراج لن يكون هو السبب الوحيد. استرداد الخراج درجة في سلم طويل، يا مولاي، يبدأ بفرض المكوس وينتهي بتثبيت أركان مُلْك ساقه الله لك دون غيرك ليصير جنساً من أجناس إحقاق الحقّ.

ـ أحسنت! أحسنت مرّة أخرى. ولو تحجّجت بأمرٍ آخر غير ما قلت لأمرت بقطع رأسك!

سكت، ثم استدرك:

ـ ولكن ما الذي دفعك لأن تشقّ عصا الطاعة على سلطاني إذا كنت تعلم أني لا أقاتلك طمعاً في خراج الذهب الذي تدفعه لي ولكن عملاً بناموس ورثناه خلفاً عن سلف؟

ـ الشبع الذي تحدّثنا عنه منذ قليل هو السبب يا مولاي!

ـ وماذا تريد أكثر من الشبع؟

ـ أردت المزيد يا مولاي كما يليق بكل صاحب شبع!

ـ المزيد؟

ـ هناك سرّ لم أحدّث به مولاي.

ـ سرّ؟!

ـ السرّ ليس في الطمع وحده ولكنه في الذهب يا مولاي.

ـ في الذهب؟

ـ الذهب لغز لا يدرك سرّه إلاّ من عاشره طويلاً، لأنه ليس غنيمة ككل الغنائم يا مولاي!

ـ أيّ غنيمة هو الذهب؟

شيّع الأسير بصره نحو البك. في مقلته لمع بريق غريب. ثم عاد فطأطأ قبل أن يجيب:

ـ الذهب غنيمة لا تقبل القسمة أبداً يا مولاي.

سكت البك فأوضح الأسير:

ـ الذهب كالمرأة (أو فلنقل كالسلطة) التي تأبى أن تخضع للتجزئة. فهي إمّا أن تُعطى كلّها، أو تؤخذ كلّها!

ـ حقّاً؟

ـ ليت ولاة طرابلس استولوا على الذهب كلّه يوم استولوا على الواحات في الزمان البعيد. ولو فعلوا لسنّوا تقليداً جنّبنا ويلات الحروب، ولتحاشينا مصيراً كالمصير الذي تراني فيه اليوم!

ساد صمت. صاحب الغلبة أيضاً سكت. ويبدو أنه رحل بعيداً جدّاً. قال أخيراً:

ـ لو جرّدناكم من ذهبكم هذا فما الذي يبقى لكم؟ بل ما الذي يتبقّى منكم؟

ابتسم الأسير لأوّل مرة كأنه كان ينتظر هذا السؤال:

ـ لو جرّدتمونا من ذهبنا هذا لحرّرتمونا من نكبتنا، لأرحتمونا من لعنتنا. لأننا كنّا أحياء قبل أن يدخل هذا الهباء اللعين ديارنا. لم نكن أحياء وحسب، ولكنّا كنّا سعداء أيضاً. أمّا اليوم فنحن لسنا بالسعداء ولا الأحياء، يا مولاي، لأن الهباء لم يجلب لنا إلاّ بلبلة النفوس قبل أن يجلب بلبال الغزاة إلى ربوعنا.

تساءل البك غائباً:

ـ ألن يثور أناسكم فيما لو أخذنا بوصيّتك وجرّدناهم من ثروة سقطت عليهم من السماء؟

ـ المصيبة، كل المصيبة، في أنّها ثروة سقطت من السماء. ولو لم تسقط من السماء لما كانت هذه الثروة لعنةً. ما يسقط من السماء، كما يعلم مولاي، لم يكن يوماً ثروة، ولكنه غنيمة. والغنيمة هبة الحظوظ التي لا تدخل ديارنا لتشدّ أزرنا، ولكن لتهدم ديارنا وتفنينا. أمّا الناس الذين يثورون عندما نحاول أن نجرّدهم من الثروة التي سقطت على رؤوسهم من السماء فإنما يجب أن نعاملهم معاملة الصغار الذين عثروا على دمية. إنّهم يثورون عندما نحاول أن ننتزعها من بين أيديهم في البداية، ولكنهم لا يملكون إلاّ أن يستسلموا عندما نحتال عليهم في أخذها منهم، لأن حتوفنا تكمن في

ما ننال لا في ما نفقد يا مولاي. والحرمان هو رأس حريّتنا في حين أن هبات الحظ هي أشراكنا!

تأمّله القرمانلي بفضول. في الخارج ارتفعت أصوات: ولولة نساء. صراخ أطفال، استغاثات عجائز.

قال صاحب الغلبة:

ـ حَقَّ لك أن تدفع لي ذهباً لا لأنك تريد أن تتنصّل من وزره، ولكن لأني أجَرْتك من اقتراف عمل هو في عرف الناموس خطيئة.

ـ هل قال مولاي خطيئة؟!

ـ بلى. شقّ عصا الطاعة انشقاق، والانشقاق خطيئة في حقّ ناموس الأرض وناموس السماء.

ـ الحقّ أني لم أفهم.

ـ لكي تفهم أجبني على سؤال: هل سوّلت لك نفسك الأمّارة بالسوء أن تظنّ أنك أقوى سلطاناً من أهل اليونان الذين تولّوا أمر هذا الوطن يوماً، أو أشدّ بأساً من أهل فينيقيا الذين تولّوا أمره قبلهم، أو أعظم دهاءً من أهل روما الذين ورثوه عن هؤلاء، أو أصدق حُجّةً من أمراء دويلات المسلمين الذين تعاقبوا على حكمه، يوم قررت شقّ عصا الطاعة؟

فزّت من عيني الأسير سيماء هلع. تكلّم بلهجة مَن يدفع عن نفسه تهمة شنيعة:

ـ هيهات، يا مولاي، أنْ يتجاسر مخلوق مثلي على ظنّ من هذا القبيل.

ـ اعلم إذاً إن هؤلاء جميعاً حاولوا يوماً أن يستهتروا بالناموس الذي خلق الأوطان جسماً واحداً لا يتجزّأ عندما استقلّوا بهذا الإقليم أو ذاك. ولكن الأقدار خذلتهم جميعاً، لأن الوطن جرم واحد، والجزء لا بدّ أن يعود ليلتحم بالكلّ سواء طال الزمان أم قصُر.

ـ لم أسمع يوماً إنساناً يتحدّث عن الأوطان بلسان كهذا.

ـ لو أفلح مخلوق واحد في اجتثاث جزء عن كلّ لتفتّتت الدنيا من زمن بعيد، ولحدث ذلك الخلل في الكون الذي يسمّيه الفرقان الكريم «القيّامة»!

ـ صدق مولاي!

ـ أوطاننا أقدارنا التي يجب أن نحبّها كما وجدناها، فإن حاولنا أن نغيّرها فقد كفرنا بربّنا الذي خلقها لنا وخلقنا لها!

ـ فلينصر الله دين إنسانٍ يتحدّث بلسانٍ كهذا اللّسان.

ـ لهذا السبب لم أقبل فيك شفاعة المرابطين وأولياء الواحة عندما بعث بهم رسلاً، لأني أردت أن أسمع حجّتك من فمك قبل أن أنظر في أمرك. فماذا تنتظر أنت منّي؟

ـ صاحب الخطيئة لا يجب أن ينتظر شيئاً غير الغفران.

ـ هبْني وهبتك الغفران، فأي أمل ترجوه بعد نيل الغفران؟

سكت الأسير. نكس أرضاً كأنه يفتّش في وبر النطع عن نبوءة. قال دون أن يرفع رأسه:

ـ أن تجردني من الذهب!

ابتسم القرمانلي في ذلك اليوم، ولكنه لم يجرد الناصر من

الذهب، لأنه رأى في ذلك استهانة بالناموس لا تختلف عن التجديف في حقّ الأوطان. بل مَنَّ عليه بالغفران وأعاده إلى كرسي الولاية المسبوك من خصمه الذهب، ليقينه أن المغلوبين أصلح من ينوب عن السلاطين في تولي زمام أمر بلدٍ من البلدان. وإذا كان القرمانلي قد استطاع أن يغفر لأمير فزّان الذي أساء إليه بتمرّده، إلا أنه أخفق في أن يغفر للحسناء الصقلبية عملها الذي مكّنه من أسوار عدوّه، لا لأنّه لا يستطيع أن يغفر عمل الإحسان مثله في ذلك مثل كل أصحاب السلطان، ولكن لأنه لا يستطيع أن يثق في امرأة وضعت رقبة أبيها تحت رحمة عشيقها، ثم خانت الإنسان الذي اشتراها بوزنها ذهباً لا ليتخذها محظيةً، ولكن ليسكن إليها قرينةً. ففي اليوم الذي وصل فيه رسول الإيالة حاملاً نبأ تمرّد الثنائي (الترياقي والأدغم) الذي أرسله لتأديب أهل برقة، جزاء تعاطفهم مع الدّعي الصنهاجي، أمر بإغراق الصقلبية في مياه البئر تطيّراً من شرّ إنسانٍ يستطيع أن يتسلل في ليلٍ ينام فيه العسس ليفتح أبواب المدينة للغزاة، وتضحيةً منه بالقربان الذي سيمكّنه من سليلي الخيانة الترياقي والأدغم.

أمّا الأمير فقد أمر بإحضار سليل الظلمات الملقّب بـ«لون اللعنة»، حيث ذكّره بالأسطورة التي تردّدها الأجيال قائلةً إن سلفه اللئيم قد قام في الزمان القديم بإلقاء سلف آل الفاسي في مياه البئر غدراً. وعندما عبّر صاحب النحوس عن شكوكه في صحّة هذه الخرافة، أومأ الناصر للخدم فهجم عليه زنجيان في قوّة الأسد وحملاه كأنه قطعة قشّ خارجَ البلاط، ولم يمضِ وقت طويل حتّى سمع الأمير جسم الوغد وهو يرتطم بمياه البئر!

قال الترياقي في نفسه: «القرمانلي ينتسب إلى الكولوغلية، وأنا أنتسب إلى الكولوغلية. القرمانلي سليل فروسية، وأنا سليل فروسية. القرمانلي يقود جيشاً لتأديب صاحب فزّان، وأنا أقود جيشاً لتأديب أهل برقة، فبأي حقّ يأمرني هو وأأتمر أنا بأمره؟ بأيّ حقّ يصير عليّ حاكماً، وأصير له محكوماً؟ بأيّ حقّ يصبح هو مالكاً وأبقى أنا مملوكاً؟». ثم خرج لينفّس عن نفسه المحنة في البرية. ولكن البرية لم تفلح في امتصاص نقمته فذهب إلى خباء الأدغم ليجرّب ترياقاً آخر. هناك وجد نفسه يروي فصول مغامرة (بل مكيدة) بدل أن يخفي سرّه.

ولدهشته وجد في جليسه (وخلّه القديم) شريكاً في الأمر الذي عقد العزم عليه. اتّفقا بعد جدل طويل أن يعودا بالجيش على عقبيهما، بعد أن يستميلا أهالي الربوع الشرقية ويخلعا البيعة بعون القبائل الأخرى التي ستعترض سبيلهما وهما في طريقهما لنيل المجد بعد الاستيلاء على الحاضرة. وكان باستطاعة الترياقي أن يأمر الجند بالتحرّك فوراً لو لم تخامر رفيقه بعض الوساوس، فاقترح أن يحتكما إلى رأي الغيوب كما اعتاد أن يفعل الأسلاف القدماء، فما كان من الترياقي إلاّ أن استدعى معاونه وأمره أن يفتش عن أقرب عرّاف، ثم استدرك ليستبدل عبارة «أقرب عرّاف» بعبارة «أشهر عرّاف».

بعد يومين استحضر الجند أشهر عرّاف لا في الربوع الشرقية وحدها ولكن في ربوع الإيالة الوسطى أيضاً. كان ذلك مخلوقاً قبيح الخِلقة، أحول العينين، قصير القامة، رمادي البشرة، أفطس الأنف،

يرنو إلى الدنيا بعينين خاويتين كأنه لا يراها ولا يرى فيها الأشياء التي تُرى، بل الأشياء التي لا تُرى بالبصر، وإنما بالبصيرة.

وبرغم الاشمئزاز الذي استولى على الرفيقين، إلاّ أن الترياقي تمالك نفسه وبدأ في استجواب صاحب الغيوب بسؤال لا يخلو من مكر:

ـ هل تظنّني سأجد ضالّتي؟

أجاب العرّاف في الحال كأنه توقّع السؤال:

ـ أمر ذلك بيدك لا بيد الغيوب!

تبادل الترياقي مع الأدغم نظرة ذات معنى قبل أن يعود إلى الاستجواب:

ـ ماذا عليّ أن أفعل كي أفلح في نيل البُغْيَة؟

ـ ليس قبل أن تنحر القربان!

ـ هل قلت القربان؟

ـ لا فلاح بلا قربان.

تبادل الرفيقان نظرة أخرى. ابتسم الترياقي قبل أن يقول بلهجة سخرية:

ـ يُقال إن معشر العرّافين ما زالوا يوصون بنحر القرابين التي تنتمي إلى سلالات الأنام بدل القرابين التي تنتمي إلى سلالات الأنعام، برغم أنكم تحاولون أن تخفوا نواياكم في رطاناتكم المبطّنة، خشية أن يقال إنكم ما زلتم على دين الوثنية في زمن ترتفع فيه راية الإسلام!

ـ بلى. القربان لا يكون قرباناً ما لم تجرِ في شرايينه دماء إنسان، لأن الأنام هم حجّة العالمين وليس الأنعام!

حدّق الترياقي في مقلتيه الخاويتين بذهول أنساه أن يجسّ النبض مع رفيقه الأدغم كما اعتاد أن يفعل. تساءل غائباً:

ـ وهل تريدني أن أنحر قرباناً بشرياً كي أحقّق البُغْية؟

أجاب الداهية بلا تردد:

ـ وهل تتحقّق البغية التي تبغي دون فداء جسيم؟

ساعتها فقط تذكّر الترياقي أنه سينحر قرابين سخيّة جدّاً قبل أن يدقّ أبواب الحاضرة. سوف يسفح دماء غزيرة جدّاً قبل أن يقهر الأعادي ويقتحم الأسوار منتصراً. تذكّر أنه سينحر الأنام رغماً عن أنفه. سينحر القرابين البشرية شاء أم لم يشأ، لأن الحرب لم تكن يوماً سوى مسرح تُنحر فيه القرابين وترتوي فيه الترباء بأنهار الدماء!

فكيف غابت عنه هذه الحقيقة البسيطة والدّالّة معاً؟ ألا يكفي هذا برهاناً على صدق هذا القزم الزنجي الأحول؟

التفت إلى الأدغم فوجده يبتسم بغموض. ولكن العرّاف استوقفهما ملوّحاً في الهواء بيدٍ عارية موسّمة بآثار الجدري قائلاً:

ـ نستطيع أن نحقّق ما نراه مستحيلاً شريطة ألاّ نتخذ من القدر خصماً!

ردّد الترياقي:

ـ القدر؟ ما الذي يضطرّ الإنسان أن يتخذ من القدر خصماً؟

لم ينتظر جواباً على السؤال لأن سؤالاً آخر في صدره كان يبحث عن جواب:

ـ هل خانتك الأقدار يوماً؟

ـ الأقدار لا تخون إلاّ من خانها!

ـ أعني هل كذّبتك يوماً؟

ـ نحن نكذب، ولكن الأقدار لا تكذب!

ـ ألم تخطىء في النبوءة يوماً؟

ـ يخطىء الناس في قراءة الإشارة، ولكن الإشارة تبقى هي الإشارة!

تبادل الرفيقان نظرة طويلة. تأمّل الترياقي مقلة الكاهن الخاوية زمناً. تمتم:

ـ كذبوا ولو صدقوا!

فأجابه العرّاف دون أن يرفّ له جفن:

ـ أنت تقول ذلك.

ـ لست أنا من قال ذلك فماذا تقول أنت؟

ـ أقول إنّهم صدقوا حتّى لو ظنّ الناس أنهم كذبوا!

11

زحف الترياقي بجيشه غرباً عابراً أراضي قبائل نال تأييد بعضها، فوعدها بتخفيف عبء المكوس حال استيلائه على زمام أمر الإيّالة، ومتوعّداً بعضها الآخر الذي رفض خلع البيعة بالانتقام. وقد استطاع أن يغذّي جيشه بأبناء القبائل التي مرّ بها في زحفه نحو الغرب حتّى تضاعف وفاق في عدده جيش القرمانلي.

وعندما بلغ مشارف «ذات الرمال» هرعت لملاقاته جموع الكولوغلية الذين استوطنوا هذه المدينة منذ القدم، وتكاثروا في أرجائها بفضل صلات المصاهرة بالأهالي حتى صاروا أغلبيةً طاغية وقد راقهم أن ينتفض أحد أبناء جلدتهم ليردّ لهم اعتبارهم الذي فقدوه منذ تولّى القرمانلي زمام الإيّالة برغم انتمائه إلى الكولوغلية أيضاً، ولكنه انتماء أثبتت الأيام أنه مزوّر لأن القرمانلي ما لبث أن داس على كبرياء هذه الفئة بحماسة لم تختلف عن حماسته التي داس بها على رقاب الإنكشارية، ليقينه القائل بأنهم يخفون شروراً قد تفوق شرور الانكشارية.

انضمام الكولوغلية منح الترياقي دعماً عسكرياً جديداً إلى جانب الدعم المعنوي، فتوجّه إلى حصن «قصر أحمد» ليضرب الحصار حول محميّة الإيالة التي تولّت حماية مصراته من غزوات النصارى منذ زمن بعيد.

لم يدم الحصار طويلاً، لأن الحامية ما لبثت أن استسلمت؛ لأن القائمين على أمرها رأوا أن الاستسلام لذوي القربى أهون من الاستسلام للعدوّ الذي يترصّدهم من جهة البحر، حتى وإن انتمى ذوو القربى هؤلاء لفئة أهل العصيان. ويقال إن هذا الانتصار المجاني أسكر الترياقي إلى حدّ أجبر فيه صاحب تاورغاء على التخلّي له عن الخراج الذي جمعه من القبائل المجاورة للتوّ، مقابل أن يهب له الحياة. ولكن الزمان ما لبث أن عبس في وجهه عندما بلغ مشارف تاجوراء، وكأنّ هذا الغول المجهول أراد أن يسخر منه (كما سخر من كل المغامرين قبله) وهو على بعد فرسخين فقط من حاضرة الأحلام.

هناك خرج له القرمانلي كالقدر ليلقنه الدرس الذي لم يخطر له على بال، ولم يُقدّر له أن ينساه عبر كل ما تبقّى له من أيام. فقد انهزمت قواته شرّ هزيمة ما إن خرج له القرمانلي كأنه الشبح. فرّت القوات وتفرّق الجند كأنهم يهربون من وباء الطاعون.

فرّ الأدغم أيضاً ولم يعثر له على أثر منذ لحظات الصدام الأولى إن كان ثمة صدام، فلم يجد مفرّاً من الفرار.

فرّ شرقاً. عاد على عقبيه مصمّماً أن يعبر إلى وادي النيل مهما كان الثمن. مضى وهو يفكّر في النكبة. في سرّ النكبة. في لعنة الغرور التي سوّلت له أن يشقّ عصا الطاعة على إنسان أكبره وقرّبه وولاّه جيشاً، فعضّ اليد التي أطعمته استجابةً لوسواس النسب الكريه إلى الكولوغلية، أو الانتماء إلى سلالة الفروسية، أو قيادة الجيوش ليدرك الآن، وبعد فوات الأوان، أن كلّ هذه الألقاب مجرّد أوهام ابتدعها الأدهياء لذرّ الرماد في عيون البسطاء، لأنها لا تجدي نفعاً إن لم تجد سنداً من سرّ آخر، من مجهولٍ آخر، من معلم آخر هو القدر!

في الطريق تذكّر صاحب الغيوب فقرّر أن يعرّج على ربوع القبيلة التي التقطه من بين أبنائها أعوانه.

ولكن رجال القبيلة أفادوا بأنه ظعن باتجاه الجنوب فلم يجد بدّاً من مواصلة الطريق خوفاً من إضاعة الوقت. ويبدو أن سيرة ظعون الداهية نحو الجنوب لم تكن سوى حيلة غايتها التمويه، لأن العرّاف ظهر له عندما هجع في الليل لالتقاط الأنفاس. انبثق من الظلام فجأة كما تنبثق أشباح الجنّ من دنيا الخلاء.

وقف فوق رأسه بقامته القصيرة وسحنته الكريهة وعينيه الخاويتين إلاّ من إيماء يبدو أشدّ غموضاً، في ضوء النار التي أشعلها في أول الليل ليتدفّأ. لم ينبس الشبح فقال له وهو يكتم غضبةً جنونية:

ـ لقد خدعتني يا سليل السوء!

فكلّمه الكاهن بلهجة برود:

ـ لم تخدعك إلاّ نفسك الأمّارة بالسوء!

ـ خدعتُ نفسي؟

ـ ألم تخالف الوصيّة؟

ـ أيّة وصيّة يا نبي الكذب؟

سكت العرّاف. قال كأنه يتكلّم بصوت المجهول:

ـ القربان!

تساءل الترياقي باستنكار:

ـ القربان؟

ـ من استهان بالقربان صار للخفايا غنيمة بدل أن ينال هو الغنيمة!

ـ لقد نحرتُ في طريقي قرابين بعدد شعرات رأسك وأنا في طريقي إلى الغنيمة. لقد نحرت قرابين أنام لا قرابين أنعام يا وجه النحس!

أطلق العرّاف صوتاً غريباً، ولكن ملامح وجهه ظلّت ميّتة، والخواء يستولي على المقلتين. قال:

ـ يؤسفني أنّك لم تفهمني!

ـ ماذا؟

ـ لقد كنّا نتحدّث لغتين مختلفتين.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ لقد أشرتُ عليك أن تنحر القربان الذي في نفسك لا القربان الذي يسعى بين الناس على قدمين!

حدّق في عينيه بذهول، ولكنه لم يجد في العينين سوى الخواء. صاح:

ـ هل تسخر منّي يا روح الشرّ؟

ولكن الشبح مضى يقرأ مزموراً آخر كأنّه يحدّث نفسه، لا صاحب البليّة الذي يجاور النار:

ـ كان أجدر بك لو سألتني عن حقيقة القربان الذي كان يجب عليك أن تنحره في نفسك بدل أن نتنابز بالألقاب!

تحسّس الترياقي سيفه وهو يتلوّن غيظاً. قال وهو يتأهّب للانقضاض عليه:

ـ سوف تقول إنه الهوى، أو الشهوة، أو أي خرافة من هذا القبيل. أعرف هذه الملّة.

ولكن الشبح قاطعه بتحدٍّ:

ـ بل هو الأمل!

حدجه ليقول باستخفاف:

ـ هل قررتم أن تقتلوا في نفوسنا حتى الأمل يا سلالة الزور؟

هبّ واقفاً. قال قبل أن يجرّد السيف من غمده:

ـ أنت لا تعلم أنّك قتلتني!

ـ من قتلك هو نفسك لا أنا!

أغمض عينيه وهو يجرّد السيف من غمده، ولكنه عندما فتح عينيه كان الشبح قد اختفى. اختفى، كما ظهر، كما يليق بكل شبح!

12

في اليوم الذي رست في المرفأ السفينتان اللتان بعث بهما إليه سلطان الأستانة مشفوعتين بلقب الباشا كأرفع وسام اعتاد الباب العالي أن يخلعه على الولاة وأكابر شتّى أركان الإمبراطورية، ابتسم أحمد القرمانلي ابتسامة تترجم إيماء السخرية أكثر مما تترجم التعبير عن نشوة النصر، أو الإحساس بالامتنان، أو أي شيء من هذا القبيل. ذلك أن لقباً أجلّ كان القوم قد خلعوه عليه في اليوم الذي سبق وصول السفينتين اللتين تلقّاهما هديّة من السلطان إكباراً لشخصه، وتقديراً لانتصاراته، واعترافاً بمواهبه. لقب أعظم شأناً من لقب الباشا. أعظم شأناً لا لأنه كان اللقب الذي كان حكراً على سلاطين الأستانة، ولكن لأنه اللقب المجبول بروح القداسة منذ خلعته الأجيال على الخلفاء الراشدين في فجر الإسلام، فبخل به الأولياء والعلماء وأهل الصلاح على غيرهم إلى أن خلعه سلاطين الإمبراطورية على أنفسهم بحدّ السيف لا بحكم الشريعة أو بمباركة الأخيار. ذلك هو لقب «أمير المؤمنين» الذي علّقه أخيار الإيالة في رقبته ليكون له وزراً عظيماً إلى جانب الشرف العظيم. وهو على يقين أن السلطان لم يكن ليتنازل عن كبريائه ليعترف ببطولاته بتلك الهدية التي بعث بها إليه مرفقةً بالفرمان السلطاني الذي يخلع عليه لقب الباشوية، وينصّبه والياً رسمياً على إيالة طرابلس لو لم يبلغه من

جواسيسه نيّة القوم في تسميته بـ«أمير المؤمنين»، فقرّر هذا الداهية أن يستبق الأحداث ليعبّر عن حسن نيته، ويكسب ثقة الأهالي، وليعتذر اعتذاراً مبطناً (يليق بأهل السلطان) عن عداوة لم يحاول أن يخفيها منذ ولّته الأقدار أمر الإيّالة، فهل يصدّق؟

كلاّ، كلاّ. ليس عليه أن يصدّق وهو الذي عرف سليقة الحكم ودناءة الذين يحسبون أنفسهم أهلاً للحكم. ليس عليه أن يصدّق لا لقب الباشوية الذي لم يعد يعني شيئاً، ولا فرمان توليته والياً رسمياً على عرش الإيالة، يقيناً منه أن الولاية الحقيقية هي الولاية التي نصنعها بأيدينا ونحقّقها بأنفسنا لا الولاية التي تُعطى لنا على سبيل الهبة بمرسوم سلطاني. وهو يستطيع أن يتباهى بأنه الوالي الوحيد من بين كل ولاة الإمبراطورية الذي استطاع أن ينتزعها بسيفه، فلا يكتفي بذلك بل ويبرهن أيضاً على أنها لم تُخلق إلا له قبل أن يبرهن على أنه لم يخلق إلاّ لها. وهو ما يعني أن السلطان أخفق في زحزحته عن أمر هذا الوطن طوال سنوات لا لشيء إلاّ لأن الأقدار التي لا تُقهر هي التي أعجزته لا هو الذي أعجزها.

والأقدار إذا وضعت أمانة في رقبة إنسان فليس على هذا الإنسان أن يسيء الظنّ بفعلها هذا فيحسبه منّةً أو هبةً، ولكن عليه أن يدرك أنه وزر، أو وصيّة، أو هو بالأصح قصاص. قصاص لن يمتلك بعد ذلك حيلة للتحرّر منه أبداً.

ففي حين بدأت مدافع السّفن الراسية في الميناء تقصف احتفاء بهذه المناسبة فتستجيب لها مدافع القلعة بقصف كثيف مضاد، كان

هو يلتجيء إلى خبائه القديم المنصوب (كأنه فخّ من أفخاخ الخفاء) في قلب السراي ليخلو إلى نفسه. كان الهرج في المدينة قد بلغ ذروته أيضاً: أنامل تعزف المزامير، وحناجر ترتفع بالغناء، وأصوات نساء تصدح بالزغاريد. أمّا الطريق المؤدّي إلى المنشية فقد داهمته جموع الدراويش الذين طافوا الشوارع والأزقة والطرقات وهم يقرعون دفوف الحضرة، ويضربون صدورهم بالسكاكين، ويترنّمون بالأوراد الإلهية. خلف مواكبهم تسير زمر الأولاد في ذيول طويلة، لتلتحم في سبل أخرى بجموع المريدين الذين لا يلبثون أن ينضمّوا إلى القافلة.

والفرسان؟ الفرسان لم يتأخروا أيضاً. كانت الجياد تتقاطع في كل زاوية، وفي كل طريق، وفي كل ركن، لا لتشرف على حفظ الأمن هذه المرّة، ولكن لتشارك في الفرحة بفنون الفروسية سواء بالسباق، أو الرقص، أو التنافس في ابتداع ألعاب بهلوانية غير مألوفة. وهو يعلم أن الناس لم يهبّوا ليعبّروا عن بهجتهم بنيله الألقاب الثلاثة (أمارة المؤمنين، والولاية، والباشوية) لعلمهم الخفي بأنها ليست سوى أسماء جوفاء لم تكن لتعني شيئاً لو لم تجد دعماً من سيوف القدر. كما أنّهم لم يفعلوا ذلك إرواءً لظمأ الخلق الخالد إلى الاحتفاء لمجرد الاحتفاء حبّاً في الاحتفاء. ولكنهم هبّوا ليقينهم بأنهم يدافعون بهذا الاحتفاء عن أنفسهم. يدافعون عن رزقهم. عن قوت صغارهم. عن ترابٍ أطعمهم وآمنهم يروقهم أن يسمّوه وطناً. وهو تراب لم يطلقوا عليه هذا الاسم المهيب (الوطن) لمجرّد أنه أطعمهم وأسكنهم وآمنهم، ولكن لأنه آوى لهم كنزاً آخر. حفظ لهم

في صدره وصايا أسلافهم، ونواميس الأجيال التي سبقتهم. ولو لم تكن الأوطان حصوناً لمثل هذه الكنوز لما تشبّثت بها الأمم على هذا النحو المميت. لأن الأوطان لا تهب القوت دائماً (لأنها كثيراً ما تمتحن أبناءها بالمجاعات)، ولا تحقّق الأمان دائماً (لأنها كثيراً ما تصير ساحة للغزاة)، ولا تغدق بالسكينة دائماً (لأنها كثيراً ما ترقص على كف عفريت ببلبلة مجهولة). ولكن ما يشدّ أبناء الأوطان إلى الأوطان هو كنوز الوصايا، هو ثروات الناموس، لا حطام الدنيا الفاني.

وعندما يحتفلون اليوم فإنما يحتفلون بانتصار الوصايا. يحتفلون بمجد الوصايا دون أن يدركوا يقيناً أنهم يحتفلون بأمجاد الوصايا. يحتفلون ليقولوا لأنفسهم لا لسواهم إن من حقّهم أن يحتفوا لأن الوصايا لم تمت. لأن الوصايا التي استودعها الأسلاف قلب الوطن لتصير مع الأيام روح الوطن، ما زالت حيّة في وجدان الوطن ولم تمسسها يد الدخلاء واللقطاء والمغامرين وشذّاذ الآفاق وهواة الدنس! لم تمت لأن أبطالاً حموها بسواعدهم، وسقوا حصونها المكنونة بدمائهم.

هكذا فكّر أحمد القرمانلي في خلوة خبائه في حصن السراي الحمراء في ليلة الاحتفال الكبير. هذه الليلة التي كانت حجر الزاوية في بنيان شيّده القرمانلي بإرادةٍ اختلفت عن إرادة من سبقه من الولاة الذين كانت غايتهم السلطة، في حين كانت إرادته منذ البداية إرادة العهد لا إرادة السلطة. إرادة الواجب لا إرادة السعادة. إرادة الحقيقة لا إرادة المجد. إرادة النداء البعيد، البعيد، البعيد، الذي شاء القدر

ألاّ يدركه إلاّ العميق القادر على أن يفتدي بأنفس ما في هذا الوجود لكي يجده: الحياة!

لقد فكّر اليوم في العهد أيضاً. فكّر في العهد لأنه قرّر ألا يُخدع بالألقاب الجوفاء ويستسلم لإغوائها. فكّر في العهد لأنه قرّر أن يقلب منذ اليوم الآية ليحقّق الخطوة التالية في سبيل تلبية النداء البعيد.

فقد هادن البحر طوال السنوات الماضية لأنه كان مهموماً باسترداد البرّ. هادن الخارج لأنه كان مشغولاً بتثبيت أقدام الداخل. هادن الغرباء لأن ذلك كان ضرورياً لاسترضاء الأقرباء، أو لكبح جموح هؤلاء. ولكن الأمر منذ اليوم سوف ينقلب رأساً على عقب. منذ اليوم عليه أن ينتقم من الغرباء الذين لم يتردّدوا في إذلاله بإملائهم للشروط المجحفة، مستغلّين ورطته في استرداد باطنه الضائع. وقد أقسم بينه وبين نفسه أن يردّ لهم الصاع صاعين ما إن يأتي هذا اليوم الذي انتظره طويلاً. لقد أبرم اتفاقات ظالمة مع دول ناصبته العداء في محنته فتجرّع السموم وهو يمهر هذه الاتفاقات بتوقيعه. ليس هذا وحسب، ولكنه اضطرّ أن ينافق أيضاً. ابتسم في وجوه قناصل هذه الدول وهو يرى إيماء الشماتة في عيونهم، وزارهم في بيوتهم ليعرب لهم عن مشاعر الودّ نحو دولهم وملوك دولهم، بل وتنازل لهم عن أسرى استولى عليهم بفضل سطوة رجاله دون أن يجني من وراء ذلك أي مقابل. فعل ذلك لأن السكين المغروسة في الظهر هي التي اضطرته أن يفعل ذلك. أمّا اليوم فحقّ له أن يظهر لهؤلاء الوجه الآخر الذي أخفاه وراء قناع طوال سنوات.

أومأ للحاجب فهرع إليه فتى رمادي البشرة، أجعد الشعر، مفلطح الشفتين. هرع وركع عند قدميه. قال الباشا وهو يتابع نيران المدفعية وهي تختطّ في سماء البحر علامة غامضة:

ـ عليَّ برئيس البحرية في الحال!

القسم الخامس

1

قبيل حلول المغيب خرج من بوابة القلعة بعد أن ترك في المدخل عسّاسه الأبكم. أومأ له بإشارة فابتسم الأبكم بسمة ذات معنى. تسلّل عبر أزقّة تعبق بروائح الأطعمة والتوابل والبنّ، وتكتظّ بالسابلة والباعة والدراويش. من ناحية باب البحر سمع قرع طبول وأصوات مزامير. فوق سطوح المنازل انطلقت حناجر النساء بالزغاريد. فهذا هو اليوم الثاني الذي يحتفل فيه الأهالي بالنصر. فقد عادت السفن من الغزو بغنيمة مجزية بعد صيام طويل. ذهب إلى عرض البحر أسطول مكوّن من ثلاث سفن وعاد بغنيمة مكوّنة من ستّ سفن. أفليست هذه صفقة عوّضت سنوات حرمانٍ موجع فرضه تقلّب مزاج الزمان؟ أليس هذا برهاناً على ضرورة الانحناء عند هبوب العاصفة، والانتظار حتى زوال الإعصار؟ أو ليس خروج ثلاث قطع إلى البحر وعودتها بغنيمة تفوق ضعف عددها، وفوق ذلك محمّلة بالأرزاق، هي صفقة مربحة؟ فكيف يريد له أولياء أمر النصارى أن يوقّع معهم العهود ليتخلّى عن الكنوز مقابل فُتات تافه لا يغني ولا يسمن من جوع يطلقون عليه اسم «الهدايا»؟ هل يرتضي بقبول الرشوة من يستطيع أن ينال الكنز؟ لقد اقترح عليه أحد البلهاء في بداية توليه أمر الإيالة أنْ يبتني حوضاً لبناء السفن في أحد موانىء شطوط الحاضرة أو أي مرفأ آخر، ولكنه رفض هذه الوصيّة ليقينه

بأن بناء السفن أمر لا يختلف عن بناء البيوت التي يقال إن الأغبياء هم الذين يتورّطون في بنائها، أما الحكماء فيشترونها. والأكثر دهاء من شرائها هو الاستيلاء عليها. فلماذا عليه أن يستورد الأخشاب من أبعد البلدان ويهدر الأموال الطائلة ليبني بيوتاً عائمة ثم يبعث بها إلى البحور ليستولي عليها الأعداء بدل أن يدع الأعداء يتحمّلون أوزار هذا العمل الخاسر ثم يذهب هو إلى البحر ليستولي على هذه البيوت المتنقلة جاهزةً؟

اجتاز الأزقة الضيقة متنكراً في برنس مغربي أزرق اللون. على رأسه يلتفّ لثام ناصع يحجب الرأس والوجه وحتّى الأنف على طريقة أكابر أهل الصحراء، فيبدو في هذا اللباس كئيباً مثل شبح من أشباح العابرين الكثيرين الذين يدخلون المدينة فجراً بمجرّد أن يفتح العسس أبواب المدينة، ثم يختفون ولا يخرجون أبداً عند حلول المغيب كما يقضي قانون الإيالة. ولهذا السبب يروق للخبثاء أن يتندّروا فيقولوا إن أشباح الخفاء وأنفار الجنّ الذين يدخلون المدينة صباح كل يوم أكثر من أولئك الذين يخرجون منها. مما يعني أن المدينة مسكونة بأهل الخفاء في أعدادٍ تفوق بكثير تلك الأعداد التي يتحدّث عنها الفقهاء، الذين يحسنون بتمائمهم الظنون فيقولون إنها تطهّر المدينة كل يوم من فلول الأرواح الشريرة التي تتشبّث بجدرانها منذ ألوف السنين.

أدرك باب زنّاته المهيب في اللحظة التي بدأت فيها قطرات المطر تسقط على الأرض في أحجامٍ كبيرة. تذكّر حصون أمير «فزّان» ما إن

وقع بصره على جدران الحصن الحجرية. يومها أدرك أنه لن يستطيع أن ينتزع من هؤلاء الأوباش سرّ مناعة أسوارهم فقرّر أن يحتكم إلى الحيلة.

قال للأمير إنه على استعداد أن يتنازل له عن خراج الذهب لمدّة عام لو كشف له عن سرّ صمود أسواره التي تبدو لمن شاهدها في هشاشة القشّ، ولكنها استعصت حتى على مدافع الملك الهولندي. ولكن الأمير طأطأ بحزن قائلاً إنه لن يستطيع أن يكشف له عن هذا السرّ حتّى لو تنازل له عن خراج الذهب لألف عام لا لعام، لأنه يجهل سرّ السور الذي لم يبتنه بنفسه، ولكنه ورثه عن جدّه. قال أيضاً إن جدّه هذا استضاف ساحراً من سحرة الأدغال (وفي رواية أخرى أحد مردة الجنّ المتنكّرين في أبدان سحرة الأدغال) وأوكل له إقامة هذا البنيان الذي يبدو بسيطاً في قوالبه الملفّقة من طين الأسباخ، ولكنه يخفي في حقيقته قوّة لا تكمن في البنيان، ولكن في تميمة أخرى اسمها: البساطة. وبرغم أنه لم يصدّق حرفاً واحداً من هذه الخرافة إلاّ أنه تفكّر طويلاً عندما انتهى إلى القول بأن سرّ قوّة الجدران اللعينة إنما تكمن في تميمة اسمها البساطة. تأمّل هذه العبارة بحنين. أو ربما أيقظت في صدره حنيناً غامضاً كان نائماً. حنين النداء القديم الذي لولاه لما استولى على زمام الإيالة، ولما امتطى صهوة جوادٍ، ولما اشتهى زينوبة، ولما حرّك ساكناً من سواكن هذه الدنيا. بل ولما جاء به المجهول ليجد نفسه وليداً يدبّ في حقول المنشية. البساطة! البساطة هي التميمة! البساطة هي القوة الحقيقية. البساطة هي ما لا يُقهر. لأن البساطة ليست شيئاً آخر في نهاية المطاف غير الربوبية!

فمن منّا يتجاسر ويحاول أن ينازل الربوبية؟ من منّا يجرؤ على أن يتخذ من الربوبية خصماً؟ فالبطولة ليست أن تتحصّن بجدران الحجارة، ولكن البطولة أن تتحصّن بجدران النفس. بجدران الروح. بجدران الشجاعة. بجدران الحرية! من يتحصّن بجدران الحرية لا يُقهر حقاً لأنه لم يكن ليستطيع أن يفعل ذلك لو لم يقدّم نفسه قرباناً للأبدية، قرباناً لربّ الحرية، فيعارك وهو يرى الحياة باطلاً، يعارك وهو يرى المستقبل زماناً زائلاً. يعارك وهو يعدّ نفسه ميّتاً. فكيف يُهزم من حارب عدوّاً بروح الإنسان الميّت؟ من يستطيع أن يقول إن بوسعه أن يهزم مخلوقاً في عداد الأموات؟ من يستطيع أن يهزم إنساناً تحوّل بالموت روحاً؟ هذا هو ناموس البساطة. هذا هو يقين المخلوق البسيط. وهو وصيّة لم ينلْها جدّ أمير فزّان من ساحر الأدغال كما يُروى، ولكنه استعارها من الصحراء المجاورة التي تضرب حوله حصناً آخر أعظم شأناً من حصنه المنيع. حصن أعظم مناعةً من حصنه المنيع. وأهل تلك الصحراء أعظم من عرف حقيقته فاستثمروا هذه الحقيقة منذ بداية الخليقة، وإلاّ لما تبقّى منهم مخلوق يدبّ على أرضها اليوم. فهؤلاء هم أوّل من أقام الواحات في الصحراء الكبرى لا ليسكنوها أو ليطمئنّوا إلى جدرانها، ولكن ليخرجوا منها قبل الغروب إذا دخلوها لقضاء حوائجهم. يخرجون منها ليبيتوا لياليهم خارج أسوارها. يبيتون خارج أسوارها ليحموها من الخارج لعلمهم بأن الصحراء هي الحرية التي يجب أن يعتصموا بها، في حين لا يتركون إلا عبيدهم داخل الأسوار ليقينهم بأن التخفّي داخل الجدران جبنٌ لا يليق إلا بسلالات العبيد.

وقد صار هؤلاء العبيد مع تدفق الأزمان أهلاً لتلك الواحات. صاروا سادة تلك الواحات بدل سادتهم الذين فضّلوا الموت في صحراء الحرية على أن يحيوا أذلّةً وراء أسوار العبودية. صار العبيد ملاّكاً لأراضي وهبها لهم سادة زالوا ليصير المملوك وريث المالك. صار المملوك وريث المالك لا في أملاكه الأرضية وحسب، ولكن في وصاياه السماوية أيضاً. ذلك أن الأحرار يربأون بأنفسهم أن يحملوا أوزاراً حتّى لو كانت هذه الأوزار وصايا الناموس الأقدم عهداً من كل ناموس «آنهي الضائع»، فأوكلوا أمر الناموس، المدوّن في الرقع ورقوق الجلود وألواح الحجارة، إلى مماليكهم فاستولى عليها المماليك عندما دفنت الصحاري رفات أصحاب الملك، ونسبوها إلى أنفسهم!

هذا ما كان يوماً. وهذا ما هو كائن اليوم. وهذا ما سوف يكون غداً، ما ظلّ في الدنيا سادة وما عاش في الدنيا عبيد. ما ظلّ في الدنيا صحبان ناموس، وما عاش في الدنيا حملة أسفار الناموس. ما ظلّ في الدنيا عشّاق الحرية، وما عاش في الدنيا عشّاق الدنيا وخونة الوصيّة الملقّبة باسم الحرية!

2

تمادى المطر. عند البوّابة انحرف يميناً، سار عبر زقاق متعرّج متربٍ تصطفّ على جانبيه بيوت بائسة ذات أسقف واطئة وجدرانٍ عارية. في نهاية الزقاق توقّف أمام باب كئيب ملفّق من شرائح مستقطعة من جذع نخلة. قرع الباب ثلاث مرّات مردّداً بذلك كلمة سرّ اعتاد أن يترجمها إلى عمل منذ سنوات طويلة عندما زار هذا

البيت لأول مرّة ليهب صاحبته حسنةً وفاء منه لنذر. ثم صار يرتاده كلّما حلّت بالإيالة مجاعة أو وباء أو حرب ليجود على صاحبة البيت العجوز بما ملكت يداه ليطهّر النفس الأمّارة بالسوء (كما اعتاد أن يقول لنفسه) وليتحصّن بالصَّدقة من كيد الأعداء. وقد وجد نفسه يلتجىء إلى هذا البيت في ذلك اليوم الذي عاد فيه من رحلة الصحراء (التي لقّن فيها مملوك فزّان درساً) مصحوباً بالفتى ليستودعه أمانةً في عنق صاحبة البيت بعد أن دسّ في يدها مبلغاً من المال مجسّماً في عددٍ من القطع الذهبية. يذكر يومها أن الدهشة أنستها التعبير عن امتنانها بذلك السيل من الدعاء الذي اعتاد أن يسمعه من لسانها كلّما وضع بين يديها عطاياه. الدهشة بسبب الوديعة التي لم تكن وديعة ككل الودائع، ولكنها كانت طفلاً. كانت إنساناً ليس من لحم ودم فقط ولكن من عقل أيضاً. وهو أسوأ ما في الأمر. فإذا كان الله في الفرقان قد استنكر أن تبلغ الجسارة بهذا المخلوق (الإنسان) أن يتقبّل حمل أمانة رفضت أن تتولى حملها حتى الأجبال فكيف تجرؤ هي، المرأة العجوز المسكينة، أن تقبل أمانةً هي الإنسان نفسه دون أن يكون ذلك تجديفاً مريعاً في حقّ رب السماوات والأرض الذي خلق الإنسان وسوّى الكون؟

إيماء الفزع في مقلة العجوز هو ما دفعه لأن يعِدَها بأن يعود لاسترجاعه منها قريباً. وها هو الآن يقف على بابها ليستعيد وديعته وفاءً منه بالوعد.

سمع وراء الباب هسيساً، ولكن أحداً لم يتساءل عن هوية الطارق تعبيراً عن النيّة لفتح الباب. تذكّر أنه يتقنّع بلثام ويتلحّف

برنساً فابتسم باستخفاف وهو يسترق النظر عبر شقوق شرائح الجذع ليتابع شبحاً يترصّده من الجهة الأخرى. تمتم: «هذا أنا!»، ولكن شكوك العجوز لم تتبدّد، فلم يجد بدّاً من إزاحة اللثام عن وجهه. انتظر لحظات أخرى. فكّر في السرّ الذي يجعل أناساً لا تبدو لحياتهم أي أهمية تُذكر، ولكنهم يبدون مع ذلك أكثر حرصاً على حياتهم من أناسٍ لحياتهم أهمية قصوى، وبرغم ذلك يستهينون بهذه الهبة النفيسة استهانة قصوى. واليقين أن استهانة هؤلاء بالحياة هو ما يجعل لحياتهم أهمية. هذا في حين يجعل حرص الفريق الأول على هذه الهبة أمراً بلا جدوى، لأنه يجرّدها من المعنى. معنى الهبة، إذاً، هو الاستهانة بالهبة. معنى الحياة، إذاً، هو الاستهانة بالحياة. معنى الحياة في احتقار الحياة. هذه مفارقة أخرى يجب إضافتها إلى المفارقات الكثيرة التي تسري في شرايين هذه الدنيا.

فتحت العجوز الباب أخيراً، ولكن سيماء الخوف ما زالت تجول في مقلتيها. داعبها بمزحة ليهوّن عليها:

ـ هل ظننتني من اللصوص؟

فردّت بنبرة ترتجف:

ـ في هذه المدينة هناك من هم أسوأ من اللصوص. في هذه المدينة يسرح قطّاع الرؤوس!

ـ قطّاع الرؤوس؟ سمعنا بقطّاع الطرق، ولكنّا لم نسمع بقطّاع الرؤوس!

ـ قطّاع الطرق أهون من قطّاع الرؤوس!

ـ حقّاً؟

ـ لقد قطع هؤلاء رأس جارتي المسكينة في الزقاق المجاور وألقوا به فوق السطوح!

ـ حقّاً؟

ـ كان الشقيّان قد أقبلا من بعيد يحملان في جرابهما رقعة جلد تشير إلى موقع كنز مدفون في هذه المدينة منذ زمن قديم. ويشاء حظّ الشقية أن ترث عن جدّها هذه الخربة فانتقلت من بيتها في المنشية وسكنت هذه الدار المشؤومة قبل شهر واحد فقط من مقدم هذين الجنيين!

ـ وهل وجد الجنيّان ضالتهما؟

عدّلت العجوز من وضع عصابتها فوق رأس مكسوّ بشعيرات هزيلة مصبوغة بالحنّاء قبل أن تجيب:

ـ وكيف لا يعثر الجنيّان على الكنز إذا كانا قد أسالا فوق ضريحه دم أنامٍ بدل دماء الأنعام؟

تطلّع إليها بفضول. قال لنفسه إن في قلب كل إنسان ينام سرّاً. في قلب كل إنسان ينام علماً. في قلب كل إنسان ينام العالم ويسكن الكون، وما علينا كي ندرك الحقيقة إلاّ أن نستنطق هذا العلم ونفتّش في خفايا هذا الكون. كان الطفل يقف في فناء الدار. يراقبه صامتاً. على شفتيه ترتسم ابتسامة ذات معنى. أومأ له بعينه فأجابه الولد بإيماءة مماثلة دون أن ينبس كأنه يقول إنه يستمهله، لأنّ سيرة الكنز على لسان العجوز استهوته أيضاً.

التفت ليواصل استجواب العجوز:

ـ وهل أفلت الجنيّان بكنزهما؟

ولكن العجوز استنكرت:

ـ وهل يفلت القتلة من عقاب الله؟

ـ لا أفهم!

ـ اللّص لا ينجو من القصاص إذا أزهق روحاً من سلالة الأنام.

ـ ولكن نيل الكنوز يستوجب نحر الأنام لا نحر الأنعام كما قلتِ منذ قليل؟

ابتسمت العجوز فكشفتْ عن فم خالٍ من الأسنان. قالت:

ـ هذا سرّ الكنز الذي يجهله الذين يبدّدون دنياهم في البحث عن الكنوز.

تنهّدت بعمق. أضافت:

ـ عشاق الكنوز لا يعرفون أن ثمن الكنز جُرْم مكرّر. لأن الاستكشاف يستدعي نحر ذوي القربى، والاحتفاظ به يستدعي نحر النفس في قلب صاحبه. أهل الكنوز أمّة شريرة يا سيدي! وإلا ما الذي يجعلني أرتضي الفقر، وأحيا على حسنات الأخيار أمثالك إن لم يكن الخوف من قصاص ربّي؟

حدّق في عينيها طويلاً. في مقلتيها البيضاوين اللتين تبدوان خاويتين عندما تأمّلهما طويلاً رأى إشارة غريبة. أشاح ببصره فسمعها تقول:

ـ أنا أيضاً ورثت عن أسلافي الجلود التي تدلّ على الذهب!

تابعها بدهشة. تمتم بلا وعي:

ـ حقّاً؟!

ـ ولكني لم أفكّر في استخدامها أبداً، لأني أعلم أني لن أستطيع أن أفعل ذلك يوماً دون أن أستبدل نفسي فأتحوّل من «مريومة» سليلة الأولياء والمرابطية إلى «ملهومة» سليلة الجنّ والأرواح الشريرة. كلاّ، كلاّ. الأفضل أن أحيا بين الناس ببطن خاوٍ، ولكن بروح أعرفها، على أن أحيا غريبة عن الناس ببطن متخم، ولكن بروح تجهلني وأجهلها! كلاّ، كلاّ. الكنوز خلقت لأهل الكنوز ولم تخلق لي!

تقدّمت نحوه خطوة. في عينيها بريق أيقظ فيه وسواساً خفيّاً. قالت بصوت لم يعد صوتها:

ـ عندما نرفع النصل لننحر إنساناً قرباناً لكنز فإنما نرفع النصل لننحر أرواحنا. وما حدث للجنيين كان أكبر برهان على ذلك. لقد استخرجا من دار ضحيّتما ثلاثة صناديق مرصوصة بهباء التّبر، ولكنهما تشاجرا في اقتسامها قبل خروجهما من أسوار المدينة، فهل تدري من فاز بالغنيمة أخيراً؟

لم ينبس فأضافت:

ـ رجال القرمانلي!

ـ رجال القرمانلي؟!

ـ قيل في البداية إنهم رجال القرمانلي، ثم اتضح فيما بعد أنهم دهاة مجهولون انتحلوا هويّات صاحب الإيالة زوراً!

ـ عجباً! وماذا حدث للشقيين؟

ـ قتل أحدهما ثانيهما، وقتل العسس ثانيهما بدم أولهما!

ـ عجباً!

ـ ألم أقل لك إن ناحر القربان على ضريح الكنز لا بدّ أن يُنحر بيد الكنز؟

أومأ للطفل وهو يتأهّب للانصراف. أخرج من جيبه قطعاً ذهبية وضعها في يد العجوز قائلاً:

ـ هذه القطع لم تُستقطع من سبائك الكنوز، فلا تخافي!

ولكن العجوز حاججته بالقول:

ـ لست عمياء حتى يغيب عنّي ذهب الحقّ من ذهب الباطل!

ثم ابتسمت قبل أن تضيف:

ـ أنت لا تعلم أن في عينيك أيضاً يلمع كنز!

ـ حقّاً؟

ـ ولكنه كنز من طينة أخرى!

ـ حقّاً؟

لم تجب فتفكّر في نبوءتها قليلاً. تذكّر لغة الكهنة التي لا تتكلّم إلاّ أحجيةً، وذهب وراء النداء بعيداً قبل أن يتساءل:

ـ وهل سأجد الطريق إلى كنزي يوماً؟

طأطأت الداهية المتخفية في بدن تلك العجوز قبل أن تجيب:

ـ من يدري؟ فقد يجد كنزك طريقه إليك إن لم تجد أنت طريقك إليه!

3

الطفل عثر عليه في طريق حملته على فزّان.

عَثَر عليه كما يعثر على أيّ لقية ملقاة على قارعة الطريق.

وعندما استفسر عن حقيقة اللقية قالوا له إنه ولد من بين أولاد وبنات كثيرين وجدوهم يتباكون أثناء مرورهم بالصحراء بعد أن تركهم أهلهم في الدّمن قبل أن يلوذوا بالفرار. يومها أمرهم بأن يلتقطوا الأبناء ويجدّوا في مطاردة الآباء. بعد يومين أدركوا أحد هؤلاء الأشقياء فأتوا به مقيّداً ليمثل للمساءلة بين يديه. كان رجلاً كئيباً، معمّماً بقناع أكثر كآبة، لوّحت شموس الصحراء وجنتيه وساعديه، في عينيه أيضاً كآبة، وربّما صرامة أيضاً إلى جانب الكآبة، في العقد الرابع أو الخامس من العمر. أمر الجند بتحريره من قيود الأسر قبل أن يستنطقه بسؤال:

ـ من أنت؟

ولكن الأسير لم يجب، فأمر له بماء. راقبه وهو يتناول بين يديه القدح الملآن بأنفس كنز في الصحراء. راقبه وهو يتأمّل القدح بعينين غائبتين قبل أن يرفع الوعاء إلى شفتيه المتشققتين ويبتلع جرعة. تناول جرعة واحدة ولكنه لم يتخلَّ عن الوعاء. قال مجيباً عن السؤال:

ـ لو قلت لك من أنا لما دلّ ذلك على شيء، ولكن لو قلت لي أنت من أنت لدلّ ذلك على الكثير!

في البداية استفزّته وقاحته، ولكنه أدرك بعد تفكّر أن الرجل على حقّ فقرّر أن يجاريه. قال:

ـ لم أسألك عن هويّتك لتجيبني عن حسبك أو نسبك، ولكن لتحدّثني عن السبب الذي يجعل عشيرتكم تفرّ من وجهي تاركةً وراءها ذرّيتها كأنها بعر البعائر وليست أنفس كنز يستطيع أيّ رجل أن يستخرجه من بطن امرأة!

تناول الأسير من وعاء الماء جرعة أخرى. ازداد إيماء الاكتئاب في مقلتيه عمقاً. أجاب ببرود لم يعرفه الناس إلاّ في أهل التخلّي الذين لا يهمّهم أن يُسْمَعُوا ولا أن يُفهموا، ولا أن يستقيم أمر دنياهم أو ينقلب أمر دنياهم رأساً على عقب:

ـ كيف لا نفعل ذلك وقد جاء لنا الخفاء باليوم الذي انتظرناه طويلاً؟!

ـ عن أيّ يوم تتحدّث؟

ـ يوم أعلن فيه نذير النجوع زحف جيشك فقررنا أن نتحرّر بعد خوف ونفطر بعد جوع!

ـ تتحرّرون بعد خوف وتفطرون بعد جوع؟

ـ ما هو التحرّر من الذرية إن لم يكن تحرّراً من خوف؟ وما هو التحرّر من الذرية إن لم يكن إفطاراً بعد صوم؟

حدّق ساعتها في عينيه الحزينتين دون أن يصدّق ما يسمع. تساءل غائباً:

ـ هل تعي ما تقول، أم أنّك تريد أن تستهزىء بي؟

ـ وهل تستهزىء الضحية إذا وقعت بين يدي جلاّدها؟

ـ أنت لست ضحية، وأنا لست جلاّداً!

ـ هذا نبل منك!

ـ ولكن هل تلقون بأطفالكم في وجوه أعدائكم أحياءً لتلهوهم عنكم، أم لمجرّد النيّة في التخلّص منهم كما فهمت من قولك منذ قليل؟

ـ الحقّ أننا نفعل ذلك بقصد التخلّص منهم، فإذا أربكوا العدوّ وأعموه عنّا كان ذلك هو فضيلتهم الوحيدة.

ـ فضيلتهم الوحيدة؟

ـ وهل ترى في إنجابهم فضيلة أخرى غير هذه؟

اغتصب ضحكة مزمومة. قال:

ـ بل ظننت أن إنجاب الأطفال هو فضيلة الإنسان الوحيدة في هذه الدنيا.

ـ هل فضيلة أن ننجب من بطون النساء مخلوقات لا يدل صراخ ميلادها إلا على شقوتها واستنكارها لحلولها في دنيانا؟ هل فضيلة أن نعاني في سبيل إبقائها على قيد الحياة الأمرين؟ هل فضيلة أن نجوع ونخاف ونموت كل يوم حرصاً عليها وتضحية في سبيلها؟ هل فضيلة أن توجد هي بثمن اغترابنا نحن؟ هل فضيلة أن نموت نحن لتحيا هي؟

لم يضحك هذه المرّة. مضى يحدّق في مقلتي الرجل الذي شيّع الوعاء ليتناول جرعة ماء أخرى. أضاف:

ـ نحن مدينون لك لأنك حرّرتنا من هذا الوزر. نحن مدينون للحروب دائماً بالتحرّر من الأولاد!

خيّم صمت. سأله فجأة:

ـ هل تعتنق عشيرتكم كلّها هذا الدّين؟

ـ لا تخلو العشائر من أفراد يشقّون الطاعة على العرف، ولكن خروج هؤلاء لا يزيدنا إلاّ إيماناً بأعرافنا.

ـ ألا تخشون أن تستيقظوا يوماً فتكتشفوا عشيرتكم وقد انقطعت؟

ـ العشائر سوف تنقطع عاجلاً أم آجلاً. العشائر سوف تنقطع سواء زهدت في الأبناء أم حرصت على اكتساب الأبناء.

ـ ولكن فرصة العشائر التي تحرص على اكتساب الأبناء في البقاء أقوى من فرصة القبائل التي تلقي بالأبناء إلى خلاء الصحراء.

سكت الأسير زمناً. داعب الوعاء بين يديه بحنان أمّ تداعب وليداً. قال:

ـ نحن لا نلقي بالأبناء إلى الصحراء تلبيةً لنداء الأهواء. نحن نلقي بالأبناء إلى الصحراء تلبيةً لنداء السماء!

ـ تلبيةً لنداء السماء؟

ـ ما هي الضرورة إن لم تكن نداء من سماء؟ ما هي البلية إن لم تكن إرادة السماء؟ ما هي الحرب إن لم تكن رسالة الخفاء؟

سكت. أضاف:

ـ إطعام الأطفال للصحراء في هذه الحال قربان نجاة!

ردّد وراءه غائباً:

ـ قربان نجاة. قربان نجاة..

سرح بعيداً. تابع ذيول السراب وهي تنطلق لتصنع من خلاء الصحراء الخالد غمراً بلا حدود. أمر:

ـ هاتوا الولد!

تنفّس الجنوب بريح مصهورة بالنّار. في الخلاء الأبعد تراءت زوبعة تتلوّى التواء الثعبان في زحفها شمالاً وفي صعودها نحو السماء. هذا الجنس من الزوابع هو ما يروق أهل الصحراء أن يطلقوا عليه اسم «مطيّة الجنّ». بعد قليل أقبل أحد الجند بالولد. كان موسوماً بعهد الجنوب الأبدي. مستدير الوجه. في عينيه تلتمع سيماء ذكاء. قصير القامة. في حوالى السادسة أو السابعة من العمر. يرتدي ثوباً فضفاضاً بالياً تكشف أكمامه الواسعة عن بدنه من كلا الجانبين. يعتمر قلنسوة بائدة باهتة اللون. وقف قبالته مطأطئاً. ثم بدأ يختلس النظر إليه دون أن يرفع رأسه إليه.

وفجأة ابتسم. ابتسم في وجهه ابتسامة غامضة ولكنها شجيّة مثل أغنية شجن. ابتسم في وجهه تلك البسمة التي أوقعته في الأسر بالأمس عندما وقع عليه بصره لأوّل مرّة فاختاره من بين جميع الأولاد الذين عثر عليهم الجند في دمن القوم. هذه المرّة أيضاً بادله البسمة كما في المرّة الأولى فاطمأنّ الولد. رفع رأسه إليه فسأله:

ـ هل كان لك هذا الرجل أباً يوماً؟!

انتقل الوليد ببصره نحو الرجل. حدّق في عينيه فبدأت البسمة الشجية تختفي من مقلتيه. حلّ في العينين إيماء آخر. إيماء الألم. بعد قليل تلألأت المقلتان الذكيتان النقيّتان بالبلل. ثم ارتحل البصر

إلى أعلى ليحدّق في الفراغ الذي يحجبه الخباء. ساعتها وجّه السؤال إلى الرجل:

ـ هل كان لك هذا الولد ابناً يوماً؟

ولكن الرجل لم يجب. مضى يداعب وعاء الماء بين يديه وينحني أرضاً في تسليم. كان يرتدي في عينيه قناعاً آخر إلى جانب قناع الكتّان الذي يلتفّ حول رأسه. سأل مرة أخرى:

ـ إذا كان فقدان الأبناء موجعاً إلى هذا الحدّ فلماذا تأتون بهم إلى الدنيا وأنتم تنوون التخلّي عنهم عند أوّل امتحان؟

أجاب دون أن يتخلّى عن وعاء الماء الذي تحوّل بين يديه دميةً:

ـ لسنا نحن من قرّر أن يأتي بهم إلى الدنيا، ولكن ناموس الدنيا!

سكت ثم أضاف بلهجة من يستدرك:

ـ ثم لا تحسبنّ أننا نتخلّى عنهم بيسر، ولكننا نفعل ذلك عندما تجبرنا بلايا الدنيا، والحروب أشرّ هذه البلايا كما قد تعلمون. والدليل على حرصنا عليهم هو أننا لا ندفنهم بمجرّد أن يأتوا إلى هذه الدنيا كما تفعل بعض القبائل، ولكنّنا نتخلّى عنهم ليقعوا في يد العدوّ غنيمةً تلهيه عنّا من جهة، وتكفل لهم الأمان من جهة أخرى.

ـ ألا تخشون أن يتخذهم العدوّ عبيداً؟

ـ أنْ يتخذهم العدو عبيداً أهون من أن يهلكوا جوعاً أو ظمأ، لأن عبيداً على قيد الحياة أفضل حظّاً من سادة في عداد الأموات!

ـ حقّاً؟

ـ ترك الأولاد في الدّمن حيلة للدفاع عن النفس، لأن العدوّ لا يدري عادةً أن اللقية دائماً هبة خطرة.

ـ هبة خطرة؟

ـ اللقية هبة خطرة حتى لو كانت كنزاً، فكيف إذا كانت مخلوقاً من لحم ودم؟

ـ ظننتُ أن لقية اللحم والدم أهون من لقية الذهب.

ـ نستطيع أن نتحصّن من السّوء الذي قد تجلبه علينا لقية الكنز، ولكنّا لا نستطيع أن نتحصّن من السوء الذي ستجلبه علينا لقية اللحم والدّم، لأننا نستطيع أن نتنبّأ بنوايا لقية الكنز، ولكن هيهات أن نتنبّأ بنوايا لقية اللحم والدم!

سكت هو، فأضاف الأسير:

ـ ناموسنا يحدّثنا فيقول: «أيها الإنسان: حقَّ لك أن تنحني لتأخذ أي لقية ساقتها الأقدار إلى سبيلك باستثناء لقية واحدة: الإنسان!».

تأمّله بفضول. ولكن الأسير أضاف:

ـ الإنسان شَرَك!

ـ هل تريد أن تقول إن ترككم للأولاد هو ضرب قتال؟

ـ صدقتَ! نحن نُفجع في الأبناء حقّاً، ولكننا بفقدهم نحيا!

ـ تعني أن أبناءكم هم قرابينكم؟

ـ بلى. هم القرابين التي نقدمها ولكننا لا ننحرها، لأننا نعلم أنهم أحياء يرزقون في مكانٍ ما. وربما يحيون في بلاد المجهول حياة أسعد مما نحيا في الصحراء.

ـ أيّ سعادة يمكن أن يحياها صاحب العبودية؟

ـ الكثيرون لا يرون السعادة إلاّ في العبودية، لأن الحرية هي

الوزر الذي لا يستطيع أن يحمله إلاّ الأبطال. وإلا ما الذي يجبرنا على الحياة في صحراء لا زرع فيها ولا ماء إن لم يكن علّة مميتة اسمها الحرية؟

ـ هل قلت علّة مميتة؟

ـ بلى. الحرية علّة وفوق ذلك مميتة!

ـ ولماذا لا تذهبون لتحيوا في الواحات أو في المدن ككل الناس؟

ـ لأن الحرية داء فريد. الحرية داء إذا تمكّن من المخلوق أدمنه المخلوق فلا يستطيع من دائه خلاصاً!

هبّت أنفاس جنوبية جديدة. ارتفعت في الفضاء ذيول غبار. أمسك بيد الولد وضمّه إلى صدره. تطلّع إلى الخلاء المغمور بالغبار والحجارة والسراب فاستولت عليه كآبة. التفت إلى العسس ليأمرهم:

ـ أطعموا هذا الرجل، ثم خلّوا سبيله ليلتحق بأهله!

4

خرج من بيت العجوز عند حلول الغيهب. قطرات المطر تحوّلت رذاذاً ينذر بالهيمنة طويلاً. أحكم اللثام حول وجهه ومشى عبر الزقاق يقود الولد من يده. ما زال الباعة يجولون في الشوارع وهم يروّجون لسلعهم بأصوات لا يزيدها الصياح إلاّ إبهاماً.

قال للطفل:

ـ سنذهب الآن لزيارة جدّة أخرى، فماذا ترى؟

ـ الرأي رأي مولاي!

ـ لا أريد أن أسمع من فمك كلمة «مولاي» مرّة أخرى!

سكت الولد فأضاف:

ـ ألم أقل لك منذ أوّل يوم إنّنا أصدقاء؟

اعتصم الطفل بالصمت فتساءل:

ـ ألا يروقك أن نصير أصدقاء؟

أجاب الوليد بعد تردّد:

ـ أمّي تقول إن الصغار لا يصيرون أصدقاء للكبار!

ـ هل أحببت أمّك؟

ـ ومن لا يحبّ أمّه؟

ـ وهل أحبّتك هي؟

ـ أي أم لا تحبّ ولدها؟

ـ لماذا ألقت بك أرضاً إذاً؟

ـ ليست هي من ألقى بي أرضاً.

ـ هل هو الأب؟

ـ أجل!

ـ لماذا؟

ـ لأنه يكره أمّي!

ـ ولماذا يكره أمّك؟

ـ لأنها ولدتني!

ـ لأنها ولدتك؟

ـ نعم، أبي لا يريد أولاداً.

داهمهما جواد جموم يمتطيه فارس يعتمر طربوشاً. تنحّى جانباً حاملاً الطفل بين يديه. أوقف الولد عند حذاء الجدار. مسح عن ثوبه أوحالاً لوثّته بها حوافر الجواد. مسح بيده وجهه أيضاً فابتسم له الطفل بسمته الغامضة التي أسرته دائماً وكانت سبباً في رفقتهما. أخذه من يده ومضى. سأل:

ـ ولكن أصدقني القول: ألم يكن الرجل الذي وجدته في خبائي يومها هو الأب؟

أجاب الولد بعد صمت دام طويلاً:

ـ نعم!

ـ لماذا لم تجبني بالحقّ يومها؟

همس بعد صمت:

ـ لا أدري!

ـ هل هو الخوف؟

ـ لا أدري!

ـ هل تحبّ أباك؟

صمت الولد طويلاً قبل أن يعترف:

ـ أحببت أبي أكثر مما أحببت أمّي!

ـ ألم يؤلمك ما فعله بك؟

ولكن الطفل لم يجب. فعاد يلحّ بالسؤال:

ـ ألم يؤلمك ما فعل؟

الطفل لم يجب. اكتشف بعدها أن الولد يرتجف، فسأل:

ـ هل تشعر بالبرد؟

لم يجب أيضاً فتفحّصه في عتمة المساء. كان الولد لا يرتجف فحسب، ولكنه اكتشف أن الولد كان يبكي!

5

طرق باب بيت أنيق مشيّد من طابقين، يقوم عند حدود السوق، ولا يبعد كثيراً عن باب البحر. كشف عن وجهه فيما كان صوت أنثوي بحيح يتساءل في الداخل عن هويّة الطارق. ولكنه لم يجب فسمع جلبة بالداخل. ويبدو أن الخادمة ارتابت فبدأت مشاورات مع صاحبة البيت لم تستمرّ طويلاً.

أطلّ من ضلفة الباب رأس فتاة زنجية، ولكنه أزاحها جانباً قبل أن تنبس واندفع إلى الداخل يجرّ وراءه الولد. في البهو فزّت ربّة البيت من مقعدها وهرعت للقائه وهي تشدّ لحافها على رأسها وتتمتم بالتعاويذ. هتفت:

ـ مولاي؟!

فأجابها بلا مبالاة وهو ينهار على أريكة في البهو:

ـ أنا!

ـ لا يتنكّر الملوك في أسمال الرعيّة إلاّ لأمرٍ جلل!

ـ أخطأتِ! تنكّر الملوك في مسوح الرعية دائماً فأل خير!

ـ تخفّي أولياء الأمر في ثياب الدهماء دائماً عمل مفزع.

ـ قد يكون مفزعاً، ولكنه ضرورة!

ـ أتعني لتضييع الأثر، وتضليل العين؟

ـ بل للبحث عن الحقيقة!

ـ البحث عن الحقيقة؟

ـ ماذا يفعل الملوك إذا اكتشفوا أن كلّ من يحيط بهم يخفي عنهم ما لا يجب أن يُخْفَى؟

اغتصبت المرأة ضحكة وهي تجلس قبالته على الأريكة. قالت:

ـ ماذا يفعل مَنْ يحيط بالملوك إذا كانوا يرون الملوك لا يثقون حتّى بأنفسهم؟

ـ وكيف يثق الملوك بحاشيتهم إذا كانوا يرون أنهم ينافقونهم؟ وكيف يثق الملوك بأنفسهم إذا كانوا يعلمون أن النفس أمّارة بالسوء؟

ـ إلى أين المفرّ في هذه الحال؟

ـ لا مفرّ! الملوك ينامون على الزور ويستيقظون على الزور. في آذان الملوك حتى الغناء يتحوّل كذباً. الملوك أشقى خلق الله لأن دينهم الكذب!

ثم نظر في عينيها وهدّدها بسبّابته محذّراً:

ـ إيّاك أن تحلمي يوماً بأن تصيري ملكة!

ضحكت المرأة. صاحت:

ـ وما حاجة حلّومة إلى المُلْك؟ ألا يكفيني أن يتولّى مولاي القرمانلي المُلك وهو الذي تولّى نعمتي وجاد عليّ من خيره حتى قبل أن يتولّى الملك؟

ـ شعار القرمانلي: «القيام بالواجب لا الجري وراء سراب اسمه السعادة»!

ـ ما أنبله من شعار!

ـ والآن هاتِ ما في جعبتك من أخبار إذا كنتِ لا تريدين أن تنضمّي إلى قافلة أوباش الحاشية الذين اعتادوا أن يخفوا عنّي كل شيء!

ـ لا عشتُ يوماً أخفي فيه شيئاً عن مولاي!

ولكن القرمانلي التفت إلى الولد قائلاً:

ـ قبل كل شيء أردتُ أن أستودعكِ صغيري هذا إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

هبّت حلّومة واقفة. هتفت:

ـ هل هذا وليّ العهد؟

وضعت يدها فوق فمها وهي تهمّ بأن تطلق زغرودة ترحيباً بولي العهد المزعوم، ولكن القرمانلي استوقفها بإشارة صارمة من يده. قال:

ـ أجاره الله من العهد، ومن ولاية العهد. هذا الصغير اسمه «مسّي». التقيته في رحلتي الأخيرة إلى الصحراء فرافقني ليكون لي عزاءً في غربة الزوور!

برطمت حلّومة:

ـ ما أغربها من رفقة!

ـ سوف أتركه أمانةً في عنقك إلى حين!

ـ شرف لي أن أصير له خادمة كما كنت لمولاي دائماً!

ثم حدّقت في عيني الطفل لتتنبّأ:

ـ في عينيه دهاء!

ـ في عينيه بسمة أعظم شأناً من الدهاء!

ـ ولكن ما الذي يجعل الملوك يتبنّون أطفالاً؟

أجاب القرمانلي بلا تردّد:

ـ ما يجعل الملوك يتنكّرون هو ما يجعل الملوك يتبنّون أطفالاً. ألم نتفق منذ قليل؟

أطلقت المرأة ضحكة فتبدّت في فمها سنّ ذهبية. قالت:

ـ ما أسرع بديهة مولاي! ما أجمل سماع حديث مولاي! ما يدهشني أن مولاي لم يتغيّر منذ عرفته في ذلك اليوم الشتوي المشؤوم الذي قصفت فيه مطايا الفرنجة برج القلعة بالقنابل. كنتَ يومها في سلاح الفرسان، وقد أصابت شظية ملعونة سقف البيت فتداعى. وقد ظننتُ أني سأموت يومها من الخوف فجئت كما تجيء الملائكة لتنقذني وتدخل السكينة إلى قلبي!

ـ أدخلتُ السكينة إلى قلبك يومها، ولكنك ما زلتِ تماطلين في إدخال السّكينة إلى قلبي اليوم!

داعبت المرأة رأس الولد. رمقت القرمانلي بنظرة ذات معنى. عبست. قالت:

ـ الأخوان!

سدّد إلى عينيها نظرة صارمة. تساءل:

ـ الأخوان المكنيّ؟

طأطأت أرضاً. قالت:

ـ لقد تماديا يا مولاي. وأخشى أن تكون الادّعاءات التي يردّدانها سبباً للبلبلة، وربما للفتنة بعد البلبلة!

ـ ماذا يدّعي الدّعيّان؟

ـ عليٌّ يردّد في مجالسه أن بقاء مولاي في العرش رهين بأمواله، ويوسف يردّد في مجالسه أن بقاء مولاي في العرش رهين بسيفه!

سكت القرمانلي. على شفتيه ارتسمت بسمة غامضة. قال:

ـ أخشى أنهما على حقّ!

حدجته المرأة بدهشة. تمتمت:

ـ ماذا يقول مولاي؟

ولكن القرمانلي فزّ واقفاً. قال:

ـ آن الأوان للفرار من الحرية والعودة إلى أوكار الزور. لا تنسي أن تضعي صديقي هذا في بؤبؤ العين!

ثم انحنى على الولد فداعب رأسه قائلاً:

ـ لا تقلق! سوف نلتقي قريباً!

شيّعته إلى الباب وهي تردّد صلوات مجهولة، ثم قالت بصوت مسموع:

ـ حصّنَ الله مولانا من كيد كلّ ناكر إحسان!

في اليوم الذي عادت فيه القطع البحرية حاملةً على متنها الغنائم، تعجّ بالأسرى، وتسوق السفن المغتصبة، خرج الأهالي إلى السواحل، وطافوا الشوارع، ابتهاجاً بالنصر. غنّى الناس ورقصوا وقرعوا الطبول ونفخوا في المزامير تعبيراً عن فَرَجٍ جاء أخيراً بعد كربٍ خيّم على حاضرة الإيّالة زمناً طويلاً.

فرح الناس يومها، ولكن القرمانلي وحده اغتمّ. اعتصم بخباء الخلوة ليحيا عزلته التي لم يعرف سواها منذ جاءت به الأقدار ليقيم في جدران القلعة. وقد تعلّم منذ زمن بعيد، أن النصر الذي يحقّقه تدبير صاحب الأمر يصير مِلْكاً للناس عندما يتحقّق لا ملك صاحبه الذي دبّره. أمّا الهزيمة فهي مِلْك صاحب الأمر دوماً، ولا تكون من نصيب الناس أبداً. ولهذا فإن الحمق كلّه إنما يكمن في إشعال الحروب التي لا بدّ أن تصيب بشظاياها مدبّرها إن عاجلاً أو آجلاً فتذهب به في أغلب الأحوال. ولهذا فإنه لن يستحي إذا قال إن الأقدار إذا شاءت أن تخسف الأرض بصاحب أمر ونهي فإنها تلهمه بإشعال حرب. وقد أشعل حرباً ضد قوى أقوى منه منذ وقت قريب ظنّاً منه أنه يفعل ذلك ثأراً من طغاة استغلّوا ضعفه وانشغاله بفوضى الداخل فأذلّوه وكبّلوه بالعهود وضروب المواثيق الجائرة. أفلن يكون عدلاً إذا تمرّد وقد استشعر القدرة على التمرّد؟ أليس عدلاً أن يستردّ بقوّة اليوم ما خسره بضعف الأمس؟ وقد فعل ذلك لا لجهله بأن الحرب لعبة خطرة، ولكن ليقينه بأن الرجال لن يجدوا ما يمكن أن يفعلوه في هذه الدنيا بلا دمية اسمها الحرب. فالرجل إمّا أن يعشق

وإمّا أن يحارب. وهو يصيبه الملل من العشق بأسرع مما يتوقّع عادةً، ولهذا فإنه لا بدّ أن يذهب إلى ساحة الحرب. لا بدّ أن يستبدل سرج المطيّة. والتخلّي عن سرج مطيّة اسمها المرأة لا بد أن يعقبه القفز إلى سرج مطيّة اسمها الجواد. الجواد الذي سيلقي به إلى غمار دمية أكثر تسلية وأعظم دمويّة اسمها الحرب. وقد خاض هو الحرب أيضاً بسبب الملل. لقد جرّب قهر هذا الدّاء في البداية بالالتجاء إلى أحضان الحسناء. بالالتجاء إلى أحضان زينوبة الطرابلسية. زينوبة الأسطورية. لقد خاض حرباً شرسة في سبيل الفوز بها، ولكن أحضانها خذلته في النهاية. خذلته لأنه لم يجد في هذه الأحضان سوى الخواء. ظنّ أن الحسناء يمكن أن تخفي السرّ الذي يستطيع أن يكشف له عن لغز النّداء، ولكنه لم يجد هناك سوى الخواء. وجد الخواء لأن الحسناء لا تختلف عادةً عن الحسناء. لأن زينوبة ليست سوى حسناء. والحسناء ليست سوى امرأة. والمرأة ليست سوى أنثى. والأنثى ليست سوى إنسانة، هذا إذا لم تكن شركاً. والإنسان لا يكون عزاء الإنسان إن لم يخفِ سرّاً. إن لم يهدهد في القلب نداء كما تهدهد الأمّ وليدها. ولهذا السبب ارتدّ إلى الوراء. لهذا السبب فرّ. لهذا السبب ذهب لإخماد أنفاس الانتفاضات وحركات العصيان في طول المملكة وعرضها. غربها وشرقها. شمالها وحتّى جنوبها المستحيل. جنى الخيبة في المخدع. جنى الهزيمة في المخدع فخرج يبحث عن النصر في الحرب. خرج يبحث عن النسيان في الحرب. لأن الرجل لا يذهب إلى الحرب لكي ينال السعادة، ولكن لكي يجني النسيان. الرجل، بل كل إنسان، لا يأتي إلى هذه الدنيا لكي يستمتع، بل لكي يشقى.

لا يأتي إلى الدنيا لكي يسعد، ولكن لكي يتحرّر. فإن لم يجد سبيلاً للتحرّر من أوزار القلب تحرّر من الدنيا، من الحياة، من نفسه. والخيار الأخير هو أضعف الإيمان!

وهو يخوض الحروب لكي ينجو. لكي يتحرّر. لكي ينسى. ينسى النداء وهويّة النداء. ينسى الخواء الذي يعقب كل فشل في المثول بين يدي النداء. لأن الحياة ليست سوى خواء من دون نداء. لأن الحياة، كأحضان الحسناء، بلا معنى إذا أخفق المخلوق في الفوز بحقيقة النداء. وهو يعترف أنه استشعر بعض الزهو يوم رُفعت الأعلام على صواري السفن فزغردت النساء ابتهاجاً بإعلان الحرب على البحر. على ملوك البحر. ولكنه يتجرّع اليوم مرارة الخيبة التي تعقب كل نصر. مرارة الهزيمة التي تعقب كل نصر. مرارة الهزيمة المتستّرة في ثنايا كل نصر. إنها خيبة شبيهة بالخيبة التي استشعرها يوم تسلّل من مخدع زينوبة ليلة الزفاف. بلى. الحرب زفاف. صاحب النصر في هذا الزفاف مهزوم، وصاحب الهزيمة أيضاً مهزوم، لأن في الزفاف كما في الحرب، لا وجود لمنتصر. في الزفاف، كما في الحرب، لا وجود إلاّ لخسارة. وها هي الخسارة تبدأ، لأنها هي أيضاً جزء لا يتجزّأ من اللعبة. اللعبة التي خُلقت كي تجعلنا ننسى. ففي الصباح استقبل القنصل الفرنسي الذي جاء لا ليحتجّ، ولكن لينصح. قال إنه يعدّ الباشا صديقاً لا ملكاً، ولهذا يستطيع أن يسمح لنفسه بأن يسدي لسيادته نصحاً بعيداً عن علاقات البلدين الرسمية. القنصل قال إن الأدميرال «دوكين الابن» في طريقه إلى مياه الإيّالة ليطالب بالسفينتين المحملتين بالزيت اللتين استولى

عليهما رجال بحريّته، وليستردّ الأسرى أيضاً. والأسوأ من هذين الطلبين الوقحين هو الطلب الثالث الذي ينصّ على الاعتذار الرسمي عن هذا العدوان الغاشم على قوات صاحب الجلالة ملك فرنسا!

القنصل اقترح أن يرسل هو بمبعوث إلى فرنسا ليوضح للبلاط هناك ملابسات هذا العمل الطائش (على حدّ تعبيره)، وليعرب لصاحب الجلالة عن النيّة في توقيع معاهدة بحرية جديدة بين البلدين كبرهانٍ على حسن النوايا. القنصل قال إن عملاً كهذا كفيل بنزع فتيل التوتّر وتجنيب الإيالة ويلات الحرب. فالمدمّرة «ديامنت» التي يقودها الأدميرال «دوكين» مخوّلة بإعلان الحرب فيما إذا أخفقت المحادثات وركب هو، القرمانلي، رأسه. ولكن ما لا يعلمه القنصل الأبله هو أن الحرب لا تشتعل لتهمد، ولكن لتتمادى.

القنصل لا يعلم أنه لم يشعل هذه الحرب ليجنح للسلم، ولكنه أشعل فتيل الحرب لينسى. أشعل فتيل الحرب ليحيا. والإنسان لا يحيا، بل يتألم، إن لم يعش لاهياً. إن لم يعش ناسياً.

في ذلك اليوم زفّوا له بشارة أخرى. قالوا إنهم تمكّنوا أخيراً من الدّعي المدعو «أحمد الرايس».

7

من «الرايس» هذا تلقّى يوماً طعنة لم يندمل جرحها أبداً. الرايس هذا هو مَنْ اختلس منه المخلوق الذي أحبّ كما لم يحبّ أحداً. الرايس هذا هو من استغلّ غيبته عن الإيالة أثناء الحملة على «فزّان» واندلاع نار الفتنة التي أشعلها ثنائي الخيانة الترياقي والأدغم، فجمع

المغامرين والسفلة وقطّاع الطرق ليكوّن منهم جيشاً للنهب والسلب، فزحف على تاجوراء وحاصر في أسوارها أخاه شعبان بك، ولم يفكّ عنها الحصار إلا في اليوم الذي تمكّن فيه منه غيلةً بسبب خيانة أحد أعوانه. وعندما عاد من حملة الصحراء ليشتّت شمل الخونة تخلّى الوغد عن شرذمته وفرّ إلى جهة مجهولة كما فرّ الترياقي وقرينه الأدغم. فرّ «الرايس» فجدّ في طلبه. قيل إنه استجار بزعيم المحاميد فبعث برسول إلى الشيخ طالباً تسليمه لمحاسبته على الجريمة التي اقترفها في حقّ أخيه. ولكن زعيم المحاميد ردّ عليه بقرطاس اختطّ فيه عبارة مبتسرة، ولكنها قاطعة: «الرايس لم يستجر بي. ولو فعل لما سلّمته لك لا لوزنه بين القبائل (فهو في رأيي مجرّد شقيّ وصعلوك لم تدفعه إلى فعل ما فعل البطولة، ولكن الفراغ القاتل)، ولكن ما يمنعني من تسليمه هو ذلك الناموس الذي ورثناه عن أسلافنا الذي لو خنّاه يوماً لما تمكنت أنت من الجلوس اليوم على عرش الإيّالة. أم أنّك نسيت سيرة المكتوب المزعوم الذي نسبته بهتاناً إلى أبي مويس وفضحتك فيه المطالبة بتسليم الصبايا الأبكار؟». كانت تلك صفعة أخرى. كانت تلك هزيمة أخرى لا تقارن إلا بهزيمته الأولى (والوحيدة في حياته كلها) عندما خرج لتأديب أهل الجبل مدفوعاً بتهم ثبت فيما بعد أنها نميمة. ولكنها كانت الهزيمة التي ليس عليه أن ينكرها أو يستنكرها. بل كانت الهزيمة التي عليه أن يتمنّاها. الهزيمة التي لا تلحق العار بالأبطال الذين لا يخوضون الحروب للاستيلاء على الغنائم، أو لإرواء الظمأ إلى سفك الدماء، أو لإرضاء الكبرياء باستعباد الأمم، ولكنهم يحاربون دفاعاً عن النفس عندما يحاربون في سبيل الحقيقة. يدافعون

عن النفس عندما يطلبون النداء المفقود. والإسكندر الأكبر لم يكن إلا جندياً من جنود هذا الجيش المقدّس. يوليوس قيصر لم يكن إلاّ جندياً من جنود هذا الفريق. محمد الفاتح لم يكن إلا جندياً من جنود هذه الفئة الإلهيّة. بل من هم الأنبياء إن لم يكونوا روّاداً في هذا السبيل؟

وبرغم السعادة الغامضة التي استشعرها ساعة قرأ جواب زعيم المحاميد، إلاّ أن مرارة المصاب بفقد أخيه أبطلت الحجّة بدل أن تهوّن عليه. فالسعادة الناتجة عن وجود أبطال في نبل زعيم المحاميد كانت غنيمة مدّته بالعزاء دائماً ليقينه بأن الدنيا كانت ستكون أسوأ ألف مرّة لو خلت من أكابر مثل هؤلاء. ولكنه أحبّ شعبان بك أيضاً. أحبّ شعبان بك لا بسبب رباط الدم وحسب، ولكن بسبب خصال مفقودة كالنبالة بالذات. فهو الوحيد ممن عرف يمكن أن ينافس زعيم المحاميد في هذه الخصال. وكي يدلّل زعيم المحاميد على سجيّته هذه امتطى جواده في اليوم التالي وأقبل عليه وحيداً دون جيش أو أعوان ليقدّم له التعازي في مصابه في عقر داره، كأنه يريد بهذا الفعل البطولي أن يقول: «لقد أعطيتُ بجوابي ما لقيصر لقيصر، ولكني أقبل عليك لأعطي ما لله لله. فإذا كنتَ لا تصدّقني فتستطيع أن تأخذني رهينة مقابل ولد الرايس!». لا يزال يذكر ذلك اليوم. ترجّل الشيخ عن جواده بقفزة لا تتناسب مع شيخوخته. ترجّل فهرع هو لاستقباله. أمسك بزمام الجواد فوقف الزعيم في مواجهته.

تبادلا نظرة طويلة. نظرة قالا فيها ما لم يكن بوسعهما أن يقوله أيّ منهما حتى لو أوتيا القدرة على التكلّم بألف لسان. وعندما فرغا من القول بنظرة العجب تلك تقدّم كل منهما نحو الآخر ليتعانقا. تعانقا طويلاً. تعانقا بعينين مغمضتين. ولكن عينيهما كانتا تتلألآن بالبلل عندما انتهى عناقهما.

يذكر أيضاً أنه بعد انتهاء مراسم المأتم ذهب لزيارة كاهن الصحراء «آهر» الملقّب باسم الصيد في بيته بالمنشية. ذهب ليروّح عن نفسه وينفّس عن كربة تلك الأيام.

ولكن الداهية وحده أدرك أنه لم يأتِ يومها لينفّس عن محنة أو ليروّح عن نفس، فلم يبخل عليه بالوصيّة. يومها قال له: «إذا أعيتك الحيلة في الفوز بالودّان فلا تتعب نفسك بمطاردته في وعور الجبال. دعه وانتظره في السهل، فلا بدّ أن ينزل المرعى يوماً. هذا ما نقوله في الصحراء!». لم يزد على العبارة حرفاً، بل انتقل ليتحدّث عن الجمال وعن أغاني الحنين التي افتقدها في غربته عن الصحراء. وها هي نبوءة العرّاف تصدق. ها هو ولد الرايس يتعب من التطاول في أوعار الأجبال وينزل السهل بقدميه. ها هو ينزل المراعي بقدميه. ها هو ينزل مراعي سرت فيتمّ القبض عليه كفأر. يتمّ القبض عليه لينال القصاص. القصاص الذي سيهوّن عليه. القصاص الذي سيشفي غليله. ولكن هل يداوي قصاص الانتقام الغليل حقّاً؟

8

تلقّى من القنصل الفرنسي مكتوباً يطلب فيه الإذن له للقيام بزيارة الأدميرال «دوكين» على ظهر المدمّرة «ديامنت» الراسية منذ يومين في الميناء.

تناول القرطاس بين يديه وقرأه بنفسه مرّة، مرتين، ثم سرح بعيداً. غاب بعيداً حتى إنه لم يلحظ كيف بدأ يهزّ القرطاس أمام وجهه كأنه مروحة لاستفزاز الأهوية. وعندما عاد من رحلته رمى بالقرطاس جانباً وهبّ واقفاً. أمر بدعوة مجلس الديوان للانعقاد وخرج من الخباء في طريقه إلى القلعة.

بعد أقل من ساعة كان الديوان قد التأم داخل جدران السراي. طاف على وجوه الأشياخ بنظرة شاملة، ولكنها كانت نظرة كافية للإخبار عن اكتمال النصاب القانوني. بل كانت كافية للإخبار عن اكتمال حضور كل الأعضاء. طاف الوجوه ففكّر في الحكمة وراء بدعة المجالس. تطلّع إلى الرؤوس المتوّجه بالطرابيش، المعصوبة بالعمائم، وتفحّص اللّحى المدلاّة من الذقون موشاةً بالشيب أو مخضّبةً بالحنّاء، فتساءل عن سرّ الأوائل في نظم مجالس الأشياخ. هل يعقل أن تولد الحكمة في ساحة الهرج؟ هل يُعقل أن تتسلّط الوصيّة في محفل الجدل؟ هل يعقل أن تستظهر النبوّة في وطنِ الكلم؟ هل يعقل أن يسود الإلهام أرضاً يتنابز فيها الناس بالألقاب ويتنازعون فيها بالأيدي؟ ألن تكون المجالس في حالٍ كهذا مجرّد حلبة لحبك دسائس لا للبحث عن الحقيقة؟ ألم يكن اللسان دائماً خصماً للحقيقة، بل أكبر عدوّ لها؟ أم أن مجالس الأشياخ لم تخلق

لتبدع وصيةً بقدر ما خلقت لتكون حيلة من حيل استطلاع ما يخفيه الأغيار؟ أيعني هذا أن المجالس لم تخلق لتصنع رأياً يصلح وصيةً، ولكنها خُلقت لتصنع بلبلةً قد تصلح لأن تنتج رأياً أو وصيّةً؟ ألا يعني هذا أن مجالس الأشياخ لا تختلف عن مجالس النساء التي لم تُخلق لنستعير رأيها، ولكن لنخالف رأيها؟ ألا يعني هذا أيضاً أن وطن الحقيقة ليس المجلس، ولكن غياب المجلس؟ ألا يعني هذا أيضاً وأيضاً أن وطن الحقيقة ليس المملكة، ولكنه الملكوت؟ ألا يعني هذا أن الخباء حيث يستطيع أن يتفكّر في خلوته وحيداً هو ملكوت الحقيقة؟ ألا يعني هذا أنه استبدل الحقيقة بظلّ الحقيقة بدعوته المجلس للانعقاد؟ أم أنه ليس عليه أن يندم على عمل كهذا ما دام يستطيع أن يحاجج الدنيا بأنه لم ينفرد حتى اليوم باتخاذ قرار واحد يمكن أن يعرّض الإيالة للخطر باستثناء سحق المؤامرات أو قمع العصيان تجنّباً لبليّة أسوأ من الحرب هي الفوضى؟

خاطب الأعيان يومها فحدّثهم بطلب القنصل الفرنسي الإذن له بتحيّة أدميرال لم يأتِ إلى سواحل الإيالة للقيام بزيارة مجاملة أو بهدف التفاوض ولكنه أقبل لغاية التهديد والابتزاز، وربما الاستفزاز، لإيجاد ذريعة لإعلان الحرب. فهل تبيح الأعراف السماح لممثل بلد أجنبي للقيام بزيارة مكان نعلم سلفاً أنه ليس مجرّد مطية، ولكنه ساحة لتدبير مكيدة ضد البلاد وفوق ذلك كلّه ما هو في الحقيقة سوى آلة حرب؟

سكت فعمّ هرج. تهامس الوجهاء وعلت همهماتهم حتى صارت

ضجّة. ولكنه لم ينتهرهم ولم يومىء لإسكاتهم. تركهم ينفّسون عن استنكارهم فيما بينهم قبل أن يقول:

- لم آتِ لتسمعوني همهماتكم خِفيةً، ولكني أتيت لأسمع آراءكم جهاراً!

تراجعت أصوات الاحتجاج رويداً رويداً قبل أن يتشجّع أحدهم:

- يأبى حِلْم أمير المؤمنين إلا أن يسمح بمركب الخراب هذا لأن يرسو في موانينا. ولا يكتفي مولانا بهذا ولكنه يأمر بتزويد أفعوان الموت هذا بثمار أرضنا الطيبة من خضار وفواكه وغلال. فهل يُعقل أن يمضي مولانا في التسامح شوطاً أبعد من هذا فيأذن لجاسوس النصارى في زيارة وكر النصارى هذا وهو يعلم أنه لا يذهب إلى هناك للوساطة، وإنما يذهب إلى هناك كجندي استطلاع زرعته فرنسا بين ظهورنا ليقوم بتزويد العدوّ بأسرارنا؟

تعالت أصوات الاستحسان. هتف أكثر من صوت:

- الله أكبر!

فاضطرّ أن يرفع يده ليسكتهم. قال:

- هل يرى أحد آخر رأياً آخر؟

نهض شيخ وقور معصوب الرأس بعمامة ناصعة، يرتدي برنساً أزرق اللون، تتدلّى من ذقنه لحية كثّة مرصعة بالشيب. كان ذلك أحد وجهاء المنشية (لا الساحل) استضافه في القلعة منذ أيام إكباراً لعلاقات ودّ قديم ربطته بوالده.

بسمل الشيخ وصلّى على الأنبياء قبل أن يعلن:

ـ لا أستغرب شيئاً كما استغرب أن يُسمح لجاسوس بأن يلتحق بقومه الذين بعثوه لنا يوماً جاسوساً ليبلّغ هؤلاء الأعداء أسراراً كفيلة بأن تكون سبباً لهلاكنا، بدل أن نكبّل الكافر بسلاسل الحديد ونرمي به في أقبية السجون أسوةً بأمثاله من الخونة!

تعالى الصياح. هتفت أصوات بعبارات الاستحسان. كما هتفت أصوات أخرى بـ«الله أكبر».

اقترح أحد الأعيان:

ـ في السجن احترسوا أن تتسامحوا مع الوغد، بل احرصوا أن تقرعوا رجليه بالفلقة أسوةً بأمثاله من سجناء الغزاة!

في قلب المجلس نهض شيخ آخر يرتدي طربوشاً أحمر اللون، فوق الطربوش ثُبّتت عمامة ناصعة موسّمة بخيوط الذهب. في يده عكّاز مطوّق بحلقات الفضّة. ذاك كان أحد أعيان المدينة الذين حرّضوا الأهالي ضد الأرناؤوطي يوماً فأسهموا في وصوله إلى سدّة الحكم. تكلّم الشيخ فقال:

ـ يقال إن عدوّاً في الظهر أسوأ من ألف عدوّ في السهل. ربّما كان من الحكمة أن يُطرد عدوّ الظهر خارج أرض القوم قبل نشوب الحرب بوقت طويل، ولكن من الحمق أن نُخرج الجاسوس اليوم بعد أن أسمعنا العدوّ طبول الحرب. الرأي في هذه الحال أن نخفيه في السجون لا لننكّل به كما اقترح البعض ولكن لنجنّبه بطش الأهالي من جهة، ولنجنّب أنفسنا من إفشائه لأسرارنا من جهة أخرى!

ولكن أحد العقلاء قام ليقدّم حجّة أدهى:

ـ الحكمة يا مولانا ليست في القبض على إنسان جاءنا ليقيم بيننا كرسول لأمّة النصارى لإيداعه السجن، ولكن في تحويله إلى سلاح يخدمنا نحن ويجلب الضرر للعدوّ!

سكت فحثّه الأنظار لكي يكمل، ولكنه لم يكمل إلا بعد أن نال إيماءة تشجيع من الباشا:

ـ نتخذه رهينة!

عمّت المجلس همهمة مكتومة. أوضح الشيخ:

ـ تحويل الجواسيس رهائن هو ما يبطل مفعول أسحارهم، فإذا نجحنا في ذلك فسوف نصيب عصفورين بحجر: نتحرّر من وضعنا كرهائن في قبضة هذا المكابر من جهة، وتنقلب الآية فيصير هو رهينة في قبضتنا بعد أن كنا نحن في قبضته رهينة!

كبر أكثر من صوت فأضاف الداهية:

ـ أراهن أن هذا هو الترياق الوحيد الذي سينزع الاستكبار من رأس هذا الكافر!

كان صاحب الوصيّة رجلاً صارماً، نحيلاً، من أهل تاجوراء الذين نزحوا من أسوارها بعد تعرّض المدينة لضروب الفتن في الآونة الأخيرة.

9

في اليوم التالي صدر الأمر بوضع القنصل الفرنسي تحت الإقامة الجبرية ومنعه من زيارة الأدميرال «دوكين» الذي وجد نفسه أيضاً معتقلاً في سفينته الحربية الراسية في الميناء، فما كان منه إلاّ أن تقدّم بالتماس يطلب فيه السماح له بالمثول بين يدي الباشا.

استقبله داخل جدران القلعة مع حلول المساء. رجل قصير القامة أميل إلى البدانة. متوج الشفتين بشاربين كثّين. يعتمر قبّعة مثلثة الأضلاع. في مقلتيه السوداوين مكر الثعالب وقساوة القراصنة. أقبل مصحوباً بترجمان القنصلية وجنديين من جنود البحرية الفرنسية. لم ينسَ أن يعبّر في البداية عن امتنانه لسعادة الباشا لقاء المؤن التي تفضّل وزوّد بها سفينته برغم المحنة التي عكّرت صفو العلاقات بين البلدين في الفترة الأخيرة. وهو أمر إن دلّ على شيء فإنما يدل على حسن نوايا الباشا ورغبته الأكيدة في تبديد غيوم المحنة وتحويلها إلى سحابة صيف. ثم تحدّث بعدها فقال إنه لم يأت إلى طرابلس غازياً، أو ملوّحاً بالغزو، كما تقول الشائعات، ولكنه جاء لنقل رسالة. وعندما سأله الباشا عن فحوى هذه الرسالة أجاب قائلاً بأنها ليست رسالة ملك فرنسا كما قد يذهب بالبعض الظنّ، ولكنها رسالة قديمة قدم الإنسانية ألا وهي رسالة العدالة!

استفهم الباشا مجدّداً. نظر الأدميرال في عينيه قبل أن يقول كأنه يقرأ في قرطاس ولا يرتجل الكلم ارتجالاً:

ـ أليست العدالة، أو فلنقل ناموس العدالة، هو الذي قضى بتجريم من خرق العهد بين طرفين؟

نقل الترجمان العبارة مطأطئاً فأضاف الأدميرال:

ـ أليس من حقّ الطرف الذي أصابه العدوان أن يطالب بالتعويض ردّاً للاعتبار وجزاء ما لحقه من ضرر عملاً بناموس العدالة؟

انتظر أن ينقل الترجمان العبارة ليضيف:

ـ نحن لا نريد إلاّ تحقيق ما أقرّته العدالة في كل الأزمان، وفي

أعراف كل الأمم، وفي كل الديانات حتى الوثنية منها، فكيف إذا كان ذلك هو الدستور الأوّل الذي بشّرت به الديانات السماوية التي نعتنق نحن شقّها الذي سبق وتعتنقون أنتم شقّها الذي لحق؟

همّ الترجمان بنقل العبارة، ولكن القرمانلي قاطعه بسؤال مقتضب، ولكنه صارم:

ـ ماذا تريد تعويضاً مقابل الضرر؟

أجاب الأدميرال عبر الترجمان:

ـ إطلاق سراح ربّان السفينتين اللذين أسرهما رجال بحريتكم أولاً، واسترداد السفينتين بعد تسديد قيمة الحمولة نقداً ثانياً!

تكلّم الترجمان بطلب الأدميرال فقاطعه الباشا قبل أن يكمل مرة أخرى:

ـ سنعيد السفينتين، وسوف نطلق سراح بحارتهما، أمّا فيما يتعلّق بتسديد قيمة الحمولتين فسوف تمهلني!

ساد صمت فأوضح الباشا:

ـ الجفاف أهلك المحاصيل، والفتن أبادت القطعان في الصحاري، وليس عليك إلا أن توجّه الابتهال إلى الربّ لكي يستنزل شآبيب الرحمة لأن في ذلك سيكون خيرنا وخيركم!

طأطأ الأدميرال فيما كان الترجمان يجاهد في سبيل نقل العبارة إلى الفرنسية. قال الباشا:

ـ وإذا ساورتك فيما أقول شكوك فما عليك إلاّ أن تذهب الآن في جولة لأسواق المدينة لتقف على حال البؤس التي تعاني منها هذه البلاد.

همّ بالانصراف. استوقفه الباشا قبل أن يدرك الباب ليقول:

- في جعبتي هدية أخرى أريدك أن تقدّمها نيابةً عنّي إلى صديقي ملك فرنسا!

استفهم الأدميرال بإيماءة ما إن نقل له الترجمان العبارة، فأكمل الباشا:

- لقد قررتُ أن أعفي رئيس بحريّتي من منصبه عقاباً له على خرقه للمعاهدة الموقعة بين بلدينا!

انحنى الأدميرال إكباراً قبل أن ينصرف، ولكن حاجباً دخل عقب خروجه مباشرة ليزفّ للباشا بشرى استيلاء بحرية الإيّالة على سفينة فرنسية من مرسيليا محمّلة بأجود أصناف الحرير!

10

تكلّم على المكنّي فقال:

- لا يجب أن نذهب بعيداً في تأويل ما حدث. يكفي أن نعلم أن الحروب تستدعي تقديم الأضاحي!

تكلّم يوسف المكنّي فقال:

- لا أستنكر أن أكون في الحرب أضحيةً. ما أستنكره هو الطريقة التي تمّت بها مراسم تقديم الأضحية!

شيّع بصره إلى قمّة نخلة سامقة. أضاف وهو يشدّد قبضته على مسند كرسي الخيزران:

- الباشا أراد أن يلحق بي إهانة! أنت أعلم الناس بذلك، وأنا كذلك، فلا تحاول أن تهوّن عليّ!

كانا يجلسان في بستان علي المكنّي داخل أسوار المدينة في مساء اليوم الذي أعقب صدور مرسوم القرمانلي القاضي بتجريد يوسف المكنّي من منصبه كرئيس للبحرية، فما كان من أهل الفضول إلا أن تناقلوا الخبر لينتشر في الساحل ويعبر الأسوار في لمح البصر ليبلغ مشارف المنشية وحتّى حصون تاجوراء.

قال علي:

ـ لا أنكر أن إحساساً يخامرني بأن وراء الأكمة ما وراءها، ولكن هذا لا يعني أن نستسلم للشكوك أكثر مما ينبغي.

ـ إذا كانت الأكمة تخفي شيئاً فإن الأمر لن يقف عند هذا الحدّ. أنت تعرف القرمانلي.

ـ لا يجب أن نستسلم للظنون!

ـ بل يجب أن ندافع عن أنفسنا. ألا ترى أن هذا تمهيد لتحطيمنا؟

عضّ علي على شفته السفلى خفيةً. قال بهدوء:

ـ لا أنفي أن في الأمر دسيسة!

ولكن يوسف صاح في وجهه:

ـ دسيسة خسيسة! بل دسيسة مميتة! لماذا لا نسمّي الأشياء بأسمائها؟

قال علي بعد صمت:

ـ الحقّ أنّنا ارتكبنا خطأً يوم خذلْنا الأرناؤوطي ولم نبخل بالمال ولا بالمشورة ولا بالرجال في سبيل دخول القرمانلي إلى رحاب السراي!

ـ بلى! السرّ في المال!

اختلس علي إلى شقيقه نظرة. عضّ على شفته السفلى مرّة أخرى. سرح ببصره بعيداً. قال:

ـ الخطيئة ليست في إنفاقنا للمال، ولكن في التباهي بإنفاق المال!

استفهم يوسف بنظرة، وعندما أخفق تساءل:

ـ لا أفهم، فما الذي تخفيه؟

ـ أنت ثرثرت في المجالس بدل أن تبتلع لسانك!

ـ ماذا؟

ـ أصحاب السلطان لا يحاسبوننا أبداً على أفكارنا، ولكن على أقوالنا!

عضّ على شفته مرة أخرى. أضاف:

ـ يحاسبوننا على أقوالنا أكثر من أفعالنا!

تطلّع يوسف إلى أخيه بقلق فأوضح عليّ:

ـ أنت أخطأت في اختيار العبارة كما أخطأت في اختيار خلاّنك. أنت طفل يا يوسف! أنت طفل!

تابعه يوسف بدهشة. حاول أن يتكلم ولكن جفافاً استولى على الحلق فمات على لسانه الكلم، فلم يجد الشقيق بدّاً من التكلّم نيابةً عنه:

ـ لقد سمعتُ أقوالاً نُقلت عنك من قبل الدهماء، وتريد ألاّ يسمعها القرمانلي الذي لا ينام آناء الليل وأطراف النهار؟

تمتم يوسف بيأس:

ـ حلّومة!

ويبدو أن عليّاً لم يسمعه لأنه ما لبث أن زفر أنفاساً سخيّة قبل أن يقول:

ـ الخطأ ليس في أننا أغدقنا عليه الأموال، ولكن في تذكيره بأننا أغدقنا عليه الأموال كأننا ننتظر أن يعترف لنا بالإحسان. لقد نسينا أن الإنسان لا يكره شيئاً كما يكره الاعتراف بالإحسان. فإذا كان الإنسان كذلك فكيف بصاحب السلطان الذي يرى نفسه ربّاً، ويعتبر الرعايا مماليك مدينين له حتى بأنفاس الحياة؟

ـ لا أظنّه من الاستكبار بحيث يأخذ إنساناً خدمه بماله وبسيفه بزلّة لسان!

التفت إليه عليّ. حدّق في عينيه لأوّل مرّة. قال:

ـ زلّة اللسان عند صاحب السلطان أسوأ من طعنة سيف! زلّة اللسان هي ما لا يغفره صاحب السلطان، لأن جرح السيف يمحوه الزمان، ولكن زلّة اللسان لا سلطان للزمان عليها. هل تدري لماذا؟

لم ينتظر من شقيقه جواباً. قال:

ـ لأن جرح السيف يصيب جسداً فانياً، ولكن زلّة اللسان غنيمة روحٍ خالدة!

ـ هل تريد أن تقول إنه على حقّ!

ـ بالطبع هو على حقّ. على حقّ ما دام يتربّع على عرش السلطان، ولو كنتَ أنت مكانه لفعلت ما فعل. عليك أن تنسى

أحمد القرمانلي الذي عرفناه عندما كان يقود سلاح الفرسان، لأن ذاك كان مخلوقاً آخر لن يكونه بعد اليوم إلى الأبد!

كان يلهث. يعضّ على شفته السفلى ويلهث من فرط الانفعال. ساد صمت. هبّت ريح شمالية فتغنّى سعف النخيل بلحن مجهول. تمتم يوسف:

ـ إذا كان ما تقوله صحيحاً فلا يجب أن نقف مكتوفي الأيدي!

11

خرجت الخادمة لزيارة جدّتها في المنشية فوجد نفسه في البيت وحيداً. كانت الخالة «حلّومة» قد خرجت منذ الصباح لقضاء الحوائج كما يروقها أن تقول، وكما يروق للشقية مسعودة أن تردّد لتحاكيها وهي تغمز له بعينها الكبيرة السوداء، كأنّها تريد أن تشكّك في صدق نوايا مولاتها، أو لتطعن في صحّة القول، وربما لتوحي بوجود أسرار أخرى وراء عبارة «الحوائج» هذه تتعمّد حلّومة أن تخفيها، وربّما تغمز اللعينة بحدقتها الكحلاء الكبيرة لمجرّد الاستخفاف بأفعال ربّة البيت.

ومسعودة هذه فتاة لعوب عرف في الصحراء مثيلاتها. كانت سمراء، بعينين كحلاوين كبيرتين، مرحة، ترفع عقيرتها بألحان «المرزكاوي» كلّما غابت سيدتها عن البيت. تغنّي وهي تتنقّل بين ديار البيت. تتنقّل عندما تعمل. أو تتظاهر بأنها تعمل. لأنه كثيراً ما اكتشف أنها لم تحرّك ساكناً في أي زاوية من زوايا أي دار من ديار البيت الكثيرة لا في الطابق الأرضي ولا في الطابق العلوي. وما أدهشه أكثر أن حلّومة لم تكتشف ذلك. بل لا تكتشف ذلك أبداً.

ربّما لأنها مهمومة بشؤون أخرى. حلّومة دائماً مهمومة. حلّومة مهمومة بالأضياف الذين لا ينقطعون عن زيارتها كل ليلة. كل ليلتين إن لم يكن كل ليلة. تأتي المرأة التي تنهمك في إعداد الأطعمة، ثم تأتي المغنية، وعازف المزمار، وصاحب الطبل، قبل أن يبدأ الأضياف في الوصول. قبل أن يقبل الأكابر بطرابيشهم المهيبة، وعماماتهم البيضاء، ومنسآتهم أو سيوفهم أو عكاكيزهم، كأن هؤلاء الرجال لا بد أن يحملوا شيئاً مّا في أيديهم.

ولكن مسعودة فتاة لعوب لا لأنه عرف مثيلاتها عندما عاش في الصحراء، ولكن لأنه رآها تتهامس في الزوايا المظلمة مع الرجال مراراً. لا تتهامس فحسب ولكنها تطلق آهات مشبوهة في تلك الأركان المظلمة عندما يحمى وطيس الغناء، ويترنّح الرجال مع إيقاع الطبول يمنةً ويسرةً وهم يتجرعون سوائل مريبة في كؤوس جميلة ويردّدون وراء المغنية الألحان.

والحقّ أن الشقية لا تتهامس مع الرجال، ولكن مع خدم الرجال. مع تلك الظلال التي تصاحب الرجال. بل رآها تفعل ذلك مع بعضهم حتّى في وضح النهار عندما تتغيّب مولاتها عن البيت. رآها هو ولكن لم تره هي. لم تره هي لأنه وجد ركناً حصيناً في هذا البيت التجأ إليه منذ أول يوم. التجأ إليه ليفرّ من هرج هذا البيت. التجأ إليه ليخلو إلى أرنبه الصغير. فقد أهدت له حلّومة هذا الأرنب منذ الأيام الأولى. ربما لأنها أرادت أن تهدي له التسلية. وربما لأنها أرادت أن تعزّيه في غربته. تعزيه في عزلته. وربّما لأنها أرادت أن تكون عند حسن ظنّ الباشا. وربما لتخلو هي إلى نفسها وإلى أضيافها الكثيرين.

كان أرنباً ناصعاً كالحليب، صغيراً كأنه وُلد للتوّ. يطلق أصواتاً كغناء الطير. وديعاً كقطرة ندى. ولكنه برغم كل هذه الخصال كان أرنباً مشؤوماً ككل أرنب. مشؤوم لأن كل الأرانب مشؤومة. هذا ما قالته له أمّه يوم خرج إلى المرعى لأول مرّة فوجد أرنباً وليداً نائماً تحت حجر. هجم عليه وأخذه من أذنيه وعاد به إلى البيت. ولكن الأم أصابها من رؤيته الفزع حتى كاد يغمى عليها. قالت إن ذِكْر الأرنب شؤم، ولمسها شؤم، ونيلها شؤم، وأكل لحمها شؤم، وإدخالها إلى البيوت مصيبة أكبر من كل الكبائر. وعندما استفهم عن السبب قالت له إن الأرنب ليست أرنباً ولكنها حيّة تتنكّر في جلد أرنب، وإذا لم تكن حيّة فهي جحش فظيع يخفي في جلده الشيطان «وانتهيط» الذي ضلّل الأمم وأضاع الأجيال. وبرغم أنه لم يصدّق إلاّ أن نبوءة الأم ما لبثت أن تحقّقت. فقد وضع رجله في موقد النار فحرق الجمر قدمه اليمنى حروقاً بليغة. وقطعت الأم إصبع رجلها بالفأس عندما كانت تنهمك في كسر الحطب في الليلة نفسها. أمّا الأب فقد لدغته عقرب في الخلاء وعاد إلى البيت محمولاً على أعناق الرجال وهو يهذي. ولم تمضِ أيام أخرى حتّى أقبل على النجوع الغزاة وحرقوا الأرض بالحديد والنار. فكيف يشك بعدها في نحوس هذا الحيوان الوديع؟

كان يذهب إلى الطابق العلوي، وينفذ من هناك إلى درجات تقود إلى السطوح ليمكث في ركنٍ معتم كانت الخالة حلّومة تحشوه ببعض الألبسة البائدة والأحذية القديمة وأشياء أخرى فاتخذه زاوية يختلي فيها مع أرنبه المشؤوم. وقد راقته قدرة هذا المخلوق على

حبك اللعنات إلى حدّ أطلق فيه اسم «المشؤوم» على صديقه الجديد. من هناك كان يراقب الفناء الأرضي الذي يتوسّط البيت وينقلب كل ليلة ساحةً تضجّ بالطرب ويترنّح فيها الأكابر. اليوم أيضاً اعتصم بركنه الحميم محتضناً صديقه «المشؤوم» حتّى غفا. وعندما استيقظ وجد أن حلّومة قد عادت إلى البيت. رآها من مكمنه في الأعالي وهي تضع قدميها في وعاء مغمور بالماء وتترنّم بلحن حزين كأنه النواح. سكتت وهي تنهمك في تدليك قدميها، ثم سمعها تولول بأغنيتها الغريبة مرّة أخرى. تحسّس الأرنب فوجده نائماً إلى جواره، بدنه كلّه ينبض. بدنه كلّه يستجيب لنبضات قلبه فيعلو ويهبط على نحوٍ ذكّره بأرنب البرّ الذي جلب التهلكة للقبيلة يوماً. أنصت لوجيب قلب الأرنب فذهب بعيداً. لم يدرِ كيف غفا من جديد، ولا متى غفا، ولكنه كان على يقين أن أمراً كان قد أيقظه. ربّما كان ذلك كابوساً، أو رعداً، أو ضجيجاً. تطلّع إلى الأسفل من كوّة الركن فوجد أن المساء قد حلّ، لأن العتمة كانت قد استولت على البهو في الأسفل.

همّ بأن يلتفت إلى «المشؤوم» ولكنه توقّف. في الأسفل تبيّن حلومة جالسةً على كرسيها ورأسها مشيّع إلى أعلى كأنها غرقت في نومة.

ولكن.. ولكن وعاء الماء كان مقلوباً عند قدميها، وماء الوعاء يغمر بلاط الفناء. راقبها لحظات ولكنها لم تتحرّك. بعد قليل لاحظ أن ثوبها انحسر عن صدرها على نحوٍ مريب. لاحظ ذلك برغم العتمة. بعد قليل سمع جلبةً في الدار المجاورة للفناء. سمع صوت

سقوط قطعة أثاث، أو ربّما صندوق، على الأرض. بعدها أبصر شبحاً يمرق من باب الدار ويمرّ بجوار حلّومة ليختفي في الرواق المؤدي إلى الباب الخارجي. همّ بأن يخرج من مأواه ولكن مرأى الشبح استوقفه. فقد عاد الشبح على عقبيه. تقدّم نحو حلّومة الممدّدة على الكرسي لينتزع من رقبتها شيئاً. انتزع عقد الذهب لأن المعدن لمع بوميض رغم هجوم العتمة. ولكن العقد سقط على الأرض فانحنى الرجل ليلتقطه فلمح يده المقطوعة بوضوح. إنه الرجل الأكتع. الرجل الذي رآه مراراً. الرجل الذي يروقه أن يتهامس مع مسعودة كل مرّة يأتي فيها إلى البيت برفقة أحد الأكابر. كان رمادي اللون، مارد القامة، ولكنه معطوب من يده اليمنى.

اختفى الرجل فنزل إلى الأسفل. ترك «المشؤوم» ونزل على أصابع قدميه. تنصّت في كل خطوة وهو ينزل عتبات السلّم. أدرك البهو أخيراً. تقدّم نحو حلّومة. كانت تستلقي على الكرسي إلى الوراء، تحدّق في السماء بعينين جاحظتين، بعينين ناطقتين بالفزع. حول رقبتها طوق أزرق كأنه عقد مريب!

12

مَثُل بين يديه رئيس الديوان. وقف في المدخل منتظراً أن يأذن له، أو متظاهراً بانتظار الإذن، لأن الإذن بالدخول عليه ما هو إلاّ الإذن بالمثول بين يديه. ولكن رئيس الديوان كان الرجل الوحيد في البلاط الذي ابتدع فرقاً بينهما لا ليضيف بدعة جديدة إلى المراسم السارية، ولكن ليقينه بأن الدخول على وليّ الأمر ما هو إلا مرحلة.

أما المثول بين يديه فيستوجب التأكد من استعداد آخر في نفس

السلطان يختلف عن إذن الاستقبال. فقد تعلّم هذا الداهية (الذي كان أحد رفاق القرمانلي في سلاح الفرسان) من سِيَر الأوائل أن الإقبال على صاحب الأمر خطر. والأخطر من الإقبال عليه هو إطلاق العنان لعضلة اللسان قبل جسّ النبض والتأكد من عافية ما يلقّب باسم «المزاج».

فقد سمع رواية تقول إن أحد أعوان يوليوس قيصر دفع حياته ثمناً لمجازفة مثيلة لأنه دخل على القائد الروماني في اللحظات التي كان يعاند فيها داء السويداء، برغم أن الشقيّ لم يطلب الإذن بالدخول عليه ليحاججه في مسألة تستحقّ الجدل وإنما ليطرح عليه سؤالاً.

أمّا سيرة الإسكندر الأكبر الذي اغتال أعزّ خلاّنه في لحظة غمّ مفاجئة فهي على كل لسان. سيرة أخرى تُروى عن كسرى كانت لهذا الداهية درساً. لأن السويداء (التي كانت دوماً علّة من نصيب سادة الدنيا) صارت في حياة هذا الملك معبودةً اقتطع لها يوماً سمّاه «اليوم الأسود» إذا أقبل عليه مخلوق في مثل هذا اليوم المشؤوم قتله. وقد أقبل عليه في مثل هذا اليوم شاعر مشهور من شعراء العرب ليمدحه بملحمة قضى في نظمها العمر كلّه؛ لأنه أراد لها أن تكون غنيمة العمر كله. ولم يكن المسكين يدري أنها ستصير له بليّة العمر الأخيرة بدل الغنيمة. أمّا «درغوت الرهيب» كما كان يلقّبه الدهماء فقد ألقى بأحد أعوانه في اليمّ لأنه بادره بالعبارة في لحظة تقشعر فيها الأبدان من سماع العبارة.

ولهذا السبب آلى على نفسه ألاّ يبتدر وليّ الأمر بكلمٍ ما لم يتيقّن من صفاء قلب ولي الأمر. وقد وقف في المدخل في صبيحة ذلك

اليوم ليستطلع أيضاً، ويبدو أن القرمانلي كان قد قرأ أفكاره منذ زمن بعيد، لأنه كان يبتسم له ابتسامة ذات معنى كلّما تباطأ في المدخل كأن لسان حاله يقول: «تشجّع، عليك الأمان!». وقد قرأ هذه العبارة نفسها في عينيه في ذلك اليوم فتشجّع وتقدّم ليقول مستنصراً بنيْل الأمان:

ـ البارحة وقعت جريمة!

حدجه القرمانلي مستفهماً، فتمهّل قليلاً قبل أن يضيف بعبارة قاطعة:

ـ حلّومة العلجيّة!

تبدّى في عيني الباشا قلق، ولكنه تمالك نفسه كما اعتاد دوماً وتشبّث بالصمت فقرّر رئيس الديوان أن يستنزل الطمأنينة في قلبه قبل أن تذهب به الظنون أبعد مما ينبغي:

ـ ولكن الطفل لم يصبه مكروه!

ولكن سيماء الباشا لم تتبدّل بسبب البشارة. كان يوجّه بصره نحو رئيس الديوان دون أن يراه، لأن حريّةً مدهشة يسمّيها البلهاء بحراً كانت تتراءى خلف ظهر جليسه سمحاء، خاليةً، عميقة، لا مبالية، خالدةً كأنها حكمة الربّ مجسّدةً.

قال رئيس الديوان:

ـ ظننّا في البداية أن الجريمة كانت بدافع السطو، ولكن البراهين ما لبثت أن كذّبتنا!

استفهم الباشا بإيماءة دون أنْ يعود من رحلة البحر فأوضح رئيس الديوان:

ـ الولد!

لم يستفهم الباشا فأضاف الداهية:

ـ إفادة الطفل قادتنا إلى الفاعل!

زفر الباشا فأدرك رئيس الديوان أنه بالغ كثيراً في دفع المعلومات لمولاه بهذا التقسيط الشحيح فاستشعر الخطر بحاسّة لا تخطىء. في مثل هذه الأحوال يستوجب الأمر دفع الدّيْن دفعة واحدة:

ـ الولد أفاد بأن الفاعل رجل أكتع رآه برفقة وجهاء الإيالة الذين يترددون على حلّومة مراراً، وقد كشفت تحريّات الشُّرط أن الرجل لم يكن سوى أحد خدم المكنّي!

عاد الباشا من رحلة البحر فجأة. سدّد لرئيس الديوان نظرة استفهام، وربما استنكار، وربما استيضاح، ففهمها الداهية على الفور فما كان منه إلا أن أوضح مستدركاً:

ـ عليّ المكنيّ يا مولاي!

فتساءل الباشا لأوّل مرّة:

ـ ولكن أين الخدم؟ أين عيون الجواسيس التي تدّعون أنها لا تنام؟

ـ غابت خادمة حلّومة خارج البيت بسبب مرض ألمّ بجدّتها. أمّا عيون الجواسيس فقد غفَت يا مولاي بسبب حجّة تقول إن الأوامر الصادرة إليها لم تنصّ على حماية البيت بالعسس، ولكنها تنحصر في مراقبة البيت عن بعد!

ـ البلهاء!

ـ اتضح أيضاً أن غياب الخادمة كان أمراً مدبّراً لأن التحريّات أثبتت أنها لم تكن سوى عشيقة خادم المكنّي الأكتع!

تمتم الباشا بصوت مهموس بكلمة «مفهوم» قبل أن يصدر حكمه:

ـ جرّوا الأخوين إلى ساحة القضاء لأن الجرم مدبّر من كليهما، والحيثيات: الثأر من أمير المؤمنين بسبب مرسومه القاضي بعزل يوسف من منصب رئاسة البحرية!

ثم فزّ واقفاً. خطا نحو فراغ النافذة المؤدّي إلى رحاب البحر. سلّم نفسه للمدى الأزرق الخالد قبل أن يضيف:

ـ القاتل لا يقتل فحسب، ولكن لا بدّ أن يتضمّن الحكم مصادرة أمواله أيضاً.

خطا رئيس الديوان خارجاً، ولكن الباشا استوقفه ليضيف للحكم حكماً آخر:

ـ لا تنسوا أيضاً أن تلحقوا الطفل بالقصر، لأني لا أنوي أن أثق في تدابيركم بعد اليوم!

13

جاءه مرابط الصحراء شفيعاً. قال إنه لم يأتِ لطلب الرحمة للأخوين المكنّي، ولكن لإحقاق عدالة ستكون على رأسه هو، كوليّ أمر، تاجاً قبل أن تصير لآل المكّني حياةً. فأجابه بأن أمر الشقيين بيد القضاء وليس بيده هو. ولكن الحجّة لم تقنع رجلاً كاهناً وفوق ذلك داهية علّمته الصحّراء ألاّ يثق بأحد، بل علّمته ألاّ يثق بشيء على الإطلاق. فما كان منه إلاّ أن احتكم إلى شرائع السماء

بعد أن يئس من شرائع الأرض. قال إنه ليس ممّا يجلب الصيت لصاحب الحكم أن يأخذ أحدهما بجريرة ثانيهما، فإذا كان أحدهما مذنباً فلا بدّ أن يكون ثانيهما بريئاً.

تابعه ببرود. وعندما سكت قال له:

ـ أعلمُ أن عليّا المكّني جَدّ ذريّتك، ويوسف عمّ امرأتك. كما أعلم أن الإنسان لا يضيره أن ينصر أخاه ظالماً، فكيف إذا ظنّه مظلوماً؟ ولكن ما يضير الحكيم حقّاً هو أن ينسى أن عدوّ الإنسان الأوّل الذريّة، وعدوّ الإنسان الثاني أمواله. أم أنّك نسيت الآية الكريمة؟ من حقّك أن تستشهد بالفرقان فتقول: «ولا تزر وازرة وزر أخرى»، ومن حقّي أن أحتكم إلى العروة ذاتها فأستشهد بالآية التي تتحدّث عن الأموال والأولاد كأعدى أعداء الإنسان!

سكت. طاف ببصره بعيداً. أضاف:

ـ الأولاد عدوّك أنت، أمّا الأموال فهي عدوّ علي المكّني! الأولاد عدوّك أنت لأنهم جرّدوك من حكمتك برغم فطنتك فأتيتني لتترافع عن إنسانٍ أجرم في حقّ نفسه قبل أن يجرم في حقّ غيره، كما جرّد المال المكّني من الإيمان فاستكبر وكفر بوصيّة ربّ الناس التي أوصت الناس بأن يطيعوا أولي الأمر منهم!

همّ «آهر» بأن يوضح، ولكن الباشا قاطعه دون أن يلتفت إليه:

ـ عليّ المكّني لم يرتكب خطأ واحداً، ولكنه أخطأ مرّتين حتى قبل أن يتورّط في تلك الجريمة البشعة. أخطأ في البداية يوم سمح للأموال أن تمتلكه بدل أن يمتلك هو الأموال، فظنّ أن ما ملكت يداه كلّه بلا جدوى إن لم يمتلك بما امتلك سلطاناً على الناس.

ونسي أن السلطان لا يشرك بسلطانه أحداً. ولم يكتفِ بذلك ولكنه ذهب يتباهى بين الناس بأفضاله على السلطان ناسياً أن السلطان لا يملك أمواله وحدها، ولكنه يملكه هو أيضاً. هذا ناموس قديم قدم الخليقة، ولم يكن يوماً بدعة من بدع القرمانلي! فكيف تريد أن أغفر لإنسانٍ أهان طبيعة مدسوسة في دم الإنسان منذ خلق الإنسان دون أن أزلزل بهذا العمل أركان العُرف الذي تقوم عليه الحياة الدنيا؟

سكت، ثم استدرك:

ـ ثمّ إن الأمر صار بيد القضاء كما تعلم ولم يعد بيدي!

حدج المرابط خلسةً فلم تقل له نظرته شيئاً. كان الرجل غائباً، ملفوف الوجه باللثام، وملفوف العينين بالغموض. يحدّق في الفراغ هامداً كأنه استغنى عن الأنفاس أيضاً إلى جانب الإيماء. كأنه استغنى عن الحركة أيضاً إلى جانب الأنفاس. كأنه استغنى عن الحياة إلى جانب الحجّة. ولا يعرف لماذا أيقظت فيه هذه الغيبة إحساساً بالشفقة. أيقظت فيه ذلك الإحساس الذي كرهه في نفسه دوماً كما كرهه في الأغيار. كرهه ليقينه بأنه مميت، بل لأنه مهين.

فالشفقة التي نستشعرها إزاء إنسان أحاقت به بليّة ليقيننا بأنّنا أيضاً مخلوقات بإمكاننا أن نكون ضحية من ضحايا تلك البليّة، هذه الشفقة ليست شفقة ولكنها صفقة تجارية مهينة. أمّا الشفقة الأخرى التي ندرك فيها بأننا ملّة فانية جئنا إلى هذه الدنيا لنصير عزاء لبعضنا البعض في محنة لم نخترها، وبأننا كلنا لسنا في الحقيقة سوى قرابين مؤجّلة، فتلك شفقة أنبل برغم أنها كثيراً ما تقودنا إلى التهلكة. ويبدو أن هذا الضرب من الشفقة كان من القوة بحيث وجد نفسه

يهرع لنجدة صاحب البلية برغم الخطر الذي يكمن في هذه النجدة. فقد هبّ فجأة وقرع ناقوساً صغيراً فدخل الحاجب. صاح في وجهه:

ـ إليّ برئيس الديوان!

غاب الحاجب، ودخل رئيس الديوان بقامته القصيرة ونظرته الماكرة. وقف بالباب كعادته منتظراً إذن الباشا بالمثول بين يديه. أومأ له فتقدّم خطوات، ولكن الباشا لم ينتظر وصوله فصاح به:

ـ أرسل مبعوثاً إلى السجون لإيقاف تنفيذ الحكم الصادر بحقّ الأخوين المكّني!

ولكن رئيس الديوان لم يتحرّك لتنفيذ أوامر مولاه، بل وقف مطأطىء الرأس، في عينيه الماكرتين لمع إيماء غريب فانتهره الباشا بسؤال صارم:

ـ ماذا تنتظر؟

أجاب رئيس الديوان وهو يجاهد لإخفاء نظرة المكر في مقلتيه:

ـ أخشى أن الأوان قد فات يا مولاي!

ـ ماذا؟

ـ لقد تمّ تنفيذ الحكم فجر هذا اليوم يا مولاي!

14

وصل الرسول في يومٍ غيّب فيه الغيم ضياء النهار فتبدّت الحاضرة غارقةً في غيهبٍ كأنه المغيب. أذِنَ الباشا للرسول بالدخول، ولكنه لم يمكث بالداخل طويلاً. لأنّ هرجاً في البلاط علا فدبّ الأعوان وأفراد الحاشية هنا وهناك. ولم يمضِ وقت طويل

حتّى توافد أعضاء الديوان على القصر استجابةً لنداء أمير المؤمنين.

اكتمل النصاب فانعقد الديوان. لوّح الباشا بيده في الهواء مشيراً للرسول فوقف رجل نحيل في العقد الرابع أو الخامس من العمر وشرع في قراءة خطاب مدوّنٍ في كاغدٍ أصفر اللون، ملوّث ببقع الدهون، ممزّق في طرفه السفلي:

«من أسرى معتقل «شيفيتا فيشيا» بأرض النصارى إلى أمير المؤمنين أحمد باشا القرمانلي أعزّه الله بنصره، ومتّعه بعافيته، وأدامه خليفةً له في أرضه ليكون عوناً لملل المسلمين وسائر المستضعفين. أمّا بعد:

فإننا أعلم الناس بأن الحياة الدنيا ما هي إلاّ ساحة حرب. والحرب ما هي إلاّ كرّ اليوم وفرّ غداً. والاطمئنان إلى جانبها من شيم أهل الغفلة وحدهم وإخوانهم من ذوي الجهالة. والإنسان الذي خرج للحجّ إلى بيت الله، كما هو حالنا، ما هو في الحقّ سوى صاحب جهاد في سبيل الله. وصاحب الجهاد زاهد منذ نوى زيارة البيت، فهو لهذا باذل لروحه منذ أوّل يوم. وكم كنّا نتمنّى جميعاً أن تدركنا المنيّة في رحاب بيته فنكون شهداء في قافلة سلالة سيدنا إبراهيم بدل الوقوع أسرى في يد النصارى الذين لم يتمكّنوا منّا في حرب ليجعلونا غنيمةً، ولكنهم استولوا على مركبنا وقلوبنا خاشعة، وأجسادنا حارمة، وأرواحنا غائبة في رحاب المولى ونحن في طريق عودتنا، فلم يكتفوا بهذا الجرم الذي حرّمته ديانتهم أيضاً في زمانٍ سبق ديانتنا، كما يقولون، ولكنهم أذاقونا طعوم الويل: فقد أدْموا أرجلنا بالفلقة التي ادّعوا أنهم آستعاروها من معاجم التعذيب في ديار المسلمين، وبلغ بهم الحقد حدّاً دفعهم لأن يهجموا على شيخنا

الجليل سعيد الدامومي قاضي القضاة ومفتي الديار، فحلقوا لحيته بعد أن أشبعوه ضرباً. . .».

لوّح الباشا بيده في وجه الرسول وصاح بغضب:

ـ يكفي!

فانقطع صوت الرسول في الحال، فعلت صيحات الاحتجاج. تكلّم الأعضاء دفعةً واحدة فعمّت الضوضاء. وبلغ الانفعال ببعضهم حدّاً جعلهم يهبّون وهم يتلقّفون مقابض سيوفهم كأنّهم يتأهبون لمقاتلة عدوّ لا وجود له بينهم.

أوقفهم الباشا بإشارة، ولكن همهمات السّخط لم تتوقّف.

تكلّم الباشا فقال:

ـ سمعت منكم صوت الإحساس، والآن أريدكم أن تسمعوني صوت العقل!

هبّ سليل المنشية:

ـ لا يجب أن نسكت على هذه الإهانة حتى لو فنينا عن بكرة أبينا!

صاح سليل تاجوراء:

ـ هذه ليست إهانة. هذا إعلان حرب!

تمتم صوت مجهول من بينهم:

ـ هل استضعفونا إلى حدّ سوّلت لهم نفوسهم أن يعتدوا على حجيج في طريق عودته من بيت الله؟

صرخ آخر:

ـ لا نريد مفاوضتهم، يا مولانا، بعد اليوم، بل محاربتهم!

ولكن الباشا كان يفكّر برغم أنه يغلي. وعندما انتهى من التفكير أصدر أمراً بإلقاء القبض على رهبان إرسالية النصارى وتكبيلهم بالسلاسل واقتيادهم إلى الأقبية.

وقد هبّ واقفاً في نيّة للإشراف على هذه العملية بنفسه. وبالفعل شهدت طرابلس في ذلك اليوم الكئيب استعراضاً فريداً. فقد اقتيد الرهبان في صف طويل مقيّدي الأرجل والأيدي بسلاسل حديدية فظيعة وسط صفوف الطرابلسيين الذين رجموهم بالحجارة، ونكثوا في وجوههم تراباً، وبصقوا في وجوه هؤلاء البؤساء. وبلغ الجنون بأحدهم أن قفز إلى طابور الأشقياء وانتهش بأسنانه أذن أحد الرهبان. بصقها أرضاً وهو يقول بفم ملوّث بالدّم:

ـ هذه مقابل لحية القاضي يا كفرة!

أمّا الباشا فلم يكتفِ يومها بهذا التدبير، ولكنه أقفل أبواب الكنيسة وختم على أبوابها بالشمع الأحمر قبل أن يوقف عليها عسساً. ثم ذهب شوطاً أبعد فأمر بإغلاق أبواب المستوصف التابع لتلك الإرسالية أيضاً. وقيل إنه ذهب بعدها ليخلد للراحة، ولكن الحاجب وقف على رأسه كالشبح ليعلن وصول قنصل فرنسا للمثول بين يديه. نهض وهو يسبّ في سرّه كل قناصل الدنيا، ثم تمطّى بإعياء وهو يقول:

ـ قنصل فرنسا هذا هو صداعي الدائم!

وعندما حاول الحاجب أن يهوّن عليه قائلاً إن عليه أن يكاتب صديقه ملك فرنسا بشأنه إذا كان يريد أن يتخلّص منه. أجابه بجفاء:

ـ عدوّ نعرفه أهون من عدوّ نجهله إذا تعلّق الأمر بشؤون العاجلة. أمّا إذا تعلّق الأمر بشؤون الآجلة فإن من لم نعرف أفضل ممن عرفنا!

خرج الحاجب فدخل القنصل.

كان شاحباً، مبلبلاً، أشعث الشعر، في عينيه بلبال لم يحاول إخفاءه حتى إنه لم يجلس على الأريكة، ولكنه تكلّم واقفاً بلهجة من حاقت به بليّة:

ـ لم يضع الباشا قيود الحديد في رقاب هؤلاء الأبرياء اليوم، ولكنه وضع القيد في رقبتي أنا، قنصل فرنسا ورسول صاحب الجلالة لدى الإيالة!

استفهم الباشا بإيماءة فأضاف القنصل:

ـ لقد نسي سعادة الباشا أن هؤلاء الرهبان هم أعضاء في إرسالية مشمولة برعاية ملك فرنسا، ويقيمون في دياركم بموجب بنود اتفاقية موقّعة بين بلدينا!

ـ يروقكم أن تتحدّثوا عن الاتفاقيات باللسان، ولكنكم عوّدتمونا بأنكم أوّل من يخون العهود بالأفعال!

ـ خيانة العهود تهمة شنيعة يا سعادة الباشا!

ـ لا أنكر أن الظروف كثيراً ما اضطرّتنا لخرق الاتفاقيات معكم، ولكن إذا كنّا نحن نخرق الاتفاقيات فأنتم من خان العهود الإلهية لا البشرية، وإلا ما معنى أن يُختطف مركب يقلّ حجيجاً إلى بيت الله، ويسجن الأبرياء، ويعاملوا معاملة أسرى حرب؟

ـ لا يجب أن نأخذ الدول بآثام الحمقى وقراصنة البحار يا سعادة الباشا؟

ـ هذا ما تقولونه دائماً عندما يتعلّق الأمر بخطاياكم في حقّنا. أمّا إذا قام قراصنة من بلادنا بارتكاب حماقات من الصنف الذي ذكرته منذ قليل فإنكم لا تتسامحون، ولا تكتفون بالاحتجاج، ولكنكم تهرعون إلى البوارج، وتنصبون المدافع، وتقبلون علينا لتدكّوا حصوننا وتحصدو الأبرياء بألوف الألوف دون أن يرفّ لكم جفن. أم أنك لست أنت من هرع إليّ منذ أشهر ليهدّد باسم ملك فرنسا عقب اختطاف مركب بائس من قبل أحد بحّارتنا؟

سكت لحظة. التقط أنفاساً. أكمل:

ـ البحر كالبرّ دائماً ساحة حرب. فإذا كنّا لا نستطيع أن نسيطر على البرية بالقوانين دائماً بسبب أهواء الخلق الظامئين إلى المغامرة وقطع الطرق، فإننا لا نستطيع أن نمنع هذا الشطط في البحر أيضاً برغم وجود القوانين وسريان الاتفاقيات التي تتحدّث عنها. ولكنّنا كثيراً ما نتغاضى عن مثل هذه الأعمال إدراكاً منّا لحقيقة البحر التي لا تختلف عن أيّ برّ من براري هذه الدنيا. أمّا أنتم فإنكم لا تغفرون أدنى خطأ، وتسيئون بنا الظنون إلى حدّ تعاملوننا فيه كأننا أمّة من قطاع الطرق في البرّ والقراصنة في البحر. فهل هذا في ناموسك عدل؟ أم أنّك لا تريد أن تعترف بالسبب الذي يدفعكم إلى اعتناق هذا العرف الظالم؟

لم يجب القنصل فأجاب الباشا:

ـ السرّ هو القوّة! أنتم تدينون بدين القوّة لا بدين عيسى ابن مريم! ودين القوّة هو دين الشيطان لا دين الله. وهو إلى جانب كونه دين غطرسة وطغيان فهو أيضاً دين عماء. بلى، بلى. هو دين عماء.

ولهذا السبب لا تستطيعون أن تروا إلاّ ما تريدون رؤيته، ولا تستطيعون أن تعترفوا إلاّ بما ترونه جالباً للنفع. دين القوّة هو دين الأنانية لا دين العدالة!

تمشّى القنصل لكتم أنفاس الانفعال فاقترح الباشا ساخراً:

ـ يحسن بك أن تجلس!

قال القنصل:

ـ عسير يا سعادة الباشا أن أجلس ما دام الرهبان الأبرياء يقبعون في السجون!

ـ هل تريدني أن أقضي ليلتي واقفاً أيضاً تعاطفاً مع أسرانا الذين يقبعون في سجونكم؟

ـ لا يقبع أسراكم في سجوننا يا سعادة الباشا!

ـ اعترف أن رهبان الإرسالية تحت حماية القنصلية الفرنسية وكذلك المؤسسات التابعة لها، ولكن هل تنكر أنت أن هؤلاء الرهبان ليسوا فرنسيين ولكنهم من بلدان مختلفة نصيب الأسد منهم إنّما ينتمي إلى تلك البلاد من بلدان النصارى التي اعتقلت حجّاج بلادنا لتسومهم أجناس العذاب؟ فإذا كان رهبانكم أبرياء، فإن حجّاجنا أبرياء وفوق ذلك حجّاج. أم أنك لا تريد أن تعترف بالمعنى الذي تعنيه كلمة «حاجّ» في لسان أمتكم التي تستخدم الكلمة نفسها عندما تهاجر لزيارة الأراضي المقدّسة في فلسطين كل عام؟

لم يجب القنصل فكرّر الباشا:

ـ يحسن بك أن تجلس!

ولكن القنصل قال بعناد طفولي:

ـ لن أجلس حتى تطلق سراح الرهبان أو تعتقلني بدلاً منهم!

على شفتي الباشا تبدّت بسمة ساخرة. قال:

ـ وماذا ستفعل إذا لم أستجب إلى طلبك؟

أجاب القنصل دون أن يتوقّف عن الخطو:

ـ سأبيت ليلتي هنا! سأبيت ليلتي واقفاً على قدمين!

أطلق الباشا ضحكة عصبية، فتكلّم القنصل:

ـ فليعلم الباشا أنّي لا أفعل ما أفعل حرصاً على مصالح فرنسا في إيّالتكم فحسب، ولكن حرصاً على مصالح الإيالة في فرنسا أيضاً. أنا يا سعادة الباشا لست قنصلاً لفرنسا لديكم وحسب، ولكني قنصل لبلادكم في بلادي أيضاً. هذا يعني أنّي لن أفعل ما يجلب الضرر لفرنسا أو يسيء لها في بلادكم وحسب، ولكني يجب أن أعمل كل ما بوسعي كي أمنع ما يمكن أن يجلب الضرر لبلادكم في بلادي أو يسيء لها بأي حال. وما تفعله أنت اليوم بهؤلاء الرهبان إنّما يسيء لبلادكم في بلادي قبل أن يسيء لمصالح بلادي في بلادكم، فلا تترك سورة غضب تدمّر في غمضة ما بنيناه بعون حكمتكم في أعوام!

كان القرمانلي يتابعه بعينين مطفأتين. ويبدو أن الإعياء قد نال منه فاسترخى قليلاً. قال أخيراً:

ـ فلنحتكم إلى ساحة العقل!

ردّد القنصل:

ـ أجل. فلنحتكم إلى ساحة العقل!

ـ أطلق سراح الرهبان، ولكن بشرط!

ـ ما هو هذا الشرط؟

ـ تكتب أنت بالمقابل خطاباً عاجلاً إلى السلطات في روما لإطلاق سراح الحجيج!

سكت القنصل، ولكنه ما لبث أن ابتسم. قال:

ـ هذه صفقة!

تقدّم من الباشا خطوة، ثم جلس قبالته على الأريكة:

ـ يروقني دائماً، يا سعادة الباشا، أن أبرم الصفقة ليقيني بأن الحياة برمّتها ما هي إلاّ صفقة!

15

من الأَستانة وصل رسول آخر.

وصل في يوم عاصف ارتفعت فيه سحب الغبار في سماء الحاضرة حتّى حجبت الشمس، ثم بدأت ترجم المدينة بحبيبات الحصباء وأمطار الرمل فأخلت الشوارع من السابلة، وأجبرت حتى الباعة على الفرار من الأسواق. فقد اعتاد أهل الساحل حملات الكرّ والفرّ المتبادلة بين رياح الصحراء الجنوبية التي أطلقوا عليها اسم «القِبْلي»، وبين رياح الشمال المحمّلة بالغيث التي أطلقوا عليها اسم «البحري»، فلا يدوم النصر في هذه الغزوات الباسلة لأي طرف. ففي المواسم الشتوية غالباً ما تكون الغلبة لرياح الشمال التي تجلب إلى الشطآن أمطاراً سخية في بعض الأحيان، ولكنها برغم غزارتها لا

تجتاز حدود الساحل كأنها مكبّلة بقيودٍ خفية أو تلتزم بعهد ربوبيّ قديم. أمّا في مواسم الصيف فإن رياح الجنوب هي التي تسود فلا تكتفي بالاستيلاء على المناطق الساحلية، ولكنها تجتاح البحر لتغرق السفن، وتعبر إلى الشطآن الأخرى لتحمل الدفء إلى أوطان النصارى ممزوجةً بحبّات الغبار التي تذرّ الرمال في عيون أهل تلك البلدان.

أمّا في فصلي الربيع والخريف فلا غلبة تدوم لأيّ منهما برغم أنّهما يستمرّان في تبادل الغزوات باستبسال منقطع النظير. ولكن أنفاس الغزوات في هذين الفصلين قصيرة عادةً فلا تلبث أن تنقشع لتعقبها هجمة شرسة من هجمات الريح الأخرى، دون أن يدري أحد سرّ هذا العراك الخالد الذي لم يحدث أن كتبت فيه الأقدار نصراً أخيراً لأي طرف. ربما لأن كتابة النصر لأحد الطرفين هو إقرار بهزيمة أحدهما على حساب ثانيهما. وهزيمة أحدهما على حساب ثانيهما عمل من شأنه أن يصيب الكون بالخلل، لأن حكماء الأجيال كانوا قد أدركوا منذ القدم أن ناموس الحياة الدنيا لا يستقيم إلاّ بالعراك، وما حملات الكرّ والفرّ بين الريحين إلاّ البرهان الذي يؤكّد هذا الجدل.

وكان من سوء حظّ رسول الأستانة أن يصل في يوم كانت فيه الغلبة لريح الجنوب، التي كادت أن تحطّم مركبه عندما جنحت به العاصفة وألقت به نحو شطآن «ذات الرمال»، فأقبل على المدينة مصحوباً بعامل الباشا الذي تولّى أمر هذه البلدة، فدخل به أسوار القلعة مع حلول المساء بعد أن قضى ثلاثة أيام في الطريق وهو يعاند الزوابع المسمّمة بالغبار.

وبدل أن يبيت هذا الرسول ليلته ليلتقط أنفاسه من وعثاء سفر مميت رأى أن يباشر عمله على الفور، لا لأنه يفتقد الدهاء، ولكن لأنه أراد أن يبلغ الرسالة التي جاء من أجلها في أسرع وقت حتى يتمكّن من المغادرة في الحال فراراً من هذا الكابوس الذي لم يقرأ له حساباً ولم يخطر له على بال.

ويُروى أن ما حدث للرسول لم يكن سوى مكيدة دبّرها القرمانلي مستعيناً بمواهب صديقه «آهر». ذلك المخلوق القادم من الصحراء الذي يروق للأهالي أن يطلقوا عليه ألقاباً كثيرة مثل «الصيد»، أو «الكاهن» وحتّى «الساحر». ويُقال إن استدعاء الزوابع الصحراوية (التي يسمّيها أهل الصحراء «مطايا الجنّ») هو أيسر الفنون الملقّبة في علم السحر باسم «تسخير الريح» التي اعتاد هذا الداهية أن يمارسها منذ نزل المنشية في طريقه إلى الحجّ فاستبقاه المغدور علي المكنّي ليقدّم له ابنته هديةً. وهو عمل أيضاً لم يكن ليحدث دون معونة السحر.

أمّا النفع الذي أراد القرمانلي أن يجنيه من وراء إثارة الزوبعة في وجه رسول الباب العالي فهو، كما قيل، البلبلة! ذلك أن جواسيس الباشا كانوا قد أخطروه بنيّة السلطان في إرسال صاحب الدهاء المدعو «كاشوف» إلى ديار الإيّالة لحمله على الاقتصاص من الشاوش «محمد صولو»، الذي كان أوّل من سدّد الطعنة المميتة إلى صدر خليل باشا الأرناؤوطي. ولم يكن السلطان ليرسل بهذا المبعوث (الذي ذاع صيته كأدهى الرسل الذين اعتاد أن يوكل لهم القيام بأخطر المهام) بعد مضي كل هذه الأعوام على تلك الحادثة

لولا ضغوط أهل الأرناؤوطي، الذين لم يكتشفوا هذا الفصل من تلك المأساة إلاّ أخيراً وبمساعدة الذّمم التي اشتروها بالمال.

ويقال إن الباشا لم يكتفِ بتسليط عواصف الجنوب على سفينة رسول الباب العالي، ولكنه بعث لعامله على «ذات الرمال» لتولي أمر «كاشوف» هذا بإتمام المهمّة التي أنجزتها الريح فيما إذا خذله البحر ولم يُغرق الرسول الشقيّ. فما كان من العامل إلاّ أن أعدّ بغالاً بدل الجياد وأجلس المسكين في عربة يرجع تاريخ صنعها إلى عهود أسطورية موغلة في القدم، قبل أن ينطلق به في غيهب تلك العجاجة المدبّرة التي ظلّت تعوي في الخلوات الليل أيضاً إلى جانب النهار. فكان الرسول يتقيّأ طوال الطريق، ولم يملّ الشكوى من الصداع والغثيان وحتّى الأشباح. ويروي الأهالي، نقلاً عن عامل الباشا، أن الهوس بلغ بالرسول حدّاً لم يجد معه حرجاً في أن يسبّ السلاطين بعد الولاة وهو في ذروة الهذيان. ثم استشهد بآيات الفرقان فقال إن «الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّةً» قبل أن يطلق ضحكة جنونية ظلّت ترنّ طويلاً في أذن ذلك العامل.

والخلاصة أن الرسول دخل السراي في مساء اليوم الرابع لرحلته القاتلة وهو في أسوأ حال. فما كان من الباشا إلاّ أن هرع لاستقباله بالمراسم التي تليق بمن كان على شاكلته من الأكابر في نيّة مبيّتة لعقد الاجتماع. ويقال أيضاً إن الرسول كان صاحب المبادرة لأنه لا ينوي أن يقيم في هذه البلاد (التي نعتها باسم «جهنّم») ولا ليلة واحدة.

اختلى به الباشا في أحد أركان القصر فقال «كاشوف» دون تمهيد:

ـ مولانا قرّر أن يطوي صفحة سوداء في تاريخ علاقته مع هذه الإيّالة، فهل يسعدك أن تكون له معيناً؟

أجاب الباشا:

ـ لا يسعدني ذلك فحسب، ولكن رغبة الباب العالي دائماً شرف لأيّ منّا!

ـ لا أريد أن أطيل عليك ولا أريد أن أطيل على نفسي: إذن اقطع رأس الوغد «محمد صولو» في الحال!

ـ وهل يكلّف حضرة السلطان نفسه عناء إرسال رسول في مقام جليسي هذا إلى أبعد ركن من أركان الإمبراطورية الشاسعة طلباً لرأس شقيّ برتبة شاوش؟

ثمّ ضرب كفّاً بكفّ وهو يردّد: «آمان، آمان!» قبل أن يضيف:

ـ لو أوتيت علماً لأرسلت له رأسه مدسوساً في كيس!

ـ طعنة الغدر لا تُنسى. ثم لا تنسَ أن خليلاً الأرناؤوطي كان خليلاً من أصدق أخلاّء حضرة السلطان!

ـ لم تكن طعنة الغدر هي التي أودت بحياة الأرناؤوطي، ولكنها طعنة الفوضى!

سكت ثم أضاف:

ـ كانت البلاد ممزّقة إلى مئة حزب، ينهش جسدها الجفاف والجوع والحروب في الداخل وسيوف أعداء الخارج مسلّطة على رقبتها من البحر، والله وحده يعلم الثمن الذي دفعته طوال هذه السنين كي أعيد إلى ديارها الطمأنينة المفقودة!

ـ ما فرمان السلطان بتوليتك أمر الولاية إلاّ الاعتراف لك بالبطولة. ولكن. . .

مال «الكاشوف» نحو الباشا بحركة مفاجئة، وحدّق فيه بعينين حمراوين يقفز منهما الأرق والتعب والجنون قبل أن يقول:

ـ يقال إنّك قمت بالاستيلاء على حريمه أيضاً. ها. . ها. . ها. .

كتم ضحكته ليضيف:

ـ يقال إنها أجمل نساء الأرض!

ابتسم الباشا بغموض. قال:

ـ لا أستطيع أن أقول إنها أجمل نساء الأرض. ولكن يكفي أن أقول إنها امرأة، مجرّد امرأة!

مال نحوه الرسول مرة أخرى. تساءل:

ـ ماذا يمكن أن تعني هذه العبارة؟

ـ أردت أنّ أقول إنّ جمال المرأة ما هو إلاّ خزامة ذهب في فنطيسة خنزير كما يقول النصارى!

أطلق الرسول ضحكة عالية، ثم ابتلعها فجأة قبل أن يتساءل:

ـ هل يقول النصارى ذلك حقّاً؟ أصحاب مفاجآت هؤلاء النصارى، وعلينا أن نعترف لهم بالدهاء من حين لآخر!

تكلم الباشا:

ـ المرأة إلى جانب ذلك لم تكن سوى قصاص صاحب النصر قبل أن تكون له غنيمة!

ـ ها. . ها. . هذا حقّ. ولكن ألن يعني هذا أنها للمهزوم ما هي إلاّ الخلاص إذا كانت للمنتصر قصاصاً؟

ـ أوافق!

ـ ولكن ماذا يتبقّى من الجمال إذا دنّسه المخدع؟

ـ الدّنس قدر الجمال!

ـ ولكن دنس المخدع يأتي بالذريّة، والذريّة لهذا السبب أيضاً جمال!

ـ نستطيع أن نقول إن السلالة جمال الدنيا، أمّا الجمال فهو سلالة الخلود.

ـ ولكن دعنا من هذا الهراء وحدّثني عن السبيل الذي تريد أن تقتصّ به من «محمد صولو» فأنا في عجلة من أمري!

ـ هل تريد أن تحمل رأسه في كيس التبن أم في ماعون الذهب؟

ـ ها.. ها.. ها.. الحقّ أني لا أريد أن أحمل رأس أحد!

ـ هل تريد أن تحمل جثّته!

ـ أعوذ بالله!

ـ فهمت! أنت تريد أن تحمل في الجراب شيئاً آخر بدل رأس الشاوش!

ـ أحسنت!

ـ سأحرص أن تحمل ما يجب أن تحمله في الجراب، كما سأحرص أن تحمل لحضرة السلطان ما يليق بمعاليه أيضاً من حمولة!

ـ أحسنت مرّتين!

ـ ولكن لا بدّ من إتقان فصول الملهاة الضرورية لذرّ الرماد في

عيون الجواسيس من ناحية، ولإسكات أهل الفقيد الأرناؤوطي من ناحية أخرى!

ـ مرحى! مرحى! لقد ذهبتُ إلى كل أركان الأرض رسولاً لصاحب الجلالة: دخلتُ مع بطرس الأكبر في جدل وخرجت من المبارزة منتصراً لأني عدت لمولاي بالجزية، وحاججت ملك فرنسا ونجحت في تبديل بنود المعاهدة، وصفعت بيدي هذه داي الجزائر وخلعته من منصبه، ولكني لا بدّ أن أعترف أنك أدهى من قابلت لأني لم أجد في هؤلاء سوى البلادة برغم ما ينسجه عنهم البلهاء من أساطير!

ولكن القرمانلي لم يزد على أن قال:

ـ أنت لست في حاجة لأن تقول ذلك!

ثم قرع الناقوس بجواره فدخل الحاجب يتبعه رئيس الديوان. أومأ لهما فقال رئيس الديوان:

ـ كل شيء في انتظار مولاي!

نهض الباشا فنهض الضيف. سار به عبر أروقة القصر يتقدّمهما الحاجب ورئيس الديوان. نزلا عتبات السلم فانضمّ الحرس ولفيف الحاشية إلى الطابور. سارا عبر دهليز مضاء بالمشاعل من الجانبين. أفضى الدهليز إلى الميناء. هناك كان يقف عدد من الضبّاط. إلى جوار الضبّاط جثا «محمد صولو» على ركبتيه مقيّد القدمين، مغلول اليدين. وما إن أبصر الباشا حتّى صاح يطلب الرحمة بنبرة مثيرة للشفقة. في الناحية الشمالية من المرفأ تجمهر الناس. أومأ الباشا

للضباط فتقدّم من المعتقل ثلاثة منهم. استغاث بأعلى صوت، ولكنهم حملوه وألقوا به في مركب كان يجثم عند رصيف الميناء. زفر الجنوب بأنفاس شديدة فعربد العجاج في موجة جديدة. رفع البحارة الصاري على المركب فنفخ فيه الريح من أنفاسه فانزلق فوق المياه. سبح المركب بسرعة بسبب جنون الريح، وما لبث أن حجبته سحب الغبار عن الأنظار. قال الباشا يخاطب ضيفه:

ـ سيعودون لك برأسه إن شئت أن تستبدل هباء التّبر بعظام الجمجمة!

ترنّح الرسول بسبب هجمة الريح فأسنده الحاجب. قال وهو يلوّح بيده في الهواء علامة الخلاص من بلاغ كان على ظهور الأخيار دائماً بمثابة وزر ثقيل:

ـ آمل أن نكون قد انتهينا من سدّ هذا الباب فنفوز بحسن ظنّ مولانا صاحب الجلالة!

غادر الرسول ربوع الإيالة في اليوم التالي. وفي اليوم الثالث كان الشاوش «محمد صولو» يجلس في حانة «ترافيرسو» الواقعة في ميدان «ماركوس أوريليوس»، يحتسي نبيذاً إيطالياً فاخراً، يقهقه بأعلى صوت وهو يروي لروّاد الحانة كيف ذهب به ضبّاط الباشا في نزهة إلى عرض البحر، بعد الانتهاء من العرض السخيف عند رصيف الميناء، فلم يفكّوا قيوده فحسب، ولكنهم أضافوه بالشواء والنبيذ والغناء. وقد بلغ بهم الجود حدّاً لا يُصدّق، لأنه عندما صحا في الصباح وجد أنّهم دسّوا غانية في فراشه أيضاً!

16

يوم رَست سفن رسول ملك الإنجليز في موانىء الإيالة تساءل القرمانلي عن الغاية من هذه الزيارة فقيل له إن الرسول جاء لتجديد الاتفاقية الموقعة قديماً بين البلدين، فقال ببروده المعهود: «ولكنّي ما لي لا أرى الهدايا؟»، وعندما أبلغوه بردّ الرسول القائل بأن مليكه لم يحمّله أيّة هدايا أمَر باستدعاء هذا «العلج الأبله» كما أسماه، كي يمثل بين يديه. وما إن أدخلوه عليه حتّى سدّد إليه نظرة كأنها طعنة قبل أن يوجّه السؤال:

ـ هل تظنّ الهدايا بين الملوك هبات حتّى تستنكر مطالبتي بها؟

كان رسول الإنجليز رجلاً أحمر البشرة والشعر والعينين يميل إلى البدانة، منفوش الشدقين، ملفوف الذقن بلحية حمراء أيضاً مجرّدة من الشارب. مسّد العلج لحيته بيده قبل أن يجيب بلسان عربي مطبوع بلكنة النصارى:

ـ لم أجد في بنود الاتفاقية ما يفيد بتقديم هدايا يا سعادة الباشا.

ـ وهل تظلّ الهدايا هدايا حقّاً إذا نصّت عليها بنود الاتفاقية؟

ـ يؤسفني ألاّ أفهم..

ـ الهدايا عُرف قديم قدم الإنسان ولم يكن بدعة من بدعنا أو بدع أجدادنا. ولكن الهدايا تعبير عن حسن النوايا.

مضى الرسول يعبث بلحيته الحمراء صامتاً فأضاف الباشا:

ـ الهدايا، كما تعلّمنا من أسلافنا، هي وصايا!

ـ وصايا؟

ـ بلى. هي وصايا. والاستهانة بها استهانة بالناموس القديم الذي حثّنا على إكبار الوصايا. والتخلّي عن ناموس تقديم الهدايا عمل لا ينمّ عن البخل بقدر ما يقدّم الدليل على النيّة المبيّتة في توجيه الإهانة!

استنكر الرسول:

ـ توجيه الإهانة؟

ـ بلى، بلى. مليككم أراد أن يوجّه الإهانة لسلطان الإيالة يوم بعث بكم إلى ديارنا بيدين خاليتين من التميمة!

ـ التميمة؟

ـ بلى. التميمة. نحن نسمّي الهدايا التي يحملها الرسل لإنجاز عمل من الأعمال تمائم. هل تعرف لماذا؟ لأن لا عمل يفلح في هذه الدنيا من دون تميمة. وتوقيع المعاهدات عمل جسيم لأنه عهد. والعهد لا يدوم إذا لم تحصّنه أدهى أجناس التمائم!

تابعه الرسول بدهشة جاحظ العينين. حاول أن يعبّر عن دهشته بعبارة ولكن الباشا أسكته بالقول:

ـ حريّ بكم أن تستعيروا الدرس من أهل الصحراء الذين تحسبونهم رعاةً بلهاء. هؤلاء الدهاة يفرضون مكوساً على قوافل التجّار التي تعبر الصحراء مقابل حمايتها من غارات قطّاع الطرق ولكنّهم يستضيفون أصحاب هذه القوافل بالذبائح والولائم وحتّى

الهدايا ما إن ينزلوا أراضيهم، فينفقون أضعاف أضعاف ما ينالونه من أصحاب القوافل كمكوس. هل تدري لماذا؟ لأنهم لا يرون المكوس مكوساً، ولكنها هدايا. هل تدري ماذا تعني في عرفهم هذه الهدايا؟ إنها قرابين تجير من يهبها أكثر مما تفيد من يتلقّاها!

تمتم الرسول بلكنته النصرانية:

ـ هذا عجيب حقّاً. لو كنت أدري أن الأمر كما يرى سعادة الباشا لما ركبت البحر أبداً قبل أن أحمل لكم هدايا من مالي، ولكن ما تعلّمناه، يا صاحب السعادة، هو أن تقديم الهدية هو الإهانة وليس منع الهدية. علّمونا يا صاحب السعادة أن من يطالب بالهدية كمن يطالب بأن يُصفع على قفاه. أجل. الهدية في عرفنا صفعة وليست قرباناً!

ـ لأنكم ترون الهدية مالاً لا رمزاً ولا تدرون أن الأموال التي تنصّ عليها المعاهدات بين الدول سرعان ما تؤول إلى زوال، في حين تبقى الهدايا. تبقى الهدايا لأنها ليست وهماً من الأوهام كالمال، ولكنها رمز مجسّد. رمز مدوّن في تمثال، أو سيف، أو مدفع. هيّا معي لأريك رموزاً كهذه تلقيتها هدايا من ملوك مختلف أركان الأرض كعربون دشّن معاهدات بيننا، فزالت الأموال التي نصّت عليها العهود وظلّت الهدايا صامدةً تتحدّى الزمان لتحدّثه عن أمرٍ كان، ولكنه لم يكن ليكون له ذكر على لسان الخلق لولا وجود الهدايا كعنوان لذلك الأمر الذي كان.

نهض الباشا وطاف بضيفه في زوايا القصر. كان يردّد:

ـ هذا مدفع هدية ملك هولندا. وهذا سيف مطعّم بالجوهر تلقيته هدية من ملك السويد. هذا تمثال لربّ رياح «القِبْلي» الذي أبدع الصحراء، هدية ملك «برنو». وهو مصبوب من الذهب الإبريز.

ويقال إن التشاؤم بلغ بالقرمانلي يومها حدّاً دفعه لأن يكشف لضيفه عن شكوكه في قدرة المعاهدة على الصمود في وجه نوائب الدهر ما لم يمهر توقيعه بحفنة من الهدايا. ويُروى أن الباشا قرّر منذ ذلك اليوم أن يعدّ تلك المفاجأة التي زعزعت أهل الإيالة، كما أقامت دنيا النصارى ولم تقعدها. فقد أعقب سفر رسول الإنجليز وصول المندوب الفرنسي الذائع الصيت «دوزو» رسولاً من ملك فرنسا لتوقيع معاهدة سلام جديدة بين البلدين. وعندما همّ بالمغادرة اختلى به الباشا في أحد أركان القصر ليقول له إنه دسّ له في سفينته هديّة صغيرة لملك فرنسا تعبيراً عن حسن نواياه ورغبته الأكيدة في استمرار السلام بين بلديهما.

وما إن اعتلى السفير «دوزو» متن سفينته حتى فوجىء بأنها قد تحولت إلى مدينة رومانية تنتصب في كل أركانها تماثيل منحوتة من المرمر الأخضر، وترتفع في زواياها الأعمدة الرومانية المهيبة المزبورة بروح فنّاني ما قبل التاريخ. أمّا الصناديق الخشبية المطروحة في السفينة، كأنها توابيت النصارى، فقد وجدها مرصوصةً بأعداد هائلة من التماثيل الأصغر حجماً، ولكنها الأبدع تصويراً، فعقلت الدهشة لسانه فلم يجد حيلة يعبّر بها عن دهشته إلاّ السقوط مغشياً عليه!

ولم يكن ذلك المتحف الذي فاز به رسول ملك فرنسا «دوزو»

في تلك الرحلة التاريخية سوى آثار مدينة «لبدة» التي لم تشهد البلدان لجمال معمارها مثيلاً، ولا لكمال تماثيلها نظيراً في كلّ ما خلّف العالم القديم.

وعندما ضجّ الناس وبلغ الاستنكار آذان القرمانلي بسبب هذا العمل الجنوني فلم يزد على أن قال:

ـ ألا يجب أن نلقّن هؤلاء النصارى البخلاء درساً في السخّاء؟!

الجزء الثاني

القسم السادس

1

وجد في بيت العجوز امرأة أخرى بدل العجوز. فهو لم يطأ هذا البيت منذ كتم الطاعون أنفاس المدينة فمنعه القرمانلي من الخروج خوفاً من الوباء. ولكنه تفكّر طويلاً في أمرها، وتذكّر أمثولتها التي يطيب لها أن تردّدها كلّما أقبل عليها حاملاً في جيبه القطع الذهبية، وفي يده هدايا يحرص القرمانلي أن يضعها في حِجْره بنفسه مردّداً تعويذته الأبدية: «إيّاك أن تذهب إلى أي مكان دون أن تحمل في عبّك هدايا!». أما هي فكانت تفتح له باب البيت، الملفّق من شرائح جذوع النخيل، وتأخذه من يده إلى صحن الدار لتجلسه على الحصير، ثم تقرأ أمثولتها عن الأبناء الذين يعتقد الناس أنهم أبناء، ولكنهم في حقيقة الأمر ليسوا سوى أعداء. تقول إن الأبناء الذين ننجبهم من البطون يولدون وهم ظامئون إلى الانتقام، ولهذا فإن أنبل ما يفعلونه بالآباء هو أن يفرّوا من الآباء. لأنهم إن لم يفرّوا فإنهم كثيراً ما تسوّل لهم نفوسهم الانتقام من الآباء بالتطاول على الآباء. قالت إن ابنها حاول كتم أنفاسها لأنها حاولت أن تمنعه من الاقتران بغانية علجية. وها هي الأقدار تأتي لها من المجهول بالإنسان الذي لم تختره هي لنفسها، ولكن الأقدار اختارته ليكون لها ابناً بدلاً من ابنها الضائع. كأنّ الأقدار تريد أن تلقّن الوالدين درساً يقول إن الأبناء الذين اخترناهم لأنفسنا وأنجبناهم من بطوننا، ليسوا لنا أبناءً،

ولكن أبناءنا حقّاً هم الأبناء الذين اختارهم لنا الخفاء الذي لا تخفى عليه خافية. ثمّ يروقها أن تتساءل: «ألا يعني هذا أن الأقدار هي التي تجيرنا، لا تدبيرنا؟». وفي يوم آخر قالت إنه سرق كل ما تملك ثمّ فرّ ولم تره منذ ذلك اليوم، فقال لها في يوم آخر إن هذا يعني أن أباه كان على حقّ يوم أنكره فتخلّى عنه للغزاة. حدّقت فيه بعينين شقيّتين مبللتين قبل أن تقول: «لا تحزن! الأقدار تعرف ما تفعل. الأقدار تقسو علينا لأنها تريد بنا خيراً. علينا أن نؤمن بتدابير الأقدار إذا شئنا أن ننال في دنيانا السعادة. أمّك أرادتك لنفسها، ولكن الأقدار أرادتك لي!». وبرغم أمثولتها القاسية عن الأبناء إلاّ أنّها لا تملّ من سرد الروايات التي تتحدّث عن سيرة ابنها وهو في المهد، ثم وهو في الصبا، ثم وهو في سنّ الرجولة، ولا تنسى أن تنهي أساطيرها عن السليل الضالّ بحكايته مع بنت الأغراب التي سلبت روحه وزرعت في قلبه روحاً أخرى لم تعرفها فيه يوماً لا لشيء إلا لأنها غانية، وفوق ذلك علجية. ونساء الأعلاج لهن بشرة ذهبية، فذهب الأبله وراءها ظنّاً منه أن كل شيء يلمع في هذه الدنيا ذهب. ولم يقتصر شغفها بالروايات على سرد سيرة الوليد الضائع، ولكنها كانت تروي أحداثاً عجيبة تدّعي أنها عاشتها. تروي أحداثاً كأنها الأساطير قبل أن تعقّب بعبارة: «صدّق أو لا تصدّق، ولكن هذا قد حدث!». تحدجه بعدها بنظرة تومىء باللوم لأنها ضبطت الشكوك في عينيه قبل أن تضيف: «حياتنا تبدو رحلة قصيرة حقاً، ولكنّها كافية لأن نحيا فيها ما لم يعشه نوح في عمره كلّه!». ولا تكتفي

بسرد الروايات، ولكنها كانت تغنّي أيضاً. تغني غناءً شبيهاً بمواويل صبايا الصحراء في الليالي التي يكتمل فيها القمر بدراً. غناء لا يهاجر به إلى الصحراء وحسب، ولكنه يسافر به إلى رحاب أبعد من الصحراء. غناء يسافر به إلى السماء. وعندما تكفّ عن الغناء تمسح الدموع من عينيها وتقول: «الدنيا أغنية. الدنيا حكاية. ويل لإنسان لا يحسن الغناء أو الرواية في هذه الدنيا!». ثم تأخذه من يده وتذهب برفقته إلى نزهة عبر الأزقة لزيارة أضرحة الأولياء دون أن تنسى أن تعرّج به على السوق. هناك تشتري لنفسها بعض الزاد، وتشتري له هو الفطائر التي يروق الباعة أن يقدّموها مغمورةً في زيت الزيتون. يأكل الفطائر فيغمر الزيت يديه ويسيل حتى يدرك مرفقيه فتقول إن إراقة زيت الزيتون هدراً إثم لا يختلف عن إهدار الماء في الصحراء. وعليه أن يمسح يديه في شعر رأسه لأن الزيوت تقوي الشعر وتقضي على القشرة. ولكن.. ولكن الأيام اكتأبت لأن الطاعون أغار على المدينة فبدأ الناس يتساقطون بالآلاف. كل يوم يخرج الناس وراء الجنازات المتجهة إلى الجبّانات. وصار الناس يوقدون في مداخل البيوت أعشاب الشيح لتطهير الأمكنة من الوباء لأنه الحيلة الوحيدة لمقاومة هذا الغول. فكانت سحب الدخان ترتفع في كل الأنحاء فانقلبت المدينة إلى مدخنة خرافية. القلعة أيضاً تحولت إلى مدخنة، بل إلى مداخن تنفث ذيول الدخان في كل ركن حتى استعسر التنفس وبدأ يختنق. اختنق فقرّر أن يتنفّس الهواء بعيداً عن المدخنة. تسلّل من القصر خفيةً وذهب إلى بيت العجوز، ولكنه

في ذلك اليوم وجد امرأة أخرى، قالت إنها جارتها، ولم يجد في البيت العجوز. وعندما استفهم عن أمرها نظرت إليه الجارة بدهشة قبل أن تجيب بعبارة خيّل له أنها لا مبالية: «لقد ذهبت. .» تساءل ببلاهة: «إلى أين؟»، فحدجته باستنكار لم تحاول إخفاءه قبل أن تجيب: «ذهبت إلى حيث يجب أن تذهب. ذهبت إلى حيث نذهب جميعاً: أم أنك نسيت أننا نحيا زمن الطاعون؟». كانت تنهمك في ترتيب البيت المهجور فتطوي الأغطية في جانب، والمفارش في جانب آخر، والوسائد في ركن ثالث. في المدخل ارتفعت أعمدة من دخان الشيح الحادّ الرائحة. بدأ يرتجف عندما التفتت إليه لتضيف: «في زمن الطاعون الناموس أن نموت، أما الأعجوبة فأن نحيا!». ويبدو أنها لاحظت رجفته فقالت: «خطأ منك أن تأتي إلى هنا. هي عجوز عاشت حياتها ليس على النحو الذي تحبّ بطبيعة الحال، لأن لا أحد منا يحيا كما يريد أن يحيا، أما أنت فلم تبدأ حياتك بعد!». بعدها انسحبت إلى الدار الأخرى وعادت من هناك بكيس مصنوع من قماش خشن منفوش الجوف. وضعته بين يديه وهي تقول: «لقد أوصتني أن أعطيك هذا الكيس!».

كان الكيس مربوطاً بخيط من جلد، تفوح منه رائحة غريبة، ومطوّق في الوسط أيضاً بقطعة جلد عريضة كأنها حزام. راقبها وهي تدبّ هنا وهناك حتى أصابه الدوار بسبب أبخرة الشيح. أحس بالاختناق فهاجمته نوبة سعال حادّ. خرج إلى الشارع وهو يترنّح. كان الزقاق خالياً من المارّة الذين اعتصموا بالبيوت، يعتنون

بمرضاهم، ويكفّنون موتاهم، أو يستجيرون بالجدران من العدوى.

في الطريق إلى القلعة فكّ رباط الكيس وأخرج من أحشائه رزمة من الرقوق الجلدية الكئيبة اللون، الموسّمة بخطوط غريبة شبيهة بتلك الشبكة من الرموز التي يروق سحرة الصحراء أن يرسموها على رقع الجلد قبل أن يحشروها في تمائم ليعلقوها في رقاب أولئك المتهورين الذين أصابهم مردة الجنّ بمسّ!

2

الطاعون في عرف أصحاب الوسوسة قصاص الغيوب جزاء ما يقترفه أهل الدنيا من ذنوب. ولهذا فهو الخير المتنكّر في جلد الشرّ، لأنّه يطهّر الأرض بتلك القرابين البشرية التي يروقه أن يحصدها بلا رحمة. والبرهان على هويّته كرسول خفاء هو ظهوره الفجائي واختفاؤه الفجائي أيضاً. فلا أحد عرف له سبباً، ولا أحد عرف له ترياقاً. قد تأتي به قوافل الحجاج العائدة من زيارة بيت الله، أو القوافل الذاهبة لزيارة بيت الله. قد يرمي به اليمّ محمولاً على ظهر سفينة، وقد يقبل من ممالك المجهول محمولاً على متن ريح «القِبْلي» التي تتنفّس بها رئة صحراء الجنوب. يعلن عن نفسه في يومٍ لم ينتظره فيه أحد، فلا ينفع في الفرار من قصاصه تدبير. وينسحب من السّاحة في يومٍ لم يتوقع انسحابه أحد، ودون أن يهزمه أحد، كأنّه يمتثل لأمرٍ مجهول من ربّ مجهول. يقتحم حصون المدن. يتسلّل إلى الدور. يسكن أمنعَ البيوت ليمتلك هناك الصدور. هناك يبدأ حملات إبادة لا تخلو أيضاً من غرابة: بعضها ينجزه بعماء لا

يفرّق بين غني وفقير، بين كبير وصغير، بين عارف وجاهل، بين آثم وطاهر، بين مالك ومملوك. وبعضها الآخر ينجزه بتدبير فيهلك عائلة هنا، ويدع عائلة هناك. يميت أبعد الناس عن العدوى ويبقي على أكثر الناس عرضةً للعدوى. قد يفني مدينة عن بكرة أبيها وهي في حصن حصين، ثم يهب الحياة لأخرى تقع بالجوار ولم تكلّف نفسها أي عناء يدفع عنها البلاء. ويروق للخبثاء أن يطلقوا تعبير «روح النكتة» التي يتمتّع بها هذا الرسول الغامض الذي يعشق العبث، ويرفض أن يُخضع مغامراته الجنونيّة لأي منطق دنيوي أو ناموس سماوي.

ويرغم أن النجاة في زمن الطاعون تُعدّ استثناءً فريداً وهديّة ربانية لم يطمع أحد في نيلها، إلا أن النسيان سرعان ما يبطل مفعولها ويحيلها إلى حقّ مكتسب. كأنّ هذه المخلوقات التي تسعى الآن في الأرض كالبهائم ليست هي نفسها المخلوقات التي أيقنت بالهلاك بالأمس وهي ترى أقرب الأقرباء الذين يتساقطون وقد صرعهم الوباء وهم يسيرون إلى جوارهم ليتحوّلوا إلى جثث هامدة إن لم يكن في الحال فبعد سويعات، فإن لم يكن بعد سويعات، فبعد أيام كحدّ أقصى.

ويبدو أن النسيان هبة أخرى لا تختلف عن النجاة، لأن الناس كانوا سيهلكون فزعاً، وربّما حزناً على فراق أحبابهم، إن لم يهبّ النسيان لنجدتهم، فيندفعون لقضاء الحوائج، ويدبّون في الأرض لتعمير الأرض التي خرّبها الوباء.

القرمانلي أيضاً لم يفرح بالنجاة لأنه، ككلّ أهل المدينة، اعتبر الهدية حقّاً مكتسباً برغم أنه فقد في هذه المعركة عدداً من رجال دولته وفي مقدمتهم قائد جيشه، ورئيس بحريّته، وثلاثة من أخيار مجلس الديوان، وعددٌ من أفراد الحاشية والخدم والضباط. ليس هذا فحسب، ولكنه فقد أعداداً هائلة من الجند، بل والآلاف المؤلفة من الأهالي الذين لم يعودوا بعد ذلك اليوم مجرّد أهالٍ، ولكنه اكتشف لأوّل مرّة أنهم روح المدينة وركيزة الإيالة كلّها. وقد أحزنه ذلك إلى حدّ أيقن فيه أن البلاء لم يكتفِ بتجريده من الجيش، ولكنه جرّده من الرعية التي رآها دائماً مجرّد زحام دهماء، مجرّد سواد أعظم، ولم يكتشف إلا بعد حلول النكبة أن هؤلاء كانوا هم الدولة، هم الإيّالة، هم العرش، هم صاحب العرش الذي يدّعي امتلاك العرش ناسياً أن لا وجود لعرش من دون وجود رعيّة تسند بسواعدها كيان العرش. نسي أن لا وجود لسلطان في الأعالي من دون وجود مخلوقات تسجد للسلطان في الأسافل، لأن لا وجود لأي جِرْمٍ في الأعالي دون وجود جرم يقابله في الأسافل، لأن لا وجود حتى للسماء في الأعالي دون وجود أرض في الأسافل، لأن لا وجود حتى للمعبود دون وجود العابد، والكنز المخفي سيظلّ كنزاً مخفياً إلى الأبد لو لم يوجد المبدأ الظامىء لنيل الكنز. بل الكنز المستخفي يكفّ عن أن يكون كنزاً، يفقد حقيقته ككنز، إن لم يهتدِ إلى حيلة يخلق بها المخلوق الذي سيسعى لاكتشاف الكنز.

لقد فتك الطاعون بالمدن حتى صارت كالثوب المهلهل الذي

ابتلي بالثقوب فبارت الأرض؛ لأن الأيدي التي كانت تفلحها وتستزرعها وتستخرج كنوزها هلكت وصارت تراباً. صارت أيضاً أرضاً. والمحاصيل (سواء أكانت زيتوناً عوّل عليه كثيراً، أم غلالاً عوّل عليها أكثر) تيبست في أشجارها، أو ذبلت في سنابلها، أو حرقتها الشمس في أصولها.

وهو يقف مكتوف الأيدي يتفرّج على هذه القيامة لأنه لم يعد يمتلك غير الفرجة. يقف عاجزاً لأوّل مرة لأنه لم يعد يملك أهلاً، ولا جيشاً، ولا رعية، لإنقاذ ما يجب إنقاذه. لأنه أصيب بالشلل. لأنه هُزم. هُزم في حربٍ لم يقرأ لها حساباً، وهزمه عدوّ لم يخطر له على بال، وأدرك لأوّل مرّة أن الأقدار تستطيع أن تصرع دون حرب. تستطيع أن تميت دون جيش. تستطيع أن تمحو محواً دون سابق إنذار!

3

ولكن الأقدار لم تشأ أن تمحو أثره، ولا أن تقطع دابره في امتحان ذلك اليوم كما أدرك فيما بعد. الأقدار أرادت أن تلقنه درساً فحسب كما لقّنت الكثيرين قبله، وكما ستلقّن الكثيرين بعده. لأن البلاء في عرف الأقدار لم يكن يوماً سبباً لفناء، ولكنه وصيّة. الوباء لم يكن سوى وصيّة لأن الحياة سوف تنهض من ركامها وتواصل مسيرتها ما بقي إنسان واحد في هذه الأرض، وفي كلّ الأرض. لأن الحياة أعجوبة أخرى لا تقل وزناً ولا سلطاناً عن البلاء، بل لا تقل قدرة عن الفناء، بل لا تقل إعجازاً حتى عن الأقدار نفسها. وها هي

تعلن عن نفسها لتثبت سطوتها في دبيب القوم. في انطلاق القوم. في سعي القوم: في البداية قابل أفراداً في الشوارع الخالية، ثم رآهم في الأسواق، ثم شاهد مسيراتهم كأنهم نيام وهم يسعون في الحقول طلباً للرزق. تطاولوا في أشجار النخيل لقطع العراجين، وتسلّقوا أشجار الزيتون لجني المحصول، وحصدوا الزروع في حقول الحبوب. في الأيام الأولى كانوا أفراداً، ولكنهم مضوا يتكاثرون في الأيام التالية. تكاثروا كأنهم يتوالدون. تكاثروا كأنهم يتنادون. تكاثروا كأنهم استيقظوا من غفوتهم. تكاثروا كأن الأرض لفظتهم من جوفها. تكاثروا كأنّ الأموات الذين دُفنوا بالأمس نهضوا من ميتاتهم وبعثوا إلى الأرض من جديد، فما كان منه إلاّ أن استشعر الأُنس. استشعر الدفء الذي يستشعره الإنسان عندما يكتشف إلى جواره وجود الإنسان. استشعر إحساساً عميقاً، خفيّاً، حقّ له في ذلك اليوم فقط أن يسمّيه سعادةً دون أن يندم على إطلاق هذا اللّقب الجليل الذي لم يكن قبل ذلك اليوم بالنسبة له سوى عنقاء، أو كلمة جوفاء، أو ربّما حتى سبّةً لسبب بسيط وهو أنه لم يعترف بوجود هذه العنقاء يوماً في دنيا الأنام هذه. ولم يدرك أنه لا يمكن لهذه الأعجوبة أن تتحقّق بغياب هؤلاء الأنام أنفسهم. لا يمكن للسعادة أن تتحقّق دون وجود أعجوبة اسمها الأنام. وقد بلغ به هذا الإحساس حدّاً جعله يهبّ من جلسته ويفرّ إلى الخارج. فرّ لملاقاة هؤلاء الأنام الذين لم يرهم في يومٍ آخر سوى رعيّةٍ، أو سواد أعظم، أو دهماءَ، أو عبيد. فرّ لملاقاة الأنام كأنّه يكتشفهم لأوّل

مرّة. كأنه لم يرهم قبل ذلك اليوم أبداً. فرّ إليهم بحاشيته، بأعوانه، بعسسه، بعائلته. أقبل عليهم ليجني المحصول معهم، ويتسلّق النخيل ليقطع عراجين التمر مثلهم. أقبل دون أن يقول لأحد سرّه. لم يقل لأحد إنه لم يأتِ للمساهمة بنفسه في حملة التطوّع لجني المحاصيل، ولكنه أتى ليجتمع إليهم. ليجتمع إلى الناس الذين ظنّ أنهم انقطعوا. أتى ليتيقّن أنهم ما زالوا على قيد الحياة، لا لأنّ الوباء قال له في رسالته إن السلطان لا وجود له من دون وجود أهل السلطان، ولكن لأن وصية الأقدار قالت له إنه لا وجود للإنسان من دون وجود الإنسان. قالت له أن لا معنى لحياة الإنسان من دون وجود معجزة اسمها الإنسان!

4

قطْع دابر الخليقة من ربوع المدينة لم يكن البليّة الوحيدة التي استنزلها الطاعون على رأس الإيّالة. فقد اكتشف بعد أيام بليّة أخرى، لا تقلّ شأناً عن قطع دابر الخليقة من ربوع الخليقة. اكتشف خواء الخزينة بعد خواء المدينة. لأن خواء الخزينة لن يعني على المدى البعيد سوى هلاك المدينة. ليس هلاك المدينة وحسب، ولكن هلاك الإيّالة كلّها. ذلك أن المدن لم تكن في يوم من الأيام سوى صنيع الخزينة. المدن بدعة اخترعها الذهب الذي يتخفّى في الخزينة.

وعندما يفرّ الذهب المتستّر بجدران الخزينة تفرّ معه المدينة. لأن الذهب سرّ المدينة. أمّا الصحراء فهي ركن الدنيا الوحيد الذي

يحتقر الذهب ويقف معه موقف العداء منذ الأزل، لأن عملته الحرية وليس الذهب. ولكن المأساة أن الإيالات بدعة لا تقوم في ساحات الحرية، بل في حلبة كيانها العبودية. والمدينة هي الفخّ الذي يستدرج الناس ليصيروا عبيداً تحت اسم مستعار هو الرعايا. المدينة هي الطعم الذي يغوي ضعاف النفوس ليبدلوا سلاح الحرية بأدوات العبودية. ويبدلوا عبور أرض الله الواسعة باستقرار الاسترخاء المسبّب لعلل الروح فتموت الروح ليحيا الناس بالجسد وحده دون الروح. لأن روح الاستقرار هو الذهب. لأن روح المدينة هو الذهب. لهذا السبب كان الذهب والروح دائماً في جدل. كانا دائماً في خصام. لأنهما في حقيقة الأمر ليسا سوى وجهين لعملة متناحرة. مَنْ زهد في نيل الذهب فاز بالروح. فاز بالحرية. ومن طلب الذهب خَسر الروح. خسر الحرية التي لم تكن يوماً سوى الروح عارية. ولما كان الإنسان سليلاً ضعيفاً بالسليقة فقد آثر أن يستسلم منذ زمن بعيد. آثر أن يستسلم يوم ألقى عصا الترحال ولم يعلم أنه إنما يتخلى عن الحرية. إنما يتخلّى عن حقيقته. عن جبلّته. فخسر الرهان مقابل ثمن بخس. خسر الرهان لأنه باع الحقيقة مقابل الخبز. باع الروح مقابل فتات لا يغني ولا يسمن. باع كنز الأبدية بلقمة الباطل. بدَّل الخلود بحطام البهتان الفاني.

فبعد اعتكاف في الخباء دام طويلاً أقبل عليه «مسّي». حام حوله حاملاً في عينيه نبأ كما اعتاد أن يفعل كلّما انتوى أمراً، أو أراد أن

يبوح بشيء، فما كان منه إلا أن أومأ له مشجعاً. ولكنه تجاهل الإيماء عامداً ومضى يحوم حوله بلجاجة هرّ. كان يدري أنه سيضيق ذرعاً بامتناعه فينتهره ليفصح، ولكنه لم ينتهره هذه المرّة، بل ابتسم بصبر. ابتسم له بمكر فابتسم «مسّي» أيضاً. قال باستحياء:

ـ ارتكبتُ في حقّك إثماً!

ـ حقّاً؟

ـ هل تغفر لي إذا كشفتُ لك عن خطيئتي؟

ـ هذا يعتمد على حجم الإثم!

ـ لقد أخفيتُ عليك شيئاً.

ـ لا!

أفلتت منه الكلمة بلهجة استنكار أنكرها، فأضاف بنبرة اعتذار:

ـ أنت تعلم أنّنا لم نُخلق في هذه الدنيا إلاّ لنغفر حتّى للأغراب فكيف بذوي القربى؟

تطلّع إليه خلسةً كأنه يريد أن يتيقّن من نواياه، ثم مدّ يده إلى صدره ليستخرج من جبّته الفضفاضة كيساً منفوشاً تفوح من ثناياه روائح مريبة ولكنها أليفة: روائح الزمان الضائع في الأشياء القابلة للفناء. روائح الغموض التي يروق الزمان أن يدسّها في ثنايا الأكفان التي يخفيها أهل الصحراء في رقوق الجلد كما يخفون التمائم ثم ينطلقون بها في عبورهم الذي لا ينتهي؛ ليقينهم القديم بأنهم لا يملكون في رحلة دنياهم سوى أكفانهم.

تساءل الباشا:

ـ ما هذا؟

فأجاب الفتى ببرود مفتعل:

ـ الوصيّة!

ـ الوصيّة؟

ـ وصيّة الجدّة التي ذهب بها الطاعون. لقد خرجت خفيةً لزيارتها فوجدت في البيت جارتها التي سلمتني الكيس كوصيّة!

حدجه الباشا بفضول قبل أن يتساءل:

ـ هل فتحته؟

هزّ رأسه علامة الإيجاب فأمر الباشا:

ـ افتحه لنرَ!

فكّ الخيط بيدين راجفتين، لأن اليد لا بدّ أن ترتجف إذا امتدت لتفكّ الطلسم حتى لو كانت يد براءةٍ. لأن اليد لا بدّ أن ترتجف عندما تمتدّ لتلامس فوهة الكنز حتى لو كانت يد الرضيع، لأن الكنز مع الطفولة في عداوة منذ خُلقت الخليقة وخُلقت الكنوز في ربوع الخليقة.

استخرج من الجوف حزمة الرقوق الجلدية الموسّمة برموز الغموض وطلسمات أهل الأسحار. وضعها في حجر القرمانلي وتراجع خطوات إلى الوراء. أمّا الباشا فقد تركها في حجره زمناً قبل أن يبدأ في فحصها. انحنى عليها طويلاً، ثم رفع بصره دون أن

ينبس. صمت طويلاً وهو يحدّق عبر النافذة في الفراغ. قال أخيراً دون أن يكلّف نفسه عناء العودة من رحلة الفراغ:

- أنت أردت أن تنجدني أليس كذلك؟

لم يجب الولد فأضاف الباشا:

- أنت أدركت سرّي وأردتَ أن تنقذني كما يليق بالصديق أن يفعل في سبيل إنقاذ الصديق، أليس كذلك؟

تشبّث الولد بالصمت، ولكن الباشا لم ييأس:

- حسناً! سوف ننجز صفقة. هل توافق على عقد الصفقة؟

لم يجب الولد، ولكن الباشا لم ينتظر جواباً:

- سأغفر لك خطيئتك، هل تدري مقابل ماذا؟

لم يجب الولد فأكمل الباشا:

- مقابل الدهاء وليس مقابل الدليل إلى الكنز الذي وضعته بين يديّ!

5

تأمّلتْ زينوبة وجهها في المرآة فانفعلت حتّى نزّت من مقلتيها الخضراوين الدموع. قالت بنبرة تخنقها العبرة:

- ما أسرع ما يتبدّد الجمال! أيعقل أن يكون هذا الوجه وجهي أنا زينوبة الطرابلسية؟

كان الذبول قد غزا وجنتيها، وغضون لئيمة تبدّت تحت جفنيها، ولم تفلح حتى المساحيق المستجلبة من بلدان النصارى في القضاء عليها ولا في إخفائها.

في زاوية البيت كانت وصيفتها التركية تختلس إليها النظر دون أن تتوقّف عن قضاء حوائج مزعومة تدّعي دائماً الانهمام بها، برغم أن زينوبة كثيراً ما اكتشفت بعد خروجها أنّها لم تحرك في البيت ساكناً، وما سعيها هنا وهناك إلا دبيب باطل غايته ذرّ الرماد في العيون. ولكن زينوبة تسامحت معها دائماً ليقينها بأن الخدم لم يُخلقوا ليخدمونا، ولكن ليستخدمونا؛ وأنبل خدمة يستطيعون أن يسدوها لنا هي أن يسلّونا.

وكانت الوصيفة التركية تعزّيها في عزلتها حقّاً إلى حدّ صارت فيه مستودع أسرارها، بل وخلّة أيضاً بالقدْر الذي تستطيع فيه المرأة أن تكون خلّةً لامرأة.

يومها قالت التركية تعقيباً على وصيّة زينوبة عن زوال الجمال:

ـ الجمال يا مولاتي دائماً زهرة: لا تتفتّح حتى تذبل!

ـ كل جمال زهرة، أم أن جمال المرأة وحده الزهرة؟

ـ ليت الجمال وحده عمره عمر الزهرة، ولكن الحياة برمّتها، يا مولاتي، عمرها عمر الزهرة!

يروق زينوبة أن تستفزّ الوصيفة لتسمع من فمها الحكمة. تلك الحكمة التي تدعي التركية أنها تلقّتها هبة مَنَّ الله بها على أهل الأناضول. فكانت لا تملّ من التباهي بأصولها الأناضولية هذه.

تناولت زينوبة قارورة صغيرة ملآنة بسائل مريب. نثرت قطرات على وجهها من سائل القارورة وبدأت تمسّد وجنتيها بعناية. قالت:

ـ اصدقيني القول يا سليمة: أما زال أهل المدينة يرونني أجمل امرأة في طرابلس؟

ـ بل أجمل امرأة في الإيالة يا مولاتي!

ـ يقولون ذلك لأنهم لم يروا لي وجهاً منذ زمن بعيد!

ـ ومتى رأوا لك وجهاً يا مولاتي؟ الرجال لا يصدّقون ما يرون، ولكنهم يصدّقون ما يسمعون. ما يهم الرجال يا مولاتي هو الأسطورة وليس الصورة!

ـ صدقتِ!

ـ الرجال يا مولاتي أطفال يسهل خداعهم. وأنت ستظلّين في عقولهم أجمل امرأة في الإيالة، وربّما في الدنيا كلّها، حتى لو بلغت من العمر مئة عام ما دام في الدنيا من يُسمعهم الأساطير عن جمالك. وإلاّ ما الذي ساق إليكِ مولانا الباشا يوماً إن لم يكن الصيت لا رؤية صاحبة الصيت؟

ـ صدقتِ. ولكنه شيء مخيف أن ترى المرأة جمالها يندثر هباء منثوراً. قيامة المرأة ذهاب الجمال وليس الموت. أليس كذلك؟

ـ جمالك لن يذهب ما احتجبت! جمالك بالحجاب جمال خالد!

ـ لو كان الأمر كما تقولين لماذا يُدْخِل الباشا إلى مخدعه امرأة أخرى ما إن خرجتُ من قصر المنشية؟

ـ لأن الباشا رجل يا مولاتي، وفوق ذلك سلطان. يفعل الرجال ذلك بسبب الملل، ويفعل السلاطين ذلك لأنهم سلاطين يحقّ لهم ما لا يحقّ لغيرهم!

سكتت سليمة لحظة ثم أضافت بخبث نساء الأناضول:

ـ ثم لا تنسي أنّك حقّقت نبوءة صديقك المرابط الصحراوي، لأن ذرّيتك هي التي ستتربّع على عرش الإيّالة في كل الأحوال.

بدأت زينوبة تدعك جفنيها بقطعة قطن مبلّلة بمرهم حادّ الرائحة. قالت:

ـ الذريّة! الذريّة! تبّاً للذرية التي تمتصّ منّا الجمال امتصاصاً كأنّها السحرة الذين يمتصّون من الناس الدماء بعيونهم لا بأفواههم!

ـ ولكنّهم برغم ذلك زينة، وأنت ستحكمين بهم هذه البلاد إلى الأبد!

ـ وما فائدة أن أحكم إذا كان الزمان قد جرّدني من جمالي؟

ـ ولكن الحكم يا مولاتي أيضاً جمال!

ـ حقّاً؟ لقد ظننت دائماً أن سلطان المرأة الجمال وليس السلطان.

ـ في الجلوس على العروش يا مولاتي لذّة لا تقارن بأيّ لذّة!

رمقتها زينوبة خلسة. قالت وهي تغمز بعينها الخضراء بخبث:

ـ لا تُقارن حتّى بلذّة الجلوس في أحضان الرجل؟

ابتسمت سليمة وهي تجيب بيقين المرأة التركية:

ـ بلى، يا مولاتي، الجلوس على العروش لا يقارن حتّى بالجلوس في أحضان الرجال.

ولكن زينوبة عقدت حاجبيها وهي تقول:

ـ ردّوا لي جمالي الضائع وخذوا كل العروش إلى جهنّم!

أضافت بعد صمت:

ـ ما أقسى أن يكفّ الرجال عن إطراء حُسْن الحسناء!

ـ إنّهم لا يكفّون يا مولاتي، ولن يكفّوا ما احتجبت!

ـ لا أطمع في التربّع على عرش الجمال إلى الأبد، لأنّ في أركان هذه المدينة لا بدّ أن يستظهر جمال بديل!

توقفت سليمة عن العبث بالحوائج. تقدّمت من زينوبة خطوة، خطوتين، ثلاثاً. تبدّى وجهها في المرآة. قالت بغموض:

ـ هذا صحيح. لاأنكر أن الرجال بدأوا يتحدّثون عن فتيات في عمر الزهور في نيّة لخلق أساطير جديدة، ولكن الأساطير الجديدة لن تزيد الأساطير القديمة إلاّ مجداً!

توقفت زينوبة عن العبث بوجهها. تساءلت:

ـ هل قلتِ إن الرجال بدأوا يتحدّثون عن براعم جديدة؟

نظرت سليمة في عيني مولاتها في المرآة. ابتسمت لها قبل أن تقول:

ـ ابنة المرابط!

ـ ابنة المرابط؟

ـ بلى!

ـ ابنة المرابط الصيد؟

ـ بلى.

ـ ومتى صارت ابنة المرابط زهرة حتّى يبدأ الرجال في نسج الأساطير عن جمالها؟

ـ الزمان الذي تقول مولاتي إنه ذهب بجمالها هو الذي صنع من ابنة المرابط زهرة!

ظلّت زينوبة جامدة في وقفتها أمام المرآة. تحدّق في وجهها، في عينيها، في وجنتيها الذابلتين، في الغضون القبيحة التي تشابكت تحت جفونها كأنها يد عدوّ تنسج فصول مكيدة. من عينيها الخضراوين الصامدتين في وجه عدوان الزمان فزّ البلل. بلل شحيح، ولكنّه موجع كلسان النّار. وكان لا بدّ أن تهبّ سليمة لنجدتها كعادتها:

ـ ولكن جمال بنت المرابط لن يكون خطراً على جمال مولاتي، لأنّ المرابط هو صاحب النبوءة التي جمعت مولاتي يوماً بمولاي!

تساءلت زينوبة دون أن تهجر المرآة:

ـ ماذا تقولين؟

ـ أردت أن أقول إن النبوءات لا تتحقّق من دون أمانيّ!

ـ لا أفهم.

ـ المرابط يريد بمولاتي خيراً.

هيمن صمت قبل أن تتكلّم زينوبة بلسان الغموض:

ـ ليس المهم ما يريده المرابط، ولكن المهم هو ما يريده القرمانلي!

6

الريح ذهبت بالطاعون، ولكنها جاءت بالجفاف. فأنفاس الجنوب التي صنعت بنارها من اليابسة صحراء كبرى يوماً لا بدّ أن تطرد الغيوث من الشمال كما طردت الوباء من الديار. احترقت الزروع، وتيبّست النّبوت البرية فهلكت القطعان وانقطع من الأرض

المحصول. ولم يمرّ وقت طويل حتى عمّت المجاعات وبدأ الناس يهلكون، كأن الأقدار قرّرت أن تلقن الجيل درساً يقول إن الإنسان ليس محور الدنيا كما ظنّ، ولكنه مخلوق لا يختلف في طبيعته لا عن النباتات التي اعتاد أن يدوس عليها بقدميه، ولا عن الأنعام التي لا يكتفي باستضعافها، ولكنه يتعمّد إبادتها في نيّة مبيّتة لقطع دابرها، كأنّ مجرد وجودها يشكّل خطراً على وجوده، ولا يدرك هذا المكابر إلاّ في أزمان البلاء أنه أيضاً نبتة لا تختلف عن أحقر نبتة، كما أنه دابّة لا تختلف عن أي دابّة أو بهيمة على هذه الأرض. وها هو الجدب يقدّم له البرهان؛ لأن النبوت عندما هلكت هلكت وراءها الأنعام، والأنعام عندما هلكت هلكت وراءها الأنام أيضاً.

في الخباء المنتصب في فناء السراي خاطب القرمانلي نفسه بصوت مسموع:

ـ الكنوز لعنة!

سكت طويلاً قبل أن يضيف:

ـ الكنوز ليست نعمة، الكنوز نقمة!

كان يسبح بعينيه في فضاء نهار قائظ مغسول بفيوض شمس طاغية جاءت لتشعل النار في جدران المدينة، بعد أن انتهت من حرق مراعي البوادي وتحويل حقول القرى إلى يباب. غاب بعيداً إلى حدّ لم يلحظ فيه دخول الفتى إلى الخباء. وقف في الزاوية زمناً قبل أن يقول:

ـ سمعتُ رجلاً يقول إن العطب ليس في الكنوز ولكن في الإنسان الذي يستخدم الكنوز.

لم يلتفت القرمانلي. لم يتململ. ظلّ جامداً محدّقاً في الفراغ كأنّه يترصّد نبوءةً، أو يسبح في ملكوت رؤيا. قال دون أن يحرّك ساكناً:

ـ الكنوز لا تكتفي بأن تتبدّد، ولكنها لا تتبدّد إلا إذا بدّدت في طريقها تلك الثروات التي وجدتها في بيوتنا.

ـ الناس يتكلّمون فيقولون إن الكنز بلبل عقلك فذهبتَ لتمتلك به النساء بدل أن تنفقه على حاجات الإيّالة.

ـ دعك من أقوال الناس، واعلم أن الأقدار إذا قدّرت أمراً فلا ترياق يجدي حتى لو كان تميمة من يد الملاك.

ـ تميمة من يد الملاك؟

التفت إليه القرمانلي لأوّل مرة في جلسة ذلك اليوم. قال بحزن العائد من رحاب الأبدية:

ـ ألا يقال إن الأطفال ملائكة يتنكّرون في أبدان أناس؟

ـ لم أعد طفلاً، أنت تعلم.

ولكن الباشا لم يعر اعتراضه اهتماماً. أضاف:

ـ لقد أردتَ أن تنقذني، ولكن الأقدار أرادت شيئاً آخر!

ـ لقد علمتني أن الواجب فوق الأهواء برغم أني أخفقت في النهاية.

تبادلا نظرة عابرة. تكلّم القرمانلي:

ـ أنت لم تخفق البتّة، بل أنا الذي أخفق.

طأطأ «مسّي» فأوضح الباشا:

ـ الكنوز لقية. واللقية عطيّة الشيطان لا هبة الله. ولهذا فإن الكنز لا يكتفي بأن يخدعنا ويذهب، ولكنه لا يذهب قبل أن يجرّدنا حتى مما نملك!

عاد يرنو إلى الفضاء. صمت طويلاً، قال:

ـ لا مفرّ من استثمار البحر!

تساءل «مسّي»:

ـ هل تعني الكنوز المخفيّة في بطن البحر؟

ـ بل الكنوز التي تعوم على سطح البحر!

أعقب العبارة بضحكة عصبية قبل أن يأمر باستدعاء رئيس البحريّة.

7

لم يعرف «آهر» كيف وجد نفسه في أحد الأيام يحترف اصطياد الثعابين. لم تكن تلك الزواحف الفظيعة مخلوقات يمكن أن تنتمي إلى فصيلة الثعابين الصحراوية المألوفة، ولكنها أفعوانات أسطورية ظلّت تتخفّى في كهوف الجبال منذ أزمان كانت فيها القارّة الصحراوية ما تزال أدغالاً موحشة، تكتظّ بأجناس الوحوش كالفيلة والدببة وغريب المخلوقات كالزحّافات التي تنفث من جوفها ناراً أو الهامّات التي تميت بالبصاق المسموم حسبما تروي أجيال القبائل الصحراوية في السير الموروثة من ناموس القوم الضائع الملقّب باسم

«آنهي»، الذي يعني في ترجمته من لغة أهل الصحراء «المبكّر» أو «الأرومة».

وبرغم أنه لم يسبق له أن رأى في الصحراء أفعواناً إلاّ أنه سمع كثيراً عن أناس ابتلعتهم أفعوانات وهم نيام، وسمع أيضاً عن آخرين أصابتهم الصلول الأسطورية برمية من رميات اللعاب المسموم فأماتتهم في الحال.

ويُرْجِع الدهاة هول هذه المخلوقات إلى التقادم فيقولون إن الحيّات جنسان: جنس يتضاءل بمرور الزمان حتى يستحيل كتلة من الغضون بعد أن فاق في ضخامة جرمه البعير. وهو سلالة أشرّ من كل السلالات لأنه يميت ببصقة اللعاب، كما يهلك ضحاياه بالأنفاس، بل وحتّى بنظرة من حدقة العين. أمّا الجنس الثاني فيتضخّم بالزمن ويعظم كلّما ازداد هرماً. وهو، عكس الجنس الأوّل، يفقد سمومه بتعاظم الجرم، ولكنه يقضي على ضحاياه خنقاً قبل أن يبتلعها في جوفه ابتلاعاً. ولا يعرف كيف اختار أن يقتفي أثر النوع الأخير لينازله كما ينازل الأبطال الأسود. ربما لأن هاجساً هدهده منذ الطفولة قد أخبره بأن الإنسان لا يساوي شيئاً إن لم يفعل بحياته شيئاً. الإنسان لن يكون إنساناً إن لم يقدر على خوض معمعة. الإنسان لن يكون إنساناً إن لم يهلك في معمعة. لأن الإنسان وحده (لا البهيمة) لا يحيا إن لم يَمُت. وقد رأى أن الدخول في بطن الأفعوان ثم الخروج من هذا الجوف حيّاً عمل بطولي لن يختلف عن إدخال جمل في خرم إبرة، أو المرور من تحت رقبة بعير نائم دون أن يستيقظ هذا البعير. إنه ليس عملاً بطولياً فحسب، ولكنه عمل من قبيل الإعجاز.

ولا يعرف كيف اعترض الأفعوان طريقه في خلوة ذلك المساء. ولكنه يتذكّر جيّداً سيماء اللامبالاة التي رآها في حدقة الأفعوان الملتفّ حول نفسه تحت صخرة ضخمة تقف في العراء معزولة كأنها معبد من معابد القدماء أو نصب من أنصابهم. تحسّس المدية المشدودة إلى ساعده، ثم تقدّم من الخصم. استفزّه في البداية بالكلم. تنابز بالألقاب لأوّل مرة في حياته، لأن أهل الدهاء يقولون إن الأفعوان ليس سوى إنسان يتنكّر في جلد ثعبان، ولا شيء يمكن أن يستثيره في الدنيا مثل السباب مثله في ذلك مثل الإنسان. فما كان منه إلا أن أسمعه أحطّ الألفاظ وأرذل الشتائم. ولكن الأفعوان كان يفتح عينيه بخمول شديد ثم يعود فيغمضهما غير عابىء بالتحدّي، فتذكّر أن الأفعوانات كالأسود لا تنازل خصماً ليست على يقين من انتمائه إلى سلالات الأبطال. تناول حجراً ورماه في وجه الأفعوان إمعاناً في الاستفزاز ولكن المخلوق المكابر لم يتململ، ولم ينتفض، ولم يحرّك ساكناً. ساعتها قرّر أن يستجير بالحيلة ويستخدم الإغواء. ذهب إلى متاعه واستخرج منه جلد غزالة كان قد اقتنصها منذ أيام. وضع جلد الغزالة على منكبيه وفتّش عن خيط يشدّ به الجلد حول جسده ولكن عبثاً. ذهب إلى الوادي المجاور المزروع بشجيرات الرتم. تناول المدية المشدودة إلى ساعده ليستقطع أعراف الرتم. كانت أعرافاً نحيلة وكثيفة ومتينة وطويلة وملساء، ومن حقّ شعراء القبائل أن يشبّهوها بشعور الحسان في قصائدهم. عقد الأعراف النبيلة في خيوط طويلة. ربط جلد الغزالة بخيوط الرتم حول منكبيه وعاد إلى معقل الأفعوان. وقف في مواجهة الخصم فتململ الوحش لأوّل مرة. ويبدو أنه اشتمّ رائحة الغزلان التي تفوح من الجلد فاستيقظت فيه الشهوة إلى الالتقام.

أما هو فقد استيقظت فيه شهوة أخرى. استيقظت فيه شهوة غامضة ولكنها قوية. استيقظت فيه الشهوة إلى النجاة. الشهوة إلى الحياة. الشهوة إلى الفرار. حاول أن يتحرّر من هذا الهاجس ولكن هيهات. فقد تمادى الإحساس وتجبّر إلى حدّ لم يعد فيه إحساساً ولا هاجساً ولا شهوة، ولكنه انقلب وسوسةً، ثم وصيّة، ثم تحذيراً يردد بصوت مسموع: «احترس!» بلا توقّف. وصوت آخر يقول له بلغة الوحي إن ما يفعله ليس بطولة ولكنه لعب بالنار، بل انتحار. في لحظة أخرى حدثت معجزة أخرى عندما وجد الحدس يتجسّد في بدن مخلوق يتشبّث بتلابيبه ويشدّه بقوّة إلى الوراء. يشدّه بعيداً عن موقع الخطر. وكم كانت دهشته عظيمة عندما اكتشف أن هذا المخلوق لم يكن سوى «تيرا». ابنته «تيرا» التي أقبلت لتنقذه من فوهة الظلمات. ولكن بعد فوات الأوان، لأن الأفعوان كان قد التهم قدميه في تلك اللحظة وابتلع في الجوف ركبتيه. كانت الفتاة تستغيث وهي تشدّه من منكبيه، وكان الأفعوان الرهيب يتشبّث ببدنه من الجهة الأخرى ويبتلع ساقيه، ثم ركبتيه، ثم عجيزته، ثم بطنه، ثم صدره، ثمّ...

ثمّ مدّ يده ليسحب من معصمه المدية. مدّه يده ليسحب المدية قبل فوات الأوان فاكتشف غياب المدية. اكتشف غياب السلاح الذي راهن عليه وظنّ أنه سيكون له عوناً في اقتراف عمل البطولة، لأنه لم يسمع في أساطير القوم عن بطل ذهب لينازل أفعواناً أو أسداً أو عدوّاً بيدين خاويتين. لأن ذلك كان سيسمّى في لسان القوم جنوناً وليس بطولة. ولكن.. أين المدية؟ تحسس كمّه، ثم جيب ثوبه،

ولكن بلا جدوى. وفي اللحظة التي غاب فيها جسده كله في جوف الوحش ولم يبق منه سوى الرقبة تذكّر مصير المدية: لقد نسيها مغروسة في جذع شجرة الرتم التي صنع من أعرافها خيوطاً شد بها جلد الغزالة حول جسده.

لقد قبلت الروح الشريرة التي تتخفّى في أبدان الثعابين التحدّي، ولكنها قبلته بناموسها هي لا بناموس الدنيا. قبلته بناموس أدهى مخلوقات البرية كما يقول عنها «آنهي» الضائع، فاختلست من بين يديه المدية مبرهنة بذلك لا على الدهاء وحسب، ولكن على صدق الوصية التي تقول إنها لا تُخفى عنها خافية، لأنها روح. والروح وحدها على كل شيء عليم. قالت له أيضاً بعملها هذا إن نزال الأبطال لا يحتمل الغشّ مثله مثل كل لعبة في هذه الدنيا. وهو انتوى أن يغشّ في اللعب ساعة خبّأ المدية في كمّه، وعليه الآن أن يدفع الثمن!

حاول أن يتحرّر. حاول أن يتنصّل من التحدّي. حاول أن يجد الخلاص، ولكن هيهات. لأن الأفعوان استولى على البدن كله وها هو يبلغ القمّة فيبتلع الرأس. بدأت ظلمة الجوف تسود والضياء النبيل يختفي. استحال بصيصاً ضئيلاً وهو ينطفىء فبدأت روحه تنطفىء أيضاً مع انطفاء هذه الأعجوبة التي لم يكتشف حقيقتها إلا الآن. إلاّ بعد فوات الأوان، لأن الحقائق الحقيقية هي بالذات ما نكتشفه بعد فوات الأوان. كل شيء باطل ما لم يقبل الموت.

ولكن ما زعزعه حقّاً هو وجود الفتاة إلى جواره في الظلمات. لأن الأمر اختلط عليه بعدها فلم يدرك عمّا إذا كانت الفتاة هي

الضحيّة أم هو الضحية. لأن شعوراً استولى عليه يقول إن «تيرا» هلكت وهو ما يزال على قيد الحياة. الصبية اختنقت أمّا هو فما يزال يتنفّس، ويفكّر، ويحيا بدليل أنه يحلم بالضوء وفوق ذلك كلّه يحزن لفقدها. لا يحزن لفقدها فقط ولكنه يحسّ أنها لم تهلك إلاّ بسببه. ولكن ما سرّ أن يحيا هو وتهلك هي برغم انحشارهما في جوف واحد؟

لم يتلقَّ جواباً على هذا السؤال البتة لسبب بسيط وهو أنه تحرّر من الجوف فجأة عندما استيقظ من الكابوس. لم يستيقظ من الكابوس ولكن يداً انتشلته منه انتشالاً. كانت قرينته تنحني فوق رأسه وتزعزع بدنه بعنف. جلس في الفراش فسمعها تقول: «أنت تهذي! لم أسمعك يوماً تهذي فما الذي حدث؟». لم يجبها. مضى يئنّ كأنه ما يزال ينزلق في رحلة الظلمات إلى المجهول. فتح عينيه فأبصر ظلمةً. تطلّع من الشبّاك فرأى غيهباً. تساءل غائباً: «هل ما أرى عتمة المساء أم قبس الفجر؟» فأجابته المرأة: «بل هي عتمة المغيب!».

مضت أنفاسه تتلاحق، وصدره يعلو ويهبط. تمتم: «هذا ثمن النوم في الغسق!». قالت المرأة: «أنت لم تنم سوى دقائق!». همّ بأن ينهض ولكن الوهن خانه فانهار على الفراش. قال: «ولكنها كانت كافية كي أقوم بزيارة إلى جهنّم!». هدهدت المرأة التراب استبعاداً للشرّ قبل أن تقول: «هل هو كابوس؟»، فأجاب وهو يدعك صدره بكلتا يديه: «بل هي رؤيا!». بسملت المرأة وقرأت على رأسه تعويذة عندما قال العرّاف بصوت غريب: «يبدو أن حياتنا في خطر!».

8

خرج برفقة سليل الصحراء إلى حقول المنشية فيما كانت زغاريد النساء ودفوف الدراويش تملأ شوارع المدينة صخباً احتفاءً بعودة السفن من غزوات البحر، حاملةً أسخى الغنائم في تاريخ الإيالة مصحوبةً بأعدادٍ هائلة من الأسرى. تجرجر سفناً كثيرة زاد عددها عن إحدى وعشرين سفينة حربية، وثلاث عشرة سفينة أخرى تجارية تخفي في أجوافها حمولات خرافية من أندر الثروات وأغلاها ثمناً كالأقمشة والأصواف والخزّ والغلال والآلات والأسلحة والمدافع ومسكوكات الفضّة وحتّى سبائك الذهب. تدفقت الأموال في خزائن الإيالة فسرت الحياة في شرايين المدينة وتنفّس الناس الصعداء. ولكنه كان المخلوق الوحيد الذي لم تدبّ الحياة في شرايينه ولم يتنفّس الصعداء. بل لم يزد الحزن في قلبه على أن تمادى، وعادت الكآبة تكتم أنفاسه فخرج إلى الحقول لاستجداء الأنفاس. في الطريق إلى هناك سأل رفيقه القديم بغتةً:

ـ في أي شيء يجد أهل الصحراء العزاء؟

تساءل سليل الصحراء بلهجة استنكار:

ـ العزاء؟

ـ أعني ما يسمّيه الناس سعادةً؟

لم يتردّد «مسّي» طويلاً ليجيب وهو يربت على بدن جواده الناصع:

ـ في الترحال!

سكت القرمانلي. كان يمتطي صهوة جواده الكميت الذي يروقه

أن يسميه «الوطن» مثله مثل غيره من الجياد؛ يرنو تارةً إلى الحقول المفروشة بأشجار الزيتون والنخيل والبرتقال واللّوز، وتارةً إلى الفراغ البعيد المغمور بشمس الصباح، ولكنه يتمدّد ليتواصل في المرتفعات الحميمة في أقصى الشرق. المرتفعات التي تبدو بنفسجيّةً عن بعد، مكسوّةً بجنسٍ فريد من الحجارة رتّبته كفّ الأزمنة الخرافية الأولى برسولٍ اسمه الغمر، فتبدّت اليوم ملفوفةً في مسوح الأبدية، حاملةً في شتاتها سيماء الخلود. بسبب سيماء الخلود المفقود هذه يفزّ القلب من الصدر ملدوغاً بنار الحنين. يفزّ في نيّة للفرار لاستعادة الزمان الضائع، لاستعادة الخلود الضائع، لاستعادة اليقين الضائع، لاستعادة الفردوس الضائع. ولكن أجنحة الحنين تتكسّر فيهوي إلى الأسفل قبل أن يبلغ في الرحلة ذروة الرابية البنفسجية. بل يهوي حتى لو بلغ شعفة الرابية البنفسجيّة. لأن الرابية التي تبدو عن بُعْد ملاذ الربّ تفرّ عند بلوغها لتصير أرضاً، حضيضاً، أسافل. لأن جناح الحنين الذي يرفرف عليها كراية سماوية ينقشع كما ينقشع السراب، فيتبدّد النداء الخالد، وتحلّ الخيبة، وتستعيد الكآبة الأبدية سلطانها على الدنيا.

لقد حاول اقتناص النداء في الروابي المغمورة بضياء البنفسج دائماً دون جدوى. لقد حاول أن يحقّق هذه المعجزة منذ كان يتسكّع في حقول المنشية زمن الطفولة، باحثاً في الفراغ عن شيء لا وجود له في الفراغ، باحثاً عن كنز في الأرض لا وجود له في الأرض، باحثاً بين الناس وفي الناس عن شيء لا وجود له لا بين الناس ولا في الناس.

والآن ها هو ما يزال يفتّش عنه في كل الأركان. يفتّش عن ما أسماه تالياً النداء في الأهوال، في السلطان، في الملكية، في أحضان النساء، في منازلة أسياد هذه الدنيا، بلا جدوى.

يعترف أنه كاد يهتدي إلى عرين هذا النداء مرّة. مرّة واحدة حسب عندما انتشل وليد الخلاء من كفّ الهلاك دون أن يدري لماذا فعل ذلك. لقد ساءل نفسه مراراً عن سرّ هذا الفعل قبل أن يتساءل الكلّ بعدها عن هذا السرّ. هذه التساؤلات التي رآها في عيون الحاشية، وفي عيني زينوبة.

لم تكن تلك تساؤلات فحسب، ولكنها استنكار. وربما إدانة. إدانة من لا يجرؤ على أن يحتجّ، أو يستنكر، أو يعترض بعضلة اللسان. تساؤلات تطرح اليقين بغرابة الأطوار، لأن الملوك لا بدّ أن يستجيروا بالعبث عندما يعجزهم أن يفعلوا ما يجب أن يفعلوا، أو بالأصح ما يجب أن يُفعل. ولم يكن البلهاء يدرون أن النداء البعيد هو الذي يفعل لا هم الذين يفعلون. البلهاء لا يدرون أن السرّ في المحبة وليس الرغبة المجنونة في تبنّي أبناء الغرباء، برغم لا مبالاتهم بأبنائهم الذين أنجبوهم من صلبهم. لأن البلهاء لا يعلمون أن أصحاب السلطان أعلم الناس بحقيقة أبناء الصلب الذين لم يُخلقوا إلاّ لينفوا الآباء، لم يخلقوا إلا ليرثوا لا سلطان الآباء فحسب ولكن حياة الآباء أيضاً. أمّا أبناء التبنّي فهم شيء آخر. أبناء التبنّي أصدقاء. أبناء التبنّي أحبّاء، لأنهم لا يطمعون في أن يرثوا السلطان عن أصحاب السلطان. أبناء التبنّي لا يجدون مبرّراً لإنكار الإحسان لأن المحبّة لم تكن يوماً إحساناً. المحبّة هي الكنز الوحيد الذي لا

يباع ولا يشترى. أمّا أبناء الصلب فليسوا بأبناء ولن يكونوا أبداً أحبّاء، لأن ما يدفعهم لأن يتحيّنوا الانتقام ليس الشهوة لأن يرثوا فحسب، وإنما تصفية الحساب الخفيّ مع الآباء، لأن لسان سليل الأب لا بدّ أن يقول ولو سرّاً في خطابه الموجّه للأب: «أنت خلقتني وعليك أن تدفع الثمن! أنت يجب أن تدفع الثمن لأنك اخترت لي وجوداً لم تستشرني فيه!». سليل الأصلاب مخلوق يبيّت الثأر من الأب حتى لو كان ملاكاً. سليل الصلب حيّة تتخفّى في كم الأب ولا بد أن يأتي اليوم الذي تنفث في جسده السموم. فاللعنة على الأبناء الذين قُدّر لهم أن يلدغوا الآباء، واللعنة أيضاً على الآباء الذين لا يستطيعون أن يهنأوا إذا لم ينجبوا من أرحام النساء أبناءً. والمجد، كلّ المجد، لأبناء التبنّي الذين يبادلوننا المحبّة دون أن يضمروا لنا في قلوبهم انتقاماً!

عاد من رحلته المجهولة ليقول:

ـ طوبى لمن صار له الترحال ديناً! المرتحلون لا بدّ أن يكونوا سعداء لأنهم يرافقون في رحلتهم ذلك الغول الذي يروقه أن يقتلنا بالاستقرار، ولا نستطيع أن نقتله إلا إذا استجرنا به بالسير في ركابه: الزمن!

سكت زمناً. أضاف:

ـ الراحلون خلاّن الزمان. الراحلون أمّة لا تهرم، لأن أبناءها يموتون كما وُلدوا أطفالاً!

زفر بحسرة. فزّت من عينيه دمعتان. قال:

ـ ولكن كيف السبيل للانضمام إلى قافلة هذه الملّة؟!

9

أخيراً أدرك لماذا يستهويه البحر. أخيراً أدرك أن البحر هو البديل الوحيد لفردوسه الصحراء. بل هو القرين الوحيد لملكوت الصحراء. لأن في البحر، كما في الصحراء، لا يستطيع الإنسان إلا أن يعبر. لأنه إن لم يعبر فسوف يتحوّل نصباً، أو صنماً، أو بعبعاً لأنه إن لم يعبر فسوف يتحوّل علامةً في المكان لا وسماً في الزمان لأنه إن لم يعبر فسيستقرّ. وإذا استقرّ فقد خان وصيّة الأجيال الصحراوية الخالدة. وإذا خان الوصيّة فقد استحقّ القصاص والقصاص ليس موت الجسد وإنما هلاك ذلك الطلسم المتستّر وراء الجسد المسمّى في لغة الأجيال روحاً. ولهذا فإن مريد البحر كمريد الصحراء لا يستطيع أن يركن للمكان لأن لا وجود أصلاً لمكان لا في الصحراء ولا في قرينها البحر. لأن الصحراء، كالبحر، لم تكن يوماً مكاناً، ولكنها ظلّ مكان، إيماء مكان، روح مكان، أثر المكان المتبقّي من مكان آخر وجد على الأرض ثم زال من حدود الأرض بفعل الزمان. بفعل التقادم في الزمان. ولهذا السبب لا سبيل لمريد البحر ولمريد قرينة البحر الصحراء إلا العبور. إلاّ السباحة. إلا التهام المسافة والالتحاق بالآفاق. لأن في الآفاق وحدها تتخفّى الحرية. لأن في الآفاق يحيا الوطن الذي يعد بالخلاص. لأن الأوطان ليست في الأمكنة. الأوطان عنقاء لا تحيا في الأوطان. الأوطان وسوسة في القلب وليست ركناً مشدوداً إلى الأرض بسلسلة طولها سبعون ذراعاً. الأوطان وصيّة محمولة في وجدان سلالات الترحال ولم تكن يوماً أرضاً نزرعها، أو دابّة نحلبها، أو مسقط رأس نستثمره، أو رقعة نرثها لنجني محاصيلها. الأوطان شجن لا يرتوي إلا بالأناشيد التي تحاول أن تعبّر عن الحنين إلى الربّ.

ويوم قرّر أن يهجر الصحراء لأداء فريضة الحجّ استوقفه زعيم القبيلة ليقول له إن الصحراء التي يخرج منها ما هي إلاّ حرم. ما هي إلاّ أرض قداسة. وكل ركن فيها هو بيت الله. والصلاة في محرابها أيضاً صلاة. ولكنه أخبر الزعيم يومها أنه لا يخرج من صحراء ليستبدلها بصحراء أخرى، ولكنه خرج تلبيةً لنداء. والنداء نذر. النداء عهد. وتلبيته دَيْن في رقبة المريد. اضطرّ يومها أن يلفّق أكذوبةً ليحاجج الزعيم. ولكن الحيلة لم تنطلِ على هذا الرجل الحكيم. لأنه رأى الاستخفاف في عينيه. واليوم فقط تذكّر أن الزعيم كان على حقّ. اليوم، عندما تلقّى رسالة المجهول وانزلق في جوف التنّين، أدرك أن صاحب الصحراء، كسمكة البحر، يقع في الشرك ما إن يغترب عن ساحة العراء. لأن الخروج بعيداً دائماً خيانة للعهد ورسالة استفزاز موجهة إلى جناب القدر. وها هو القدر يقبل التحدّي ويبعث له بشروط المبارزة.

حمل الرسالة في عبّه أيّاماً ثلاثة، ثم ذهب ليفاتح المرأة بالأمر. قال لها إن الخطر يحوم حول الديار، ولا نجاة إلاّ بالفرار. شحب وجهها واستنكرت بصوت إنسان سمع نبأ الحكم عليه بالمنفى:

ـ أين تريد أن تذهب بي؟ أيعقل أن نهجر أرضنا ونترك بيتنا ونغترب في الفلوات كالمشرّدين بسبب أضغاث أحلام يراها الناس كل يوم؟

حاول أن يحاججها:

ـ لم يكن ذلك الكابوس أضغاث أحلام، ولكنه رؤيا. ليس رؤيا

فحسب، ولكنه رسالة صريحة. أنا أعلم، فإذا لم نفعل شيئاً فلن نلوم إلا أنفسنا!

ـ أعرف أنّك عرّاف. أعرف أنك تعرف أكثر مما أعرف، ولكن لا تنس أنّي ابنة مدينة ولم تطأ قدمي يوماً أرضاً أبعد من حقول المنشية، فكيف تريدني أن أغيّر ما بنفسي في ليلة وأذهب معك لأحيا في الصحراء؟

سكتت ثم بكت في ذلك اليوم كما لم يرها تبكي يوماً. بكت كما لم تبكِ يوم بلغها نبأ تنفيذ حكم الإعدام في أبيها وفي عمّها. أضافت وهي تكفكف دموعها بكلتا يديها:

ـ إذا كنت لا تريد أن ترحمني أو ترحم نفسك فارحم ابنتك التي لم تعد طفلة منذ زمن بعيد.

10

عيّنت فرنسا لدى الإيّالة قنصلاً جديداً. وما إن استلم المسيو مارتان (Martin) مهام عمله حتّى اندلعت حرب البحر فوجد الشقيّ نفسه بين مطرقة السلطات في بلاده وبين سندان القرمانلي. وها هو اليوم يُقْبِل أيضاً على السراي ليحتجّ. قال للباشا إن ما حدث للسفن التجارية الفرنسية أخيراً على يد قراصنة المملكة الطرابلسية ليس خرقاً للمعاهدات الموقّعة بين البلدين وحسب، ولكنه عمل يمكن أن يوصف بالجنون. حاول أن يسترسل ولكن الباشا استوقفه بإشارة صارمة ليقول:

ـ العين بالعين، والسنّ بالسنّ، والبادىء أظلم. ألستم أنتم معشر النصارى، من يقول هذا في دينه؟

فاعترض القنصل:

ـ هذه وصيّة لم ترد في أناجيلنا، ولكنّها ناموس في أسفار اليهود يا سعادة الباشا.

تطلّع إليه القرمانلي باستخفاف. قال:

ـ هذا عهد قديم، وذاك عهد جديد، وهما جزءان في كتاب واحد اسمه: «الكتاب المقدّس»، فما الفرق؟

ـ الفرق يا سعادة الباشا أن عقيدتنا تقول شيئاً آخر تماماً بالمقارنة مع عقيدة بني إسرائيل. يؤسفني أن يغيب عن بال الباشا. عقيدتنا تروّج للتسامح في وصيّة المسيح القائلة: إذا تلقيت صفعةً على خدّك الأيسر فأدر له خدّك الأيمن!

ـ وهل تريدني أن أدع قراصنتكم يعيثون فساداً في بحر ليبيا، ويلقّنون قوّتي البحرية الدروس كما يروقهم أن يقولوا بدعوى التسامح؟

ـ قراصنتنا يا سعادة الباشا يؤكّدون أن بحّارتكم هم أوّل من ابتدأ بالعدوان.

ـ هراء! تقول هذا والدماء في يدي «دي شنبراي» لم تجفّ بعد؟

ـ «دي شنبراي» ليس مواطناً فرنسياً يا سعادة الباشا.

ألاّ يكون «دي شنبراي» فرنسياً فهذا أمر أسوأ، لأن الجميع يعلم أنه عميلكم ويأتمر بأوامركم لا بأوامر مالطا التي يدّعي زوراً الانتماء إليها، اللّهم إلاّ إذا اعتبرنا اتخاذ أرض ما قاعدة للانطلاق دليلاً على الهويّة!

ـ ولكنه مالطيّ الجنسيّة بالفعل يا سعادة الباشا!

ـ حتّى لو كان مالطياً فهو بالنسبة لي، وبالنسبة للحقيقة، فرنسيّ فرنسيّ اللسان. وأن يكون فرنسيّ اللسان يعني فرنسي الروح. وأن يكون فرنسي الروح يعني فرنسي الانتماء. لأن الانتماء انتماء الروح لا انتماء الوثيقة الدنيوية التي نستطيع أن نشتريها بالمال ونتخلّى عنها وقتما نشاء. أمّا هوية اللّسان (التي هي وثيقة الروح) فهيهات أن نستطيع التخلّي عنها لأنها طلسم الربّ، لأنها لغز القدر.

سكت. التقط أنفاسه. أضاف:

ـ أعترف أنكم اتخذتموه حصان طروادة لتنتقموا من بحريتنا جزاء مخالفات قام بها أفراد ولم تكن يوماً نهجاً في سياستنا. ليس هذا فحسب، ولكن قمنا بتسويتها طبقاً لاتفاقات أُبرمت بين بلدينا ودفعنا مقابلها تعويضات ما كان يجب أن ندفعها لولا حرصنا على العلاقة مع بلادكم، واحترامنا لمليككم، ورغبتنا الأكيدة في نزع فتيل البارود في بحر ليبيا كلّه وتحويله إلى بحيرة آمنة بدل ساحة حرب كما نراه اليوم.

ساد صمت. تبادل القنصل مع الباشا نظرات طويلة حاول كل منهما أن يحمّلها رسالة خفيّة. رسالة لا تجيز التقاليد الدبلوماسية إعلانها بأي حال. أخيراً تكلّم القنصل:

ـ أردت أن أنقل لسعادة الباشا أن خطف هذا العدد من السفن التجارية الفرنسية وأسر طواقمها ليس بالعمل الجنوني فحسب، ولكنه في رأي حكومتنا هو بمثابة إعلان حرب!

هبّ القرمانلي في وجهه:

ـ أنتم من أعلن الحرب!

ـ أعرف يا سعادة الباشا أن الكثيرين في هذه البلاد لا يشاركون

سعادتكم الحرص على العلاقة مع بلادي. وأخشى أن أصوات هؤلاء كثيراً ما تعلو على صوت العقل فتدفعكم إلى اتخاذ مواقف لا تجلب النفع لا لبلادكم ولا لبلادنا، لأن المنتصر في الحرب يا سعادة الباشا مهزوم. أمّا المهزوم فهو مهزوم مرّتين، بل وأكثر من مرتين.

ـ نحن لم نذهب يوماً لمحاربة أحد. أنتم الذين تأتون إلى بلداننا لتحاربونا في ديارنا.

ـ أخشى يا سعادة الباشا أنكم لا تقدّرون خطورة الوضع.

ـ بل أقدّر خطورة الوضع أصدق تقدير.

ـ الجنوح إلى السلم، يا سعادة الباشا، لا يكلّف الكثير، وكلّ ثمن ندفعه في سبيل إحلال السلم أهون ألف مرّة من أنهار الدّم التي ندفعها فيما لو أخفقنا في التوصل إلى اتفاق يرضي الطرفين.

ـ كنت دائماً أكثر الناس استعداداً لإحلال السلام، ولكنكم كنتم دائماً تجدون المبرّر لخرق معاهدات السلام. يكفي أن يطلق مغامر من المغامرين طلقة من فوهة بندقية حتى تقيموا الدنيا وتهرعوا بسفنكم الحربية لتطالبوا القرمانلي بالتعويض كأنكم امتلكتكم بحر ليبيا ملكية أبدية من دون بقية الأمم، وإلا لماذا لا نجد دولاً أخرى تفتّش عن الذرائع لغزونا وضرب قلاعنا بالقنابل سواكم؟ لماذا لا نتنازع مع انجلترا، أو هولندا، أو السويد؟ لماذا لم يحدث أن اختلفنا مع دولة من هذه الدول منذ وقّعنا مع ملوكها المعاهدات؟ لماذا لا تذهب للبحث عن السرّ عند قناصل هذه الدول المعتمدين لدينا؟

طأطأ المسيو «مارتان» طويلاً بعد ذلك. لعن في ذلك اليوم

المهنة. لعن التقاليد الدبلوماسية التي لا تجيز القول ولكنها تبيح الاحتيال على القول. تبيح البحث عن لغة أخرى في تلافيف اللغة.

لأن عقيدة الدبلوماسية ليس التعبير عن النوايا، ولكن إخفاء النوايا. وإخفاء النوايا عمداً سجية الوغد وليس طبيعة الإنسان النزيه. ولهذا وجد المسيو «مارتان» في تلك المواجهة التاريخية مع القرمانلي حرجاً لم يعرفه يوماً. فهو لم يكذب يوماً ولم يظنّ أن قوّة في الدنيا يمكن أن تضطرّه إلى الكذب. ولو أباحت له نواميس البدعة الكريهة المسمّاة دبلوماسية لقال للقرمانلي الحقيقة. الحقيقة التي لا يعتقد أن الباشا يجهلها، ولكنه داهية يتعمّد أن يخفيها أيضاً منتظراً من الخصم أن يبوح بها. لأن من يبوح بالحقيقة هو الذي يخسر الرهان دائماً. لأن في الإعلان عن الحقيقة يكمن القصاص. في الإعلان عن الحقيقة يكمن الموت. والحقيقة التي أراد أن يقولها للباشا، أو يجب أن يقولها للباشا، بسيطة جدّاً ككل حقيقة. تلك الحقيقة تقول إن فرنسا تنازعكم لأنها قوّة عظمى. والقوّة العظمى لا بد أن تسحق القوّة الصغرى حتى لو لم تُرد ذلك. حتى لو تسامحت وتحلّت بأطيب النوايا. لأن شريعة القوّة تقول ذلك. لأن القوّة لا تصير قوة بالفعل إن لم تسحق. لأن القوّة ليست قوّة إذا وقفت مكتوفة اليدين. ولهذا فإن القوة تبحث عن مبرر لتسحق. تبحث عن حجة لتخرق الناموس وتدوس على رقاب كل الشرائع. تبحث عن حجّة لتدنّس. تبحث عن سبب لتهين ولتعيث في أرض الله فساداً. القوّة شيء منكر دائماً. والخطيئة ترتكبها القوّة لا الضعف. والقرمانلي داهية لأنه يعرف سرّ القوّة برغم أنه لا ينوي أن يبوح بهذا السرّ لأحد، لأنه ينتظر أن يجري على ألسنة الأغيار، على ألسنة الخصوم من قناصل

الدول المعادية أمثاله. فلماذا لا يشفي غليله ويرمي في وجهه بالحقيقة ولو مرّة واحدة وليكن ما يكون؟

تكلّم المسيو «مارتان» يومها مقرّراً أن يهين المراسم، ولكنه عندما تكلّم وجد نفسه يقول شيئاً آخر غير ما شاء أن يقوله:

ـ أنتم تعلمون، يا سعادة الباشا، أن بلادنا تولي ما حدث أهمية استثنائية، وواجبي كقنصل لبلادي في هذه البلاد يدعوني لأن أخاطب فيكم الضمير، لأني على يقين أن صوته قادر على أن يجنّب الناس في بلدينا أهوال الحرب.

رمقه القرمانلي بمقلة تنطق ببسمة ماكرة. قال:

ـ أعرف أنك تجد حرجاً في نقل الرسالة، ولكني لا أجد حرجاً في أن أنقلها لنفسي نيابةً عنك. أنت تريد أن توجّه لبلادي إنذاراً أخيراً. أنت تريد أن تؤكد تلك الشائعة التي تقول إن فرنسا بدأت في تصنيع أسلحة فتّاكة خصيصاً للانتقام من القرمانلي. ولكن أريدك أن تسمع رسالتي وتنقلها بالحرف إلى سلطات بلادك. رسالة القرمانلي تقول إن التلويح بالتهديد يصلح لإخافة الأطفال، وربما لإرهاب بعض الجبناء، ولكنه ليس اللغة التي يمكن أن يخشاها أحمد القرمانلي. قل لهم أيضاً إن الأسلحة التي تصنع خصيصاً لغزو بلادي لا تخيفني أيضاً، وعليهم أن يقصفوني بالقنابل منذ الغد إن شاؤوا. ولكن يجب ألا ينسوا عندها أن توقيع معاهدة مع فرنسا سيصير أبعد من نجوم السماء!

القسم السابع

1

في 22 من شهر يوليو عام 1725 رست في مرفأ طرابلس سفينتان مدججتان بأشرس الأدوات الحربية، تابعتان لسلاح البحرية الفرنسية بقيادة الأدميرال «دي فاتّان» (De Vattan) في نيّة معلنة هي توقيع معاهدة الصلح مع طرابلس، ونيّة أخرى خفيّة هي استعراض عضلات القوّة الفرنسية وإرهاب القرمانلي دون اللجوء إلى استفزازه، لأن ملوك الدول الواقعة على شطآن الجناح الشمالي من بحر ليبيا كانوا قد أدركوا بالتجربة الطويلة مع هذا الداهية أن القرمانلي رجل من طينة أخرى تختلف عن طينة بقية أهل السلطان في بلاد الشرق. فهو الوحيد الذي يمكن أن يتنازل حتى عن الحقوق إذا استخدم الطرف الآخر معه اللّين. ولكنه لا يستسلم أبداً فيما لو اشتمّ من الخصم رائحة وعيد أو إيماء تلويح باستخدام القوّة. ففي الوقت الذي اعتاد فيه أهل الشرق أن يعتبروا هذه النزعة جهاداً في سبيل الله، رأى فيها أهل الغرب تهوّراً، وربّما نزوعاً إلى الانتحار. ولما كان من المستحيل التنبّؤ بأفعال إنسان يعشق التهلكة أو يتوق إلى الانتحار، فقد حاولوا أن يأخذوه بالحيلة ويستخدموا في التعامل معه الدهاء، برغم أن هذا المسلك الذي سمّوه دهاء كثيراً ما خذلهم أيضاً ليكتشفوا بعد فوات الأوان أنهم خسروا عند التعامل معه من حيث ظنّوا أنهم كسبوا. ولم يكن أحد ليعلم بالطبع سرّ أمثال القرمانلي لأن الملوك والعقول التي تسيّر الملوك ليسوا أنبياء حتى يدركوا أن لا

ترياق يجدي في التعامل مع أولئك الذين اختارتهم الأقدار لحمل وزرٍ مّا. لأن الخصم في ذلك الوقت ليس المخلوق الفاني الذي ينازعنا وهو لا يملك من مؤهلات النزاع شيئاً، ولكنه القدر الذي يتخفّى وراء المخلوق الفاني. هذا القدر الذي لا نستطيع أن ننزل به هزيمةً حتى لو أوتينا قوّة شمشون أو هرقل.

نزل الأدميرال «دي فاتّان» إلى اليابسة واتّجه إلى القلعة برفقة قنصل فرنسا المسيو «مارتان» ولفيف من الضباط الفرنسيس وأكابر الإيالة، الذين بعث بهم القرمانلي خصيصاً لاستقباله، حاملاً في جعبته تفويضاً من ملك فرنسا بتوقيع معاهدة السلام مع القرمانلي، شريطة دفع تعويضات (اعتبرها الجانب الفرنسي رمزية) جرّاء ما لحق الأسطول التجاري الفرنسي من خسائر خلال حرب البحر الأخيرة التي أشعلها قبطان أحمق، وفوق ذلك مالطي الجنسية كما ورد في حيثيات البيان الفرنسي الملحق ببنود الاتفاقية.

ولكن مندوب مليك فرنسا كان يستشعر قلقاً بيّناً لم يكن ليستخفي عن عين القنصل الفرنسي «مارتان» أو عن حدسه الدبلوماسي بالأصح. وهو قلق صاحب المندوب طوال المحادثات المستفيضة مع الباشا داخل القلعة، ولم ينقشع حتّى عندما تم الاتفاق على سائر بنود الاتفاقية وتأهّب الوفد للانصراف. ساعتها استأذن الأدميرال الباشا للاجتماع به على انفراد. انسحب الأعضاء فوجد المسيو «دي فاتّان» نفسه وجهاً لوجه مع هذه الشخصية البسيطة، البشوشة، التي تسيطر على البحر فتخشاها الأمم، ويهرع لكسب ودّها ملوك أقوى الدول، وتنسج القارة الأوربية عن خطورتها الأساطير.

لم يعرف المندوب من أين يبتدئ، واستشعر الندم لأنه طلب الاختلاء بالرجل الأسطوري في أمرٍ يجزم الآن أنه أتفه من أن يكون سبباً للانفراد بصاحب سلطان دنيوي فكيف بصاحب سلطان خفيّ كالقرمانلي. ولكنه تكلّم أخيراً مقرّراً أن يقول كل شيء مرّة واحدة طمعاً في نيل الخلاص:

ـ لم أشأ أن أعكّر صفو سعادة الباشا أمام الأغيار، ولكن ما يسبّب القلق لصاحب الجلالة هو «الشيطان»!

استنكر الباشا:

ـ الشيطان؟!

ـ لا أعتقد أن سعادة الباشا يجهل هذا اللقب. إنه اسم مستعار لذلك القرصان الذي احترف إغراق سفننا وسفن الدول الأخرى بعد أن ينهب البضائع ويقضي على طواقمها!

حدّق القرمانلي في عيني المندوب زمناً. قال بلهجة بدت للضيف صادقة:

ـ لم أسمع بهذا الاسم قبل اليوم!

ـ فليسمح لي سعادة الباشا أن أذكّره بأن هذا القرصان هو الذي استصدر الباب العالي بشأنه فرماناً يقضي بإعدامه نزولاً عند طلب صاحب الجلالة ملك فرنسا!

تفكّر القرمانلي لحظة. ابتسم فجأة. لوّح بمسبحة ذات حبّات عسلية في الهواء قبل أن يقول:

ـ مهلاً، مهلاً! أذكر أني تلقيت فرماناً من الأستانة بهذا الشأن،

وأصدرت أمراً بالبحث عن هذا الشقيّ لتنفيذ حكم الإعدام بشأنه شنقاً على باب زنّاتة، ولكنه لاذ بالفرار إلى جهة مجهولة ولم يعثر له رجالي على أثر!

ـ أنتم لا تستطيعون يا سعادة الباشا أن تتخيّلوا الأهمية التي يوليها مولاي الملك لمصير هذا المجرم الذي سفك دماء مئات الأبرياء، وأغرق عشرات السفن، ونهب أسخى الثروات، ولم يجد الحماية إلاّ بشواطئكم!

ـ أريدك أن تبلّغ مليكك حرصي على سلامة الملاحة في بحر ليبيا، حرصاً يفوق حرص الكثيرين الذين يتشدّقون ليل نهار بالبحث عن سبل لتأمين حرية الملاحة في هذا البحر. كما أريدك أن تبلّغه نيّتي في القصاص من القرصان الذي تلقبونه بـ«الشيطان» لا تلبيةً لمطلبه فحسب، ولا استجابةً لفرمان الباب العالي فحسب، ولكن تنفيذاً لمشيئة العدالة الإلهيّة التي حرّمت إزهاق الروح، وإيماناً بتعاليم ديننا التي سوّت بين قتل النفس الواحدة بالقضاء على الإنسانية كلّها. ولكني أريدك أن تبلغه أيضاً. . .

تلكأ القرمانلي لا ليلتقط أنفاسه كما اعتاد أن يفعل، ولكن لكي يبثّ في البلاغ وصيّة مبطّنة ذات أهمية استثنائية:

ـ . . . أنّ القرمانلي ليس وصيّاً على قراصنة الأمم الذين يجوبون البحر، لأن البحر قارّة تفوق ليبيا وصحراء ليبيا اتساعاً، بل وتفوق مساحات البلدان التي تحيط به أيضاً. فكيف تُحمَّل طرابلس وحدها أوزار البحر وآثام المخلوقات التي تجوب البحر؟ لماذا لا تستطيعون أن تردعوا قطّاع الطرق في رقع بلدانكم ثم تطلبون من القرمانلي أن

يردع القراصنة (الذين لم يكونوا سوى قطاع طرق البحور)، هؤلاء القراصنة الذين يتنقّلون في بحر هو قارّة كاملة وليس مجرّد بحر؟ أليس تجنّياً أن تهرعوا إلى دياري في كل مرّة لتضعوا على عاتقي مسؤولية أدنى حدث يشهده البحر، في حين تعجزون عن وضع حدّ لعبث اللصوص في شوارعكم، ناهيك عن مغامرات قطّاع الطرق في برّكم؟

صمت القرمانلي ولكن المندوب الفرنسي غرق في الحرج. أدرك أنه أعجز من أن يأتي بحجة تستطيع أن تجبّ حجّة الباشا، ولكنه برغم ذلك تكلّم بنبرة لم تنقصها البلاهة:

ـ الحقّ أن مولاي الملك يولي هذه النقطة اهتماماً خاصاً..

ـ ماذا تعني بعبارة: «اهتمام خاصّ»؟

ـ أعني أنها جزء لا يتجزّأ من الاتفاقية يا سعادة الباشا!

ـ وكيف يكون القبض على قرصان جزءاً من اتفاقية؟

لم يجب المندوب فتكلم القرمانلي:

ـ ألا ترى في هذا شرطاً تعجيزياً؟

ـ الكلّ يجزم أن «الشيطان» يتحصّن بحماك يا سعادة الباشا..

تطلّع إليه القرمانلي بفضول. قال باستهزاء:

ـ تستطيع أن تفتّش حصوني، وقصوري، وديار حريمي، وحتى تلابيبي إن شئت، فإن وجدته مخبّأً في أي مكان من هذه الأمكنة فسوف أشنقه نيابةً عنك!

أطلق بعدها ضحكة ارتجّ لها بدن الأدميرال الفرنسي!

2

بعد مضي يومين على رحيل الوفد الفرنسي دخل رئيس الديوان على الباشا ولكنه تسمّر عند ضلفة الباب كعادته ليجسّ النبض. أومأ له الباشا فتكلّم:

ـ «الشيطان» ينتظر إذن مولاي بالدخول!

أشار له الباشا بيده فخرج ليدخل المخلوق الشهير بلقب «شيطان». كان مارداً، طويل القامة، عريض المنكبين، أسمر البشرة، مفتول العضلات، فاحم الشعر، يغطّي زغب كثيف غريب وجهه كلّه ويزحف ليستولي على وجنتيه وأنفه وأذنيه فيبدو كائناً عائداً من رحلة إلى الجحيم، فحقّ للناس أن يطلقوا عليه لقب «شيطان» لا لمواهبه في إغراق السفن، ولكن في هيئة جرمه المخيفة.

أومأ له الباشا بالجلوس فاقتعد أريكةً عريضة في مواجهة العرش. حدجه السلطان بنظرة ماكرة وهو يطوي أوراقاً كانت مكدّسة على الطاولة أمامه ويضعها جانباً.

مازحه قائلاً:

ـ عرفنا بالأمس سرّ الفرمان السلطاني بشأنك. إنه ملك فرنسا!

ابتسم «الشيطان» فانكشفت في فمه أسنان كأنها الأنياب. غمغم بصوت أجشّ:

ـ كما لا يهمّ الشاة سلخها بعد ذبحها، كذلك لا يعبأ من صدر بحقّه حكم الموت أن يكون من استصدر حكم الموت ملك فرنسا أم سلطان الأستانة!

ابتسم القرمانلي. قال بلهجة المزاح نفسها:

ـ لم أظنّ يوماً أن يطالب ملوك أقوى الدول برأسك. أم أنهم يفعلون ذلك لكي يزيدوك حظوة عندي؟

ابتسم «الشيطان» ابتسامة بلهاء فأضاف الباشا:

ـ أحدهم اعترف لي قائلاً إن إغراق السفن بدل أسرها هو أدهى حيلة اهتدت إليها بحرية الإيالة. هل تدري لماذا؟

لم ينتظر الباشا من القرصان جواباً. أضاف:

ـ لأن محو الأثر موهبة لم نعرفها إلا في الطبيعة!

سكت الباشا. ساد صمت. تكلم القرصان:

ـ محو العدوّ، يا مولاي، غاية كل محارب سواء أكان في بحر أم في برّ، لأن العدوّ الذي لا نقضي عليه في الحال لا بدّ أن يقضي علينا يوماً. أمّا محو الأثر فهو الوسيلة الوحيدة لتجنّب الأخذ والردّ، ولقطع دابر إحساس خادع كالشفقة غالباً ما ندفع الحياة ثمناً له. ولو استمع مولاي لنصحي منذ سنين بعيدة وسمح لي ولبقية البحّارة بإغراق كل السفن التي تنازعنا لجنّب الإيالة التورّط في بدع كثيرة كالتفاوض والمطالبات السخيفة بالتعويض، بل وخطر دفع الثمن بتلقي قنابل الانتقام. السر يا مولاي في قطع دابر الأثر برّاً وبحراً، لأن لا أحد يستطيع أن يحتكم إلى القتل من دون برهان. والبرهان دائماً في الآثار، في السفن التي نستولي عليها لنستخدمها، في الأسرى الذين نحتفظ بهم لنبيعهم. أما الأموال التي نغنمها فإنها لا تتكلّم، لأن المال لا لسان له ولا لون، ولا رائحة، ولا حتّى طعم!

أنصت إليه الباشا باسماً بسمة خفيفة ماكرة. قال:

ـ من المؤسف أن أصحاب السلطان كالقطط لا بدّ أن يلتهموا أولادهم، فلا تتوقّع منّي شكراً جزاء فلاحك في عملك، ولكن استعد لتلقي القصاص!

طأطأ «الشيطان» فتبدّى أمام الباشا تيساً مكسوّاً بأفحم الشعور قبل أن يقول بتسليم:

ـ رأسي فداء مولاي لأني لم أكن لأتجاسر لأغرق عشرات السفن لو لم أحسب نفسي شهيداً تلبيةً لنداء مولاي!

ـ أحسنت! من طلب الموت كُتبت له الحياة. لقد قررت أن أبعث بك إلى المنفى جزاء ما اقترفته من آثام.

اقترب منه فجأة حتى كاد أن يلامسه بأنفه. قال:

ـ ألا تشعر بتأنيب الضمير وأنت تغرق خلقاً من بينهم أطفال أبرياء ونساء حسان وشيوخ أشقياء؟

رفع القرصان بصره إلى الباشا. قال بصوت غريب:

ـ من لم يقتل ضميره لا يذهب إلى البحر يا مولانا!

اعتدل الباشا في جلسته. قال القرصان:

ـ إماتة الضمير هي أوّل شيء نتعلّمه يا مولانا قبل الذهاب في رحلة إلى البحر!

غاب الباشا بعيداً. قال من مملكة البُعْد:

ـ ما هو البحر في الحقيقة؟ إنه الحياة!

عاد من رحلته في البُعْد المجهول. قال:

ـ سأبعث بك لتحيا في كنف أمير «فزّان» إلى وقت تهدأ فيه العاصفة!

3

قصر فرساي. مايو 1727.

في البستان البديع الذي يتوسّطه مسبح مستطيل تصطف على جانبيه الشجيرات المشذّبة بعناية فائقة، وتنمو بمحاذاة الشجيرات أصناف الأزهار، تمشّى لويس الخامس عشر مصحوباً بأحد الأعوان. كان يمسك بعصا قصيرة موشاة في طرفيها بنقوش مجسّمة بمعدن الذهب، يلوّح بها في هواء ذلك اليوم الربيعي الجميل كأنه يدفع عن نفسه أشباحاً خفيّة، ويشهق من حين لآخر شهقات غريبة يُخيّل لمن يسمعها أنه يجاهد ليتحرّر من غصّة في البلعوم. قال الملك يخاطب الرجل ذا القامة القصيرة الذي سار إلى جواره متعمّداً أن يتخلّف وراء مولاه تارةً خطوة وتارةً خطوتين:

ـ همج طرابلس صاروا غصّة في حلقي، أفلم يحن الأوان لنزع هذه الشوكة مسيو «دي مونس»؟

كان النبيل «دي مونس» يمشي برفقة الملك وهو يتعثّر كأنه يترنّح لسبب مجهول. وقد ترنّح قبل أن يجيب عن سؤال مولاه حتّى كاد يسقط. توقّف الملك لويس الخامس عشر ونظر إلى الرجل من علّ منتظراً جوابه. تمتم «دي مونس» وهو ينحني أمام الملك حتى يكاد يقبّل قدميه من فرط قصر القامة:

ـ لا أعتقد أن الإطاحة بالقرمانلي عمل هيّنٌ يا مولاي، على الأقل في الوقت الحاضر.

ـ لماذا؟

ـ لاعتبارات كثيرة يا مولاي. أوّلها قوّته البحرية والبريّة، ثانيها استتباب أمن بلاده (فهو الوحيد الذي استطاع أن يخضع عصاة هذه البلاد من بين كل من حكمها خلال مئتي سنة الأخيرة)، أما ثالث هذه الأسباب فهو وجود بعبع اسمه الإمبراطورية العثمانية!

خطا الملك عبر الدرب المفروش بحبيبات الحصباء البيضاء اللّون. ولكنه ما لبث أن توقّف مرة أخرى ليخاطب النبيل الذي يسعى وراءه:

ـ ولكن تلقينه درساً ليس بالعمل المستحيل، أليس كذلك؟

ـ تلقين الدروس عمل ممكن دائماً يا مولانا برغم أني أشكّ في جدواه.

ـ لماذا؟

ـ لأن فقدان الثقة أمر سهل دائماً يا مولاي، ولكن استرجاعها أمر عسير!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول إنّنا نستطيع أن ندكّ حصون هذا الداهية بالقنابل منذ الغد، ولكننا سوف نخسر بحر ليبيا إلى الأبد يا مولاي!

سكت الملك. تقدّم عبر درب الحصباء خطوات. تطلّع إلى سماء الربيع الزرقاء التي تتسكع في رحابها سحب خاوية من الغيث. شهق مرتين. لوّح بعصاه الموشّاة بنمنمات الذهب في الفضاء. توقّف فجأة. قال:

ـ ولكن ألا نستطيع أن ندخل تحسيناً طفيفاً على الدرس فنحوّل أرضه كلها غنيمةً؟

ركع «دي مونس» أرضاً. قال عاجلاً:

ـ الاحتفاظ بطرابلس أعسر من الاستيلاء عليها يا مولاي حتّى لو لم توجد في الدنيا قوّة معادية هي الأستانة. وقد حاول الأسبان أن يقوموا بهذه المغامرة منذ ما يزيد على مئتي عام، ولكنهم أخفقوا لسبب بسيط وهو أنهم عاشوا طوال فترة حكمهم لتلك البلاد سجناء القلعة المطلّة على البحر وحدها، دون أن يفلحوا ولو مرّة في السيطرة حتى على المدينة سيطرة كاملة فكيف بالضواحي أو البوادي أو الصحاري؟

ـ عجباً!

ـ سرّ تلك البلاد ليس في سواحلها يا مولاي، ولكن في مكان آخر أبعد من السواحل.

ـ أي مكان تعني؟

ـ إنه الصحراء يا مولاي. فنحن لن نتمكّن من المملكة الطرابلسية ما لم نتمكّن من صحاريها.

ـ ولماذا لا نستطيع أن نتمكّن من صحاريها؟

ـ لأن الصحاري ليست أمكنة يا مولاي!

ـ ماذا تقول؟

ـ الصحاري ظلال الأمكنة ولكنها لم تكن يوماً أمكنة. فكيف نستطيع أن نستولي على ظلال المكان دون أن يكون ذلك حمقاً من جانبنا يا مولاي؟!

ـ ألا يحيا الناس في هذه الصحاري؟

ـ كلا يا مولاي. الناس لا يحيون في هذه الصحاري ولكنهم يعبرون هذه الصحاري!

ـ ماذا تعني بكلمة «يعبرون»؟

ـ أردت أن أقول إنهم لا يحيون في الصحراء في مكان محدّد كما يحيا الناس في المدن أو القرى، ولكنهم يحيون وهم يتنقّلون!

ـ ألا يستقرّون أبداً؟

ـ كلا يا مولاي. إنهم يسعون دوماً في طلب الكلأ، وربّما في طلب أشياء أخرى تستعصي على فهمنا!

ـ هل قلت تستعصي على فهمنا؟

ـ بلى يا مولاي، إنهم يبحثون عن الكلأ في ظاهر الأمر ولكنهم يبحثون عن الله في باطن الأمر!

ـ الله؟

هتف الملك باستنكار لدرجة أنست «دي مونس» فكرته. انحنى ليمنح نفسه فرصة لاستعادة التركيز. قال:

ـ يقولون إن الله في الحرية يا مولاي. والحرية في الترحال!

تمتم الملك وهو يخطو إلى الأمام:

ـ الحرية..

ثم شهق مرّتين قبل أن يضيف:

ـ ألهذا السبب يلجأ هؤلاء البلهاء الذين يطلق الناس عليهم اسم النساك إلى الصحاري؟

ولكن المسيو «دي مونس» سمح لنفسه بتجاهل سؤال الملك ليقول شيئاً آخر:

ـ لا أحد يستطيع أن يستولي على الصحراء يا مولاي لسبب آخر.

شهق الملك فأضاف «دي مونس»:

ـ الناس هناك يحملون بيوتهم على ظهورهم أو على دوابهم، ومن المستحيل مطاردتهم في سفرهم الأبدي لمجرّد رغبتنا في إرواء ظمئنا لإخضاعهم. إنهم عنيدون يا مولاي..

ساد صمت. ولكن ارتطام قدم الملك لويس الخامس عشر بحصباء الدرب الطويل كان يخدش حياء هذا الصمت. قال الملك:

ـ إذا كنّا لا نستطيع أن نستولي على هذه البلاد فأظنّ أننا نستطيع أن نرهبها، أليس كذلك؟

ـ بالطبع نستطيع أن نرهبها يا مولانا، لأن ممارسة الإرهاب حرفتنا من جهة، ولأن لغة الترهيب أفضل معظم الأحيان من لغة التنفيذ!

ـ حسناً، تستطيع أن تتوجّه إلى طرابلس في الغد لتوجّه باسمي إلى القرمانلي إنذاراً أخيراً!

لفظ الملك العبارة ثمّ شهق قبل أن ينطلق عبر الدرب المفروش بالحصباء بخطوات واسعة.

4

يوم وقع بصر القرمانلي على «زهرة الصحراء» (كما راقه أن يسمّيها) لم تسعه الأرض من الوجد، وقضى الليلة التي أعقبت اللقاء يقظاً مستنفراً يدبّ في بستان السراي وحيداً حتى طلوع الفجر.

في الصباح امتطى صهوة «الكميت» وانطلق إلى المنشية بصحبة عدد قليل من أفراد الحاشية. ترجّل عن جواده عند بيت صديقه المرابط (كما يدعو بعض العوام عرّاف الصحراء «آهر») ولكنه رفض دعوة ربّ البيت للدخول، قائلاً إن حوائج الخلق لا تنتظر وهو في عجلة من أمره. وقفا في الخارج صامتين (كما روى شهود العيان فيما بعد). ويبدو أنهما تفاهما في تلك الوقفة الغريبة التي لم ترُق الحاشية لأنها لم تكن لتليق بمقام أمير المؤمنين أحمد الأكبر كما راق بعضهم أن يعبّر تالياً.

أومأ القرمانلي لصاحبه مترجماً بتلك الإيماءة الغامضة رغبته في الاختلاء به على انفراد. سارا عبر الحقل المترب المزروع بنباتات الخضار وأشجار الزيتون والنخل والبرتقال. حاولت زمرة من العسس أن تنضمّ إليهما، ولكن الباشا رفع سبّابته في وجوههم محذّراً فتراجعوا. لم يتراجعوا تماماً ولكنهم تظاهروا بالتراجع ثم تسلّلوا خلفهما متستّرين بأشجار الحقول خوفاً من أن يصيب المولى مكروه، يقيناً منهم بأن السلطان إذا صار سلطاناً فليس من حقّه أن يتحرّر من العسس. ليس من حقّه أن يقرّر الاختلاء مع من يشاء وقتما يشاء أينما يشاء، لأن نفسه ليست بيده، نفسه لم تعد بيده، بل أمره كله لم يعد بيده، ولكنه بيد العسس. بيد الخدم الذين يقرّرون

مع من يختلي، ومتى يستطيع أن يختلي، وكيف يختلي، وأين يختلي، شريطة ألاّ يغيب عن أنظارهم، أي بشرط ألاّ يختلي أصلاً. أمّا إذا تمرّد صاحب السلطان على هذا النظام فسوف يعضّ بنان الندم. لأن الخدم (أو العسس) سوف ينتقمون منه شرّ انتقام. لأن الخدم سوف يخذلونه في الوقت المناسب. يخذلونه بالتنازل عنه لأعدائه ليبرهنوا له على ولائهم، ليبرهنوا له على سلطانهم. ليبرهنوا له أنه لم يعد سلطاناً على الناس منذ اتّخذ لنفسه خدماً وعسساً وحاشية وأعواناً. يرمون به إلى التهلكة ليدلّلوا له أنه ليس السلطان في حقيقة الأمر ولكنهم هم أصحاب السلطان!

بلغ الصديقان القديمان الرابية القديمة التي اعتادا الاجتماع على شعفتها في سنوات العمر الضائع. كان «آهر» يستشعر الخطر لأن النبوءة تأخّرت. وتأخّر النبوآت ليس علامة تدل على خير أبداً. وحلول الشرّ دائماً خير من انتظاره. وكان أدرى الناس بأن الفرار لم يكن لينجيه حتّى لو لم ترفض المرأة الهجرة معه إلى الصحراء. هذه الهجرة التي أدرك أنها حيلة مضحكة لأن استكشاف الغيوب علّمه أن الأقدار إذا قرّرت أمراً فلا نجاة منه حتّى لو عاد المرء إلى بطن أمّه. والرؤيا بنت الأقدار. النبوءة سليلة الأقدار الشرعية. وهو يعرف منذ أول وهلة أن الزوبعة لن تهب إلاّ من القصر. لأن التّنين الذي انزلق في جوفه لن يكون إلا صاحب السلطان كما يقول التأويل المستعار من معجم العرّافين الصحراويين. فماذا في جعبة الباشا يا ترى؟

ولكن القرمانلي لم يتكلّم. تشبّث بالصمت بعناد طفل اقترف إثماً ولا يريد أن ينبس لئلاّ يعترف. كان القرمانلي يستشعر تأنيب

الضمير. هذا اللغز المبهم الذي قال له القرصان إن الإنسان لا بد أن يقتله في نفسه فيما إذا قرر ركوب البحر. وركوب البحر ليس شيئاً آخر غير ركوب الدنيا. ليس شيئاً آخر غير طلب المجد. ليس شيئاً آخر غير طلب الوهم. لأن طلب المجد ليس سوى الإثم الأكبر في هذه الرحلة. لأن الفظائع التي تُرتكب في هذه الرحلة سببها طلب المجد. وهو يستطيع أن يتباهى أمام نفسه قبل أن يتباهى أمام الأغيار أن طلب المجد هو ما لم يخطر له على بال. ورحلته لم تكن لتبتدىء لولا مبدأ آخر أكثر غموضاً أطلق عليه اسم النداء. ولن يغفر لنفسه أبداً فيما لو اتضح أن هذا الاسم الغامض (النداء) ليس سوى الاسم المستعار لخطيئة اسمها المجد. لأن طلب المجد عمل رهين بخسارة الضمير. وهو يعتقد أنه لم يخسر ضميره. لقد استخدم بشراً بلا ضمير حقّاً، ولكنه فعل ذلك لتحقيق السعادة للبشر لا لنفسه، برغم أنه أعلم الناس بأن ممارسة السلطان على الناس والاحتفاظ بالضمير نقيّاً عمل من قبيل الإعجاز حقّاً. والنداء طلسم لم يترجمه لنفسه كرديف لباطل اسمه المجد، ولكنه اصطفاه لنفسه كما يصطفي الربّ لنفسه خلاًّ ليطلق عليه في سويعات التجلّي اسماً مهيباً هو «الحقيقة»! فهل أخطأ؟

لا يدري يقيناً، ولكنه على يقين أنه يستطيع أن يتخلّى عن السلطان في أي لحظة، ولكنه لن يتنازل عن الوسوسة. لن يتنازل عن النداء. لن يتنازل عن الحقيقة. وكان بإمكان رحلته أن تتوّج بالفوز منذ زمن بعيد لولا علّة اسمها الهوى. لولا سلطان اسمه النساء! لولا سلطان اسمه الجمال!

5

قال القرمانلي أخيراً:

ـ هل سمعت يوماً بصاحب إحسانٍ يطلب إحساناً؟

أجاب «آهر» وهو يطوف ببصره بعيداً:

ـ لماذا لا يطلب صاحب الإحسان إحساناً إذا كان خالق الخلق يطلب من المخلوق أن يعبده!

ـ هل طلب المعبود من عبده العبادة عمل من قبيل الإحسان؟

ـ كلّ عملٍ خيّر هو عمل إحسان فكيف إذا كان هذا العمل أنبل الأعمال ألا وهو العبادة؟

ـ هل تستجيب لي لو طلبت منك إحساناً؟

ـ الصداقة فداء مؤجّل، ولستُ أنا من يبخل على صديق بما ملكت اليد.

سكت القرمانلي. كان يقتعد الأرض فوق قمة الرابية ويراقب السهل العاري المؤدّي إلى شاطىء البحر الخالد في مدّه وجزره، في سكونه وهياجه، في غمره وامتداده، في زرقة مياهه وبياض أمواجه. من رحاب رحلته عبر المدى الأبدي تكلّم القرمانلي:

ـ أنا مخلوق عاشق وترياقي بين يديك!

حدجه العرّاف مستفهماً ولكن القرمانلي لاذ بالصمت فتساءل «آهر»:

ـ هل قلت إن ترياقك بين يدي؟

ـ بلى. إنه ابنتك!

هاجر العرّاف إلى الآفاق أيضاً. ركب البحر أيضاً. اغتسل بفيوض الموج أيضاً. نهل من بلسم الحرية أيضاً. غاب إلى حدّ تخيّل نفسه مريداً يتجوّل في الصحراء كما كان يوماً، وكما كان دائماً، لأن الصحراء هي الوطن الذي حمله في قلبه ولم يفارقه دوماً. ولا يعرف هو نفسه ما الذي شدّه إلى هذا المكان طوال هذا الزمان. هل هو المرأة؟ هل هو الابنة؟ هل هو العادة تحوّلت قيداً بل استعباداً؟ لا يدري. ما يدريه هو أن شرائع الصحراء التي تُنصِّب من المرأة معبودةً لم تبخل بالمرأة على رجل يوماً. لم تبخل بالنساء حتّى على الأغراب. لم تبخل بالمرأة على رجال بلغوا من العمر أرذله. لم تبخل بالمرأة لا على الرجل فحسب ولكن على الذكر أيضاً ليقين الأجيال أن المرأة لم تُخلق إلا لرجل. ليقين القبائل أن المرأة ليست امرأة إن لم تقترن برجل. وقد ابتسم عندما تذكّر السير الأسطورية التي تُروى في الصحراء عن قبائل لم تبخل بالنساء حتى على الكلاب!

أعلن:

ـ ناموس الصحراء علّمني أن المرأة ليست امرأة إن لم تذهب إلى بيت الرجل. أمّا إذا كان هذا الرجل خلاً فذاك شرف آخر. فإذا كان هذا الخلّ هو أحمد القرمانلي فذاك شرفان!

عدّل الكاهن اللثام حول وجهه. تفقّد الخلاء المائي البعيد. ثم تساءل كمن تذكّر أمراً:

ـ ولكن.. ألم يبلغني قرانك من أربع نساء؟

أجاب الباشا بلا تردّد:

ـ بل أكثر من أربع!

التفت إليه الكاهن. في مقلتيه سؤال، وربّما استنكار. قال بصوت مريب:

ـ لا أحسبك تطلب يد ابنتي لإشباع نزوة!

لم يجب القرمانلي طويلاً. قال أخيراً:

ـ لا أحسبك أيضاً تريد من أمير المؤمنين أن يطلّق إحدى نسائه!

حدّق الكاهن في وجه الباشا، ولكن القرمانلي فرّ بعينيه بعيداً. ركب البحر في نيّة لملاحقة الأفق إلى الأبد. قال الكاهن:

ـ أنت تمزح!

ـ لا تجعل منّي أضحوكةً!

استنكر «آهر»:

ـ أنا من يريد أن يجعل منك أضحوكة، أم أنت الذي يريد أن يجعل منّي أضحوكة؟!

قال القرمانلي بيقين إنسان اغترب عن مملكته ثم استعاد عليها السلطان:

ـ يحقّ لأصحاب السلطان ما لا يحقّ لرعايا أصحاب السلطان، فاحترس!

ـ شرْع الخالق لم يفرّق بين مخلوق ومخلوق!

ـ لم أجلب إلى مخدعي أربع قرينات إرضاءً لنزوة يعلم الله، ولكن حرصاً على وحدة البلاد التي وضعت الأقدار زمام أمرها بين يدي. فأرملة الأرناؤوطي لكسب أهل المدينة، والتركية لذرّ الرماد

في عيون الجالية التركية وبقايا الإنكشارية، والجبلية لاسترضاء قبائل الجبل، والدرناوية لاستمالة أهل برقة وما حول برقة، فأيّ هذه النساء تريدني أن أطلّق دون أن أزعزع البنيان الذي شيدته بيديّ؟

ـ لا أريدك أن تطلّق أيّة امرأة، ولكني لا أريدك أيضاً أن تُدخل ابنتي إلى مخدعك محظيّةً!

ـ احترس!

ـ إعلم يا سعادة الباشا أن هذا لن يحدث حتى لو سمحت أنا بأن يحدث. لن يحدث حتّى لو سمحت أم البُنيّة (التي أهلكت لها الأب وشقيق الأب) أن يحدث. لن يحدث حتّى لو شاءت الفتاة نفسها أن يحدث. .

كتم الباشا غيظاً مميتاً. تساءل بهدوء ينذر بعاصفة:

ـ لا أعرف ما الذي يحملك على يقين كهذا!

ـ الناموس يا سعادة الباشا!

ـ عن أيّ ناموس تتحدّث؟

ـ الناموس الذي أوجد الناس أحراراً!

ـ هل نسيت الناموس الآخر الذي يقول أن لا حريّة لمملوكٍ بحضور صاحب المُلْك؟ هل نسيت أنّك ستتحوّل مجرّد عضو صغير في رعيّة هائلة فيما لو جرّدتك من رعايتي وسحبتُ من تحت قدميك بساطي؟ أم أنك ما زلت تظنّ نفسك مهاجراً صحراوياً يتنقّل في صحراء لا بداية لها ولا نهاية؟

التقط أنفاساً. أضاف:

ـ إعلم إنّك أنت الذي نزلتَ دياري ولم أذهب أنا إلى ديارك. اعلم إنك أنت مَنْ وضع القيد في يديك يوم هجرتَ نجوعك ونزلت أرباعي. اعلم إنّك أنت من ذهب إلى العبودية طائعاً وخنت الحرية التي يروقك وأمثالك مِنْ ملل الصحراويين أن يتغنّوا بها في أشعارهم! فهل أدعك تملي عليّ نواميسك بعد أن خذلتَ نواميسك؟ هل نأمل أن نجد خيراً في إنسان اغترب عن وطنه بلا سبب؟

هبّ الباشا واقفاً فتقافز العسس من كل صوب ليلتفّوا حوله بعد أن كانوا يتستّرون وراء أحراش النخيل. قال وهو يهمّ بالانصراف:

ـ عليك أن تهيّىء لها هودجاً في الغدّ إذا كنت تريد خيراً بنفسك وبزوجك وبابنتك!

نزل الرابية بخطوات واسعة مطوّقاً من كلّ جانب بلفيف العسس!

6

في الساعة التي انتهى فيها الأب من تهيئة ابنته اختلى بها في إحدى الغرف ليقول لها شيئاً. كانت زهرة حقيقية في ذلك اليوم.

كانت زهرة صحراوية أكثر من أيّ يوم مضى. لأن زهور الصحراء وحدها تستعير من المجهول ذلك الجمال الذي لا نظير له في زهور الحقول. ربما بسبب شحّ الصحراء وفقرها من هذه الابتسامات الجذّابة التي يسميها الناس زهوراً. ولهذا يستعير بهاؤها بُعْداً سرياً آسراً. لا ينال زهر الصحراء هذه الجاذبية الفريدة فحسب، ولكنه ينال شذى فريداً أيضاً يختلف عن شذى زهور الحقول المرويّة. والفتاة في ذلك اليوم لم تكن زهرة صحراوية فحسب،

ولكنها كانت معطّرة أيضاً كما يليق بزهرة صحراوية. لم تكتف الإماء بغسلها بمياه السلسبيل، ولكنهن أغرقنها في حوض ملآن بأخلاط زهور حقيقية، ثمّ دلّكن جسدها بمراهم مستحضرة من أجناس أخرى من الزهور. رسمن حواجبها بالكحل. رسمن رموشها بالكحل. وضفرن شعرها في جدائل جليلة. بعدها طوّقن جيدها بقلائد الذهب (حسب رغبة الباشا) حتى تدلّت على صدرها البكر. وعقدن أساور سخيّة حول معصميها، وثبتن على جبينها علامة الربّة «تانيت» المسبوكة من الذهب على هيئة مثلّث كي تجيرها من العين الشريرة. ولكنّهن حرصن على استكمال الشعيرة بدس جسدها في ثنايا ثوب منسوج من أندر أصناف الحرير، كأنهن يدسسنها في كفن قبل أن تعلن إحداهن بصوت مصحوب بزغاريد الفرح قائلةً إن «العروس على استعداد للالتحاق بمخدع العريس!».

في هذه الهيئة وقفت الشقية أمام الأب ساعة اختلى بها في دارها ليقول لها شيئاً. بل لا ليقول لها شيئاً، ولكن لكي يقدّم لها عطيّةً حسب تعبيره. أخرج من جيبه صرّةً صغيرةً ملفوفةً في قطعة جلد. ووضعها بين يديها قائلاً إنها ترياق سوف ينسيها محنتها وينتقم لها من أعدائها. أوصاها أيضاً ألاّ تنسى أن تضع محتوى الصرّة في فمها وتبتلعه دفعة واحدة ما إن تطأ قدماها مخدع الباشا. ثمّ.. ثمّ احتضنها بكبرياء أكابر الصحراء. همس لها في أذنها أيضاً بلهجة أكابر الصحراء: «الإنسان لا يجب أن يخاف الموت، ولكن يجب أن يخشى العار!». ثم تخلّى عنها لأعوان الباشا كي يأخذوها في الهودج إلى السراي.

اشتدّ نحيب الأمّ ولكن ولولة المسكينة ابتلعتها زغاريد النساء وأهازيج المغنيات اللائي أمر الباشا بإرسالهن خصيصاً للمشاركة في هذه المناسبة. تحرّك الموكب يحيط به الفرسان والخدم والفضوليون وأطفال الحيّ. سار الموكب حتّى بلغ أسوار المدينة فانضمّت للقافلة جموع أخرى. قُرعت الطبول، ونفخ الفنّانون في أفواه المزامير وتعالت صيحات البهجة، وتزعزعت الأسوار بالصيحات والأغاني والزغاريد.

دخل الهودج المهيب شوارع المدينة وعبر في طريقه إلى السراي.

حلّ الغروب وزحفت العتمة على المدينة في الوقت الذي ساقت فيه الزمرة «العروس» إلى الموقع الأخير، إلى المخدع الأخير. هناك، في المخدع، تركتها النساء وقبعت تنتظر دخول الباشا. هناك، فوق السرير الكبير، المفروش بأغطية الحرير، أخرجت من صدرها صرّة الأب، هديّة الأب. نزعت خيط الجلد فوجدت في الصرّة مسحوقاً كئيباً تفوح منه روائح أعشاب مجهولة.

أغمضت عينيها وألقت بالمسحوق في فمها. ابتلعته دفعة واحدة وتطلّعت إلى الشباك حيث كانت شمس المغيب تحتضر فوق أفق البحر. نهضت واقتربت من الشباك. كانت شمساً كبيرة، حمراء، قانية في حمرتها، تهوي في البعد ولكنها تبدو كأنها تغرق في البحر الأبدي الساكن على نحوٍ يوحي بأنه ينتظر أمراً، على نحوٍ يوحي بأنه يريد أن يبوح لها بسرّ. غرق قرص النار في اليمّ حتّى منتصفه فاستعار الغمر من المهاجر الغابر لون الدّم فاستعر الإلهام في مياه البحر وصمّم أن يعلن السرّ.

بعد قليل استولى على أطرافها خدر مفاجىء ظلّ يتمادى ويتمادى حتى شمل البدن كلّه. خدر لذيذ لا يُقارن إلاّ بلذّة الشمس وهي تتوارى وراء الأفق وتغرق في البحر. قبل أن تغمض عينيها وتغيب عن الجسد وعن الدنيا سمعت البحر يتلجلج بالنبوءة ويبوح بسرّه.

عندما دخل الباشا ووجدها مسجّاة على السرير كانت ابتسامة غامضة ترتسم على شفتيها الشاحبتين، المزرقّتين.

7

لم يعرف أحمد باشا القرمانلي يومها كيف وصل المنشية، أو كيف اهتدى إلى بيت الداهية، أو كيف حاور الداهية. ما يعرفه أنه وجد في مخدع العشق جثمان الحُسْن بدل إلاهة الحُسن التي حلم بنيلها كما لم يحلم يوماً بنيْل امرأة في هذه الدنيا. دخل الدار فوجدها ممدّدةً على الفراش كأنّها تستلقي، كأنها تسترخي، كأنها تستريح من سهر الليالي التي سبقت المراسم، ومن هرج الطقوس التي رافقت خروجها من بيت الأب في طريقها إلى بيت الأبد.

كانت تهجع على جنبها الأيمن بعينين مهيبتين مفتوحتين مصوّبتين نحو النافذة المطلّة على البحر. على شفتيها تلك البسمة الغامضة التي لم يكتب له أن ينساها إلى الأبد. بسمة امتزجت فيها سيماء كثيرة: السخرية، والإعياء، وخلاص البدن وصاحبة البدن من الألم ومن استعباد الدنيا وأسياد الدنيا. لم تكن تلك ابتسامة، ولكنها رسالة. قرأ فيها رسالة صريحة حتّى قبل أن يلمس الجسد ليكتشف تخلّي الروح عن الجسد. ليكتشف نهاية العهد بين الروح والجسد. ظنّ في البداية أنّها تلقّت طعنة من يد المكيدة فتفقّد البدن كلّه،

ولكن لا أثر لدم ولا سيماء لخنق أو شنق. كانت ما تزال ترنو إليه بعينيها الكبيرتين الكحلاوين الشبيهتين بعيني غزالة صحراوية مستنفرة. وانفراج الشفتين المكتنزتين الشهيتين متوّج بإيماء البسمة الخرافية المرسلة كوصية مطلسمة من كائن لم يعد ينتمي إلى هذا العالم. ركع على ركبتيه واحتواها بين ذراعيه. احتضن جسدها البارد وشهق كأنه يلفظ أنفاس النزع الأخير. أطلق صوتاً منكراً شبيهاً بعواء الذئاب. من فمه سال لعاب سخيّ. ولكنه التحم بجسدها كأنه لا يريد أن يعترف بخروجها. التحم بها ليبثّ الدفء في جسدها. التحم بها ليعيد لغز الروح إلى جسدها. التحم بها ليحييها. مدّ يده لينزع ملابسها. ليفكّ أزرار ثوبها. ليجرّدها من راية عرسٍ لم تشأ له الأقدار أن يتمّ. ليحرّرها من الكفن. ليستعيدها من براثن الكفن. وها هي الحرارة تسري فيها. ها هو دفء الحياة ينتقل من جسده إلى جسدها. ها هي الطاقة الخفية تهبّ لنجدتها. ها هي تتنفّس. ها هي تحتويه بذراعيها. ها هي تستجيب لوشوشاته. تستجيب لهمساته. تستجيب لنداءاته. تستجيب لشهواته. تستجيب فتبادله عناقاً بعناق، عشقاً بعشق، انتشاءً بانتشاء، حمّى بحمّى.

لا يدري كم استمرّ هذا الهذيان، ولكنه عندما فزّ من المخدع كان قبس الفجر يرسم في النافذة آيةً ليوم جديد ونعي ليوم ضائع.

فرّ وخرج. لا يدري كيف استغفل العسس وامتطى صهوة جواده. فرّ إلى المنشية ليطرق باب داهية المنشية كما يروق لبعض الأهالي أن يلقّبوه. لم يطرق للكاهن باباً لأن الكاهن خرج لملاقاته ما إن ترجّل عن صهوة الجواد كأنه كان في انتظاره. وقف في مواجهته كالشبح.

وقف في مواجهته كأنه رسول ظلمات. وقف في مواجهته في عتمة الصبح حاسر الرأس، مجرّداً من اللثام لأوّل مرّة منذ عرفه. تأهّب ليتكلّم ولكن غصّة خنقته فسكت ليتكلّم العرّاف نيابة عنه:

ـ جئتني تطلب تفسيراً للرسالة، أليس كذلك؟

همهم القرمانلي بكلمٍ غير مفهوم فأوضح الكاهن:

ـ إيّاك أن تعادي إنساناً لا يخشى الموت! هذا ما تقوله الرسالة!

كانت أنفاس القرمانلي تتلاحق، والعرق ينزّ من جبينه فيغمر عينيه ويسيل على أنفه. لم يتبدَّ للكاهن ساعتها غاضباً، ولكنه تبدّى محطّماً. رآه محطّماً إلى حدّ استشعر نحوه الشفقة: ذلك الإحساس المميت الذي لا يجدي عادةً لأنه في الحقيقة ليس سوى صفقة. هبّ لنجدته قائلاً:

ـ لست أنت من أخطأ ولكن أنا من أخطأ، لقد اتفقنا. أخطأتُ مراراً. أخطأت يوم اغتربتُ عن الوطن الوحيد الذي لا يغفر لأبنائه الاغتراب وهو الصحراء. واغتربتُ مرّة أخرى يوم ركنتُ إلى أرضٍ أكثر من أربعين يوماً فصرتُ عبداً لها. لم أكتف بذلك ولكني ارتكبت خطيئة ثالثة يوم اتخذت في أرض الأغراب قرينةً. أمّا أشنع هذه الخطايا فهي أني اتخذت من صاحب السلطان صديقاً!

تمتم القرمانلي:

ـ بأيّ حقّ تقول هذا؟

ـ إذا صاحبنا السلطان خسرنا مرّتين لا مرّة واحدة، لأن السلطان إذا أحسن إلينا استعبدنا بإحسانه، فإن غضب منّا أهلكنا بغضبته!

لاحظ أن الباشا كان يرتجف طوال الوقت. ولكي يخفي انفعاله لوّح بيديه في الهواء مراراً، ثم أخفاهما وراء ظهره تارة أخرى.

أمّا «آهر» فلم يقف تحت سماء ذلك اليوم كما وقف طوال السنوات الماضية. وقف يومها عاري الرأس من اللثام فتبدّى شاحب الوجه، أحمر العينين، شعره الأشعث موشّى بالشيب، طويل الأذنين، غائر الوجنتين. قال بيقين:

ـ ولكنّي اليوم أقف أمام القرمانلي دون أن أخاف القرمانلي. هل تدري لماذا؟

لم ينتظر جواب الباشا، ولكنه أضاف:

ـ لأنّي تحرّرت..

أطلق صوتاً غريباً شبيهاً بضحكة مكتومة. قطع في البستان خطوات أمام الباشا قبل أن يقول:

ـ ليس هذا فحسب ولكنّي أقف أمامك اليوم بضمير نقيّ، وهو ما لا تستطيع يا سعادة الباشا أن تقوله عن نفسك لأنك خنت الإنسان الذي أحسن لك مراراً وأردت أن تلطّخ شرفه بالعار جزاء هذا الإحسان. أردت أن تنتقم منه شرّ انتقام لأن الناس لا بدّ أن يردّوا الإحسان انتقاماً!

تمتم الباشا وهو يخطو أيضاً:

ـ حسبك!

ـ كنت يا سعادة الباشا اللسان الذي يتكلّم طوال سنوات كثيرة جدّاً وكنت أنا الأذن التي تسمع طوال هذا الزمان. أمّا اليوم فأنا من

نال اللسان عن جدارة، فحقّ لي أخيراً أن أتكلّم لأقول كلمتي أيضاً، لأن من تحرّر فقط لا يخشى أن يقول كلمته أمام الملوك!

في الشرق أطل أوّل قرون الشمس. في الحقول دبّ الفلاّحون. في الفضاء العاري من السحاب تبدّت السماء زرقاء، ساكنة، غير آبهة بما يحدث تحت قبّتها المكابرة، برغم أنها تبدو اليوم شاهداً لا ينقصه الفضول.

قال الكاهن:

ـ خطيئتك يا سعادة الباشا ليست في أسرارك، ولكنها في أفعالك!

سكت فاستفهم الباشا بنظرة. أوضح العرّاف:

ـ أوليت كل عنايتك للبصر على حساب البصيرة، في حين كان يجب أن تنبذ ما يُرى بالعين إكباراً لما لا يمكن أن يُرى إلاّ بالقلب، ثم تتباهى أمام نفسك بعد ذلك بطلب المحال!

تساءل الباشا باستنكار:

ـ عن أيّ محالٍ تتحدّث؟

فأجاب الكاهن باستخفاف:

ـ أنت تعلم عن أيّ محال أتحدّث، أم أنك نسيت أنّي عرّاف، أو مرابط كما يسمّيني الناس في هذه البلاد؟

ـ جدير بك أن تفصح!

ـ السرّ أبعد من السماء إذا حاولنا أن نناله بعضلة اللسان، أو بالعين، لأن البصر عماء في حين أن القلب حَرَم.

قال القرمانلي لنفسه: «لقد أدرك الداهية سرّي، ولم يبق للوغد إلاّ أن يسمّي ندائي!». ولكن العرّاف أضاف:

ـ لقد أعمتك العين التي لا تشبع من النظر فطعنتَ الإنسان الذي أنقذك يوماً من هلاك أكيد، لأنك لا تدري أن كل بلايانا إنما تتخفّى في سلطان النظر؛ لأننا لا نرغب إن لم نرَ، ولا نحترق بالشهوة إن لم ننظر بالعين. ولهذا فإني قررت أن أحسن لك من حيث أسأت لي فأجرّدك من هذا الدّاء!

تطلّع إليه القرمانلي. في مقلتيه الحمراوين، الجنونيتين، استفهام، وفضول، ولا مبالاة أيضاً. قال «آهر»:

ـ سأريد لك قصاصاً أرى فيه خلاصك لأنّك لن تفوز بندائك يوماً ما لم تتحرّر من عمائك!

تمتم الباشا:

ـ عمائي؟

ـ بعماء البصر ننال بصر البصيرة، بفقدان نور العين ننال نور القلب!

ـ ماذا تقول؟

ـ يوم أوتيتُ الشجاعة لأتحرّر وضعتُ زمام أمري بيد الخفاء. والخفاء لا يخذل من استجار به أبداً، فكيف إذا كان المستجير به هو إلى جانب ذلك ضحية جور؟

لوّح الباشا بيده إلى السمآء. هتف بأعلى صوت:

ـ يكفي!

ولكن العرّاف صرخ في وجهه بأعلى صوته:

ـ كلاّ، كلاّ. هذا لا يكفي يا سعادة الباشا. يجب أن تسمع بيان القصاص إلى النهاية. فانتقامي لم يتوقّف عند حدّ حرمانك من إرضاء شهوتك الآثمة، ولكن الثمن هو فقدان البصر في هاتين العينين اللتين أبصرت بهما ابنتي الوحيدة فكانتا سبباً في هلاكها وهلاكي!

لوّح بيده في الهواء فانحسر ثوبه الفضفاض الواسع الأكمام فأبصر الباشا مديةً مدسوسةً في غمد منمنم برموز صحراوية مشدودةً إلى العضد. صاح:

ـ تستطيع يا سعادة الباشا أن تبطش بي متى شئت وكيفما شئت، ولكنك لن تستطيع أن تدفع عن نفسك بلائي!

استدار عائداً إلى البيت، ولكنه رجع على عقبيه فجأة. تقدّم من الباشا حتى كاد يصدمه برأسه الحاسر. دمدم:

ـ هل تذكر السلطان التركي الذي أمر بخنق امرأة من نساء الحريم لمجرّد أنه أحبّها؟

لمعت عيناه الحمراوان ببريق غامض قبل أن يجيب عن سؤاله:

ـ لقد سئل عن السبب فأجاب بأنه فعل ذلك دفعاً للبلبال وطلباً لهدوء البال!

كشّر عن أسنان شرسة وهو يحاول أن يغتصب ابتسامة. أضاف:

ـ عليك أن تشكرني، يا سعادة الباشا، لأني حرّرتك من اقتراف إثم جسيم كنت ستنال عليه القصاص مرّتين: مرّة في العاجلة وأخرى في الآجلة. ولكن لا تحسب أني أستطيع أن أتنازل عن لعنتي!

تراجع خطوة. تمتم: «وداعاً» كأنه يخاطب نفسه قبل أن يستدير ليمضي.

8

طرابلس. بلاط القرمانلي. يونيو 1727.

بعد مغادرة المسيو «دي مونس» المرفأ بيومين دعا الباشا ديوان الإيالة للانعقاد، فالتأم المجلس في يومٍ نفثت فيه آلهة الجنوب أنفاساً نارية محمّلة بذيول الغبار كأنها قرّرتْ أن تستولي على نصيب من شطآن البحر في حربها الخالدة ضدّ رياح الشمال.

تصدّر الباشا المجلس. تنقّل بين وجوه الأعيان وأكابر القوم بنظرة شاملة. تكلّم قائلاً:

ـ أظن أن شروط الفرنسيين لتجديد معاهدة السلم قد بلغت أسماعكم جميعاً. فإن رأيتم وجوب الموافقة على بنودها المهينة فيجب أن تتحلّوا بالشجاعة وتتحمّلوا النتائج التي ستترتّب عنها.

تساءل كبير التجّار الذي خلف علي المكّني في السيطرة على أسواق الإيّالة:

ـ هل لأمير المؤمنين أن يتفضّل بإخبارنا عن حقيقة هذه النتائج؟

قال الباشا:

ـ الحقّ أنها ليست نتائج، بل تضحيات!

ردّد أكثر من صوت:

ـ تضحيات؟ ما معنى تضحيات؟!

كان الباشا عليماً بالوساوس التي تجوس في نفوس رعاياه سيّما

أعيان البلاد. وقد تعمّد أن يستخدم التعبير المناسب لما سينتهي إليه الحال فيما لو وافق على مطالب الفرنسيس، دون أن ينذر الأكابر بالخطر الذي سينجم عن توقيع المعاهدة.

تطلّع إلى النافذة المؤدية إلى البحر. قال:

ـ أولى هذه التضحيات هي التضحية بالمال!

سَرت همهمة بين الأكابر، ولكنه لم يمهلهم فأضاف:

ـ وهي أهون التضحيات فاحترسوا!

علت همهمة أشدّ، بل ارتفعت أصوات مردّدة عبارات الاحتجاج، ولكنه قمعهم بإشارة من يده. قال:

ـ السلم باهظ الثمن. وشراء رقابنا بالمال هو أقل الخسائر، لأن أنبل الأموال مال نشتري به حريّتنا!

ولكن هيهات أن تصمد الحكمة في وجه الجشع. والقرمانلي أوّل من تعلّم هذه الحقيقة البسيطة من خلال تعامله الطويل مع مختلف أجناس التجّار، ومن خلال علاقاته الطويلة مع أثرياء المدينة وحتّى مع موسري القبائل في الأرياف المجاورة. ولمّا كان ساخطاً على الفرنسيس بسبب إنذارهم الوقح الأخير الذي أقبل بَه المسيو «دي مونس» محمولاً على متن بارجة حربية، فإنه قرّر أن يستصدر إجماعاً من الأعيان يحول دون الموافقة على الشروط التعجيزية الفرنسية من جهة، ويهب الرفض سيماء الشرعية الشعبية التي من شأنها أن تصير نواة لدعم موقفه في حال نشوب الحرب من جهة ثانية.

نهض أحد الأكابر ليتساءل:

- فليعذر مولانا جهلنا بالأمور، ولكن هل له أن يحدّثنا عن طبيعة هذه الأموال بالتفصيل؟

- لن ندفع الأموال في خزينة الملك لويس الخامس عشر عاهل فرنسا كما اعتدنا أن نفعل مع سلاطين الأستانة. ولو كان الأمر كذلك لهانت المحنة. ولكننا سندفع الأموال لخزينة الدولة الفرنسية تعويضاً لهذه الدولة عن خسائرها في البحر كما يرد في أحد بنود المعاهدة دون الإشارة (مجرّد الإشارة) إلى خسائرنا نحن في هذا البحر التي لا تقلّ عن خسائر الفرنسيين لا في الأموال ولا في السفن ولا في أعداد الأسرى. ليس هذا فحسب، ولكن هذه الأموال ستدفع تحت بند بسيط في لفظه ولكنه خطير في مضمونه ويعتبر سابقة ستترتّب عليها تبعات أخطر، وأعني بذلك البند الوارد في الاتفاقية تحت اسم «التعويضات». أمّا الدفع فسوف يتمّ نقداً في جزئه الأكبر ومقايضةً بالمحاصيل في جزئه الأصغر. وهو ما يعني أننا يجب أن نبحث عن أسواق نبيع فيها محاصيلنا الزراعية (إن كان ثمة محاصيل في ظروف الجفاف الذي نعاني منه منذ سنوات) لكي نعتق بأثمانها رقابنا. الخلاصة أننا سنرهن أنفسنا وأبناءنا وبلادنا في يد النصارى لا لأمدٍ محدّد كما قد تتوقعون، ولكن لأجل غير مسمّى!

عمّ الهرج وعلت أصوات الاستنكار. ولكن الباشا لم يرحمهم:

- هذا يعني أنكم لن تدفعوا الأموال التي في جيوبكم فحسب، ولكن الأموال التي في خزائنكم، وكذلك الأموال التي لم تنالوها

بعد، لأن ارتفاع المكوس الذي ينتظركم فيما لو وافقتم على توقيع المعاهدة سوف يقطع الطريق على مداخيلكم ليلتهمها قبل أن تدخل جيوبكم!

صاح صوت رجل في العقد الخامس من العمر معصوب الرأس بطربوش مطوّق بعمامة:

ـ هذا يا مولانا سلب بالإرادة، فهل دخلنا معهم في حرب وهزمونا في هذه الحرب حتى نوافق على هذا الذلّ الذي لن يرتضيه حتّى المهزوم؟

وافقه آخر:

ـ هذا صوت الحق: عليهم يا مولانا أن يهزمونا في حرب أوّلاً ثم يملوا بعد ذلك شروطهم!

بعدها تعالت الأصوات في هتاف منتظم يردّد بحماسة:

ـ الحرب! الحرب! الحرب!

أسكتهم الباشا بإشارة من يده. قال وهو يغيب في مدى البحر الذي يتبدّى من النافذة:

ـ في هذه الحال عليكم أن تدفعوا ثمن الحرب!

ساد صمت. انطلق من المجلس صوت:

ـ نموت شرفاء في حرب ولا ندفع جزية حرب لم ندخلها!

ولكن صوت أحد الأكابر تساءل بوضوح:

ـ ما هو ثمن الحرب يا مولانا؟

ـ ثمن الحرب أن تعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل!

علت أصوات الاستحسان. ردّدت أصوات أخرى:

ـ الله أكبر!

أضاف الباشا:

ـ نحن في حاجة للأموال لتشييد التحصينات، ولدعاةٍ منكم لرفع المعنويات!

ردّد الأكابر:

ـ أموالنا تحت تصرّف أمير المؤمنين، وأولادنا رهن إشارته!

أومأ الباشا لرئيس الديوان المنتصب عند الباب فهرع نحوه. أمر على مرأى ومسمع من الجميع:

ـ حرّروا بياناً خطيّاً موجهاً إلى قنصل فرنسا في الإيالة يقضي برفض المملكة الطرابلسية للإنذار الفرنسي شكلاً وموضوعاً!

9

بحر ليبيا. أمام شواطىء الإيالة الطرابلسية. 16 يوليو 1728م.

في عرض البحر المواجه للمدينة انتشرت أربع عشرة بارجة حربية تابعة للأسطول الحربي الفرنسي. على ظهر إحدى هذه البوارج صعد رجل طويل القامة، نحيل البُنْيَة، ذهبي البشرة، معقوف الأنف، يعتمر قبّعة غريبة، ويتفقّد السواحل الليبية بعين ماسورة طويلة صُنعت خصيصاً لاستكشاف الرؤية.

كان ذلك الأدميرال الذائع الصيت «دي جرانبري» الذي أقبل إلى شطوط شمال إفريقيا بديلاً عن المسيو «دي مونس»، لا ليلقّن أحمد القرمانلي درساً كما أوصى مندوب الملك في مهمّته الفاشلة إلى

الباشا، ولكن لكي يستولي على المدينة، ويخرّب «وكر القراصنة» هذا (كما كان يسمّيه) ويبني على أنقاضه منارةً لإرشاد السفن التجارية إلى براري الأمان، بدل الشرك الذي أقامه القرمانلي لإغراقها أو استدراجها لابتلاع حمولاتها.

إلى جواره على ظهر البارجة وقف مساعده «دي هيريكور» الذي طوّق صدره بيديه ورنا إلى اليابسة بحنين بحّار لا يطيق أن يحيا بعيداً عن البحر فيتوق لملاقاة البحر، ولكنه لا يطيق أن يحيا بعيداً عن اليابسة فيهجر البحر مثله في ذلك مثل كل العشّاق. ويروق هذا المريد في سويعات الصفاء أن يتفلسف فيقول إن علاقته بالبرّ كعلاقة الروح بالجسد: لا تطيق أن تهجره أو أن تعاشره طويلاً. تهجره بالحلم وتفرّ لأحضانه باليقظة. تفرّ من كُلْكُله لأنها تريد أن تتحرّر، وتهرع للارتماء في أحضانه لأنها تخشى الضياع، تخشى المجهول، بالبقاء بعيداً عنه. وها هو يرنو اليوم إلى اليابسة ويحلم بالفرار من البحر والارتماء في أحضان تلك المعشوقة، التي تتطلّع إليه من الجانب الآخر بإغواء حسناء. تتطلّع إليه ملوّحة بالوعد. بالخلاص الذي بحث عنه في عرض البحر ولم يجده في البحر. وبرغم يقينه بأن البرّ ما هو إلا مجرّد برّ عرفه كثيراً ولم يكن له يوماً فردوساً، إلاّ أن إغواءه كان يستدرجه في كل مرّة يغيب فيها في بطن معشوقه اليمّ طويلاً. ها هو يهفو إلى اليابسة كما تهفو الفراشة إلى النار، وكما تهفو الروح لقمقم الجسد، ربّما ليقينه الخفيّ بأنه لن يبعث حيّاً إلا في البرّ عندما يقرّر أن يحيا. كما أنّه لا ينال خلاصه إلا بالخروج إلى البحر عندما يقرّر أن يتحرّر، لأنه لم يجد السعادة إلاّ في هذا التنقّل بين هذين القطبين: البرّ والبحر، اليقظة والحلم!

كانت القلعة تبلّل قدمها بمياه البحر فتبدو من هذه المسافة غارقة في المياه حتى خصرها. أمّا قباب المساجد فترتفع فوق زحام الأبنية مكابرةً، ناصعةً، مغسولةً بأشعة شمس ذلك النهار الصيفي العاري من السحب. بجوار المآذن، في قلب المدينة، ارتفعت قبّة كنيسة وحيدة متوّجة بصليب مهيب (كانت تلك كنيسة الإرسالية المسيحية الفرنسية) فتراءت له نشازاً في ذلك المكان. تراءت عملاً معمارياً ملفّقاً من وجهة نظر الانسجام، برغم مدلولها الرفيع من وجهة النظر التسامح الديني. وقد استشعر قشعريرة مفاجئة عندما تذكّر أنه لم يأت إلى هذه اليابسة إلاّ لكي يدمّر بمدافع بوارجه هذا التسامح ليعيد الأمر إلى نصابه. ليدمّر النشاز ويعيد الانسجام إلى معمار المدينة، فوجد نفسه يتمتم بلا إرادة:

ـ هذا إثم! دي مونس كان على حقّ!

سمعه الأدميرال فتساءل بلا مبالاة:

ـ ما هو الإثم، ولماذا يكون الأبله «دي مونس» على حقّ!

كان منهمكاً في مراقبة السواحل من ماسورة استكشافه العجيبة. ينقلها ليثبّت عدستها على عينه اليمنى، ثم يعود فيثبّتها على العين اليسرى. يزيحها جانباً حيناً آخر ليحدّق في الشواطىء بعينين مجرّدتين.

قال «دي هيريكور» وهو يسرح ببصره المجرّد فيدرك الحقول التي ترتفع فيها أشجار النخيل بقامات خرافية فاتنة:

ـ تدمير الجمال دائماً خطيئة، و«دي مونس» على حقّ لأنه رفض الاحتكام إلى السلاح لفضّ النزاعات بين البلدان.

ابتسم الأدميرال، ولكنه لم يتخلَّ عن التحديق في ماسورته الشيطانية. قال ببرود:

ـ جواب يليق بشاعر لا بمحارب. ولكن لا تنسَ أن للشيطان وجهاً جميلاً! الشياطين لا تتستّر إلا وراء الجمال. شاعرك الأكبر شكسبير على حقّ!

ـ يروق للشيطان أن يتستّر بالجمال حقّاً، ولكنّنا لم نسمع بجمالٍ تستّر وراء قناع القبح. أليس هذا دليلاً على قداسة الجمال؟

ـ أنت لست في حاجة إلى براهين لكي تقدّم الدليل على قداسة الجمال، ولكنك تحتاج إلى حجج استثنائية كي تبرّر عدم القيام بالواجب في تدمير وكر الشيطان. فأيّهما أكثر قداسة في نظرك الجمال المزعوم أم الواجب؟ أم أنك نسيت أننا لا نأتي إلى هذه الدنيا لننال السعادة، ولكن لكي نتعلّم أن سعادتنا هي في أداء الواجب؟

ـ أرني الحقّ من الباطل مرّة واحدة وافعل بي ما شئت بعدها إن لم أقُمْ بالواجب!

ـ صاحب الشكّ أسوأ محارب، لأن تأدية الواجب أمر يشترط العماء!

ـ لا حرب بلا إيمان، ولا إيمان بلا حقيقة!

ـ عن أي حقيقة تتحدّث؟

ـ عن حقيقة الحياة. عن حقيقة الموت. عن حقيقة الحرب. عن حقيقة الربّ. عن حقيقة البحر. عن حقيقة البرّ. عن حقيقة

القرمانلي. عن حقيقة الجمال الذي يأبى إلا أن يتجلّى حتى في حجر أخرس مثبّت في كيان المعمار!

ـ ها قد عدنا إلى برّ الشّعر!

ـ اصدقني القول: ألا ترى البرّ جميلاً؟ انظر في منظارك جيّداً وحدثني عن جمال ما ترى.

ـ لا أرى جمالاً بل مقبرةً!

ـ هل قلت مقبرةً؟

سأل «دي هيريكور» بفضول. ثم مال على الأدميرال كأنه يريد أن يشاركه التحديق في عين ماسورته السحرية. قال الأدميرال دون أن يحرّر بصره المشدود إلى الماسورة:

ـ إنها «جبّانة النصارى» التي تحدّث عنها قنصلنا لدى القرمانلي في تقريره.

قطب «دي هيريكور» حاجبيه. رنا إلى البرّ كأنه يحاول أن يتبيّن موقع الجبّانة بنظره المجرّد. تمتم:

ـ هذا فأل سوء!

سأل الأدميرال بلهجة لا تخلو من نبرة استنكار:

ـ ماذا تقول؟

قال «دي هيريكور» كأنه عرّاف يقرأ في لوح المجهول سطور النبوءة:

ـ لقد قلتَ «مقبرة النصارى» ولم تقل «مقبرة المسلمين»!

استنكر الأدميرال:

ـ القنصل هو الذي قال في أحد تقاريره إن أهل طرابلس اعتادوا أن يدفنوا الأموات المسيحيين الذين يسمّونهم نصارى على شاطىء البحر، ربّما ليعيدوا أرواحهم إلى أوطانهم التي أقبلوا منها، فهل هذا سبب للتطيّر واستجلاب الشؤم؟

ولكن «دي هيريكور» تكلّم من بُعده المجهول ليقرأ وصيّةً بلهجة من يتلو قصيدةً:

ـ أقبل هانيبال على هذه السواحل تلبيةً لنداء أهل قرطاجة الذين أنهكهم «إمليان سيبيون الأفريقي» بجيوشه، فأمر أحد أعوانه أن يصعد صاري السفين لغاية الاستطلاع فسأله: «ماذا ترى على اليابسة؟» فأجاب جندي الاستطلاع: «أرى مقبرة قرطاجة القديمة!». ساعتها تزعزع أعظم قادة التاريخ من هول النبوءة وصاح صيحته الشهيرة: «عليك يا قرطاجنة السلام!». وبالفعل خسر هانيبال أوّل وآخر معركة مع القائد الروماني فهلكت قرطاجنة إلى الأبد بسبب هزيمة هانيبال الأسطوري.

كان الأدميرال يمسك الماسورة في يده ويتطلّع إليه بذهول، ولكن رسول الإلهام (أو «شيطان الشعر» كما يسميه العوام) كان قد تمكّن من «دي هيريكور» إلى حدّ لم ينتبه فيه إلى وجود الأدميرال فأكمل قراءة النبوءة في لوح المجهول بيقين العرّاف:

ـ وجود جبّانة على اليابسة رسالة موجهة إلى الطرف القادم على اليابسة!

في مساء اليوم نفسه صعد القنصل «مارتان» إلى البارجة ليجتمع بالمندوب السامي الفرنسي «دي هيريكور» وقائد القوات البحرية الفرنسية «دي جرانبري». من هناك عاد إلى اليابسة محمّلاً برسالة مبتسرة ولكنها صارمة تقول: «إمبراطور فرنسا لويس الخامس عشر يريد من باشا طرابلس الاستجابة لمطالبه العادلة بشأن التعويض!».

اجتمع القنصل إلى الباشا ليبلّغه الرسالة، ولكن القرمانلي بدل أن يجيب على التهديد المبطّن المبثوث في الرسالة، طلب من القنصل إبلاغ المندوب السامي بضرورة النزول إلى اليابسة بقصد التفاوض، فإذا ساورت الوفد الشكوك حول نواياه فيستطيع أن يبعث بابنه البكر إلى ظهر السفينة كرهينة. عاد القنصل إلى السفينة يرافقه مندوب الباشا لإبلاغ الطرف الفرنسي باقتراح القرمانلي، فنال الاقتراح موافقة الوفد. ولكن الباشا تبلبل بالوساوس في تلك الليلة فتراجع بشأن إرسال ابنه إلى السفينة كرهينة، واقترح إرسال أربعة من أعيان البلاد بديلاً منه، فطلب الوفد مهلة للتشاور. ولكن الباشا قرّر لسرّ مجهول أن يستخفّ بقوانين اللعبة عندما أبلغ القنصل في اليوم التالي بأن على الوفد أن يرحل إذا أقبل في نيّة لإجباره على دفع تعويضات ليس مبالغاً فيها فحسب، ولكنها خياليّة!

شلّت الدهشة لسان القنصل إلى حد أنه لم يستطع أن ينبس ليقنع الباشا بخطورة هذه الرسالة، فخرج من البلاط يائساً ليعود في اليوم التالي إلى القلعة. تحدّث إلى الباشا فقال إن واجبه كقنصل لفرنسا لدى الإيالة يلزمه أن يحول دون كل ما من شأنه أن يعكّر صفو

العلاقة بين البلدين، فكيف بنشوب الحرب بين البلدين؟ ثم أضاف قائلاً:

ـ أعلم يا سعادة الباشا أن ثمّة قوى لا يروق لها استمرار الصداقة بين بلدينا فتحاول أن تصطاد في الماء العكر، بل لا عمل لها إلاّ صبّ الزيت على النار، سواء في بلادنا أو بلادكم. ولكن علينا، يا سعادة الباشا، أن نتحلّى بالصبر ونحتكم إلى ما يمليه العقل لا ما تمليه مجالس الشورى!

كان شاحباً، تبدو عليه سيماء الإعياء بسبب السهر والتوتّر الناجم عن سعيه الموجع لرأب الصدع بين الطرفين، فاستشعر الباشا نحوه بشفقة مفاجئة. ولكن الشفقة لم تكن سبباً كافياً يمكن أن يدفعه للتضحية بمنافع يتوقّف عليها مصير بلاده، ولم يكن بوسعه أن يعرّض نفسه للمذلّة إكباراً لملك فرنسا نفسه فكيف بقنصل فرنسا لدى الإيّالة؟

قال باقتضاب:

ـ لا أحد يزجّ بلاده في حرب تلبيةً لرغبة أناس يروّجون للحرب. كما لا أظن أنك تحسبني متهوراً إلى حدّ أدفع فيه بلادي لحرب مع قوّة عظمى مثل فرنسا، لمجرّد الاستجابة لهوى في نفسي لسبب بسيط وهو أني خضت حروباً كثيرة عشت خلالها بلايا الحرب وأدركت جيداً أن الحرب أبشع بدعة اخترعها الإنسان. واليوم عندما تكتب علينا دفعاً لجور فإننا لا ندخلها طلباً لمجد، ولكن إحقاقاً لذلك الناموس المفروض علينا من قبل عقيدتنا السماوية ألا وهو: العدالة! ليس العدالة فحسب، ولكن: الحرية!

التقط أنفاسه كعادته. رنا عبر النافذة إلى بحره الليبي الأزرق، المسالم، العميق، اللانهائي، الأنبل من بين كل البحار، والمروي بدماء الأجيال أكثر من كلّ البحار، فخنقته غصّة.

قال:

ـ الحرية هي اللغز الذي لا نملك الحقّ في التنازل عنه. الحرية هي العنقاء التي لا نندم عندما نخوض الحرب تلبيةً لندائها. الحرية هي التي نموت في سبيلها لأن بلادنا الصحراوية لم تكن يوماً سوى الحرية مجسّدةً، وبحرنا الذي اتخذتموه مطيّةً، ومسرحاً للحروب، وغنيمةً، ولم تكتفوا باغتصابه ولكنكم منعتمونا من التمتّع بخيراته، بدعوى القرصنة التي كنتم أنتم أول من اخترعها ومارسها وتفنّن في استثمارها، هذا البحر كان في عقيدتنا أيضاً الحرية مجسّدةً. فكيف نخون الحرية دون أن نخون صحراءنا؟ كيف نخون الحرية دون أن نخون بحرنا؟ كيف نخون الحرية دون أن نخون أنفسنا؟ كيف نخون الحرية دون أن نخون ربنا الذي خلقنا أحراراً؟ أنتم لا تريدون التعويض المزعوم، ولكنكم تريدون إذلالنا. أنتم لا تريدون الصداقة معنا ولكنكم تريدون إخضاعنا. أنتم لا تريدون أن تكتفوا بإخضاعنا، ولكنكم تريدون أن تميتوا فينا توقنا إلى الحرية. تريدون إنهاء العهد مع الحرية الذي قطعناه على أنفسنا منذ أن وجدنا أنفسنا أبناء لهذه الصحراء التي تقبل على البحر لتقبّل أقدامه، لأن بحرنا لم يكن يوماً سوى امتداد لصحرائنا، لم يكن يوماً إلاّ وصيّة من وصايا صحرائنا!

حاول القنصل يومها أن يحاجج، ولكن الباشا أنهى المقابلة بعبارة موجعة:

ـ كل شيء قد قيل، ولا جدوى من الجدل!

11

ـ إذا خرست الألسن تكلّمت المدافع نيابةً عنها!

قال «دي جرانبري» العبارة وهو ما يزال منهمكاً في رصد حركة السواحل من ماسورته الشيطانية الطويلة. إلى جواره وقف «دي هيريكور» مصلوب اليدين على الصدر، يرنو إلى الشطوط الأفريقية المجبولة دائماً بالروح الرومانسية في يقينه منذ زمن الأساطير عندما آوت «أوليس» في تيهه، واحتضنت «علّيس» في اغترابها، وأجارت «أناي» في فراره، وفعلت كل ما بوسعها لإيواء «كاتون» وشدّ أزره في صراعه مع يوليوس قيصر. لم تكن هذه الشطآن في شهامتها أرض مناف كما يحاول أجلاف الشاطىء الآخر أن يصوّروها، ولكنها كانت الأرض الوحيدة التي تجير من التجأ إليها. ولو كانت مجرد منفى كما يحاول الطغاة أن يصوروها لما أطعمت «أوليس» ثمار «اللوتس» التي تُنسي الإنسان لا وطنه فحسب، ولكنها تنسيه غربته، بل وتنسيه حتى نفسه، لأن الإنسان هو المخلوق الوحيد في الدنيا الذي لا ينسى وطنه إن لم ينس نفسه. ولو لم تكن كذلك أيضاً لما صارت لـ«عليس» وطناً بديلاً للوطن، ولما صارت لـ«أناي» واحةً أنسته هجرة الويل التي لم يفقد فيها وطناً فحسب ولكنه فقد فيها أهل الوطن أيضاً.

ولو لم تكن كذلك لما صارت لـ«كاتون» حرماً، وكان يمكن أن تخفيه عن أعدائه إلى الأبد لو شاء، ولكنه هو الذي قرر مصيره عندما آثر أن يحتكم إلى السيف ليضع حدّاً للمهزلة كلها! شواطىء الشمال الأفريقي حضور أسطوري خالد، ونبل مجبول بالحنين، لأنها كانت دوماً وطن من لا وطن له، وحرماً يجير من لا مجير له.

قال «دي هيريكور»:

ـ اليوم يحقّ لأرباب المدافع أن يتباهوا لأنهم أفلحوا في إسكات الضمير، وتولّوا الأمر لا ليلحقوا الدمار بحرم الجمال فحسب، ولكن ليتمكّنوا أخيراً من الإطاحة بربّ الجمال أيضاً!

تكلم «دي جرانبري» بلهجة ساخرة:

ـ نحن نهدم بنيران مدافعنا المعابد لنبني للربّ فوق أنقاضها حرماً أفضل، لأنك تعلم يا صديقي «دي هيريكور» أن الأمكنة أيضاً تفسد بسبب طول الاستعمال، والنار عندما تحرق حقلاً أو أرضاً فإنما تطهّر هذه الأرض فتتجدّد لتنبت محصولاً أوفر!

ـ أنا من أنصار التقادم، ولا أرى جمالاً إلا في الأطلال!

ـ لأنك، يا عزيزي «دي هيريكور» شاعر، والشعراء لا يعشقون إلا الخرائب مثلهم في ذلك مثل الأشباح!

ابتسم القنصل برغم المحنة. كان يقف إلى جوارهما منذ أن عاد إليهما محملاً برسالة الباشا المخيبّة للآمال، فابتهج «دي جرانبري» لأنه يستطيع منذ الآن أن يشرع في ممارسة عمله الذي جاء من أجله، في حين اكتأب «دي هيريكور» لأنه، على العكس، أخفق في عمله الذي جاء من أجله: فكان من نتيجة ذلك أن تواصلت مبارزتهما الخفية التي بدآها منذ انطلقا من السواحل الفرنسية.

قال «دي جرانبري» مخاطباً القنصل:

ـ أريدك أن تُحرّر رسالةً إلى الباشا إرضاءً لعزيزنا «دي هريكور» لا للباشا!

ثم تطلع في عين ماسورته السحرية قبل أن يضيف:

ـ يجب أن نوقد شمعة أخيرة إكباراً لـ«دي هيريكور» قبل أن نحرق أغصان الزيتون، برغم يقيني بعدم جدوى مخاطبة العقل في من لا يعترف بوصايا العقل. فاكتب مسيو «مارتان»، أكتب!

استحضر الأعوان المستلزمات لتحرير الخطاب. تناول القنصل القرطاس والقلم. تكلّم «دي جرانبري» دون أن يتوقّف عن رصد الساحل من فوهة ماسورته السحرية:

ـ أمام طرابلس. في 19 يوليو 1728م.

إلى السيد العظيم.

كنا نتوقّع أن يعود إلينا القنصل من طرفكم بأخبار حاسمة فيما يتعلق بما خيّرناكم بشأنه من صلح أو حرب. وقبل أن نصبح معكم في حالة قطيعة نهائية فقد اعتقدنا أن من واجبنا (بل وتمسّكاً منا بالمعاهدات الموقعة بين بلدينا إبلاغكم بنوايا سيدنا الإمبراطور القاضية باحترام تلك المعاهدات:

إن إمبراطور الفرنسيين لا يريد الحرب اللهم إلا إذا أجبرتموه على خوضها ضدّكم برفضكم الاستجابة لمطالبه العادلة التي دعاكم لتحقيقها، والتي يرغب في الحصول عليها تعويضاً عن الجرائم التي اقترفها قراصنتكم خرقاً للمعاهدات المعقودة على حساب أمتنا. إننا لو أطلقنا لأنفسنا العنان فسردنا لكم هذه الجرائم واستعرضنا أمامكم جميع مسببات الشكاوى ضد جمهوريتكم، فإنكم ستدهشون للمبالغ الطائلة التي يقتضي تعويضها، وسوف تندهشون أكثر لو استعرضنا أمامكم ما اقترفه قراصنتكم، غير أن استطراداً مطوّلاً كهذا لا يتناسب

لا مع مقام إمبراطورنا، ولا مع مقامكم، كما لا يتفق مع وضعنا الراهن.

إن إمبراطور فرنسا يطالبكم اليوم بما يلي:

أولاً: دفع عشرين ألف قرش إشبيلي تعويضاً عن الأضرار وعن أعمال النهب التي اقترفها قراصنتكم.

ثانياً: إطلاق سراح الأسرى النصارى.

ثالثاً: تجديد معاهدات الصلح التي أبرمت عام 1685م والمعاهدات التالية لها.

فإذا لم نتلقَّ منكم قبل ظهر الغد أخباراً في مثل دقّة هذه الوثيقة التي بين يديكم الآن، فإننا سنعتبر كل إبطاء على أنه رفض من جانبكم، وسنعتبركم أرغب الناس في القطيعة معنا، مما سيترتّب عليه إعلان الحرب بيننا تلقائياً. ومع ذلك فنحن نأمل أن تنصتوا إلى وصايا العقل لكي نتمكّن من استئناف الصداقة التي قامت بيننا من قبل والتي نتطلّع إليها أكثر من أي شيء آخر!

انتهى «دي جرانبري» من إملاء نص الرسالة الموجّهة إلى القرمانلي. ثم أشاح بوجهه عن الماسورة ليتمتم كأنه يخاطب نفسه:

ـ يا إلهي! إنهم يخلون المدينة من سكّانها!

عاد يحدّق في العين السحرية باهتمام. أزاحها جانباً مرّة أخرى. قال:

ـ إنهم لا يخلون المدينة فحسب، ولكنهم يحشدون فرسان الخيّالة على طول الساحل تحسّباً لإنزال!

أطلق «دي هيريكور» ضحكة وهو يتسكّع على ظهر السفينة ذهاباً وإياباً في حين تكلم «دي جرانبري» يخاطب القنصل:

ـ هذا يعني أن مستشار القنصلية هو الذي سيحمل الرسالة، أما عودتك إلى هناك فمجازفة منذ الآن!

عاد «دي هيريكور» يتضاحك بعصبيّة دون أن يتوقّف عن التسكع على ظهر البارجة قبل أن يقول وصيّته:

ـ لقد قلت لكم إن القرمانلي أسطورة صغرى، وأنتم الذين ستخلقون منه أسطورة كبرى!

12

فيما استعار «دي هيريكور» ماسورة «دي جرانبري» السحرية وشرع يتأمّل من عدستها إبداع المعمار المجسّد في قوس «ماركوس أوريليوس» الملاصق لشط البحر، كان «دي جرانبري» يستقبل على ظهر السفينة مبعوث السلطات الطرابلسية المحمّل بردّ الباشا على رسالته.

اختلى بنفسه جانباً ليقرأ الرسالة. ثم عاد على عقبيه ليأمر بانعقاد المجلس دون أن يتوقف عن التحديق في القرطاس الشاحب الذي ظلّ ينتفض بين يديه كلّما تنفّس البحر بأنسام الشمال، كأنه قرأ نوايا القبطان فقرّر أن يلوذ بالفرار قبل أن يفوت الأوان.

ففي ذلك اليوم من أيام الصيف انعقد مجلس الحرب على متن البارجة الحربية المهيبة الملقّبة باسم لا يقل مهابة وهو «الروح القدس» (Saint-Espirit) ليتولّى قائد الأسطول الحربي للإمبراطورية

الفرنسية قراءة الردّ الذي لا يصدّق (كما وصفه أحد أعضاء مجلس الحرب) المبعوث من باشا طرابلس أحمد القرمانلي إلى ملك فرنسا، عن طريق مبعوثه السامي المقيم على ظهر السفينة في عرض البحر الليبي:

«طرابلس بتاريخ 20 يوليو 1728م.

إلى حلية الأمّة النصرانية. صديقي!

لقد تلقيت الرسالة التي وجهتموها إليّ، وفهمت محتواها تماماً. كما اطلعت على جميع عروضكم ومطالبكم، واجتمعت إلى مجلس ديواني الذي أجاب جميع أعضائه، وكذلك قباطنتنا وكل أكابر بلادنا، بأنه إذا كان صديقنا إمبراطور فرنسا لم يوفد هذه المخلوقات إلاّ لمحاربتنا، فليكن! أمّا إذا كان قد أوفدهم للتصالح فإنه يتحتّم عليهم أن يوفدوا إلينا مندوبين، وليتنازلوا ليطأوا أرض طرابلس لإطلاعنا على رغباته وتلقّي ردودنا. ذلك أن نيّتنا في الصلح صادقة. أمّا فيما يتعلّق بتسديد الأموال، فإن أحداً هنا لا يوافق على ذلك، ولن يوافق أحد على منحكم إيّاها، فكونوا على بيّنة من ذلك. أما القنابل فإننا لا نخشاها، وبإمكانكم أن ترمونا بها إن حلا لكم ذلك. ولكن عليكم أن تعلموا أنه إذا حدث ذلك، فإننا لن نبرم معكم صلحاً البتة إلى أن تفنى الدنيا. وسوف نحتفظ برسالتكم التي سنبعثها بكل تأكيد إلى صديقنا العظيم إمبراطور فرنسا. وختاماً لكم أطيب تمنياتنا».

انتهى «دي جرانبري» مّن تلاوة الرسالة واقفاً. ثم تطلّع إلى «دي هيريكور» خلسةً قبل أن يضيف قائلاً إن ثمّة حاشية في الرسالة تقول

إن بروش مستشار القنصلية الفرنسية كان يرغب في العودة إلينا، ولكن الباشا منعه. ثم طوى القرطاس بعناية قبل أن يأمر بتحرير الوثيقة التاريخية كردّ نهائي على رسالة الباشا:

«اليوم، العشرون من شهر يوليو من عام 1728م انعقد مجلس الحرب على ظهر سفينة «الروح القدس» بأمر «دي جرانبري» وحضوره شخصياً كقائد لأساطيل الجيوش البحرية الفرنسية المؤلف إلى جانبه من: المسيو «دي هيريكور» المفوض العام، ومن السادة: قباطنة السفن القاذفة، وذلك للتشاور حول ما يتحتّم اتخاذه من قرارات بعد تلاوة مذكرة أوامر السيدين «دي جرانبري» و«دي هيريكور» وبنودها، وبعد تلاوة الرسالة الموجهة إلى الباشا وردّه عليها، فقد تقرّر إعلان الحرب عليهم!

إمضاء: دي جرانبري، دي نيسموند، ماراندي، ديتّين، دي فين، كايلوس، دي بوديفيل، دي غويون، دي هيريكور، دي جاردان، ريستورنيل، الأمير قسطنطين دي روهان».

ويرغم أن «دي جرانبري» تعمّد أن يخفي اسم «دي هيريكور» في ثنايا الأسماء عندما أورده الاسم الثامن من بين الأسماء، إلاّ أنه لاحظ أن «دي هيريكور» كان آخر من قام من أعضاء المجلس بالتوقيع على الوثيقة. ثم هبّ ليذهب بعيداً. وقف صالباً يديه حول صدره ليبدأ صلاته. كان يحاول أن يتبيّن بالنظر المجرّد الأجرام البشرية الرائعة التي حفرتها يد الفنان من صلد المرمر لينمنم بها قوس الحكيم «ماركوس أوريليوس» في الحزام العلوي. وعندما خذله البصر انتقل لمشاهدة تماثيل الآلهة التي طوّقت الساحة من جهة الجنوب بأحجامها

المختلفة، لتتواصل فيما بينها بجدارٍ مزبور بالمخلوقات المجسّمة التي تبدو عن بُعْد ملتئمة في فسيفساء دقيقة التقنية.

من جهة الشمال الغربي تراءى الإمبراطور الليبي (سليل لبدة العظمى) مجسّداً في تمثال من البرونز، يعتلي قاعدة مرمرية عالية، يرفع يده إلى أعلى مشيراً إلى الشمال، كأنه ينوي أن يفرّ من معقله ليصدّ عن المدينة الغزاة، أو ليهاجر إلى ما وراء البحار ليتربّع على عرش العالم في روما كما فعل يوماً.

تخيّل فجأة أن القنبلة سوف تسقط لتسحق التمثال الذي وقف هناك منذ ألف وستمائة سنة، ولم تزعزعه الزلازل، ولم تطح به أشرس الحروب التي شهدتها المدينة منذ قرون، ولم يلحق به الضرر من التعصّب الديني عند استيلاء المسلمين على المدينة. ليس هذا فحسب، ولكن العقيدة التي يُقال إنها تحرّم التماثيل لم تمسسه بسوء، لا هو ولا أنصاب «ماركوس أوريليوس» المطوّق بمحفل آلهة تراها هذه الديانة عملاً وثنياً ورجساً من إنجاز الشياطين. فمن يجرؤ بعد اليوم فيرجم المسلمين بالعماء الديني ويدّعي أنهم أكثر تعصّباً من بقية المؤمنين؟

ارتجف «دي هيريكور» لفكرة تدمير قوس الحكيم «ماركوس أوريليوس»، أو تمثال «سبتيموس سفيروس»، أو الميدان المطوّق بمحفل الآلهة، أو قبّة الكنيسة، أو قباب المآذن، أو بنيان القلعة، بل وكل بنيان. لأن هذه المدينة التي جاء لمحوها من الوجود ليست مدينة، ليست متحفاً تاريخياً أيضاً، ولكنها معبد حقّاً لن ينجو من القصاص أبداً من تجاسر ورجمه بقنبلة. وجد نفسه يتقدّم من «دي جرانبري» ليقول:

ـ هناك في الجهة اليمنى يقع قوس «ماركوس أوريليوس»، وفي الجهة الأخرى، اليسرى، يقع تمثال الإمبراطور «سبتموس سفيروس». آمل أن تأمر بتجنّب قصف هذين الحرمين!

حدجه «دي جرانبري» بدهشة، ثم رفّت على شفتيه بسمة استخفاف قبل أن يقول:

ـ لا تكن سخيفاً يا «دي هيريكور»!

ولكن «دي هيريكور» لم يستسلم. ربما لأنه لم يسمع جواب صديقه الاستفزازي. وربما لأن قلبه في مكانٍ آخر ولا حضور له على ظهر السفينة إلا بجرمه. قال:

ـ إذا أصاب أحد جنودك أحد هذين المعلمين فلن أغفر لك. أما جنودك فسوف آمر بشنقهم بمجرّد عودتنا من هذه المهمّة القذرة!

قال «دي جرانبري» ببرود:

ـ أنت لا تبدو سخيفاً فحسب، ولكنّك تبدو مضحكاً يا «دي هيريكور»!

ـ أنت على حقّ. أبدو لنفسي أيضاً مضحكاً منذ قبلت القيام بهذه المهمة فوجدت نفسي في أيديكم دميةً!

تطلع «دي جرانبري» في عين ماسورته. قال بلا مبالاة:

ـ أنت لم تخطىء يا عزيزي «دي هيريكور». كلنا في هذه الدنيا دُمَى. من لم يكن دمية المخلوق صار دميةً بيد الخالق!

ـ أن نكون دمية بيد الخالق أهون من أن نكون دمية بيد المخلوق. الخالق لا يدفعنا لارتكاب الآثام. الخالق لا يجبرنا على فعل ما لا نريد أن نفعله.

ـ بل يدفعنا، لأننا لا نقع أسرى مشيئة المخلوق إلاّ بتدبير من خالق المخلوق. يا إلهي كم أحسد معشر الشعراء على حسن النوايا بكل ما خفي!

ـ كيف تريدنا أن نسيء الظنّ بربّ الخفاء إذا كان الخفاء هو ينبوع إلهامنا؟

ـ أنت لا تدري كم أحسد أهل الأحلام!

ـ ولكن أهل الأحلام لا يحسدونك، لأنك يا «دي جرانبري» لا تؤمن بشيء. ومن لا يؤمن بشيء أخطر خلق الأرض على الحياة!

ـ أنا لا أؤمن. أنا لا أؤمن إلاّ بفوهات المدافع أيها العزيز «دي هيريكور».

ـ الإيمان بفوهات المدافع تجديف. وأنت يا «جرانبري» لم تصر سفّاحاً إلا بسبب خلوّ قلبك من الإيمان!

13

بحر ليبيا. مساء يوم 20 يوليو 1728م.

ما إن حلّت الظلمة حتى تسلّلت البوارج المدججة بالمدافع نحو تحصينات المدينة فرست على مسافة تمكنها من إصابة أهدافها عند بدء القصف. وما إن شاهد قناصل الدول الأجنبية ورهبان الإرسالية الفرنسية زحف السفن حتّى انسحبوا نحو المنشية ليعتصموا هناك ببيت الباشا. أمّا المسيو «بروش» مستشار القنصلية الفرنسية فقد استأذن الباشا بالتوجه إلى دار القنصلية. ولكن القرمانلي لقّن النذير وصيّةً يطوف بها شوارع المدينة تقول: «كل الرعايا الأجانب، بما

في ذلك الأسرى ورهبان الإرسالية، هم أمانة في أعناقنا، والتعرض لهم بالسوء هو مساس بالدين، علاوة على أنه إهانة موجهة للباشا!». وبرغم هذا التدبير إلا أن الباشا لم يأمن جانب الغوغاء، فأمر بتشديد الحراسة على القنصليات الأجنبية، وضمان حماية القناصل وعائلاتهم بما في ذلك مستشار القنصلية الفرنسية. ثم صعد برج القلعة ليتفقّد المدفعية التي تتوّج السطح. هناك شدّد على ضرورة ضبط النفس في عبارة ذائعة الصيت تقول:

ـ ليس صحيحاً أن أفلح وسيلة للدفاع عن النفس هي الهجوم. اعلموا إذاً أن مَنْ يبدأ بالهجوم هو الأجبن، لأن الدفاع عن النفس إيمان. والبادىء بالشرور في ناموس الله دائماً أظلم!

نزل من هناك وطاف الحصن الجنوبي المشرف على المدينة. كانت خالية من المارّة تقريباً، ولا يتنقّل في شوارعها في عتمة ذلك المساء العصيب سوى بعض الدوريات العسكرية.

عاد إلى القصر فوجده خاوياً أيضاً بعد نقل الحريم والأبناء والحاشية إلى المنشية. لم يكن خاوياً فحسب، ولكنه كان ميّتاً. كان السكون عميقاً. كان السكون يخفي إنذاراً. كان السكون جاسوساً يترصّد هبوب العاصفة. لم يستول السكون المريب على القصر وحده، ولكنه انتقل إلى الخارج ليشمل شوارع المدينة الخاوية، والساحل، وكذلك البحر. كان البحر في مساء ذلك اليوم ساكناً أيضاً كأنه يتسمّع ليلتقط فصول مكيدة مجهولة.

في الساعة الثامنة من مساء اليوم نفسه بدأ القصف فوقعت أول قنبلة داخل القلعة. تزعزع كيان البنيان كلّه كأنّ المكان تعرض

لزلزال. هرع الأعوان إلى مكتب الباشا لحثّه على الخروج، ولكنه لم يجب الأعوان لأنه كان غارقاً في تأمّل الحرب التي لم يخضها منذ سنوات طويلة. لقد أحسّ أنه بُعث حياً فجأة. بعث حيّاً بالحرب لا بالسلم. لأن السكون الذي عاشه قبل أن توقظه القذيفة لم يكن سكوناً ولكنه سبات. لم يكن سباتاً ولكنه موت. والحقّ أنه انتعش. انتعش وابتهج بهذه القذيفة لأنها جعلت لحياته طعماً. لأنها أعادت له الروح المفقودة بسبب الاسترخاء. فأدرك لحظتها أن الحكماء لم يخطئوا عندما أوصوا بضرورة الحياة تحت مظلّة الخطر. فنحن لا نحيا لذّةً بغياب الخطر، بغياب الحرب، ولكننا نحيا سأماً بالسلم. نحيا سأماً إلى حدّ أننا لا نملك إلا أن ننتحر فيما لو استمرّ هذا الكابوس زمناً أطول. ولكننا في الحرب نحن أحياء لأننا لا نستشعر وطأة الزمن. ولذلك نحن سعداء برغم الموت الذي ينتظرنا!

لم يفق من غيبته إلا بعد أن تزعزع البنيان من جديد فسقطت على رأسه قطعة قرميد. ابتسم. ابتسم لأنه أدرك أن الزلزلة الأخيرة لم تكن قذيفة من مدافع العدوّ، ولكنها طلقة مدفع البرج الذي بدأ الآن الردّ على قصف العدوّ.

أقبل رئيس الديوان. ولكنه لم يمهله الوقت هذه المرّة بممارسة طقوسه التقليدية بالوقوف عند الباب انتظاراً للفوز بالإذن الثاني المتمثل في أريحية مزاج الباشا، بل تقدّم بخطوات واثقة حتّى وقف أمام سيّده. قال وهو ينحني إلى الأمام:

ـ القنبلة أصابت الجناح الشرقي يا مولاي، ولا بدّ من الانتقال إلى المخيّم.

قال الباشا:

ـ ولكن الجناح الغربي ما يزال قائماً على ما أظنّ!

ـ ولكن يا سعادة الباشا..

كان الباشا ما يزال غائباً في رحلة المجهول. تمتم:

ـ سأنتظر انهيار بقية الأجنحة أولاً.

وقف رئيس الديوان بين يديه حائراً. قال الباشا:

ـ يحسن بك أن تستدعي لي قادة الجيش ورئيس البحرية بدل التعبير عن الفزع بسبب انهيار الأجنحة.

أضاف بعد صمت يخرقه ضجيج القصف المتبادل:

ـ الأجنحة جدران، والجدران لم تُخلق إلا لتتهاوى. بل أنبل الجدران ليست الجدران التي تصمد لقصف القنابل أو في وجه غدر الزمان، ولكن أنبل الجدران هي الجدران التي تسقط. هل تعرف لماذا؟

هبّ واقفاً. تمشّى نحو النافذة المطلة على البحر المزروع بسفن العدوّ. قال:

ـ لأن الجدران سجون دائماً برغم أننا لا نستحي من أن نطلق عليها اسم البيوت. الجدران قبور كما يسمّيها أهل الصحراء. ولهذا السبب فإنه عندما يُفرغ من بناء البيت وقتها يأتي الموت كما تقول الحكمة الأناضولية.

تزلزل البنيان بقذيفة جديدة، ولكن الباشا أطلق ضحكة. قال:

ـ الأعداء يحسنون لنا من حيث لا يدرون عندما يهدّمون بقنابلهم

بيوتنا، لأنهم لا يعلمون أنهم إنما يحرّروننا من قبورنا في حين يظنّون أنهم يشردوننا!

14

استمر القصف طوال الليل، ولكن سادة الإيالة لم يفلحوا في إقناع الباشا بالانتقال إلى المخيّم إلا في صباح اليوم التالي بعد أن حوّل القصف المدفعي المستمرّ جناحه بالقلعة إلى أنقاض.

في المعسكر الواقع بين الساحل والمنشية تجمّع الأكابر وقادة الجيوش وشيوخ القبائل الذين بدأوا يتقاطرون على طرابلس منذ بلغهم نبأ نشوب الحرب في الساحل.

كانت حقول المنشية وغابات القرى المجاورة مزروعة بفرسان الخيالة حتى قبيل نشوب الحرب. وقد أمر الباشا بإخفائها هناك استعداداً لمهاجمة العدوّ فيما إذا سوّلت له نفسه اللجوء إلى الإنزال.

ولكن الواحات الداخلية سرعان ما تحوّلت خطوطاً خلفية ثرية بسبب تدفّق فرسان القبائل الذين أقبلوا من الدواخل ففاضت بهم الحقول المتاخمة للساحل. تلك الحقول الآهلة أصلاً بالمهاجرين من أهالي المدينة الذين فرّوا من ديارهم قبل بداية القصف. وهي خطّة استلهمها القرمانلي من ناموس الصحراويين الذين لم يعجزوا الفناء ويبقوا على قيد الحياة منذ أقدم الأزمان (برغم شحّ الصحراء) إلاّ لقدرتهم على حمل بيوتهم والفرار بها عبر الخلاء. وهو ما يعني في حقيقة الأمر أن بيوتنا ما هي إلا أشراكنا. وهو ما يعني أن بيوتنا التي نظن أنها مأوانا ومفخرتنا التي نتنافس في تزيين جدرانها، ما هي

أخيراً إلاّ مثوانا وليست مأوانا. ففيها تكمن حتوفنا لأن رسالتها الأولى المتمثلة في اسمها (السكن) لم تكن يوماً إلا اشتقاقاً من مسمّى مريب الدلالة ألا وهو: «السكون». والسكون هو اسم دال على الموت وليس عنواناً للحياة. ولهذا فإن الناس لا يبتنون البيوت ليحيوا فيها كما يتمنّون، ولكن ليسكنوا فيها، أي ليموتوا فيها. ومريد الصحراء هو الإنسان الوحيد الذي أدرك حقيقة البيت يوم جعله خباء محمولاً على ظهره. لأن الحياة حركة. الحياة رحلة. الحياة حرية. والحرية لا تتنازل لتعقد حلفاً مع روح الركون إلى المكان. الحرية عدوّ بالسجية لبدعة اسمها الاستقرار. وهو ما يعني في معجم الأمة المهاجرة أن العبودية التي يعنيها الاستقرار ما هي في النهاية إلا الموت وليست مقدمة للموت. كما أن الحياة ليست حياة بأي حال ما لم تكن حرية. أي هجرةً. ولهذا قيل في وصايا الأولين إن الأمّة الإلهيّة هي أمم المهاجرين وليست أمم المستقرين. ورب الأرباب تقبّل القربان من بين يدي هابيل الراعي لأنه قربان المهاجر، قربان الحرية. في حين رفض قبول قربان قابيل لأنه قربان الفلاح، صاحب الأرض، سليل الاستقرار، لأنه قربان العبودية!

كان الباشا يومها فخوراً بنجاح خطته المستعارة من عُرف الصحراء. وقد جلس في المخيّم محاطاً بأعوانه وضباطه وأكابر قومه يتفرّج على القصف المدفعي الفرنسي اليائس للمدينة فيقول بلسان الحال: «انظروا ما فعله دهاء الفطرة بحكمة المعرفة! انظروا كيف ينهزم طغيان القوّة بضربة من ناموس الحرية! أنظروا كيف تنقشع شهوة التدبير أمام روح التخلّي!».

كل الأكابر رأوا في ذلك اليوم الذي انضمّ فيه الباشا إلى معسكرهم قادماً من فوهة مدفع كيف كان الرجل سعيداً. وكانت سعادته سبباً في رفع معنويات القوم وبثّ روح البطولة في قادة الجيوش والضباط والفرسان وبقية الجند. هذه الروح التي حوّلت كابوس الحرب أهزوجة فرح ترتفع فيها زغاريد النساء، ويستعرض فيها فرسان الإيالة وفرسان الدواخل على السواء فنون السيوف، وضروب الصمود على ظهور الخيل.

كان اليوم الذي أعقب قصف الليل العنيف عرساً حقيقياً. وقد تعمّد الباشا أن يستخفّ بقصف الفرنسيين اليائس طوال صبيحة ذلك اليوم، حتى إنه لم يجد حرجاً في أن يقترح استدعاء القائد «دي جرانبري» ليشاركهم طعام الولائم قبل أن يواصل في المساء قصف المدينة.

لم يتوقّف الباشا مع ذلك عن التشاور مع قادة جيوشه البريّة والبحرية طوال النهار. كما اجتمع في الخباء مع أعضاء الديوان على نحوٍ مستمر. وقد ضمّ إلى هذا المجلس زعماء قبائل الدواخل. قائد سلاح الخيالة قال للباشا إن رهان الفرسان على الإنزال. ثم أضاف: «بعد انضمام فرسان القبائل أمرنا بنشر القوّات أفقياً على طول الساحل الشرقي حتى تاجوراء، وفي الغرب حتى جنزور وما بعد جنزور. إننا على استعداد لإبادتهم يا مولانا فيما لو تجاسروا ووطأوا بأقدامهم أرض الإيالة!».

أما رئيس البحرية فقد اختلى بالباشا ليقول له على انفراد إن انسحاب الأسطول إلى ميناءي «قصر أحمد» في الشرق، و«زوارة» في الغرب، قد اكتمل. وهو في انتظار أوامره بشأن مهاجمة سفن العدوّ من جهتي الشرق والغرب.

ولكن الباشا كان يرنو إلى البحر المزروع بسفن العدوّ ويبتسم. قال لرئيس البحرية يومها: «لا أعتقد أننا سنحتاج إلى المجازفة بقواتنا البحرية في هذه المغامرة، لأن إخلاءنا للمدينة كان أقوى قنبلة انفجرت في بطن العدوّ!». همّ رئيس البحرية بأن ينصرف، ولكن الباشا استوقفه بإشارة. تقدّم منه رئيس البحرية فهمس له: «تستطيع أن تستعين بلعين اسمه «الشيطان» إذا رأينا ضرورة اللجوء إلى إغراق السفن!». على وجه رئيس البحرية تبدّت سيماء الدهشة. مال على أذن الباشا ليهمس: «ولكن حرفة «الشيطان» هي إغراق السفن التجارية يا مولاي، وليس إغراق السفن الحربية!». حدجه الباشا باستخفاف قبل أن يقول: «إغراق السفن خبرة، بل موهبة، ولا أعتقد أن «الشيطان» سيجد فرقاً كبيراً بين السفن حربيةً كانت أم تجاريةً فيما لو استثمر الخبرة كما يجب أن تستثمر!». انتهى الباشا من رئيس البحرية فتقدّم رئيس الديوان ليعلن للباشا وصول زعيم المحاميد على رأس جيش من فرسان الجبل الغربي.

15

تساءل الباشا كأنه لا يصدّق أذنيه:

ـ هل قلت زعيم المحاميد؟

ثم هبّ واقفاً قبل أن يسمع جواباً. خرج من الخباء بخطوات واسعة. في الخارج طوّقه العسس فتوعّدهم بسبابته كما اعتاد أن يفعل فانفضّوا من حوله. ولكنهم، كعادتهم أيضاً، ساروا وراءه، بل أن فريقاً منهم قرأ نواياه بالحاسّة السادسة فسبقه ليتوارى وراء أحراش الحقول. أمّا الباشا فقد عبر حقل النخل المحروث بجداول تجري

في قنواتها مياه الريّ. ظلّ يتخطّى الجداول فيغوص بحذائه في أوحال الطين حتى الرسغين أحياناً، فيستعيد زمناً ضاع مع ضياع الطفولة عندما كان يروق له أن يمرّ بهذه الحقول في طريق عودته من المدرسة، فيغرق بقدميه في أوحال الجداول لأن الظمأ الخفيّ إلى الماء الذي يسري في الدّم موروثاً من سلالاته الصحراوية كان في قلبه أيضاً نداء لم يقو على مقاومة إغوائه يوماً، إلى حدّ كان يحتمل فيه قصاص الأهل كلما عاد إلى البيت ملوّثاً بالطين مغموراً بالأوحال. وها هو الحنين إلى الطين المبلّل يستولي عليه الآن ليتحوّل أيضاً إلى نداء يتواصل في نداء آخر هدهده في القلب طويلاً: أوّلهما نداء الدّم إلى الطين، وثانيهما نداء الروح إلى البُعْد الذي كان بعيداً. أوّلهما نداء الطبيعة إلى نواة التكوين، نداء الجسد إلى الجذر، وثانيهما نداء الروح إلى الخفاء، إلى الربّ. وهما نداءان قرينان منذ الأزل، لأن أحمد القرمانلي لم يكن ليكون أحمد القرمانلي الذي كان لولا العهد الذي قام بين هذين القرينين، لأن عهدهما ليس سوى العهد بين الروح والجسد.

في الدرب الذي تتخلله أشجار النخيل العالية رأى الجحفل المهيب، تُغيِّب الأشجار بعض فرسانه، وتكشف البعض الآخر، يرتدون أبهى ثيابهم التي لم يعتادوا أن يلبسوها إلاّ في الأعراس أو المناسبات الدينية كالأعياد. تأمّلهم من خصاص الأشجار فراق له ما فعلوا كثيراً لأنه أحسّ أنهم أقبلوا للمشاركة في فرحه. أقبلوا للمشاركة في عرسه. أقبلوا للمشاركة في عرسه الحقيقي، عرسه الإلهيّ لا عرسه الدنيوي. أقبلوا ليشاركوه في عيده الإلهي لا

الوطني. أقبلوا ليقولوا له بإقبالهم إنهم إنّما أقبلوا تلبيةً لنداء الواجب لا ليلقنوه درساً في التسامح لأنهم لم ينسوا، ولم يكن لهم أن ينسوا، أنه هو الذي حاربهم يوماً تلبيةً لنداء الدسائس، لأنه كان يجهل طبيعة السياسة التي لا تستقيم من دون دسائس في بداية عهده بالسياسة وباللعنة الملقبة باسم رجال السياسة. أقبلوا ليقولوا له بإقبالهم إنهم لم يكن بوسعهم أن يقبلوا لولا حكمة زعيمهم العظيم الذي ما زال يعاند الزمان برغم الشيخوخة ليلقّنهم هم درساً في معنى أن يؤدي الإنسان الواجب، في قداسة أن يلبّي الإنسان ديناً اسمه الواجب. لأن الإنسان ينقشع ويفنى، ولكن أداء الواجب لا ينقشع ولا يفنى.

أمام وجهه أبصر الزعيم. كان يتوسط كوكبة من أكابر قومه، مهيباً في جلسته على السرج، مكابراً في زيّه، في هيئته، في نظرته، في استكباره، وحتى في شيخوخته.

وقف القرمانلي يومها يعترض سبيل فرسان صديقه القديم الذي كان له الفضل يوماً لا في نجاته من المكيدة وحسب، ولكن كان له الفضل في توليته أمر الإيالة، وبدل أن يرى فيه رسولاً مبعوثاً من القدر جرّد سيفه يوماً وذهب ليقصف دياره بمدافع ملك هولندا. وبرغم ذلك غفر له هذه الخطيئة التي لم يغفرها لنفسه يوماً، وأقبل عليه اليوم كي يضحّي بنفسه وبفرسانه وبمصير قبيلته لكي يصدّ عنه الأعداء ويهدي له هو الحياة.

توقف الجحفل في وجه القرمانلي. وتوقّف القرمانلي في وجه الجحفل.

ساد صمت لم تزعزعه سوى أصوات صهيل الخيل. أمّا القرمانلي فقد تبادل مع الزعيم نظرة طويلة. لم تكن تلك نظرة، ولكنها كانت خطاباً. كانت بياناً قيل فيه كل شيء. بعدها همّ الزعيم أن يترجّل عن الجواد فهرع إليه القرمانلي ليتشبّث باللجام، ويساعده في النزول عن الجواد.

كان الزعيم أوّل من تكلّم:

ـ بلغني أن البحر تنفّس بالقنابل كما اعتاد أن يفعل، فجئت أستطلع الخبر!

عانقه القرمانلي. تعانقا طويلاً. قال الباشا:

ـ يروق للبحر أن يتنفّس بالقنابل أحياناً، ولكنه لا يفعل ذلك إلا إذا قرّر أن يستدرج أناساً غابوا عنه طويلاً أمثال زعيم المحاميد!

ـ لا تحاول أن تقنعني بأن بحركم الذي لم يحمل لنا إلا الغزاة يتنفّس بالقنابل شوقاً للغيّاب.

ـ بلى. يروق له أن يفعل ذلك لإغواء الغيّاب. ألا تسمع الزغاريد في حناجر النساء؟

تحرّكا عبر الحقول راجلين. قال الباشا:

ـ اليوم في ديارنا حلّ العيد مرّتين: مرّة ساعة ضُربنا بقنابل النصارى، ومرّة بقدوم الزعيم لردع عدوان النصارى!

ولكن الزعيم ما لبث أن قال:

ـ يسعدني أن تدرك أنّي لم آتِ للدفاع عن أحمد القرمانلي.

ـ أعرف، أعرف. .

ـ جئت استجابة لنداء الدفاع عن أهلي الذين قضت حكمة الأقدار أن يتولّى أمرهم أحمد القرمانلي!

ـ صدقتَ.

ـ البلهاء يظنّون أننا لا نعتصم بالجبال ولا نتنقّل في صحارينا إلاّ خوفاً من غزاة، ولا يعلمون أننا لا نستطيع أن نحمي سواحلنا إن لم نبتعد عن سواحلنا، لأن من ينقذ الأوطان ليس أبناء الأوطان الذين يتشبّثون بجلدة الأوطان، ولكن من ينقذ الأوطان أولئك الذين ابتعدوا عن الأوطان، أولئك الذين اغتربوا عن الأوطان. وحالنا مع السواحل أكبر شاهد على هذا!

ـ صدقت، لأنك ستدهش لو علمت أني لم أنقذ طرابلس من هذه الغزوة إلا عندما استجرت بناموسكم الذي ينتصر بالانسحاب ويهزم خصمه بالتخلّي. لقد تحوّل الفرنسيس أضحوكة وهم يجدون أنفسهم يقصفون أبنية خالية من أهل الأبنية!

لحظتها ردّد الزعيم كأنه يغنّي لحناً:

ـ التخلّي! التخلّي! التخلّي تعويذة لا يدري ترياقها إلا من جرّبها. ولو كان أهل العدوان يفقهون لما جرؤوا على أن يتخذوا من صاحب التخلّي خصماً. لأن التخلي ضرب من سراب. وملاحقة السراب هزيمة علاوة على أنه جنون. لأن صاحب التخلّي لا وجود له، فكيف نهزم ما لا وجود له؟

ـ التخلّي استدراج أيضاً.

ـ بلى. نحن نستدرج أعداءنا إلى الخلاء لنفتك بهم بعد أن نرهقهم. هذا إذا لم تفتك بهم الصحراء بالتيه أو بالظّمأ نيابة عنّا!

قال الباشا بعد صمت:

ـ سنفتك بهم أيضاً فيما لو تجاسروا على إنزال جنودهم إلى البرّ.

قال الزعيم:

ـ لم نأتِ للاستمتاع بسماع قنابلهم، ولكنّنا جئنا لنروي سيوفنا من دماء حناجرهم!

16

صار الليل عدوّاً للإيّالة. فما إن تزحف على السواحل غياهب الأمسيات حتى تشتعل سماء المدينة بالنار. يستأنف الغزاة قصفهم بعيد المغيب، ولا يكفّون عن حرق أبنيتها الخاوية إلا مع ميلاد قبس الفجر. ففي اليوم الثاني نفد صبر الناس فهبّوا ليستبيحوا القنصلية الفرنسية. ويبدو أن قادة البحرية الفرنسية توقّعوا ذلك، لأنهم انتهزوا الفرصة ليقوموا بقصف هؤلاء برغم يقينهم بأنهم ليسوا سوى فريق مكوّن من بعض الغوغاء. سقط الأبرياء لأوّل مرّة، في حين استطاع الجند بأمر من الباشا أن ينقذوا موظفي القنصلية من بين أيديهم، فأنقذت يد التسامح المتهمة دوماً بالتعصّب أناساً ينتمون إلى سلالة القوم الذين يتباهون بالتسامح، في حين أماتت قنابل أولئك الذين يفخرون بالتسامح أناساً ينتمون إلى أعراق الأمّة المتهمة بالتعصّب!

وقد راق الباشا أن يصف هذا العمل الغادر بالقول: «أبشروا، أبشروا! فإن ما حدث ما هو إلا الدليل على احتضار معنويات الغزاة!». ثم كبّر قبل أن يضيف: «دماء الأبرياء هو قربان الضحية عندما تنعى جلادها!». وبالفعل قام «دي جرانبري» بقصف سجون

الأسرى في تلك الليلة عمداً برغم استنكار بقية قادة الحملة، فما كان من الباشا إلا أن أمر بإخلاء السجون في الحال، وتحويل السجناء للإقامة في أقبية محفورة في أرض الحقول اعتاد الفلاحون أن يتخذوها مخازن لغلالهم. ولم يكن «دي جرانبري» يعلم بالطبع أن القدر قد دسّ له مفاجأةً في قصفه لدار السجن، لأن شظية أصابت الأمير الفرنسي «دي بوفوا» في رقبته فسببت له نزيفاً حادّاً لم يفلح أطباء الباشا في إيقافه إلا بعد كفاح باسل. وما إن أفاق الأمير الأسير من غيبوبته حتى تكلّم بنبوءة بدت غريبة في ذلك اليوم المجبول بالبلايا، ولكن الأيام ما لبثت أن جرت بها:

«لن أكون «دي بوفوا» إن لم أطح برأس ابن الزانية «دي جرانبري» يوماً!». وبالفعل استطاع الأمير أن يحقّق هذا الوعد. لأنه حرّر نفسه مقابل فدية دفعها صهره للباشا بعد انتهاء الحرب مباشرة، فأقلع الأمير إلى فرنسا ليدبّر مكيدة ضد «دي جرانبري» كان من نتيجتها أن تسبّبت في خلع هذا المغامر المكابر من منصبه كقائد عام للقوات البحرية الفرنسية. ولم يكتفِ الأمير «دي بوفوا» بهذا الانتقام، ولكنه دبّر للشقيّ مكيدة أخرى أودعته السجن. ثم أخرجه بمكيدة ثالثة كي يفتعل معه شجاراً في حفل فوجّه له صفعة أمام مرأى ومسمع من أكابر فرنسا وزهرات مجتمعها المخملي لتكون مبرّراً لمبارزة لقي فيها النبيل «دي جرانبري» حتفه!

17

في مساء اليوم الرابع لبداية الغزو ساد الساحل سكون مريب. وقد استمرّ هذا السكون حتى منتصف الليل تقريباً.

ارتاب الباشا في الأمر فأمر جواسيسه بالتسلّل إلى الميناء للاستطلاع. عاد الجواسيس فأفادوا أن الأسطول قد اختفى بالفعل من مياه الإيالة. لم يصدّق الباشا فأمر باستدعاء قادة القوات لعقد مجلس الحرب في الهزيع الأخير من تلك الليلة. خاطب المجلس قائلاً:

ـ وراء الأكمة ما وراءها، لأني لن أصدّق انسحاب أسطول الغزاة دون محاولة منه للقيام بابتزازنا!

أيّده رئيس البحرية، ولكن الساقزلي (الذي عيّنه الباشا قائداً للجيش قبل بداية الحرب بزمن قصير بديلاً عن الإزمرلي) كان له رأي آخر. قال إن الغزاة يستطيعون أن يقنعوا بما حققوه ويعدّوه نصراً، لأنهم دمّروا المدينة، وشرّدوا سكانها، كما خرّبوا القلعة، وحصون القلعة، وأسوار المدينة. فماذا بمقدورهم أن يحقّقوا أكثر مما حقّقوا؟ ثم اختتم كلمته قائلاً:

ـ لم يبقَ لهم بعد كل هذا إلاّ أن يرحلوا!

تطلّع إليه الباشا بغموض. قال ببرود:

ـ هذا ما يقوله المنطق الذي لا يُغني في الحرب، في حين يقول الحدس شيئاً آخر. فهل تُقاد الحروب بإرادة المنطق أم بمشيئة الحدس؟

أجاب الساقزلي بلا تردّد:

ـ بإرادة المنطق يا مولانا!

صرخ الباشا في وجهه:

ـ أخطأت!

أطلق الكلمة من فمه كقذيفة ثم أضاف:

ـ المنطق لم يكن يوماً ناموساً حتى لحياتنا الدنيوية (وإلا لكان كل الناس سعداء)، فكيف بلعبة لئيمة كالحرب؟

ثم التفت إلى رئيس البحرية ليتساءل:

ـ لو كنت مكان «دي جرانبري» يا آغا «محمود» ماذا ستفعل بعد أن أعياك قصف المدينة؟

أجاب آغا «محمود» في الحال:

ـ سأسعى لإنزالٍ يا مولاي!

هتف الباشا:

ـ أحسنت!

ثم التفت إلى الساقزلي ليقول بلهجة تخفي وعيداً:

ـ هل رأيت؟

ثم بلهجة أشدّ غموضاً:

ـ القذيفة في ساحتك الآن يا آغا ساقزلي، وعليك أن تحدّثنا عن التدابير التي أنجزتها للحيلولة دون انفجار هذه القنبلة في حِجْرك!

قال الساقزلي بيقين إنسانٍ يجاهد في الدفاع عن النفس وليس في الدفاع عن الإيالة:

ـ دورياتنا تحرث الأرض على طول الساحل يا مولانا، وقواتنا البرية على أهبة الاستعداد لردع أي إنزال برغم أني ما زلت أستبعد أن يجازفوا بإنزال!

في تلك اللحظة أقبل رئيس الديوان ليهمس في أذن الباشا خبراً يقول إن زعيم المحاميد الذي يرابط بحذاء سواحل تاجوراء بعث برسول يقول إن الغزاة قاموا بإنزال بحّارتهم هناك وهاجموا المدينة، ولكن فرسانه فتكوا ببعضهم وأجبروا فلولهم على الفرار إلى سفنهم!

18

في صباح اليوم التالي أصدر الباشا فرماناً بعزل الساقزلي كقائد للجيش وعيّن الأزمرلي بديلاً له من جديد، فيما كانت السفن الحربية الفرنسية تعود للانتشار في مياه بحر ليبيا المواجه لسواحل المدينة.

كان الباشا يختلي في الخباء مع الأزمرلي عندما أقبل رسول النصارى الذي حمل للباشا خطاباً من «دي جرانبري» يقترح فيه توقيع معاهدة صلح!

أمر الباشا باستدعاء أعضاء الديوان وأكابر المدينة والتجار وأعيان القبائل. التأم المجلس في ظهيرة يوم سكن فيه الهواء واحترقت فيه الكائنات بنار نهار صيفي حار. تكلّم الباشا يومها فقال باقتضاب إن النصارى يريدون الصلح، فساد صمت مريب. تبادل الأكابر نظرات استفهام كأنهم لم يصدقوا ما سمعوا. ثم ما لبثوا أن احتجّوا ما إن فهموا. بل استنكروا بأصوات جماعية عالية هوّنت على الباشا مرارة الإهانة التي استشعرها عندما تلقى الرسالة. ولكن الأزمرلي استأذن الباشا ليقول:

ـ بتوقيع المعاهدة اليوم نستطيع أن نتجنّب شروطاً أقسى في الغد!

تصدى زعيم المحاميد لرأي الأزمرلي:

ـ أراك تتحدّث كأننا في وضع المهزومين، وتنسى أن النصارى هم من هُزم!

علت أصوات الاستحسان، وكبّرت أصوات أخرى بإكبار. ولكن قائد الجيش لم يستسلم:

ـ نحن لن نستطيع أن نحارب فرنسا إلى الأبد. أعني أننا لن نستطيع أن نضمن النصر غداً حتى لو توهّمنا أننا هزمناها اليوم!

استنكر أكثر من صوت:

ـ هل يشكك الآغا في انتصارنا؟

هتف آخر:

ـ أجل، أجل يا سادة: الآغا لا يكتفي بالتشكيك في انتصارنا، ولكنه لا يجد حرجاً في أن يستهين بشهدائنا العُزّل الذين تمكّن منهم العدوّ غدراً!

سرت همهمات الاستحسان بين أعضاء المجلس، فتشجّع كبير التجّار ليرمي خصمه القديم بحجر:

ـ آغا الجيش لا يستهين بشهدائنا فحسب، ولكنه يوجّه لنا الإهانة أيضاً وهو الذي لم يحرك ساكناً لردع العدوان لا هو ولا سلفه، ولولا فرسان قبائل الدواخل لتعرضت سلامة الأيالة للخطر!

قام الأزمرلي بمحاولة باسلة للدفاع عن نفسه:

ـ إذا رفضنا توقيع المعاهدة فسوف يواصلون ضرب المدينة بالقنابل!

حاججه كبير التجّار:

ـ وما الذي نبقّى من المدينة حتى تتخذ ذلك ذريعة للترويج لضرورة توقيع معاهدة الاستسلام؟ هل أخفيت كنزاً تحت أحد الجدران؟

تعالت بين أعضاء المجلس ضحكات منكرة احمرّ لها وجه الأزمرلي الذي استنجد بالباشا ببصره. ولكن الباشا لم يهرع لنجدته. ظلّ صامتاً طوال الجدل. يبتسم بغموض وينتظر اللحظة المناسبة للنطق بالكلمة التي ستحسم الجدل.

أخيراً استوقفهم الباشا بإشارة من يده. ثم أمر كاتب الديوان أن يحرر ردّاً إلى النصارى يقول: «يدهشنا أن يقترح الطرف الذي يدعي النصر الصلح مع طرف يراه مهزوماً. هذه سابقة لم نجد لها مثيلاً في تاريخ الحروب كلّها. فإذا كنتم ترفضون الاعتراف بهزيمتكم إرضاء لكبريائكم الزائف، فإننا لا نستطيع أن نضحي بنصرنا إرضاء لكبريائكم هذا. ونقول لكم إنكم تستطيعون أن تواصلوا قصف جدران المدينة ما شاء لكم أن تقصفوا. ولكن عليكم أن تعلموا أننا لن نوقّع معكم صلحاً إلى أن تفنى الدنيا كما سبق وحذّرناكم قبل أن تركبوا رأسكم وتقوموا بمغامرتكم. لن نوقّع معكم صلحاً حتى مع إمبراطوركم نفسه، لأننا اعتدنا أن نوقّع معاهدات الصلح مع الشجعان لا مع جبناء لا يجدون عاراً في أن يقتلوا أبرياء عُزّلاً كما فعلتم أنتم لمجرّد أن جبنكم منعكم من النزول إلى اليابسة ومقاتلتنا وجهاً لوجه ويداً بيد. واعلموا أخيراً أن التراشق عن بعد عمل ليس من طبع الرجال، ولكنّه في عرفنا رذيلة من شيم النساء!».

في اليوم التالي (وهو اليوم السابع على بداية القصف) رفعت البوارج القلوع لتنسحب من أمام يابسة طرابلس.

كان ذلك الانسحاب فراراً مهيناً دلّ على فشل الحملة الفرنسية، برغم أن الأدميرال «دي جرانبري» حاول أن يهوّن من وقع الفشل على الرأي العام في بلاده، قائلاً إنه قد استطاع أن يلقّن القرمانلي درساً لا ينسى!

19

أقلع أسطول الغزاة، ولكن الأهالي لم يصدقوا بأن اختفاء الأسطول من مياه طرابلس الإقليمية دليل على نهاية الحرب. فقد اعتادوا من خلال تجربتهم الطويلة في الصراع مع ملل النصارى أن الغزاة إذا أقبلوا من جهة البحر فهم أعند خلق الله، ولا يعودون من منتصف الطريق أبداً.

وقد أشيع في المدينة أن انسحاب الأسطول لم يكن سوى مناورة لذرّ الرماد في العيون، على غرار انسحابه المشبوه في تلك المرة التي قام فيها بإنزال رجال بحريّته بالقرب من سواحل تاجوراء، ولولا يقظة قبائل الدواخل الذين تصدّوا له لداهم المنشية من جهة الشرق، وربما من جهة الجنوب أيضاً.

أما الشائعة الأكثر إثارة للبلبلة فهي ذلك النبأ الذي يقول إن الأسطول تراجع إلى مالطا للتزوّد بالمؤن والعتاد الحربي تمهيداً للعودة لقصف المدينة مجدّداً بعد التقاط الأنفاس. ولهذا السبب استمرّت أجواء الإيالة مزمومة حتى إن أحداً لم يجرؤ على قضاء الليل داخل أسوار المدينة برغم عودة الباشا إلى رحاب القلعة وشروعه في ترميم الأجنحة التي خرّبتها قنابل الغزاة، لظنّهم بأن القرمانلي لم يقم بهذه المجازفة يقيناً منه بانتهاء الحرب، ولكن لزرع

الطمأنينة في نفوس الرعية ليس إلاّ. وبعد مرور الأسابيع وحتى الأشهر كان لا بدّ للطمأنينة أن تعود إلى نفوس أناسٍ لم يكن ليستحقّوا لقب الناس لو لم يكن لهم النسيان منذ الأزل طبيعة أولى. وكان لا بد أن يعيدوا الأسرى النّصارى إلى أقبية السجون في المدينة أوّلاً جسّاً للنبض، بعد أن توعّدوهم بأنهم سيضطرّون لحشرهم في فوهات المدافع وقصف العدوّ بأشلائهم فيما لو عاد أبناء ملّتهم لقصف المدينة. ويقال إن الباشا صرّح في إحدى جلسات الديوان بأنه لن يمانع في التساهل مع الدهماء فيما لو راقهم أن يقوموا بمثل هذا العمل. وقد استمرّت هذه البلبلة إلى شهر اكتوبر من العام نفسه عندما تبدّت في الأفق سفن أسطول مجهول ظنّه الأهالي فرنسياً في البداية، فما كان منهم إلا أن أعلنوا الاستنفار وتأهبوا للخروج من أسوار المدينة من جديد. ولم يكن أهل الإيالة يدرون أن الهزيمة المنكرة التي ألحقوها بأقوى أساطيل النصارى الحربية في ذلك الوقت كان لها في الضفاف الأخرى من بحر ليبيا ليس أقوى الأثر فحسب، ولكنها كانت بمثابة صدمة شجّعت كل الدول على التسابق لخطب ودّ الإيالة وتوقيع المعاهدات التجارية معها، ليقين هذه الدول بأن طرابلس منذ ذلك التاريخ هي بعبع ذلك البحر الرومانسي العظيم الذي لا غنى للعالم عنه، وسيّدة كنوزه بلا منازع. ولم يكن ذلك الأسطول الذي تبدّى في أفق اليمّ في ذلك اليوم إلاّ نتيجة للغلبة التي حقّقوها دون أن يدروا، ربما لأنهم نالوها تحلياً بالصمود وطول النفس أكثر مما نالوها بسبب كثافة الضحايا. وها هو ملك هولندا يبعث بقائد أساطيله الأدميرال «جرايف» للفوز بقصب السبق في توقيع المعاهدة مع الإيالة، برغم أن سفن هذه المملكة كانت قد

تعرّضت لغزوات القراصنة في عرض البحر الليبي كما لم تتعرّض لها سفن أي دولة أخرى، كما أكّد قنصل هولندا «جيرابرانت» للباشا مراراً قبل وصول الوفد الهولندي.

أمّا الأدميرال «جرايف» فقد اجتمع بالباشا منذ اليوم الأوّل ليقدّم هدايا سخية من مليكه، تمثّلت في العتاد الحربي كقنابل المدافع والبارود والأسلحة وعشرات الآلاف من الفلورانات الذهبية. ولكن الهدية الأنفس من كل الهدايا التي عبّر القرمانلي عن اعتزازه بها فهي تهنئة ملك هولندا له بانتصاره التاريخي في حربه مع ملك فرنسا. الأدميرال أضاف قائلاً: «مولاي الملك يؤمن بوجود ألف وسيلة سلمية لإحلال الوفاق بين الدول وحلّ الخلافات الدنيوية. واللجوء إلى استخدام القنابل عمل ليس غبيّاً فحسب، ولكنه علاوة على ذلك جنونيّ. لأن القنابل لم تُخلق لنستعملها، ولكن لنرهب بها أهل التهوّر. لأنها تفقد مفعولها السحري فيما لو اضطررنا لاستعمالها. ويبدو أن الفرنسيين لم يفهموا الوظيفة الحقيقية للقنابل فلجأوا لاستخدامها ظنّاً منهم أنها دمية. الفرنسيون، يا سعادة الباشا، أطفال تنقصهم الحكمة برغم أنهم يملكون القوّة. وأخطر مخلوق على الحياة البشرية مخلوق يملك القوّة، ولكنه يفتقد الحكمة!».

أما الباشا فلم يزد على أن قال: «لقد أعيتني الحيلة والوسيلة في سبيل إرضاء الفرنسيين إلى حدّ صرت فيه على يقين أنهم قوم لا يعرفون هم أنفسهم ماذا يريدون. وأنت تعلم مدى استحالة أن نرضي إنساناً لا يعرف ماذا يريد. لأن الإنسان الذي لا يعرف ماذا يريد هو نفسه الإنسان الذي يجهل نفسه. وحكمة الشرق وكذلك حكمة

الغرب تحذّرنا من التعامل مع إنسان لا يعرف نفسه. إنهم أطفال حقّاً كما وصفتهم. ولكنهم أطفال من الجنس الشرير، لأنهم يهرعون إليّ للشكوى لأتفه الأسباب. ولا تغرق لهم سفينة في عرض البحر بسبب الرياح إلاّ وحملوني مسؤولية هذا الغرق. ولا يغير على سفنهم قاطع طريق (يسمّى بلغة أهل البحر قرصاناً) حتّى يهرعوا إليّ ليطالبوني بالتعويض. لقد قلت لهم إني أتعرّض لغارات قطاع الطرق كل يوم في بلادي، ولكني لا أحمّل أهل البلاد مسؤولية وجود قاطع طريق بالساحل أو بالمنشية لأسوقهم بعد ذلك إلى أعواد المشانق عقاباً لهم على ذنب لم يرتكبوه. برغم كل هذه الحجج لم يفهموا ولم يكفوا عن ابتزازي واستفزازي إلى أن انتهى الأمر بيننا إلى القطيعة ثم إلى الحرب. وها هم اليوم يجنون ثمار ما زرعوا. فلا يمرّ يوم إلاّ وتقع سفينة تجارية فرنسية في الأسر. ولم يكن هذا ليحدث لو تحلّوا بالصبر ولم يدفعوني لرفع يدي عن سفنهم لتصير لقمة سائغة في أنياب تنانين البحر!».

بعد مغادرة المبعوث الملكي الهولندي استضاف الباشا رسل الدول الأخرى مثل إمبراطورية النمسا، ونابولي، وجنوة، وحتّى صقلية. لم يقبل رسل هذه الدول لتوقيع المعاهدات التجارية مع الإيالة، فحسب، ولكنهم أقبلوا ليطلبوا السماح لهم بفتح قنصليات أيضاً. يومها فرّك الباشا يديه قائلاً إن فرنسا قدّمت له هدية لا تنسى ولا تقدّر بثمن من حيث ظنّت أنها لقنته الدرس الذي لا ينسى، كما عبّر «دي جرانبري» محاولاً أن يبرّر إخفاق حملته الفاشلة.

ويبدو أن الضربات الموجعة التي تعرّضت لها السفن التجارية

الفرنسية قد دفعت بالفرنسيين لعضّ بنان الندم حقّاً، لأنهم سرعان ما اكتشفوا أن تجارتهم لم تعد غنيمة للبحرية الطرابلسية وحدها بسبب القطيعة بين البلدين، ولكنها صارت فريسة للتونسيين والجزائريين وكل المغامرين الذين انتهزوا فرصة العداء بين الدولتين فرفعوا على سفنهم علم الإيالة الطرابلسية لينتهبوا الأسلاب تحت رايتها.

ولم يمض وقت طويل حتى فوجيء القرمانلي بالفرنسيين يجسّون النبض من خلال الوسطاء في نيّة لتوقيع معاهدة صلح، سيما بعد استبعاد لويس الخامس عشر لاقتراح تقدّم به أحد القادة يقضي بغزو شامل لا لليبيا وحدها، ولكن لشمال أفريقيا بأسره بقصد احتلاله بدعوى تأمين الملاحة البحرية!

ففي الوقت الذي كان فيه القرمانلي يستعد لإرسال وفد إلى فرنسا للتفاوض حول إمكانية إحلال سلام بين البلدين استجابةً لإحدى هذه الوساطات، كان رسول السلطان العثماني ينزل بميناء «قصر أحمد» بمصراته محمّلاً برسالة صريحة موجهة إلى الباشا، تقول إنه من العار إرسال وفد إلى فرنسا للتفاوض حول الصلح بعد أن قامت قوّات هذه الدولة بتهديم المدينة. واقترح رسول الأستانة الانتظار لتقوم فرنسا لا طرابلس بإرسال وفودها للتفاوض وتثبت حسن نواياها إذا كانت جادّة في عقد معاهدة صلح. وأضاف مندوب الباب العالي قائلاً إن وفد الإيالة لا ينبغي أن يتجه إلى الغرب (لعقد صلح مع فرنسا)، ولكن إلى الشرق (نحو الأستانة) لحثّ الباب العالي على التدخّل ضد فرنسا فيما لو سوّلت لها نفسها العودة لقصف طرابلس مرة أخرى.

20

طرابلس. 13 يوليو 1731م.

بعد جهود استغرقت سنتين رست في ميناء طرابلس أربع سفن فرنسية تابعة لسلاح البحرية يقودها الأدميرال «دوجي تروا» حاملة على متنها الماركيز «دانتان»، الذي أقبل مندوباً لملك فرنسا لحضور مراسم توقيع معاهدة الصلح التي سبقها تبادل طويل للوفود بين البلدين. ولكن مقابلة الباشا لم تتم إلا في الخامس عشر من الشهر، أي بعد يومين من وصولهما. وقد روى أحد ضبّاط الفرقة البحرية الذين رافقوا الماركيز وصفاً لهذا الاستقبال تناقله أصحاب الحوليات، يقول إن الماركيز «دانتان» قدّم للباشا مسدّساً فريداً دقيق الصنع موشّى بالذهب هدية رمزية من الجانب الفرنسي. وعندما لاحظ كيف نال إعجاب الباشا علّق قائلاً:

ـ هذا سلاح نأمل أن تقبله رمزاً لصداقتنا. وهو إذا كان لا يستطيع أن يجيرك من شرور أعدائك، فإنه قد يفلح في إجارتك من غدر أصدقائك!

فأجاب الباشا وهو لا يزال يتفقّد المسدس المدهش:

ـ من غدر أصدقائي استجرت دائماً بالأقدار، ولكن ما أتأمّله هو أن يجيرني هذا السلاح من نفسي!

لم يفهم أحد يومها إيماء القرمانلي، ولكن ثبت بعدها بسنوات أن تلك العبارة لم ترد على لسان الباشا اعتباطاً!

قال الماركيز:

ـ لا صداقة حقيقية، يا سعادة الباشا، إن لم تسبقها عداوة حقيقية!

قال الباشا:

ـ لأننا لن نعرف صديقنا حقّ المعرفة إن لم نتخذه أوّلاً عدوّاً.

ـ عدوّ نبيل أفضل من صديق رذيل. هذا قانون.

ـ صدقت. كثيراً ما خاب ظنّي في أصدقائي، ولم يخب ظنّي في عدوّي يوماً.

ـ يجب أن نرى في الصديق عدوّاً مؤجّلاً، يا سعادة الباشا. كما يجب أن نرى في العدوّ صديقاً مؤجّلاً.

ـ الصديق الذي لم نمتحنه قد يخون، ولكن العدو الذي تحوّل صديقاً هو أوفى الخلاّن!

قال الماركيز بعد لحظة صمت:

ـ لقد كتب أحدهم على مقبض سيفه عبارة تقول: «أستطيع أن أجيرك من أعدائك، ولكني لن أستطيع أن أحميك من كيد أصدقائك»!

علّق الباشا:

ـ وأنا سأكتب على هديّتك هذه عبارة تقول: «أستطيع أن أجيرك حتى من كيد أصدقائك، ولكني لا أستطيع أن أجيرك من نفسك الأمارة بالسوء!».

القسم الثامن

1

الباشا قال لمعلّم سليل «للاّ زينوبة»:

- أريدك أن تعلّم الولد البطولة!

أمّا «زينوبة» فقد قالت للمعلم شيئاً آخر:

- ليس المهم أن تعلّم ولدي البطولة، بل المهمّ أن تعلمه كيف يحكم!

غاب المعلّم زمناً، ثم أقبل على الباشا ليتساءل:

- هل تريدونني أن أعلم الولد البطولة، أم الحكم؟

فأجاب الباشا:

- وما مزيّة هذا بالمقارنة مع مزيّة ذاك؟

أجاب المعلّم:

- إذا كنت، يا مولاي، تريد لخليفتك البطولة فما أحوجك أن تفعل به ما فعل «أميلكار» بسليله هانيبال.

قال القرمانلي:

- وماذا فعل «أميلكار» بابنه هانيبال؟

أجاب المعلم:

- سلّم أمره للرعاة منذ الطفولة كي يتعلّم على أيديهم الجوع ومصارعة الأسود!

تأمّل الباشا يومها ذلك المخلوق الهزيل الشبيه بالشبح، ثم قال:

ـ وإذا قررنا أن نأخذ وصيّة أم الولد بعين الاعتبار، ورأينا أن تعلّم الحكم أمر أجدى لحياة الولد، فماذا يجب أن نفعل يا ترى؟

قال الشبح المتنكّر في مسوح المعلّم:

ـ اعترف لمولاي أن مهمتنا سوف تكون في هذه الحال أعسر منالاً!

قال الباشا:

ـ كدت أجزم أنها ستصير أيسر منالاً!

ابتسم المعلّم باستخفاف لم يحاول أن يداريه قبل أن يقول:

ـ هيهات! لأن تعلّم الحكم عمل ينافي تعلّم الحكمة التي لم تكن البطولة سوى أحد أهم أركانها!

ـ صلة القرابة بين الحكم والحكمة هو ما لم يخطر لي يوماً على بال!

ـ يختلف الأمر يا مولاي عندما يكون الحكم رسالة قدر كما هي الحال مع الحكم في يدك.

ـ حقّاً؟

ـ أما إذا لم يكن الحكم رسالة فهو خطر مبين!

ـ ماذا تقول؟

ـ الحكم إذا كان هواية فهو مغامرة غير محمودة العاقبة. فإذا كان ميراثاً نلناه عن أب فهو هبة قد تجلب لنا التهلكة، ولكن لا تجلب لنا السعادة أبداً.

ـ لماذا؟

ـ لأن الاحتفاظ به أمرّ من نيله مثله في هذا مثل كل هبات الحظوظ في هذه الدنيا!

تأمّله الباشا طويلاً فوجده نحيلاً، ببشرة بلون النحاس، موسّم اليدين بعروق نافرة، في عينيه حضور لغيبة غامضة، يرتدي أسمالاً بائدة، نزل ضواحي المنشية عابراً إلى وطن مجهول لم يبح بحقيقته لأحد يوماً. ولا يعرف الباشا لماذا استشعر عدم جدوى مجادلة هذا الشبح، ولكن فضولاً عصيًا دفعه لأن يتساءل يومها:

ـ ولكن لماذا لا يستطيع وريثي أن يحوّل الحكم في يده رسالة؟ ألا يقال بأننا نحن من يصنع أقدارنا بأيدينا لا الأقدار تصنع لنا مصائرنا؟

ـ الحكم إذا كان رسالة قدر فهو، يا مولانا، نبوّة. والدنيا لم تعرف نبوّة وهبت نفسها على سبيل الوراثة!

ـ وماذا تريدنا أن نفعل؟

ـ أهون دائماً ألاّ نفعل من أن نفعل!

ـ ماذا؟

ـ لا يجب أن نعاند تيّار الوادي.

ـ سمعت هذا من قبل.

ـ لو لم يذهب هانيبال لمصارعة الأسود في الصحاري لما هلك هانيبال!

أطلق الباشا في وجه الشبح ضحكة استخفاف. قال:

ـ لو لم يقم «أميلكار» بمخالفة قانون اللعب لما صار هانيبال أسطورة الأجيال أيضاً!

ـ ليس المهم يا مولاي أن يصير هانيبال أسطورة، ولكن المهمّ أن نتساءل عما إذا كان هانيبال سعيداً!

ـ ألا يكفيه سعادةً أن يكون أسطورة؟

حدّق الشبح في عينيه بتحدٍّ مريب. أجاب:

ـ كلا يا مولاي. أن يتحوّل الإنسان أسطورة لا يكفي لتحقيق السعادة، بل ربما كان عمل من هذا القبيل سبباً في أشدّ ضروب الشقاء.

سرح الباشا بعيداً حتى تلقّفه البحر. قال:

ـ ربما لا يكون صاحب الرسالة سعيداً سعادة أهل الدنيا، لأن شقوته ما هي إلا الدليل على السعادة الأنبل.

ـ لا أحسب مولاي يريد أن يقنعني بوجود ما يسميه البعض «السعادة المؤجّلة»!

ـ ألا يقال إن من آمن بشيء إيماناً عميقاً فقد ناله؟

ـ ولكن ثمن ذلك ألم. ولا وجود لأب يختار لذريّته الألم إذا كان يستطيع أن يجنّبهم هذا الألم.

ـ لا تحسب أنّك أقنعتني.

ـ هيهات أن أطمع في إقناع إنسان يراهن على خرافة اسمها الخلود!

التفت إليه الباشا مستفهماً فأوضح:

ـ الخلود يا مولانا في الاسم لا في الدّم.

ـ الاسم؟

ـ ما هو الاسم إن لم يكن فعلاً جرى به الزمان؟

ـ هل تريدني أن أتخلّى للأغراب عن زمام أمر بلادي التي رويتها بدمي لأحييها بعد أن كانت رميماً وأحرم منها سليلاً من صلبي؟

قال المعلّم:

ـ كما لم تنلها أنت على سبيل الهبة، كذلك لا يجب أن تهبها على سبيل الإرث!

ـ هل تريدني أن أتركها في مهبّ الريح؟

ـ الريح لا تهبّ إلا بمشيئة الأقدار التي إذا قرّرت أن تذهب بشيء فلا ترياق يجدي!

سكت الباشا في ذلك اليوم. ثم تقدّم من الخيال الهشّ الذي يواجهه حتى كاد يدهمه بصدره. سأل بصوت مكتوم:

ـ ماذا تريد؟

أجاب الشبح بيقين:

ـ لا أريدك أن تلوي العصا في يد الأقدار، لأني لا أريد لمولاي أن يجني على الغرباء، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالأبناء؟

سكت الباشا. قرع الجرس فدخل الحاجب. أومأ بتشييع الضيف وأمر باستدعاء رئيس الديوان. في الخلوة الفاصلة بين خروج الغريب ودخول صاحب الديوان فكر الباشا، فقال لنفسه إن المعلم على حقّ فيما يتعلّق بضرورة إبعاد الولد عن مخادع النساء، بل وحتّى مرأى

النساء. لأن حضور المرأة في عيون الناشئين لعنة حتى لو كانت هذه المرأة أمّاً أو أختاً. يجب الفرار ببذار الرجال بعيداً إن شئنا لهم أن يفلحوا دون أن نضطرّ للتخلّي عنهم للرعاة كي يصارعوا الأسود في الفلوات!

دخل رئيس الديوان، ولكنه تلكّأ عند ضلفة الباب كعادته ولم يتجاسر على المضي قدماً إلا بعد إشارة الباشا الذي مضى يفكر في بليّة الأبناء الذين ننالهم بعسر، ونربيهم بعسر، ونحتمل آلامهم بعسر، ولا يدعوننا في شأننا إلا بعد أن يجعلوا من هذا العسر سبباً لدفننا في جوف التراب. ويبدو أنهم على حقّ، لأن ثمن الخطيئة هو الموت. أتينا بهم إلى الدنيا دون أن نستشيرهم فحقّ لهم أن يستنزلوا بحقّنا القصاص. أنجبناهم إرضاء لأنانيّتنا التي لا تكمن في الشهوة المزوّرة كما يعتقد البعض، ولكن توقاً لذلك الوهم الذي أطلق عليه شبح الأغراب لقب «الخلود» منذ قليل. ولهذا السبب ينتقم منّا الأبناء شرّ انتقام. ينتقمون منا جزاء هذا الطمع. لأن الرغبة في الخلود هي الإثم الذي لا تغفره السماء وتستنكره حتّى الأرض. لأن الخلود حكر على الأرباب، أما الظلال التي تثقل كاهل الأرض فليس لها إلا أن تقنع باللهو. فإذا ذهبت إلى أحضان النساء فليس لها أن تنسى أنها إنما تمارس الشهوة تلبيةً لنداء اللهو لا طمعاً في نيل الخلود. لأن التوق إلى تحقيق الخلود هو الخطيئة الأولى التي استحقّ عليها آدم قصاص المنفى. لأن بذر الأحجية الخالدة في البدن الزائل هو العمل المنكر الذي استحقّ عليه الإنسان اللعنة التي أخرجته من الفردوس وختمت على جبينه بشقاء الأبد. ولهذا فإن من

حقّ الأبناء الذين أنجبناهم من أرحام الأمهات تلبية لهذا النداء الخالد أن يقتصّوا منّا. وهم يفعلون ذلك عادة بدم بارد. هم يفعلون ذلك عادةً دون أن يبذلوا جهداً يُذكر. يفعلون ذلك لأنهم يؤلموننا كل يوم خوفاً عليهم. ونحن لا نموت كل لحظة، كل يوم، خوفاً عليهم لمجرّد أنهم أبناء، ولكن لأنهم أرواحنا العارية، الهشّة، القابلة للانهيار بفعل هبّة ريح، فكيف إذا هبّت عليها زوابع الدنيا؟ وهم يؤلموننا بوجودهم لأنهم ليسوا في الحقيقة أبناء، ولكنهم طلسمنا الخفيّ الذي أبدعناه في غفلة من الربّ، ظنّاً منّا أننا حققنا صفقة رابحة، ولم نكتشف أنها خاسرة إلا بعد أن وجدنا أن الأبناء ليسوا برهاناً على خلودنا، ولكنهم الدليل على زوالنا لأنهم عندما يأتون فنحن لا بدّ أن نذهب. أي أن حضورهم ما هو إلا الإشارة على غيابنا. وهم بهذا لن يكونوا أبداً عربون خلودنا، وإنما برهان منفانا.

أخيراً التفت الباشا إلى رئيس الديوان. تساءل:

ـ طلبت منكم أن تأتوا لي بمعلّم فجئتوني بشبح من أهل الجان!

انحنى رئيس الديوان ولكن الباشا لم يمهله:

ـ أريد مخلوقاً من شحم ولحم ودم لا هيكلاً ملفقاً من عظم أو وهم!

خرج رئيس الديوان في حين فكر الباشا بأن عليه أن يجعل من الولد صورةً لأبيه كما اعتاد ملوك الفرس ونبلاء الأناضول أن يفعلوا. وكي يكون الابن صورةً للأب فليس عليه إلا أن يجعله وريثاً لخطواته قبل أن يجعل منه وريثاً لعرشه. وأولى هذه الخطوات هي الفروسية. لأن الفروسية هي صاحبة الفضل في انتمائه إلى سلاح

الفرسان. وسلاح الفرسان هو صاحب الفضل الذي وضع في يده ذلك السيف الذي لو لم يتقن استخدامه كما ينبغي لما نال العرش. بلى، بلى. إتقان استخدام السيوف هو الذي يأتي لنا بالعروش، برغم أن السيوف لا تفسّر لنا الغاية من الجلوس على العروش. السيوف تحقق المجد، ولكن السيوف أعجز حيل الدنيا عن تأويل الوسوسة وفكّ طلسم النداء! ربما لأنّ النداء لغز شيمته الكلم، ولكن السيوف سلاطين خرساء!

2

ساعة أبلغوه، أثناء خلوة الخباء، بنبأ تمرّد صاحب «فزّان» تساءل عن السبب الذي يدفع الولاة إلى شقّ عصا الطاعة، برغم يقينهم بعدم جدوى العصيان. تذكّر حواره مع الناصر حول الذهب الذي ترفض طبيعته الخفية الاقتسام إلى حدّ صار فيه سبباً خالداً للاستقلال عن سلطان الإيالة. ويبدو أن السرّ لا يكمن في الذهب وحده، ولكن في شريك آخر للذهب لا يشرك بنفسه أحداً ألا وهو السلطة. وبإمكانه أن يضيف لهذا الثنائي (السلطة والذهب) ركناً ثالثاً وهو المرأة! هذا الثالوث لا يرفض بسليقته أن يشرك بنفسه طرفاً ثانياً فحسب، ولكنه يأبى أن يذهب إلى طرف ثانٍ حتى على سبيل الإعارة. وإذا حدث وذهب ليقع بين أيدي غريب فإنه لا يعود إلى مولاه الذي امتلكه أبداً، كأنه يقول للناس بهذه الهجرة أن شيمته الوفاء، فإن تخلّى عنه صاحبه ليقع في يد طرف آخر عدَّ ذلك خيانةً عظمى لا بدّ أن ينال عليها الخائن الحرمان قصاصاً! وهو عرفان رهيب لسجيّة الروح البشرية الظامئة إلى الملكية. بل الروح البشرية التي لا تستطيع أن تتخيّل الحياة من دون ملكيّة.

هذه الملكية التي تحوّلت طبيعة لا في نفوس المخلوقات البشرية وحدها، ولكن في سجايا الأنعام أيضاً، وربما حتى في مسلك النباتات. وإلا ما معنى أن يشاهد صاحب الفضول فأراً ينقل ثروته من الدنانير الفضية من جحر إلى جحر حتى إذا رآها كنزاً كافياً وثب ليستولي عليها في غيبة الفأر. وعندما عاد المسكين إلى الجحر ووجده خاوياً قام يتخبّط ويضرب برأسه الجدران، ولم يكف عن هذه المناحة إلا بعد أن سقط ميتاً! أمّا بعض سلالات النباتات البحرية فتقتنص أحياء القيعان في هجمات مباغتة لتحتفظ بها في أجوافها. أفلن يكون هذا برهاناً على الشهوة إلى الملكية؟ ألم تصبح الحرية عملاً بطولياً إلاّ بسبب عسر (وربما استحالة) التخلي عن الملكية؟ هل يحدث ذلك لأننا نعشق الملكية إلى حدّ نخلط بينها وبين حقيقتنا الخفية؟ بلى، بلى. الأنا في حال الملكية لا تعود «أنا»، ولكنها تصير المرأة التي أعشقها، أو السلطة التي نلتها، أوالثروة التي كنّزتها. الأنا في هذه الحال تنقلب ملكيّة. أنا هي، وهي أنا لا فرق بيننا. إذاً أنا بالملكية أغترب عن نفسي طوعاً. أنا بالملكية أستبدل نفسي دون أن أدري. أنا أتخلى عن نفسي في مقابل أمان موهوم لا يحميني من العوز المزعوم، ولكنه يحميني من الموت. صاحب الملكية يهدهد في قلبه هاجساً أكبر من التحرّر من الموت، لأنه يرى في الملكية الربّ الذي سيحقّق له خلوداً برغم أنه خلود غامض. ولولا هذا السلطان الرهيب للملكية لما استفزّه أن يتمرّد حاكم ولاية من ولاياته، ولا ينام الليل إلا إذا أعدّ ما استطاع من قوّة لإرهابه وإعادته إلى حظيرة ملكه؟

لا يفعل ذلك حرصاً على كنوز الذهب التي سيحرم منها وحسب، ولكن ليقينه بأن انفصال رقعة صحراوية مثل «فزان» ليس خسارة لخراج في راحة اليد، وإنما خسارة لقيمة لا تُقدّر بثمن. خسارة للروح التي تحيي الجسد. خسارة للوريد الذي يغذّي جرماً اسمه الوطن. لهذا السبب يستميت الملوك في قمع أيّ تمرد لأن الاستقلال عن الأصل ليس تحقيقاً للحرية، ولكنه سماح للروح بالخروج من الجسد!

3

في اليوم الذي استدعى فيه الوريث ليضع في يده السيف وينوب عنه في الحملة الجديدة على «فزان»، وجد نفسه يقول كلاماً آخر لم يخطر له على بال في يوم الخلوة. استعاد زمن الفرسان الضائع ما إن انتصب أمامه ذلك الفارس الوسيم ذي العينين الخضراوين المستعارتين من عيني أمّه، ببشرته الذهبية وقامته الرفيعة، فزلزله الحنين. تخيّل في لحظة أن من ينتصب في مواجهته ليس سليله البكر، ولكن إعجازاً تحقّق فانقلب الزمان على عقبيه لا ليرى نفسه في الولد كما يجب أن يحدث، ولكنه رأى نفسه طريّاً، ملهوفاً، طائشاً، مبلبلاً، طموحاً، مصبوباً من شهوة وأحلام وتوق غامض إلى بُعْد مجهول أطلق عليه فيما بعد اسم «النداء»!

استشعر في فمه مرارة فانتصب. كان يختنق بالعبرة لأن الحنين إلى الزمان الضائع ليس بطولة تحقّق لنا استبطان حياة لا نملك أن نحياها من جديد، غير أنها برهان على حلول الشيخوخة. هذه الشيخوخة التي لم تكن لتكون سيفاً مسلّطاً على رقابنا لولا رغبتنا

الخفية في الخلود لا بلغز الروح كما يريد الإيمان أن يقنعنا، ولكن بالجسد أيضاً. وإلا ما الذي يدفعنا إلى إكبار الأكابر؟ ما الذي يجعلنا نرى في كل من بلغ من العمر عتيّاً مخلوقاً جليلاً جديراً بالتقديس؟ إننا نرى في مشيبه آي الربوبية لأنه لم يكن لينتحل منها سيماء القداسة (الكامنة في الغضون والشيب) لو لم يفلح على نحو مّا (لا سبيل لنا لتفسيره) في استعارة سرّ الألوهة، التي جعلت الخلود حكراً عليها وحدها لتهبنا في المقابل تلك الأحجية المسماة بلغة الدنيا سعادة، لأن الأفضل أن نكون من أهل الفناء ولكننا سعداء أن نكون أهل خلود ولكننا أشقياء!

هو أيضاً يهدهد في الباطن البعيد توقاً إلى خلود الجسد ولكن بشرط ألاّ يخذله الجسد. بشرط ألا يفقد قواه العقلية أولاً، ثم الجسدية ثانياً، برغم أنه أعلم الناس باستحالة تحقيق هذه الأمنية. فالاكتفاء بطلب الخلود في الروح وحده يبدو له جوراً. يبدو له خدعة مدبّرة، لا لأنه يرفض بالفطرة أن يتخيّل نفسه خارج هذا الوعاء الملفّق، ولكن لأنه يجهل طبيعة اللغز الذي ستصيره الروح في رحلتها خارج نطاق البدن. ولكن الخسارة تكمن في الصفقة المستحيلة التي نستطيع بموجبها أن نحتفظ بقوانا (العقلية والبدنية) في جسد يسير في ركاب الزمان أطول أمد ممكن دون أن يترهّل فينا الجسد، دون أن يخذلنا الجسد. وهو ما يعني أننا نطمع في خلود مصغّر دون أن ندفع الثمن، لأننا نرفض أن نعترف بأن الوهن هو قربان يجب أن نقدّمه على مذبح الشيخوخة، كما رفضنا قبلها أن نعترف بأنّ السعادة الدنيوية التي نجنيها من أدنى الأفراح اليومية ما

هي إلا القيمة المستقطعة من قدر الفناء. لأن وجود السعادة في ملكوت الخلود أمر لا يليق بأصحاب الخلود، علاوة على أنه مضحك!

4

في ذلك اليوم تكلّم القرمانلي فقال يخاطب سليله:

ـ آن الأوان اليوم أن تحمل الوزر!

كان يراقب بحره الليبي العظيم من نافذة القلعة كما اعتاد أن يفعل كلّما اختنق بعبرات الحنين. لأن صحراء الماء وحدها كانت البلسم الذي هرع إليه دائماً ليضمّد جروحه ويمسح عن وجنتيه دموعه.

التفت نحو الوريث ليقول:

ـ أظنّ أن نبأ تمرّد والي «فزّان» قد بلغك كما بلغ الكثيرين.

همّ الابن أن يجيب ولكن الأب لم يمهله:

ـ منذ سنوات طويلة تمرّد سلف هذا الوغد فذهبت لتأديبه بنفسي برغم خطورة ترك الحاضرة في ذلك الزمن العسير، فهل تدري لماذا عرّضت مستقبل الإيالة كلّها للخطر وتحمّلت ركوب أهوال الصحراء لأعيد سلف الوغد إلى الصواب؟

لاحظ احتقان وجنتي السليل بحمرة، فأدرك أن الابن يستشعر الحرج بسبب المثول بين يدي رجلٍ كان يحب أن يرى فيه أباً لم يجده فيه في يومٍ من الأيام لسبب بسيط وهو أنه لم يره إلاّ نادراً، وها هو يجد نفسه يقف أمامه لا كأب أيضاً، ولكن كوليّ أمر الناس كلّها.

أكمل الباشا:

ـ فعلتُ ذلك لسرّ لم أبح به لأحد. وعندما أبوح لك به اليوم فذلك لأني على يقين بأنك لن تخون ثقة نلتها بالمجّان.

ازداد شحوب الابن، ولكن الأب لم يرحمه:

ـ فعلتُ ذلك يومها ليقيني بأن هذه الواحات التائهة في أحضان أنبل صحاري الأرض وأعظمها قدرة على البطش، والتي يطلق عليها الناس اسم «تارجا» أو «فزّان» ليست مجرّد واحات، ولكنها روح هذه الإيالة!

طأطأ الابن فخيّل للأب أنه سيقع مغشياً عليه فيما لو لم يفصح في الحال. قال:

ـ أستطيع أن أعترف الآن أن سرّ بقاء زمام أمر هذه الإيالة الشاسعة في يدي طوال هذا الزمان إنما يرجع الفضل فيه إلى ولائي لتلك الصحراء لا إلى ولائها لي!

قطع نحو النافذة خطوات. راقب البحر ليرى فيه صحراء الماء الخالدة. قال:

ـ الإيالة الشاسعة ما هي إلاّ شجرة: فرعها هذا الشمال الذي يستلقي على الشطوط. أمّا جذرها الخفيّ الذي يغذّيها فهو الصحراء التي لم تكن الواحات في الجنوب البعيد سوى سمتها المجسّدة!

سكت. صلب يديه على صدره. قال:

ـ الشمال مظهر، ولكنّ الصحراء له جوهر. الشمال جسد، ولكن الصحراء روحه!

عاد على عقبيه. تكلّم كأنه يخاطب نفسه:

ـ الكلّ يظنّ أن سرّ إصراري على الاحتفاظ بهذا الإقليم إنما يكمن في حرصي على الذهب، ولا يدري هؤلاء البلهاء أن جشعي ليس إلى ذهب المعدن الفاني، ولكن عطشي إلى الذهب الخفيّ الذي لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر بقلب بشر!

اختلس إلى الابن نظرة حزينة قبل أن يضيف:

ـ في هذه الصحراء التي يسبّها الجميع ولا يستحي حتى أدعياء الدهاء أن يصبّوا عليها اللعنات إنما يكمن سرّ لا وطننا فحسب، ولكنها تخفي تحت رمالها سرّ الإنسان كلّه. وسوف يأتي اليوم الذي ستدرك فيه الأمم هذه الحقيقة. ولهذا السبب أوكلت إليك بمهمّة الذهاب إلى «فزّان» لاستعادة روح الإيالة، بل وروح الأرض كلها، بالنيابة عنّي لا لأني عاجز عن القيام بهذه الرسالة بنفسي، ولكن لأنني أريدك أن تحمل صليبك منذ اليوم وتلقّن ذلك الوغد درساً قاسياً أوّلاً، ثم تنقل له رسالتي ثانياً..

تجاسر الابن على الاستفهام بنظرة يائسة فابتسم الباشا قبل أن يضيف:

ـ أريدك أن تفهمه أنه ليس حاكماً على عاصمة الصحراء «فزان» ولكنه خادمي على الإقليم لا لأني أخضعتها يوماً بحدّ سيفي، ولكن لأنه سليل دخيل اغتصبها أسلافه عندما فرّوا من بلاد الأندلس فظنّ أنه امتلكها شرعاً، ونسي أن الصحراء هي الوطن الوحيد في هذه الدنيا التي ترفض أن تهب نفسها ويستحيل أن تمتلك لأنها ليست وطناً ككل الأوطان، ولكنها روح من سلالة أرواح. والويل ثم الويل

لمن سوّلت له نفسه أن يستولي عليها، لأن ثمن ذلك قصاص لا يخطر على بال!

تطلّع إلى سليله. اقترب منه خطوة. قال:

ـ من حاول أن يستعبد الصحراء وجد نفسه عبداً، وأريدك أن تلقّن هذا العبد درساً ليعلم أني لم أولّه أمر إقليم الصحراء لكي يتوهّم حكم الصحراء، ولكن لكي يصير خادماً في كفّ الصحراء!

5

ما إن دخل بيت «زينوبة» بُعيد يومين من خروج الابن إلى «فزّان»، حتى هاجمته المرأة بشراسة لبوة:

ـ بأيّ حقّ تضع ابني في فوهة مدفع؟ تدلّل ابن التركية كأنه دمية، في حين تعامل «محمّداً» كأنه لقيط! وعندما جدَّ الجدّ لم تجد سواه لتستنجد به. أنت لا تستطيع أن تنكر أنك أحببت لقيط الأغراب المدعو «مسّي» أكثر من كليهما، فلماذا لم تبعث به لينوب عنك في حملة «فزّان» وهو المخلوق الذي احتفرته من بوادي تلك الصحاري لتنصّبه علينا وريثاً للعرش؟!

دفعها بعيداً كأنه يتقي شرّ وباء. ثم توعّدها بالسبّابة:

ـ احترسي أن يرد اسم «مسّي» على لسانك بالسوء إذا كنتِ لا تريدين أن تفقدي لسانك!

خرج إلى البستان، ولكنها لاحقته بعينين جنونيتين وسحنة شاحبة وشعر أشعث مخضّب الخصلاّت بالحنّاء لمواراة الشيب.

صرخت:

ـ أنت لم تحبّه يوماً، لأن الأب لا يحب ولداً أنجبه من بطن امرأة لم يحبّها!

ـ احترسي!

ـ أعترف بأنّك اشتهيتني ولكنك لم تعشقني يوماً كما يجب أن تعشق. ما جرى بينك وبين «سيدي الصيد» كان قصاصاً لكما جزاء المكيدة التي قمتما بتدبيرها في حقّي!

صرعتها الشفقة على نفسها فانهارت على أريكة إلى جواره وبدأت تنتحب بفجيعة. أمّا هو فقد اقتعد مقعداً في قلب البستان وشرد بعيداً. حاول أن يحتكم إلى حرم المنطق برغم يقينه بعدم جدوى المنطق:

ـ ألم تطلبي له الحُكم يوم أقبل عليك المعلّم في طلب المشورة؟

حشرجت وهي تختنق بدموعها:

ـ طلبتُ له الحكم لأن العرش حقّه المشروع وحده!

ـ وهل ظننتِ أن الحكم مزحة يمكن أن ينالها الورثة وهم يتقلّبون بين أيدي أمهاتهم كالدّمى؟

ـ أنت تنسج دسيسة في الخفاء تنوي بمقتضاها أن تنصّب لقيطك وريثاً للعرش وتحرم منه ذريّة من صلبك لأنك تكره الذرية ولا تجد حرجاً في أن تتباهى بذلك. نعم. أنت تنوي حرمان أولادك من حقّ مشروع كما حرمتهم من حبّك، وكما حرمتني أنا من حبّك قبلهم!

ـ وهل تظنّين الحكم غنيمة يستطيع الناس أن يتوارثوها كما يتوارثون المال؟!

لوّح بيده في وجهها كأنه ينوي أن يوجه لها صفعة. أضاف:

ـ اعلمي إذاً أن الحكم الذي لا ننتزعه بأيدينا انتزاعاً ليس حكماً، ولكنه لُقْية. وإذا لم يتعلّم أبناء الملوك البطولة فلن ينالوا حكماً. وإذا نالوه من دون استحقاق فلن يفقدوه بسهولة فحسب، ولكنهم سوف يفقدون معه أنفسهم!

ـ هراء!

ـ لا بدّ أن يذهب الأبناء إلى أبعد أرض ليقتلوا التنانين ليذوقوا طعم الحياة تحت جناح الخطر إذا شاؤوا أن يعودوا بالقربان في هذه الرحلة!

شهق بعمق. أضاف:

ـ ولكن هيهات أن تفهمي لأنك امرأة، وفوق ذلك أمّ. حنان الأمهات مكيدة مدبّرة ضد الأبناء. ألا ترين أن الولد الذي دلّلته أمّه لا يفلح في شيء؟

قاطعته وهي ما تزال تكفكف دموعها:

ـ لا أريده أن يذهب إلى الصحراء. أنت لم تستشرني في أمره يوماً، فلماذا تخفي عنّي نيّتك في إرساله على رأس الحملة إلى «فزّان»؟

ـ لأنني أردت به ذلك الخير الذي أرَدتِهِ أنتِ له إن كان ما تريدينه له خيراً حقّاً!

حدجته بعينين غزاهمّا الاحمرار وغاب منهما اللون الأخضر. قالت:

ـ وهل نيل السلطان شرّ؟

ابتسم باستخفاف. قال:

ـ هل تفهمينني يا ترى لو أخبرتك بأني لا أرى فيه إلاّ الشرّ؟

حدّقت في وجهه بذهول. كانت تحاول أن تفهم عمّا إذا كان يسخر منها أم يتكلّم جاداً. تساءلت:

ـ إذا كنتَ ترى فيه شرّاً كما تدّعي فلماذا نِلْته؟

أجابها ببرود مريب:

ـ القدَر!

سكتت ولكن الشكوك في عينيها تمادت. سألت:

ـ إذا كان نيله هبة من القدر فلماذا تجاهد للاحتفاظ به؟

ـ لأنه الورطة التي لا نملك الحقّ في أن نتنصّل منها حتى لو شئنا عندما يكون نيلها قدَراً!

سكتت طويلاً. ويبدو أنها بدأت تفهم ما لم يكن يجب أن تفهم. بدأت تفهم ما لن يروقها أن تفهم. قالت:

ـ هل أفهم من هذا أنّك أحببتَ ابن الأغراب أكثر من أبناء اللحم والدم لأنّك لا تملّ من أن تردد بأنّك لا تريد له العرش؟

انتظرت جواب الباشا طويلاً، ولكن الباشا لم يجب.

6

لم يذهب الأمير «محمد» لضرب الحصار حول أسوار «مرزك» الأسطورية إلا بعد أن استباح بجيشه واحات «تارجا» حيث يرابط

جنود الناصر فنهب وسلب وأوقع في الأسر. لم يكتفِ بذلك ولكنه قطع الطرق على قوافل الذهب العائدة من قلب القارة ليستولي على أثقالها، التي لم يتجاسر الناصر على شقّ عصا الطاعة إلاّ بسببها ليقينٍ توارثته العائلة المالكة خلفاً عن سلف يقول إن الذهب كالربّ يأبى أن يشرك بنفسه أحداً.

بعد قطع الطريق على الكنوز بعث إلى الناصر المحاصر في قمقمه الخرافي رسالة تقول: «لستُ في عجلة من أمري لأن ليس لدي ما أفعله كأبي! وسوف أنتظر خروجك هنا إلى الأبد إذا استدعى الأمر، لأني على يقين بأنك لن تستطيع أن تصمد في هذا الجحر حتى لو تحوّلت فأراً!». وقيل إن روح السخرية المبثوثة بين سطور الرسالة راقت أمير «فزان» إلى حدّ لم يبخل فيه بالثناء على سليل القرمانلي، قائلاً إن سجيّة السخرية تخفي روح المرح، وهو يفضّل أن يسلم أمره لجلاّد لا تنقصه روح الدعابة على أن يضع رقبته تحت رحمة مكابر يدّعي الحكمة!

وبالفعل لم يطل مقام الناصر في جُحره لأنه ما لبث أن بعث إلى الأمير «محمد» بالأولياء ليضعوا تحت قدميه رايات الاستسلام مقابل الفوز بالشفاعة. ولكن الأمير وضع شروطاً مخيّبة للآمال مقابل الغفران. قال لفريق المرابطين إن الناصر يجب أن يدفع ثمن خطيئته بما تقدّم من المكوس وما تأخّر. ليس هذا فحسب، ولكن عليه أن يتحمّل نفقات الحملة كاملة ذهباً إبريزاً. وعندما قَبِلَ الناصر بهذين الشرطين حرّر له رسالة قال فيها إنه يريد أن يفشي له سرّاً يأمل أن يكون رمزاً لتوطيد أواصر الصداقة بينهما. هذا السرّ الذي لم يكن

سوى وصيّة عثر عليها الأمير في بطون أحد الكتب تقول إن أغبياء القادة وحدهم يتحصنون وراء أسواء الجدران، أمّا الحكماء فيتحصّنون وراء أسوار العقل، أو أنصال السيوف! ولم يفته أن يذكّر الخصم بلغته الساخرة أن هذه الوصية في حدّ ذاتها تساوي وزنها ذهباً، ولم يعفه من ثمنها إلاّ لأنها بلا ثمن. ولم يفته أن يتساءل: «هي بلا ثمن، لأنها بلا وزن، وهي بلا وزن لأن الأشياء التي لا تقدّر بثمن دائماً بلا وزن!».

7

تصادفت عودة الأمير منتصراً مع إصابة الباشا ببليّة غامضة اسمها الصداع! كأنَّ الأقدار تأبى إلا أنْ تشتري الفوز بمقابل فادح هو الخيبة. وتبيع السعادة ممزوجةً بقدرٍ من كآبة. ذلك أن الباشا آمن دوماً بأن الوجع دائماً يهون ما لم يحل دون استخدام العقل. والصداع هو الوجع الوحيد الذي يحول دون استخدام هذه النعمة الإلهيّة. هذا إذا لم يدفع إلى الجنون!

وقد اشتكى الباشا من صداع مريب في الآونة الأخيرة لأنه لم يعبر كما تعبر كل الآلام أو حتى الأسقام، ولكنه استقرّ. يَهُون حيناً ويستشرس حيناً آخر. وقد بلغ الوجع مداه في أحد الأيام إلى حدّ استجار فيه بالأطباء الذين أغرقوه بوابل من العقاقير التي هوّنت عليه في البداية، ولكنها ضاعفت من أوجاعه فيما بعد. فأمر باستدعاء العطارين الذين أغرقوه في مستنقع آخر من المراهم المشبوهة والأعشاب الكريهة الرائحة، فسكن الألم زمناً ليعود في الأيام التالية بحماسة أشدّ.

يئس الباشا فاعتصم بالفراش. انتابته نوبات الغثيان مراراً، وبلغ به الدوار في بعض الأيام الوقوع في نوبة إغماء استمرّت لحظات كانت كافية لإصابته بالفزع.

لقد استطاع أن يخفي أمر هذه النوبة حتى عن زوجاته وأقرب خدمه، ولكنه لم يفلح في إخفائها عن نفسه. لأنه تذكّر أمراً جسيماً لم يكن له أن ينساه. نسي أمراً لم يعترف بوجوده فذكّره بنفسه في غفلة من أمره. نسي الأمر الذي لم تكن العلل يوماً سوى الشرر الذي لم يُخلق إلاّ ليقدح زند ناره: الموت!

بلى! الموت هو القرين الذي تقول أساطير الصحراء إنه الأقرب للإنسان من حبل وريده، لأنه حميمه الأقدم عهداً من كل حميم. لأنه لم يختر أن يهجع في الأخدود الواقع بين فتحتي الأنف وشفتي الفم إلاّ ليكتم الأنفاس في الأنف عندما يستيقظ، ويسدّ شقّ الفم ليأتي على ما تبقّى من النفس.

هذا الحميم هو ما تناسى الباشا وجوده لا بسبب الغفلة، ولكن ليقينه بأنه لم يكن ليصير أحمد الأكبر لو لم يفلح في نسيانه. لم يكن ليستطيع أن يفعل شيئاً مجدياً بحياته لو لم ترحمه الأقدار بنسيان هذا الحميم المهول. وها هو يعلن عن نفسه. ها هو يقدّم له الدليل على وجوده. فما العمل؟

ولكن الدنيا لم تتح له الفرصة للإجابة عن هذا السؤال. فالزغاريد ما لبثت أن حملت له بُشرى نجاح الحملة على «فزان». ولم يمضِ وقت طويل حتّى أقبل عليه رسول الأمير «محمد» حاملاً تفاصيل الاتفاق القاضي بإبقاء الناصر والياً على الإقليم مقابل دفع نفقات الحملة إلى جانب الخراج المستحقّ.

عندها نسي الباشا مرّة أخرى. نسي الموت أوّلاً، ثم نسي الصداع ثانياً، لأن نوبة الغضب التي استولت عليه يومها كانت كافية لأن تنسيه حتى قدره. أمر بتحرير خطاب شديد اللهجة إلى الأمير يطلب فيه عودته إلى «فزان» من منتصف الطريق ليأتي له بالناصر الوغد (كما يروقه دائماً أن يسمّيه) مكبّلاً بالأغلال. وقد امتثل الابن لإرادة الأب وعاد على عقبيه ليعود إلى طرابلس بصاحب العصيان أسيراً.

أمر الباشا بإلقاء الناصر في غياهب السجن قبل أن يوحي إلى القضاء بالحكم عليه بالإعدام! وبالفعل صدر الحكم فأمر الباشا بإعداد المشنقة في إحدى ساحات سوق «الترك». أقبل الخلق لمشاهدة تنفيذ الحكم في العبد الذي سوّلت له نفسه أن يستولي على حرم اسمه الصحراء، ولا يدري أن الأرض التي ننتوي استعبادها لا بدّ أن نصير لها عبيداً قبل أن نصير في جوفها رميماً (كما ورد في حيثيات الحكم).

أقبل الفرسان يجرجرون الأسير مقيّد اليدين والقدمين بسلاسل الحديد. هذه السلاسل الفظيعة التي اعتاد الناصر أن يضعها في أقدام أفواج العبيد المستوردة من أعماق القارة قبل أن يبيعهم لتجّار الشمال، واعتاد أهالي الإيالة أن يروها في أقدام أسرى النصارى. كان شاحباً، معفّراً بالترباء والعرق والأعفان، تفوح من أسماله الممزّقة أنتن الروائح. وكان يأمل أن ينتهي الأمر بأسرع وقت لا ليضع حدّاً لخِزْيه، وإنما لكي يضع حدّاً لآلامه. وكان يحتقر نفسه بسبب هذا الإحساس لا ثأراً للكرامة، ولكن حسرةً على فقدان

السلطة. وقد أدرك يومها فقط أن كل شيء في الإنسان يمكن أن يموت إلاّ الشهوة إلى السلطة. ولهذا فإنه لم يملك لحظتها إلاّ أن يعجب من قدرة أهل الزهد الذين يحتقرون السلطة.

انتظر الأمر بتنفيذ الحكم ولكن الأمر لم يصدر. ظنّ أن الباشا يتعمّد أن يتلكّأ لكي يطيل من عمر آلامه دون أن يدري أن جبروت القرمانلي إنما يكمن في عبقريّته كرجل بلا قاع. لأنه لو عرف هو نفسه ما سوف يقوم به في اللحظة التالية لما استطاع أن يفلح في الاحتفاظ بالملك يوماً واحداً. ربما لأن من عرف نفسه فقد أذاع للأغيار سرّه. وأعظم الرجال هم أولئك الذين تحوّلوا طلسماً مستغلقاً حتى لأنفسهم. والدليل هو ما لم يتأخّر به الباشا كثيراً في ذلك اليوم عندما أصدر أمره باستبدال الحكم القاضي بإعدام حاكم «فزّان» ببيع المذنب في المزاد، كأنه يتلذّذ بعمله هذا بنسج خيوط فصل جديد من مهزلة جديدة من مهازل الدنيا.

8

أثناء انعقاد جلسة الديوان التي جيء فيها بالأسير ليباع أمام الأعضاء بالمزاد، زعزعت نوبة صداع مفاجئة كيان الباشا فغزاه الشحوب وأغمض عينيه لمقاومة شبح الإغماء. أو هكذا تخيّل في البداية. ولكنه ما لبث أن أدرك فيما بعد أن غزوة صداع تلك المرّة حملت له في عبّها مفاجأة جديدة لم يعرفها في الغزوات السابقة. غزوة تلك المرّة حملت له الظلمة!

فقد استشعر نزول ستور عتمة ما إن تصدّعت عظمة الجمجمة وحلّ في المحجرين ألم لا يطاق. بعدها أحسّ بوهن شديد في

المقلتين قبل أن يحلّ فيهما الليل في عزّ الضّحى. ويبدو أن بعض أعضاء الديوان لاحظ نكبته، ولكن أحداً لم يجرؤ على المجاهرة بالملاحظة فعمّ صمت مزموم استمر إلى اللحظة التي تغلّب فيها الباشا على البليّة وفتح عينيه ليبتسم. ابتسم بغموض ثم أومأ لرئيس الديوان فبدأت المراسم. كان الأسير يقف في قلب المجلس كشبح عاد للتوّ من رحلة إلى جهنّم. إلى جواره وقف أحد ضبّاط القوّات البريّة. خلف طوق الأعيان وقف الأمير «محمد» بسيماء شاحبة كأنه هو الذي سيخضع للبيع بالمزاد وليس أسيره الناصر.

تكلّم الباشا:

ـ يطيب لي اليوم أن أعرض أمامكم أسمن صيد لا في تاريخ الإيالة وحدها، ولكن في تاريخ الخليقة كلها. .

مال على أحد الأكابر قبل أن يكمل العبارة ليسرّ في أذنه بصوت تعمّد أن يسمعه الجميع:

ـ أم أنكم سمعتم قبل اليوم بملك يباع في أسواق الرقيق بالمزاد؟

نفى الرجل بهزّة من رأسه ثم طأطأ. سَرَتْ في المجلس هرجة.

أمّا الباشا فقد ابتسم ليقول:

ـ وبما أن أسيرنا هذا هو أسمن صيد في تاريخ الإنسانية كلّها فإني رأيت أن أشتريه بثمن غالٍ جدّاً إكباراً لسلطانٍ ناله على الناس لا إكباراً لشخصه. فهل ترون أن خمسين قرشاً هو ثمن لائق لمخلوق بمثابة ملك؟

في البداية هيمن سكون. ثم تعالى همس. ثم ضجّ المكان بالضحكات.

أضاف الباشا:

ـ أريد أن أذكّر الأعيان الأجلاّء بالمزاد الذي يقضي الناموس بأن ينقلب رأساً على عقب فيصير تنازلياً بدل أن كان تصاعدياً في تلك الحال التي يتقدّم فيها ولاة الأمر بعرضٍ، لأن عُرف الأسلاف هو الذي أقرّ الوصية القائلة بأن لا صوت يعلو فوق صوت وليّ الأمر!

لحظتها لاحظ الباشا تململ كبير التجّار فحدس نيّة اللئيم في الاستيلاء على الغنيمة لا لإشباع شهوته إلى التباهي، وإنما ليقينه بأنها صفقة العمر. لأن الصيت سوف ينقله الجنّ على مطايا الريح قبل أن تنقله قوافل التجّار لتشيعه في الأركان. ولهذا السبب قرّر الباشا أن يفوّت عليه الفرصة قبل أن يرتكب اللئيم حماقة قد تفسد المهزلة الإلهيّة لتحوّلها إلى مهزلة دنيوية.

سدّد له الباشا نظرة وعيد أصابت جسده أيضاً بالشلل إلى جانب شلل لسانه!

قال:

ـ لا أنكر أني بالغت في تقدير الثمن. وقد فعلت ذلك إكباراً للسلطان لا لصاحب السلطان، فاسمحوا بتخفيض الثمن إلى الثلاثين قرشاً! ألا ترون أن ثلاثين قطعة حديد ثمن مناسب؟

قام أحد بلهاء المجلس الذين لم يحدث في تاريخ المجالس أن خلا منهم أيّ مجلس. همّ بأن يتكلّم، ولكن الباشا استوقفه بإيماءة صارمة فانهار حائراً.

عاد السكون يهيمن. تأمّل الباشا وجوه الأكابر. في مقلتيه إيماء غامض لم يفلح الأعيان في فكّ طلسمه فتشبّثوا بالصمت. قال أخيراً:

ـ اعترف أنكم على حقّ. فهذا الوغد الذي يقف بينكم لا يستحقّ أن تدفعوا شروى نقير ثمناً له. هل تدرون لماذا؟ لأنه خائن للعهد، سليل خائن للعهد، ولا خير يُرجى من إنسانٍ يخون العهد حتى لو كان سلطاناً على الناس، بل حتّى لو كان سلطاناً على الدنيا كلها. لأن الخائن لا يصلح خادماً. ولهذا السبب يجب أن نبيعه اتّقاء لشروره لا أن نشتريه فنعرّض حياتنا للخطر! فاسمحوا لي أن أهنئكم على فراستكم أولاً، واسمحوا لي أن أبتاعه منكم بقرشين اثنين فحسب، لا لأستبقيه إلى جواري (لأني لست مجنوناً حتى آمن شرّه)، ولكن لكي أتنازل عنه لابني «محمد» الذي قرّر أن يجرّب حظّه مع أهل السوء!

أطلق ضحكة مكتومة. تساءل:

ـ هل تتصوّرون أن محمداً يريد أن يعيده سلطاناً على فزّان بعد أن اشتراه عبداً؟ إني أحسد حسن هذا الفتى بسلالة العبيد! إنه غرّ فاغفروا له هذه النزوة، لأن اليوم الذي سيعلم فيه أن العبيد لا يصلحون خلاّناً سوف يأتي. وأحمد الله تعالى أني لن أشهد حلول ذلك اليوم لأني لن أبقى على قيد الحياة.

هبّ واقفاً. أمر رئيس الديوان:

ـ اخلعوا قفطان السلطنة على هذا العبد وأعيدوه حاكماً على الإقليم. ولكن إيّاكم أن تنسوا هدم أسوار «مرزك» لأني لم أثق بالوغد سلطاناً، فكيف أثق به عبداً؟

أخفق في تحقيق النصر ضد الصداع بالعقاقير فاحتال عليه بالدهاء. شدّ رأسه برباط مصنوع من جلد شدّاً كاد يفقده عقله، ثم لوى العمامة فوق رأسه لإخفاء الطوق الجلدي. تراجع الوجع مع مرور الأيام، ولكن زحف الظلمات في المقلتين لم يتوقّف. كفّ الظلام عن مهاجمته في غزوات جنونية مباغتة، واختار التسلّل إلى عينيه غيلةً. همَّ اللجوء إلى أهل الترياق لمنازلة العدوّ الجديد، ولكن تجربته المريرة مع هذه الملّة (التي لا تختلف عن ملّة المنجمين الذين لا تصدق نبوءاتهم إلاّ مصادفةً) بلبلته فقرّر أن يستبعد هذه المهانة ويسلم أمره لقدره كما فعل دائماً كلّما أحاقت به بليّة.

اختلى بنفسه في الخباء وأمر باستدعاء «مسّي». راقب البحر المستور بغلالات العتمة. تلك العتمة التي لم تتنزّل هذه المرّة من رحاب السماء، ولكنها تسلّلت من حدقة العين. تساءل ما معنى أن يحيا الإنسان في العماء، فأجاب نفسه بعدم جدوى الحياة من دون ضياء. وهو ما لم يخطر له على بال يوماً، لأنه لم يسبق له أن تساءل عن معنى البصر قبل اليوم، كما لم يتساءل عن حقيقة الجمال المستعار من النور إلاّ اليوم.

في مدخل الخباء انتصب شاب مارد نحاسي البشرة، حادّ البصر، معقوف الأنف، نحيل البُنية، وسيم الملامح. اعتصم بالمدخل طويلاً قبل أن يتساءل الباشا:

ـ هل هذا أنت يا صديقّ الزمان؟!

أجاب المارد:

ـ بلى، يا مولاي!

انتهره الباشا:

ـ قلتُ لك ألف مرّة ألاّ تخاطبني بلقب «مولاي»!

ـ أرجو المغفرة يا أبي!

هلّل الباشا:

ـ لا أريد أن أسمع كلمة «أب» إلا من شفتيك!

تردّد «مسّي» قبل أن يقول:

ـ ولكني سمعت الأمير «محمداً» يخاطبك بلقب «مولاي»!

ـ الأمير «محمد» يريد أن يرث العرش، ولهذا لا بدّ أن يخاطبني بلقب «مولاي»!

تردّد الفتى مرّة أخرى قبل أن يقول:

ـ الحقّ أني لم أفهم يا أبي!

تطلّع إليه الباشا بعينين واهنتين برغم أنه جاهد في اقتناص سيماء المارد ببطولة. قال:

ـ تلك لغة الصفقة! من يريد أن يعتلي العرش لا بدّ أن يتكلّم لغة العرش!

لوّح بمسبحته الفضية في الهواء قائلاً:

ـ أجارك الله من العرش ومن أهل العرش!

ابتسم «مسّي»، ولكن القرمانلي قال فجأة:

ـ أريدك الآن أن تسمعني لأني قررت أن أبوح لك بسرّ دون الناس جميعاً.

ـ لقد علمتني يا أبي أن أصم أذني عن سماع أسرار الناس سيّما أسرار أهل العرش!

ابتسم الباشا. تمتم:

ـ أحسنت!

ثم أضاف بحزن:

ـ ولكن لا تنسَ أنّك صديقي الوحيد في هذه الدنيا، والإنسان لا بدّ أن يستودع أسراره مخلوقاً مّا حتّى لو كان هذا المخلوق دابّةً بكماء!

ـ سرّ الأب جوهرة في قلب الابن!

قال الباشا ببرود:

ـ أنا أعمى!

ولكنه في اللحظة التي نطق فيها هذه العبارة المميتة زلزله قبس إلهام كان له هاجساً وقتاً طويلاً، ولا يعرف كيف غاب عنه مع بداية محنة الصراع. زلزله قبس نبوءة تقول إن العماء ما هو إلا لعنة. لأن فقدان البصر ما هو إلا استجابة لدعاء ذلك المظلوم الذي حرق قلبه يوماً بعماء الجور. لأنه بالعين أبصر الجمال المميت، ولا بدّ أن ينطفىء نور العين الذي أبصر ضياء الجمال الذي لا يجب أن يُرى بحدقة العين، ولكن يجب أن يُرى بالقلب. لأن رؤيته بالبصر بدل البصيرة تجديف في حقّ الجمال، تدنيس لجلالة الجمال. هو خطيئة لن يغفرها إلا العماء. ولم يكن سيدي «الصيد» سوى وسيلة في كفّ

القدر، لأنه لم يدرك إلاّ الآن أنه لم يدنّس جمال فتاة فانية في ذلك اليوم المشئوم، ولكنه دنّس جمال الربّ!

في اللحظة التي كان «مسّي» يتساءل فيها بـ: «ماذا؟» كان الباشا قد هبّ على قدميه واقفاً. غمغم وهو ينطلق خارجاً:

ـ العرّاف!

مشى «مسّي» خلفه خطوات قبل أن يستدير الباشا ليمدّ له يده قائلاً:

ـ ضع يدك في يدي! خذ بيدي دائماً لأني لا أريد أن يشمت بي الأعداء!

عبرا فناء السراي. أمر الباشا بإحضار الجياد. قال وهو يمتطي صهوة الكميت:

ـ إيّاك أن تنسى أن كل من تراهم حولي ما هم إلاّ أعداء يتنكّرون في جلود الأصدقاء!

يومها طار الباشا بجواده كما لم يطر به من قبل حتى أن «مسّي» أخفق في مواكبته، ولم يدركه إلاّ عندما بلغ حقول المنشية ووقف بباب العرّاف «آهر» الملقّب في لغة الناس باسم سيدي «الصيد».

كان الباشا قد ترجّل عن جواده في اللحظة التي خرج فيها أحد الخدم لاستقباله.

زحفت في عينيه الظلمات فعثر بجذع نخلة فترنّح وكاد يسقط أرضاً. هرع إليه «مسّي» ليأخذ بيده في حين وقف الخادم مشلولاً من فرط الدهشة.

تساءل الباشا:

ـ سيدنا الصيد! أين سيدي الصيد؟

ازدادت الدهشة في عيني الخادم الكبيرتين حتى أيقن «مسّي» بأنهما ستفزّان من معقليهما.

استعاد أخيراً القدرة على الكلام:

ـ سيدي الصيد ذهب بعيداً منذ زمن بعيد!

ردّد الباشا بلا إرادة كأنه يحاكيه:

ـ سيدي الصيد ذهب بعيداً منذ زمن بعيد!

ثم تشبّث بيد «مسّي» قبل أن يضيف:

ـ متى؟ إلى أين؟

تمتم الخادم ذو العينين السوداوين الكبيرتين الجاحظتين:

ـ لا أدري يا مولاي. يقال إنه ذهب إلى الصحراء!

هتف الباشا:

ـ إلى الصحراء؟

ولكن الخادم ذا العينين السوداوين الواسعتين تراجع إلى الوراء كأنه ينوي أن يفرّ، في حين قال الباشا يخاطب «مسّي» كالممسوس:

ـ هل سمعت ما يقول؟ أيعقل أن يختفي سيدي الصيد منذ زمن بعيد؟

ولكن الشاب أمسك بيد الباشا بكلتا يديه لكي يعيده إلى صوابه. قال بعينين دامعتين:

ـ أبي! هذا لا يليق!

القسم التاسع

1

جزيرة جربة . 1739م .

حول السور الملكي المشيّد من الطين المراكشي الأحمر طاف شبح كئيب في ظلمة ليلة ربيعية مشوّشة بأفواج غيوم كثيفة محملة بالغيوث التي تجود بها أوطان النصارى المستلقية على ضفاف البحر الأخرى، فتدفعها الرياح الشمالية نحو الجنوب في حرب الكرّ والفرّ بينها وبين رياح «القِبْلي» التي تهبّ من جهة الصحراء .

تسكّع الشبح المريب حول الأسوار طويلاً قبل أن يتوقّف تحت شجرة نخيل مجاورة لجدار السور من جهة الشرق . تفقّد المكان بحرص عقعق، ثم بدأ يتسلّق الجدار . ولكنه ما لبث أن انزلق إلى الأسفل . عاد يتشبّث بالجدار الطيني العاري بعناد نملة، ولكن قواه خانته فأخفق مرّة أخرى . خطا نحو الشمال، ثم عاد على عقبيه خطوات أخرى . أخرج من تحت جلبابه الفضفاض، المنسوج من أصواف خشنة مبلّلة بالمطر، مجرفة قصيرة الذراع . أسند المجرفة إلى الجدار ليحرّر يديه . ثم دسّ يده في كمّ جلبابه ليخرج أداةً أخرى مريبة . مزّقت نيران البرق ستور الظلمة فتبدّت الأداة بندقية ذات ماسورة طويلة عثمانية الصنع . أسند البندقية إلى الجدار في اللحظة التي استجاب فيها الرعد لآيةٍ سبقه إليها البرق فدمدم في أذن الشبح بنبرة استعلاء . تناول المجرفة وبدأ حفر الجدار المبلّل .

حفر بحذر وهو يغنّي. تغنّى بلحنٍ من ألحان المرزكاوي التي حملتها قوافل الذهب إلى أبعد الأركان فصارت في أفواه العشّاق بديلاً للتمائم. ويبدو أن لحون المرزكاوي لا تشفي المصابين بأمراض العشق وحدهم، ولكنها تعزّي الممسوسين وتشدّ من أزر المعتزلة، لأن في هذه الأغاني تماهت روح أهل الصحراء، بوجد الأمم الزنجية، بشجن الملل العابرة.

غنّى الشبح بصوت مكتوم لئلاّ يستثير العسس، برغم يقينه بلجوء هؤلاء إلى الديار للاختباء من المطر. أثناء الغناء يحلو له أن يتذكر وينسى في الوقت نفسه: ينسى نفسه لأنه لا يذهب بعيداً ليتذكّر إن لم ينسَ نفسه. استعاد في تلك الليلة المطيرة سيرته مع القَنْص الذي لم يرَ فيه قنصاً، ولكنه رأى فيه الحياة. رأى فيه دمية لهوه التي لم تكن لتكون لهواً لو لم تكن دمية. ولم تكن لتكون دمية لو لم تكن له دنياه. فقد تعشّق الرماية منذ كان في المهد صبيّاً. ذلك أن خالته الشقية التي ربّته بعد موت أمّه تعمّدت مرّةً أن ترميه بحجر مدبّب عندما كان نائماً في فناء الدار، فنزّ الدم من رأسه في نزيف سخيّ أفزعه. عانى بعدها من صداع مزمن، ولكنه لم ينسَ السبب. بحث عن السرّ في الحجارة فهرعت لنجدته الحجارة. بدأ بحبيبات الحصباء، ثم قطع الحجارة، ثم قوس النشّاب، ولم يتوقّف إلا في اليوم الذي أصاب فيه خالته بسَهم في صدرها فأرداها قتيلة! فرّ من البيت. فرّ من الجزيرة كلها ولجأ إلى البرية. هناك، في القيروان، اكتشف سلاحاً مميتاً جديداً اسمه البندقية فقرّر أن يبدل قوس النشّاب بفوهة البندقية. عمل في بيت أحد السادة ليشتري بالأجر بندقية.

ولم يظنّ أنه سيضطر لاستخدامها بين يوم وليلة إلاّ في اليوم

الذي هجم فيه اللصوص على البيت فاحتكم إلى سلاحه الرهيب. قتل ليلتها كبيرهم بأوّل طلقة، وأصاب ثانياً بجرح بليغ. نال على جريمته تلك من سيّده كراءً مجزياً دون أن يعلم أن ذلك الكراء لم يكن سوى طُعْم، لأن السيد (مثله مثل أي سيّد في هذه الدنيا) لم يصر سيّداً إلاّ بعد أن كسب عدداً كبيراً من الأعداء. وقد فاتحه في أحد الأيام برغبته في أن يؤدّي له عملاً جليلاً سوف يشكره عليه شكراً سخيّاً فيما إذا قبل العرض المتمثل في استغلال مواهبه في استخدام البندقية. ذهب به إلى السوق ليريه الخصم الذي كُتب عليه أن يصير ضحيةً بعد أيام بفضل براعته في استخدام هذه الآلة العجيبة. نال على عمله أجراً سخيّاً فترك الخدمة في بيوت الأكابر واحترف استخدام فوهة البندقية مقابل أثمانٍ باهظة ظلّت تتضاعف كل يوم. ذلك أنه اكتشف مزايا عمله الذي لا يقدّر بمال، لأن القضاء على العدو إنما يعني أن تهب الحياة لعدوّ هذا العدوّ. وأن تهب الحياة لإنسانٍ فقد الأمل في الحياة أعجوبة تسفّه البخل بكنوز الدنيا. ويبدو أن هذا هو السرّ الذي جعل عملاء الباشا علي بن حسين يضعون في يده صرّة سمينة من القطع الذهبية مقابل أن يصيب بعيار بندقيته الشيطانية جبين المتمرّد سعيد بن موسى حاكم جربة!

2

جربة. صباح اليوم التالي.

تشتّت شمل الغيوم الشمالية وتبدّت الشمس من وراء أفق البحر الموسّم بفلول السحب الغابرة، فخرج الشيخ سعيد في نزهة عبر البستان يرافقه شقيقه أحمد.

استنشق الشيخ الهواء النديّ المعطّر بزهور الياسمين والقرنفل ونكهة الطين المغسول بأمطار الربيع، فاستعاد نصيباً من صفاء كدّرته ليلة ماجنة احتضن فيها امرأتين من نساء الأعلاج في مخدع واحد.

استشعر انتشاء غامضاً. قال يخاطب شقيقه أحمد:

ـ يحلو احتضان نساء الأعلاج في ليل يزغرد فيه المطر، ويطيب استنشاق الياسمين في صباحٍ يصفو فيه النهار من أسباب المطر! ألا ترى أن حقيقة الدنيا لا وجود لها خارج هذين القطبين؟!

حدجه أحمد بمكر. ابتسم. قال:

ـ لا تنسَ أن تضيف إلى هذين القطبين ركناً ثالثاً إذا شئنا أن ننصف عمر الخيام في مثواه!

استفهم الشيخ سعيد بنظرة فأضاف شقيقه أحمد:

ـ الرّاح!

تضاحك الشيخ سعيد. انحنى على زهرة قرنفل. اقتطفها. استنشق عبيرها عميقاً. قال:

ـ حسناء علجية في المخدع. صفعات مطر على النافذة. كأس في اليد، ثم زهرة قرنفل على مائدة الإفطار في الصباح. أليست هذه هي السعادة التي يريد الباشا عليّ بن حسين أن يحرمني منها غيرةً وحسداً لأنه لا يحسن أن يحقّقها لنفسه؟

قال أحمد:

ـ إذا حسدك فهو على حقّ، لأن الرجل لا يحسد الرجل إلاّ على حسناء! فإن لم يحسده على حسناء حسده على مال. فإن لم يحسده

على مال حسده على قدرته في أن يحيا سعيداً بلا مال. والإنسان الذي يحيا سعيداً دون أن يكون في حاجة إلى مال هو الشاعر الذي يستمتع بمرأى زهرة القرنفل دون أن يضطرّه الحرص لانتزاعها كما فعلت أنت منذ قليل!

ـ لا أحتمل أن أرى زهرة دون أن أقتطفها!

ـ تستطيع أن تشتمّ رائحتها دون أن تقتطفها.

ـ الزهرة كالمرأة لا ننالها بحقّ إن لم نمتلكها.

ـ ولكننا لا نستطيع أن نمتلكها دون أن نفنيها!

ـ نفنيها لنفني أنفسنا معها!

ـ في هذه صدقت، لأننا لا ننال الجمال حقّاً إلاّ في الموت!

هيمن صمت عابر. سارا عبر دربٍ يستظل بأشجار نخيل عالية، تتمدّد على جانبيه صفوف زهور مختلفة، مفروشة بحجارة حصباء حمراء.

قال أحمد:

ـ يجدر بك أن تسمعني آخر الأشعار!

هتف الشيخ سعيد وهو يرفع كلتا يديه نحو السماء:

ـ هذه هي آخر الأشعار. السماء فوقنا شعر. والندى فوق زهور الياسمين شعر. وعطر القرنفل شعر. وجولتنا في هذا البستان شعر!

تفكّر أحمد. قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ أجل. الحياة ملحمة شعرٍ في لحظات التجلّي. ولكنها كابوس عندما تعبس في وجوهنا سعلاة اسمها الدنيا.

ـ لا تذكّرنا الآن بالدنيا، لأن دعوة الباشا عليّ ما تزال غصّةً في حلقي!

سكت أحمد لحظة. قال:

ـ هل تريدني أن أَصْدُقك القول؟

ـ أفصح!

ـ إذا قبلت الدعوة وذهبت عرّضت نفسك للتهلكة خنقاً، وإذا رفضت الذهاب خلع عليك جبّة اسمها العصيان!

ـ وهل تحسبه يجرؤ على غزو الجزيرة؟

سكت الشيخ سعيد لحظة. أضاف فجأة:

ـ لقد فكرتُ كثيراً في أن أذهب..

ـ تستطيع أن تذهب في حال ما إذا كنت تنوي أن تحقّق الخلود!

ـ الخلود؟

ـ الهلاك على يد طاغية بطولة، والبطولة في نظر الناس خلود!

ـ ولكني تنازلت عن هذا الخلود يوم بلّغته بعدم قدرتي على المجيء.

ـ ما زال أمامك متسع من الوقت.

ـ لا أظنّ. لأن الجواسيس أبلغوني بأنه يئس ولم يبق له إلاّ الغزو!

توقّف أحمد. قال:

ـ إذا لجأ إلى الغزو فلن يبقى لنا سوى القرمانلي!

هتف الشيخ:

ـ القرمانلي؟!

ـ إنه السلطان الوحيد القادر على أن يجيرنا من بطش عليّ باشا.

تضاحك الشيخ سعيد باستخفاف. قال وهو يتقدّم خطوة:

ـ القرمانلي قد يجيرنا، ولكني أشكّ في أن يجير جزيرتنا.

قال أحمد بيقين:

ـ إذا لم يجر جزيرتنا فكأنّه لم يجرنا، لأننا نحن الجزيرة اليوم، وما الجزيرة إلاّ نحن!

في تلك اللحظة سمع أحمد دويّاً ينطلق من مسافة قريبة، ولكنه لم يفق من غيبته إلاّ بعد أن سمع ارتطام جسد شقيقه بالأرض.

كان الشيخ سعيد يستلقي على الدرب المفروش بالحصباء، بعينين مفتوحتين اشتدّ في مقلتيهما البياض. من جبينه سال خيط قانٍ من دم.

3

طرابلس. البلاط. 1739م.

سمع الباشا طرقاً خفيفاً على الباب. أطلّ رأس رئيس الديوان الأشيب فأومأ له بالدخول. دخل ولكنه تلكّأ بالمدخل. ابتسم الباشا. أزاح القرطاس جانباً. ثم استعاده ليتظاهر بالانهماك في قراءته. كانت صفحة ناصعة، ولكنه رآها رقعة ظلماء. ليست ظلماء تماماً، ولكنها كئيبة بلون الرّماد. أمّا الكتابة فقد تبدّت نمنمةً شبيهةً بأجرام النمل. اعتاد أن يلجأ إلى هذه الحيلة في الآونة الأخيرة أملاً

في ذرّ الرماد في عيني رئيس الديوان، برغم أن الشكوك كثيراً ما ساورته في أمر هذا الداهية الذي لا تخفى عنه خافية.

أزاح القرطاس جانباً مرّة أخرى. أشار لرئيس الديوان المنتصب عند ضلفة الباب فتقدّم الماكر خطوتين وهو يحاول أن يخفي بسمة خبيثة. قال:

ـ الأمير أحمد بن موسى ينتظر الإذن بالدخول يا مولاي!

أومأ بإشارة من يده وتناول مسبحته الفضية. تطلّع إلى النافذة فلم يرَ بحراً. رأى ضباباً ملفوفاً بمسوح العتمة، ولكنه فقد القدرة على الإبحار عبر البحر الخالد. خنقته عَبْرة كجمرة النار قبل أن تتحوّل هذه العبرة دمعاً في المقلتين بحرارة النار، فسأل نفسه بمرارة: «ما هو العماء يا ترى؟» فأجاب نفسه بمرارة أقسى: «العماء هو الحقيقة!». لم يشفِ الجواب له غليلاً فأضاف إلى السؤال سؤالاً آخر: «ما هو الصداع الذي يؤدي إلى العماء؟». أجاب نفسه بعد تردّد: «إذا كان العماء هو الحقيقة فلا شكّ أن الصداع هو الدنيا!». راقه الجواب فهمّ بالنهوض. ولكن سؤالاً أكثر لجاجةً استوقفه: «ولكن ما هو النداء؟». قرّر أن يرجىء الإجابة عن هذا السؤال لوقت الخلوة. ولكن إلهاماً تنزّل فيه في اللحظة التي دخل فيها الضيف يقول: «النداء هو الحرية التي لا سبيل إليها!». لم يتأمّل الوحي بما يكفي، لأن الضيف كان قد اقتحم المكان ووقف يحييه بانحناءة قبل أن يمدّ له يده مصافحاً.

جلسا متقابلين. الباشا يعبث بمسبحته محاولاً أن يتبيّن ملامح ضيفه، في حين انطلق الأمير أحمد يتحدّث عن الأحداث الأخيرة

التي شهدتها الجزيرة إلى أن انتهى إلى الطلقة الغادرة التي صرعت شقيقه على بعد خطوتين منه. تهدّج صوته فعرف الباشا أن الضيف ذرف دمعاً. وكي يهوّن عليه مصابه الأليم قرّر أن يتدخّل:

ـ بيتي منذ اليوم بيتك، وطرابلس أهلك، والإيالة وطنك، أنت ومن معك!

مسح الضيف دمعه. قال:

ـ لم أشكّ في ذلك البتة يا سعادة الباشا. ولكن الغدر غصّة لا تبرأ!

ـ أفهم. ولكن البلايا كالمكوس لعنة لا بدّ منها!

ـ فليسمح سعادة الباشا، ولكن البال لن يهنأ لي ما لم أنتقم!

ابتسم الباشا بغموض. قال:

ـ انتقام الأقدار أشدّ من انتقام صاحب الدنيا!

استنكر الأمير أحمد:

ـ هل ندع القتلة يعيثون في الأرض فساداً ونقف مكتوفي الأيدي؟

ـ ناموس الأجيال يقول: «لا تفعل شيئاً على سبيل الانتقام أبداً!». فهل أخطأ الناموس؟

ـ ولكن الدنيا، يا سعادة الباشا، لم تكن يوماً سوى حلبة انتقام. فهل ينوي الباشا أن يخذل مسعاي؟

ـ لا أنوي أن أخذل أحداً، لأني لم أعد أحداً.

تململ الأمير في جلسته. قال بحماسة:

ـ لم أحل في أرض صاحب السعادة لأنجو بجلدي، ولكني جئت كي أضع بين يدي الباشا مفتاح الجزيرة!

ذهل الباشا:

ـ مفتاح الجزيرة؟

ـ بلى يا سعادة الباشا. جئت كي أرجو ضمّ الجزيرة إلى المملكة الطرابلسية!

سكت القرمانلي، ولكن أصابعه لم تتوقف عن العبث بحبيبات مسبحته سوى ومضة. لاذ بالصمت فأضاف الضيف:

ـ أعلم أن ضمّ جربة لن يعزّز المملكة الطرابلسية أكثر مما أعزّها الله بنور حكمتكم، ولكن في هذا العمل وحده يكمن إنقاذ الأهالي من المذابح وخلاص جربة من الضياع.

انكفأ الباشا على مسبحته فتابعه الأمير بعينين متوسلتين.

تكلّم الباشا أخيراً فقال:

ـ يؤسفني غاية الأسف ألاّ أستطيع القيام بهذه المغامرة!

حشرج الضيف بصوت كالفحيح:

ـ لماذا؟

أجاب القرمانلي في الحال:

ـ لأني لا أريد أن أخالف ناموساً أقرّه الجنّ قبل أن يعمل به الأنس!

استنكر الضيف:

ـ الجنّ؟

ـ بلى، بلى. حتّى الجنّ يضعون تحريماً صارماً على نقل كنوز أرض مّا إلى ديار أرض أخرى. هل تدري لماذا؟

لم ينتظر جواب الضيف. أضاف:

ـ لأن الحدود التي نراها اليوم بين الأوطان لم يصنعها لا الجنّ ولا الإنس. ولهذا السبب لا يملكون الحقّ في تبديلها، أو الاستيلاء عليها، أو تهجير أهلها..

حدّق الضيف في عيني الباشا بذهول ظانّاً أنه يمزح. وعندما أيقن أن القرمانلي يعني ما يقول ابتسم بمرارة. قال:

ـ ولكن يا سعادة الباشا الأوطان كانت تُضمّ إلى الأوطان، والأراضي تُدمج بالأراضي منذ خلق الله الدنيا. والغزوات ما زالت هي شريعة الخليقة إلى يومنا هذا!

أطلق الباشا ضحكة تهكّم. قال ببرود استفزّ الضيف:

ـ ولكنّك على ما يبدو لم تتأمّل النتيجة التي انتهت إليها هذه المغامرات كما يجب أن تتأمّل. وإلا لاستطعت أن تكتشف أن كل من استولى على أرض أغراب يوماً فلا بدّ أن يفقدها يوماً لنجد أن هذه الرقعة قد عادت إلى صاحبها الفعلي في نهاية المطاف. الاستيلاء على الأوطان كالاستيلاء على الدنيا عمل جنونيّ. وإذا كنت لا تصدّقني فأخبرني عما انتهى إليه الإسكندر الأكبر، أو يوليوس قيصر، أو هولاكو، أو... الأمثلة لن تنتهي، والعمر حلم صغير!

حاول الأمير أن ينقذ ما أمكن إنقاذه:

ـ ولكن جربة جزيرة صغيرة، ومقارنتها..

قاطعه الباشا ببرود:

ـ ما يصدق على أراضي الإمبراطوريات الشاسعة يصدق على أصغر الأركان. الخفاء الذي لا نعلم له سرّاً هو الذي وضع الحدود منذ بداية الخليقة، ولا نملك إلا إكبار هذه المشيئة لأن الاستهانة بها خطيئة!

لاذ الأمير بالصمت في حين جادل الباشا الوحي القائل بأن النّداء ما هو إلاّ الحرية التي لا سبيل إليها!

4

في خلوة الخباء لم تعد له تسلية سوى لعبة الأسئلة: و«هل يعقل أن يكون هذا هو كل شيء؟» كانت آخر هذه الأسئلة.

فقد استعاد القرمانلي سيرة القرمانلي منذ الطفولة باحثاً عن الغاية في الأحداث الجسيمة التي عاشها، وفي الأحلام الجنونية التي حقّقها، دون أن يفلح في الفوز بالوسوسة التي صارت له طوال هذا الزمان بلبالاً أطلق عليه اسم «النداء» دون أن يفهم سليقة هذا النداء. وها هو رسول صغير كالصداع يفسد كل شيء فجأة ليتحوّل إلى بعبع بسبب طول النَّفس. يتحوّل بعبعاً لأنه هو الذي أوجد لعنة اسمها العماء. فهل هذه هي آيات الوهن؟ هل هذه هي علامات الشيخوخة؟ بل وما معنى شيخوخة؟ أهي تضعضع البدن؟ أهي خيانة الجسد الفاني للجوهر الخالد؟ أهي بداية النهاية لذلك العهد الموقّع بين الخصمين الأبديين (الروح والجسد)؟ هل آن الأوان لذهاب

الروح بموجب نهاية هذا الميثاق في حال سبيلها إلى ديار المجهول، أو لملكوت الربّ، وذهاب البدن إلى الأرض؟ ألا تحيا الروح في الله لأن لا حياة لجزء إلا بالكلّ؟ ألا يُبعث الجسد في مملكة الطبيعة حيّاً لأن البرهان في حبّة الشعير التي نحيا بها فلا تموت بدفنها في بطوننا، ولكنها تحيا فينا؟ فلماذا نخاف الشيخوخة إذاً؟ بل لماذا نخاف الموت إذاً؟

أقبل عليه «مسّي» ليحدّثه عن الكارثة التي انتهت إليها حملة الأمير أحمد بن موسى. قال إن هذا الشقيّ لم يقتنع بوصيّة الباشا فذهب إلى قبائل الحدود من النوائل وعكّارة وورغمّة يشتري الذمم بالأموال ويحرّض القوم على غزو الجزيرة للإطاحة بزعيمها الجديد موسى بن صالح، الذي نصّبه البلاط التونسي أميراً على جربة بدل سلفه القتيل. وقد أفلح الأمير أحمد في الاستيلاء على الجزيرة بالفعل بعد معركة ضارية فرّ فيها الشيخ موسى إلى صفاقس لطلب النجدة.

ولكن الأمير أحمد لم يستمتع بثمار نصره طويلاً. لأن الباشا علي بن حسين باغت أعوانه بجيش عرمرم فأحدث في أنصاره مذبحة لم تبقِ منهم أحداً. ليس هذا فحسب، ولكن قائد الجيش التونسي مثّل بجثثهم، بل وصنع من جماجمهم هرماً فظيعاً أقامه إلى جوار الهرم الذي شُيّد عام 1560م من جماجم الغزاة الأسبان!

استمع الباشا غائباً. في النهاية علّق قائلاً:

ـ الناس لا يريدون أنّ يعترفوا بأن الحدود ليست حدوداً، ولكنها برزخ!

تنهّد بإعياء قبل أن يضيف:

ـ لا جدوى من الغزو، لأن بالغزو نتخذ من الله الذي أقام الحدود خصماً. لهذا السبب كان الموت ثمناً لاجتياز الحدّ دائماً!

5

تونس. سيدي بو سعيد. البلاط الصيفي. 1742م.

وراء الجدران الناصعة الشبيهة في بياضها بأبنية الأضرحة، المقامة فوق مرتفعات سيدي بوسعيد المشرفة على البحر، جلس عليّ باشا بن حسين ليستقبل في ذلك اليوم الربيعي العاري من السحب رسول سيدي إبراهيم داي الجزائر. فوق رأسه المتوّج بعمامة الحرير، المرصّعة عند الجبين بياقوتة كبيرة نادرة، وقف خادم زنجي مفتول العضلات، عاري المنكبين، ممسكاً بمروحة فارهة ملفّقة من ريش النعام، طفق يهزّها فوق رأس الباشا في إيقاعٍ كسول كأنه يهشّ بها الذباب اللجوج بدل استفزاز الأهوية لتخفيف وطأة الحرّ، في اللحظة التي أعلن فيها الحاجب وصول الرسول.

كان رجلاً في العقد الرابع، مدبّب الأنف، مزموم الشفتين، أسمر البشرة، متوّج الشفتين بشاربين كثّين، يلفّ رأسه بعمامة هزيلة، ولكنها أنيقة، موسومة بخطوط حمر، يتدلّى طرفها ليغطّي صدره. انحنى ليحيي الباشا ثم تراجع خطوات قبل أن يجلس على أريكة قبالة مضيفه الجليل. تبادل مع الباشا نظرة فقرأ في عينيه استفهاماً أجاب عليه في الحال:

ـ سيدي إبراهيم لم يحمّلني لسعادتكم مكتوباً في اليد، ولكنه

حمّلني رسالة على طرف اللسان لعلّةٍ لن تخفى على فراسة سعادتكم!

ابتسم باشا عليّ. قال بصوت بحيح كأنه يختنق:

ـ سيدي إبراهيم لم يخطىء. تحرير القراطيس عمل لا يخلو من خطورة. لأن المدوّنة وثيقة ترثنا لتشهد على حماقاتنا من بعدنا. أمّا كلم اللسان فأصوات تتناقلها الرياح!

توقف ثم أكمل سريعاً كأنه يخشى تدخّلاً قد يبلبل تسلسل أفكاره:

ـ فعجّل لإسماعي صوته الفاني الذي ستمحوه الأيام فلن يسمعه بعدنا أحد!

تململ الرسول في جلسته. ألقى بطرف عمامته إلى الوراء. قال:

ـ المسألة تتعلق بالأمير محمد نجل الدّاي الذي سلف، وصهر مولاي سيدي إبراهيم..

قاطعه علي باشا:

ـ أعرف هذا الوغد! لقد مرّ بدياري في طريقه إلى الحجاز لأداء الفريضة فنهب الأموال واستباح الحريم وهو في طريقه إلى بيت الله للتكفير عن سيئات لن تغفر له يقيناً!

قال الرسول بلهجة غامضة:

ـ السيئات لن تُغفر له يقيناً، ولكن سيدي إبراهيم يريدك أنت أن تغفرها له على طريقتك!

في مقلة علي باشا لمع وميض. تساءل:

ـ لن أتردد في تولي هذا الغفران فيما لو أذن لي سيدي إبراهيم.

ـ سيدي إبراهيم لا يأذن لسعادة الباشا وحسب، ولكنه يرجوه، لأن هذا الزنديق لم تكفه المنكرات التي دنّس بها الحرمات، ولكنه يدبّر الدسائس في الخفاء للاستيلاء على العرش!

ـ هل قلت الاستيلاء على العرش؟

الرسول لم يجب عن السؤال لأنّ حماسته جعلت أنفاسه تتلاحق كأنه أحد المصابين بداء الربو. أضاف لاهثاً:

ـ مولاي إبراهيم لا يريده أن يعود من هذه الرحلة، وقد أراد أن يذكّر سيادتكم بأن الزنديق سوف يعسكر بطرابلس في طريق عودته من الأراضي المقدسة، ويقترح أن تتولّوا أمره هناك لتستردّوا الدَّين المستحقّ لكم على القرمانلي!

ازداد الوميض في عيني عليّ باشا. قال ساخراً:

ـ أجل. القرمانلي مدين لي ببعض الدقيق! والدماء التي أراقتها شراذم قبائله في جربة لم تجفّ بعد!

أطلق ضحكة مجلجلة فتوقّف الخادم عن اللّهو بمروحته بين الأعالي والأسافل. أضاف عليّ باشا:

ـ سألقّن القرمانلي درساً، لأن ما سأفعله فرصة لإشعال فتنة!

6

بلغه نبأ اغتيال الأمير محمد العائد من الحجّ في اليوم نفسه الذي بلغه فيه نبأ اختطاف السفينة التابعة لبحريّة الإيالة من قبل سلطات نابولي، فما كان منه إلاّ أن أمر بالتحقيق في مصرع الأمير الجزائري،

وأصدر مرسوماً يقضي باعتقال قنصل نابولي بطرابلس وإيداعه السجن. وعندما أخبره رئيس البحرية بوجود سفينتين تابعتين لبحريّة نابولي راسيتين بالميناء أمر بالاستيلاء عليهما بعد أسر طاقميهما ومصادرة بضائعهما.

بعد أيام وصل رسول من باشا تونس وآخر من داي الجزائر يحملان رسالتين تحمّلانه مسؤولية اغتيال الأمير الجزائري، وتعلنان عليه الحرب!

اختلى بنفسه في الخباء وقام باستدعاء رئيس الشُّرَط. قال له إنه سيمهله يومين فقط للقبض على قاتل الأمير، فإذا أخفق فإنه سيقطع رأسه ليعلّقه على باب زنّاته!

في اليوم التالي عاد رئيس الشّرط حاملاً في عبّه للباشا بشارة تقول إنه استطاع أن يقبض على القاتل في اللحظة التي تأهّب فيها لعبور الحدود إلى تونس، فتساءل الباشا بذهول:

ـ هل قلت إن القاتل كان ينوي العبور إلى تونس؟

مسح رئيس الشُّرَط العرق عن جبينه ليقول:

ـ بلى، يا مولاي!

ـ عجباً!

لحظتها كشف رئيس الشرط للباشا سرّاً آخر لم يكن ليدري هو نفسه أنه سرّ:

ـ إنه تونسيّ يا مولاي!

ـ ماذا؟

ـ قاتل مأجور، يا مولاي، كان سبباً في هلاك خلق كثير!

ـ هل اعترف؟

ـ لقد اعترف باغتيال الأمير الجزائري مقابل أجر، كما اعترف باغتيال الشيخ سعيد حاكم جربة أيضاً!

سكت الباشا. تطلّع إلى البحر البعيد فرآه أكثر بُعْداً من النداء، أكثر بُعْداً من البُعْد. لأن ستور العتمة حجبته فلم يجد بدّاً من أن يراه كما رآه يوماً. يراه كما خزّنته ذاكرته يوماً فقال لنفسه إن العماء لا يستطيع أن ينتزع منّا كنوزنا ما لم ينل منّا القدر الذاكرة. حتى سلطان العماء يقف في وجوهنا عاجزاً ما لم نفقد الذاكرة. لأننا بالذاكرة نحن أحياء حتى لو فقدنا كنز البصر. ولكنّنا بفقدان الذاكرة نحن أموات حتى لو لم نفقد نعمة البصر!

بعد انصراف رئيس الشُّرَط أمر بإحضار رسولي تونس والجزائر.

وقفا في المدخل فخاطبهما دون أن يسمح لهما بالجلوس:

ـ أريدكما أن تبلّغا سيّديكما بأنهما إذا كانا يظنّان بأن مكيدتهما يمكن أن تنطلي على القرمانلي فهما قد أساءا بالقرمانلي الظنون! والبرهان الذي يدينهما في قبضتي! وإذا كانا يريدان التآزر لتحطيم أسطورة تقضّ مضاجعهما اسمها القرمانلي فليسا بحاجة لهذا، لأن البطولة تتخفّى في أنصال السيوف ولا تتخبّأ في مكائد النساء!

قبل أن يصرفهما أضاف:

ـ قولا لهما إني في انتظار جيشيهما. ولولا قناعتي بأن اجتياز الحدود عدوان على ناموس الخالق قبل أن يكون عدواناً على ناموس خليقة الخالق لخرجتُ إليهما بدل أن أنتظرهما!

استدعى الباشا بعدها مجلس الحرب للانعقاد استعداداً لردّ العدوان. ولكن الأيام كشفت له مرّة أخرى أن أولئك الذين يلجأون إلى الكيد هم أجبن خلق الله. فيكفي أن يروا خصماً مسلّحاً باليقظة ليرموا ما بأيديهم ويلوذوا بالفرار؛ لأن باشا تونس سرعان ما بعث برسول آخر رافعاً راية السلم مدعياً أن داي الجزائر خدعه، في حين استقبل الباشا رسول داي الجزائر الذي أفاد بأن مدبّر فصول المكيدة لم يكن سوى باشا تونس!

في تلك الأثناء كانت سلطات نابولي قد أوفدت مبعوثاً مخوّلاً بدفع التعويضات وتجديد المعاهدة، كأنّ الأقدار التي تستنزل على رؤوسنا البلايا دفعة واحدة تأبى إلا أن تجيرنا منها دفعة واحدة أيضاً.

7

طرابلس. خباء الخلوة. خريف 1745م.

في ذلك اليوم استخرج الباشا من خزنته المسدّس ذا الماسورة الذهبية الذي تلقّاه يوماً هديّة من الماركيز الفرنسي «دانتان».

تحسّسه بحنانٍ قبل أن يدسّه في جيبه ويضع يده في يد الغلام الذي اتخذه في الآونة الأخيرة دليلاً يقوده في تنقّلاته داخل السراي. قاده إلى الخباء. هناك جلس ليتنسّم أنفاس البحر بعد أن حرمه الظلام من رؤية جسد البحر. أرسل الغلام ليستدعي سليل التبنّي. وعندما أقبل قال له إنه لم يستدعه إلاّ ليزفّ له بشارة.

استفهم الابن بصوتٍ مسموع فقال الباشا:

ـ لقد اهتديت إلى دواء لداء الصداع!

هتف الابن:

ـ حقّاً؟

ابتسم الباشا بغموض. قال وهو يتطلّع بعينيه الخاويتين إلى البُعْد:

ـ ووجدت إلى جانب ذلك ترياقاً للعلّة الأسوأ!

هتف الابن:

ـ للعماء؟

أجاب الباشا بابتسامة تتسع، ولكنها تزداد غموضاً:

ـ للعماء!

ثم استدرك:

ـ ولكنّي رأيت أن أستوصيك قبل استخدام الترياق!

تابع الابن البسمة الخفيّة على شفتي الأب. تكلّم الباشا:

ـ أردتك أيضاً أن تعينني في تناول الترياق فهل تعدني؟

هتف الابن:

ـ وهل يتطلّب عوني وعداً يا أبي؟

ـ أنت تعلم أن مذاق الترياق دائماً مرّ إذا كان يحمل للمريض شفاءً. فهل تعدني؟

تمتم الابن بعد تردّد:

ـ أعدك يا أبي!

سكت الباشا. أضاف دون أن يضع حدّاً لبسمته الغامضة:

ـ أريدك أن تعدني أيضاً أن تختفي من هذه الديار عندما استشفي!

ـ ماذا؟

ـ لا أريدك بعد شفائي أن تبقى بعدي في هذه الجدران يوماً واحداً، لأنّك إن لم تذهب في الحال فسوف يقتلونك!

شَحُبَ وجه الابن. بلع ريقه بعسر. حاول أن يتكلّم، ولكن عضلة اللسان خذلته. أضاف الباشا:

ـ أنت عدوّ الجميع هنا لأنك ابني الحقيقي لا المزوّر. ابن الروح لا ابن الجسد. اذهب إلى صحرائك، لأن الإنسان لا بدّ أن يعود إلى المكان الذي خرج منه يوماً مهما طال به الترحال. فإذا حلّت بك بليّة أيّاً كانت هذه البليّة فليس عليك أن تستحي من أن تلجأ إلى قبيلة المحاميد، واعلم أني أوصيت شيخهم برغم يقيني بأنهم سوف يقومون بالواجب دون حاجة إلى وصيّة!

ـ أبي!

بدأ الابن يبكي. ولكن الباشا لم يرحم دموعه:

ـ لقد قررت أن أستجيب لنداء قديم صاحبني منذ طفولتي، ولم أكن أدري أن هذا النداء لم يكن سوى ما يسمّيه الناس موتاً وأسمّيه أنا شفاءً!

توسّل الابن الذي علا صوت نحيبه:

ـ لا تفعل يا أبي! لا تفعل!

انتهره الباشا:

ـ أنت رجل. بل أنت بطل. والأبطال لا يبكون بسبب شفاء آبائهم!

ـ أبي لا ترحل!

استخرج الباشا مسدّسه الذهبي من جيبه. هذا المسدّس الذي قال للماركيز الفرنسي «دانتان» يوم تلقّاه منه هديّة بأنه يريده أن يحميه من نفسه لا من أعدائه. وضع المسدّس الذهبي في كفّ «مسّي». خاطبه بوعيد مكتوم:

ـ الآن جاء دورك لتفي بوعدك!

نظر الابن إلى المسدس بعينيه الدامعتين بفزع من تلقّى بين يديه أفعى. صرخ:

ـ لا!

فصرخ الباشا في وجهه:

ـ أطلق الآن!

ـ لا!

ـ أنت جبان! أنت تريد أن يشمت بي الأعداء. أنت تريدني أن أمشي بين الناس ذليلاً! أنت لا تريد لي الشفاء!

انتحب الابن، ولكنه رفع المسدّس في وجه الأب. ارتجّ بجسده كلّه فارتعشت يداه. انتهره الباشا:

ـ ثبّت يديك جيداً إذا كنت لا تريدني أن أتألّم في رحلة شفائي!

في زاوية الخباء كان الغلام يرتجف ويخفي وجهه بيديه. أمام الباشا جاهد ابن التبنّي في تخليص أبيه. رفع عينيه الحمراوين نحو الباشا فتزعزع بعنف. صرخ فيه الباشا:

ـ أغمض عينيك واضغط على الزناد!

أغمض الابن عينيه، ولكنه أخفق في الضغط على الزناد. في غضبة مفاجئة انتزع القرمانلي المسدس الذهبي من كفّ الابن وهو يردّد:

- إذا تناولت سلاحاً فاستخدمه، وإذا استخدمته فيجب أن تحسن استخدامه. هذه حكمة أمّك الصحراء!

كانت تلك آخر عبارة تفوّه بها أمير المؤمنين أحمد الأكبر الملقّب بالقرمانلي قبل أن يطلق على نفسه من فوهة مسدّسه الذهبي ذلك العيار الناري الذي حقّق له الشفاء من داء اسمه العماء، ومن وباء اسمه الدنيا!

طرابلس (ليبيا)

غولديفيل (الريف السويسري)

2006

مؤلفات إبراهيم الكوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م.

2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983م.

3 ـ شجرة الرتم (قصص) 1986م.

ـ رباعية الخسوف 1989م.

4 ـ البئر (رواية).

5 ـ الواحة (رواية).

6 ـ أخبار الطوفان الثاني (رواية).

7 ـ نداء الوقواق (رواية).

8 ـ التبر (رواية) 1990م.

9 ـ نزيف الحجر (رواية) 1990م.

10 ـ القفص (قصص) 1990م.

11 ـ المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م.

12 ـ المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م.

13 ـ ديوان النثر البرّي (قصص) 1991م.

14 ـ وطن الرؤى السماويّة (قصص) 1991م.

15 ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م.

16 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994م.

17 ـ الفم (رواية) 1994م.

18 ـ السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م.

19 ـ السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م.

20 ـ فتنة الزؤان (رواية) 1995م.

21 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997م.

22 ـ واو الصغرى (رواية) 1997م.

23 ـ عشب الليل (رواية) 1997م.

24 ـ الدمية (رواية) 1998م.

25 ـ صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م.

26 ـ الفزاعة (رواية) 1998م.

27 ـ الناموس (الجزء الأول) 1998م.

28 ـ في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م.

29 ـ سأسِرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م.

30 ـ أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م.

31 ـ سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلْبال، 1999م.

32 ـ سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلَّب، 1999م.

33 ـ وصايا الزمان 1999م.

34 ـ نصوص الخلق 1999م.

35 ـ ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م.

36 ـ الدنيا أيام ثلاثة (رواية) 2000مم.

37 ـ نزيف الروح (نصوص) 2000م.

38 ـ أبيات (نصوص) 2000م.

39 ـ بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م.

40 ـ رسالة الروح.

41 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 1 أوطان الأرباب 2001م.

42 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 2 أرباب الأوطان 2001م.

43 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 3 أرباب الأوطان 2001م.

44 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي).

45 ـ بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء 5

46 ـ منازل الحقيقة 2003م.

47 ـ أسطورة حب إلى سويسرا 2003م.

48 ـ لحون في مديح مولانا الماء 2002م.

49 ـ البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م.

50 ـ أنوبيس (رواية) 2002م.

51 ـ الصحف الأولى (أساطير ومتون 2004م).

52 ـ مراثي أوليس (رواية 2004م).

53 ـ صحف إبراهيم (متون 2005م).

54 ـ المحدود واللامحدود (متون 2002م).

55 ـ ملحمة المفاهيم (موسوعة البيان) ج6، 2005م .

56 ـ ملكوت طفلة الربّ (رواية) 2005.

57 ـ لون اللعنة (رواية) 2005م.

58 ـ هكذا تأَمَّلَتْ الكاهنة ميم (متون) 2006م.

59 ـ ملحمة المفاهيم ج3، (موسوعة البيان) ج7، (2006م).

60 ـ نداء ما كان بعيداً (رواية) 2006م.

مؤلفات إبراهيم الكوني النظرية

61 ـ نقد ندوة الفكر الثوري 1970م.

62 ـ ثورات الصحراء الكبرى 1970م.

63 ـ ملاحظات على جبين الغربة 1974م.

الفهرس

CALLING WHAT IS FAR AWAY

رواية
NOVEL

نداءُ مَا كانَ بَعيداً

■ **إبراهيم الكوني**

- من مواليد الصحراء الكبرى (ليبيا) ، 1948م.
- درس الآداب في معهد غوركي للآداب بموسكو .
- عمل بالصحافة في موسكو ووارسو .
- يقيم منذ بداية تسعينات القرن الماضي في سويسرا .
- أصدر حتّى الآن ستّين عملاً روائيّاً وفلسفيّاً .
- ترجمت أعماله إلى أكثر من أربعين لغة .

■ ***فازت أعماله الروائيّة بالجوائز التالية :***

- جائزة الدولة السويسريّة ، على رواية « نزيف الحجر » ، 1995م.
- جائزة الدولة في ليبيا ، على مجمل الأعمال ، 1996م.
- جائزة اللجنة اليابانيّة للترجمة ، على رواية « التبر » ، 1997م.
- جائزة الدولة السويسريّة ، على رواية « المجوس » ، 2001م.
- جائزة لجنة التضامن الفرنسيّة مع الشعوب الأجنبيّة ، على رواية « واو الصغرى » ، 2002م.
- جائزة الدولة السويسريّة الاستثنائيّة الكبرى ، على مجمل الأعمال المترجمة إلى الألمانيّة ، 2005م.
- جائزة الرواية العربيّة (المغرب) ، 2005م.
- جائزة رواية الصحراء (جامعة سبها - ليبيا) ، 2005م.
- وسام الفروسيّة الفرنسيّ للفنون والآداب ، 2006م.

(ردمك) ISBN 9953-36-276-9

40 عاماً في خدمة الثقافة العربية
منشورات 2009
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨
http://www.airpbooks.com

ISBN 978-9953-36-276-9
9 789953 362762